

الْبَيْتُ وَالْبَيْتَانِ

فِي

تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ صَحِيحِ الشُّنَنِ

تَأَلَّفَ الْأَسْتَاذُ الذَّكُورُ

أَبِي سَهْلٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَعْرُوفِ

الْمَجْلَدُ الثَّالِثُ وَالثَلَاثُونَ

الْطُّورُ - الْوَاقِعَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْبَيْتِ وَالْبَيْتَانِ

فِي ٧

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ صَحِيحُ الشَّيْخِ

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman
Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

الكتاب : التدبر والبيان

في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYÂN
FI TAFSIR AL-QUR'ÂN BI ŞAIḤIḤI AS-SUNAN

Classification: Exegesis

التصنيف : تفسير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع الثانوي : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

مدمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطور

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة النبي ﷺ بالطور في المغرب

* عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بـ(الطور)»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث دليل على أن في وقت المغرب سعة، وأنه ليس بضيق... وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ في المغرب ﴿الْمَصَّ﴾^(٢) من حديث عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم عن زيد بن ثابت... وفي ذلك دليل على سعة وقت المغرب كما ذكرنا وروي عن النبي ﷺ أنه قرأ بـ: ﴿وَالْمَصَّ﴾ في المغرب، وأنه قرأ فيها بـ: ﴿حَمَّ﴾ الدخان^(٣) وأنه قرأ فيها بـ: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٤) وأنه قرأ فيها بـ: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾^(٥) وأنه قرأ فيها بـ(المعوذتين) وأنه قرأ فيها بـ(المرسلات)^(٦) وأنه قرأ فيها بقصار المفصل^(٧)، وهي آثار صحاح مشهورة، لم أر

(١) أخرجه: البخاري (٧٦٥/٣١٥/٢)، ومسلم (٣٣٨-٣٣٩/١)، وأبو داود (٥٠٨-٥٠٩/١)،

والنسائي (٩٨٦/٥٠٩/٢)، وابن ماجه (٨٣٢/٢٧٢/١).

(٢) أخرجه: أحمد (١٨٥/٥)، والبخاري (٧٦٤/٣١٣/٢)، وأبو داود (٨١٢/٥٠٩/١)، والنسائي (٥٠٩/٢)-

(٩٨٨/٥١٠). (٣) أخرجه: النسائي (٩٨٧/٥٠٩/٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٢٩٩/٣)، والبخاري (٧٠٥/٢٥٥/٢)، دون محل الشاهد والنسائي (٩٨٣/٥٠٨/٢)،

كلهم من حديث جابر بن عبد الله ؓ.

(٥) أخرجه: أحمد (٢٨٦/٤) الطيالسي رقم (٧٣٣)، من حديث البراء بن عازب ؓ، وأخرجه من حديث

عبد الله بن زيد الطبراني في الكبير كما في المجمع (١١٨/٢)، وقال: فيه جابر الجعفي وثقه شعبة وسفيان

وضعفه بقية الأئمة.

(٦) أخرجه: أحمد (٣٣٨/٦)، والبخاري (٧٦٣/٣١٣/٢)، ومسلم (٤٦٢/٣٣٨/١)، وأبو داود (٥٠٨/١)-

(٨١٠)، والترمذي (٣٠٨/١١٢/٢)، والنسائي (٩٨٥-٩٨٤/٥٠٨/٢)، وابن ماجه (٨٣١/٢٧٢/١).

(٧) أخرجه: أحمد (٢٢٩-٢٣٠/٢)، والنسائي (٩٨٢-٩٨١/٥٠٨-٥٠٧/٢)، وابن ماجه (٢٧١-٢٧٠/١)-

(٢٢٧)، مختصراً دون ذكر محل الشاهد وابن خزيمة (٥٢٠/٢٦١/١)، وابن حبان (١٤٥-١٤٦/١٤٣٧).

لذكرها وجهًا خشية الإطالة، وفي ذلك كله دليل على أن لا توقيت في القراءة في صلاة المغرب، وكذلك غيرها بدلائل يطول ذكرها، وأهل العلم يستحبون فيها قراءة السور القصار، ولعل ذلك أن يكون آخر الأمرين من رسول الله ﷺ، أو يكون إباحة وتخيراً منه ﷺ، فيكون دليل العلماء على استحباب ما استحبا من ذلك قوله ﷺ: «من أم الناس فليقصّر وليخفف»^(١)، والحمد لله الذي جعل في ديننا سعة ويسراً وتخفيفاً لا شريك له»^(٢).

قال ابن الملقن: «قراءته -عليه الصلاة والسلام- في المغرب بـ(الطور)، معناه في الركعتين الأوليين التي يجهر فيهما بالقراءة لا في الثالثة منها، والذي استقر عليه العمل عند الفقهاء تقصير القراءة فيها، وهذا الحديث يخالفه، فإن (الطور) من أوساط سور القراءة في الصلاة ومثلها مشروع في العصر والعشاء لا في المغرب، وكذلك ما ثبت في قراءته ﷺ في المغرب بـ(الأعراف)، فإما أن يحمل الحديثان على رجحان قراءتهما في المغرب ويقتضيان الاستحباب أو على بيان جوازهما والأفضل ما استقر عليه العمل من تقصير القراءة لكونهما غير متكرر قراءتهما، فيدلان على الجواز لا على رجحانها وفرق بين كون الشيء مستحباً وبين كون تركه مكروهاً، كيف وقراءته -عليه الصلاة والسلام- بالطور متقدمة، فإنه عقب غزوة بدر، وهي متقدمة، فإن ذلك كان في آخر السنة الثانية من الهجرة. قال الشيخ تقي الدين: «والصحيح عندنا أن ما صح من ذلك عن النبي ﷺ مما لم يكثر مواظبته عليه فهو جائز من غير كراهة لحديث جبير هذا وكحديث قراءة (الأعراف) فيها، وما صحت المواظبة عليه فهو في درجة الرجحان في الاستحباب، لا أن غيره مما لم يقرأه -عليه الصلاة والسلام- مكروه»^(٣).

قال ابن رجب: «وفيه دليل على أن النبي ﷺ كان يرفع صوته بالقراءة في صلاة الليل، والأحاديث المذكورة في الباب الماضي تدل على الجهر بالقراءة في المغرب، فإن عامة من روى عن النبي ﷺ القراءة في المغرب بسورة ذكر أنه سمعه

(١) أخرجه: أحمد (١١٨/٤)، والبخاري (٦١١٠/٦٣٣/١٠)، ومسلم (٤٦٦/٣٤٠/١)، والنسائي في الكبرى (٥٨٩١/٤٤٩/٣)، وابن ماجه (٩٨٤/٣١٥/١)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) التمهيد [فتح البر (٦٨١-٦٧٩/٤)].

(٣) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٢٠٤-٢٠٣/٣).

يقرأ بها، وفي ذلك دليل على الجهر، والجهر بالقراءة في المغرب إجماع من المسلمين رأياً وعملاً به لم يزل المسلمون يتداولونه بينهم من عهد نبيهم ﷺ حتى الآن^(١).

* عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «شكوت إلى رسول الله ﷺ أنني أشتكي، قال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة، فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ ب: ﴿وَالطُّورِ﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٌ»^(٢).

★ فوائد الحديث:

«أخرج البخاري هذا الحديث في عدة مواطن من صحيحه مسنداً، وعلقه في كتاب (الأذان) في بابين، وترجم له بقوله: باب القراءة في الفجر، وبقوله: باب الجهر بقراءة صلاة الفجر»^(٣).

قال الحافظ: «وليس فيه بيان أن الصلاة حيثئذ كانت الصبح ولكن تبين ذلك من رواية أخرى أوردها بعد ستة أبواب من طريق يحيى بن أبي زكريا الغساني عن هشام ابن عروة عن أبيه ولفظه: «فقال: إذا أقيمت الصلاة للصبح فطوفي»»^(٤).

قال الحافظ ابن رجب بعد ذكره لهذه الرواية: «وهذا يرد ما قاله ابن عبد البر^(٥) أن صلاة النبي ﷺ هذه كانت تطوعاً، ثم تردد هل كانت ليلاً أو نهاراً، وقال: «فيه دليل على الجهر في تطوع النهار، وهذا كله ليس بشيء»»^(٦).

قال الحافظ: «وأما ما أخرجه ابن خزيمة من طريق ابن وهب عن مالك عن ابن لهيعة جميعاً عن أبي الأسود في هذا الحديث قال فيه: «قالت: وهو يقرأ في العشاء الآخرة» فشاذاً، وأظن سياقه لفظ ابن لهيعة؛ لأن ابن وهب رواه في «الموطأ» عن مالك فلم يعين الصلاة كما رواه أصحاب مالك كلهم، أخرجه الدارقطني في

(١) فتح الباري (٧/ ٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٩٠ و٣١٩)، والبخاري (١/ ٧٣٣ و٤٦٤)، ومسلم (٢/ ٩٢٧ و١٢٧٦)، وأبو داود (٢/ ٤٤٣ و١٨٨٢)، والنسائي (٥/ ٢٤٥-٢٤٦ و٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٨٧ و٢٩٦١).

(٣) فتح الباري (٢/ ٣٢٠-٣٢١).

(٤) فتح الباري (٢/ ٣٢٢).

(٥) وكلامه في التمهيد. انظر فتح البر (٨/ ٤٩٨).

(٦) فتح الباري (٧/ ٥١).

«الموطآت» له من طرق كثيرة عن مالك، منها رواية ابن وهب المذكورة، وإذا تقرر ذلك فابن لهيعة، لا يحتج به إذا انفرد فكيف إذا خالف، وعرف بهذا اندفاع الاعتراض الذي حكاه ابن التين عن بعض المالكية حيث أنكر أن تكون الصلاة المذكورة صلاة الصبح فقال: ليس في الحديث بيانها، والأولى أن تحمل على النافلة؛ لأن الطواف يمتنع إذا كان الإمام في صلاة الفريضة، انتهى. وهو رد للحديث الصحيح بغير حجة، بل يستفاد من هذا الحديث جواز ما منعه، بل يستفاد من الحديث التفصيل فنقول: إن كان الطائف بحيث يمر بين يدي المصلين فيمتنع كما قال، وإلا فيجوز، وحال أم سلمة هو الثاني؛ لأنها طافت من وراء الصفوف»^(١).

* * *

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٢٢-٣٢٣).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالطُّورِ ① وَكُنْتَ مَسْطُورٌ ② فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④
 وَالسَّكْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ
 مِنْ دَافِعٍ ⑧﴾

★ غريب الآية:

الطور: الطور اسم للجبل الذي كلم الله عليه موسى ﷺ، وهو في الأصل:
 اسم لكل جبل بدليل تخصيصه في قوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾^(١).
 رق: الرقّ: ما يكتب فيه من كاغد أو جلد رقيق.
 المسجور: الموقد نارًا، من سجرت النار، أي: أوقدتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «تضمن هذا القسم خمسة أشياء، وهي مظاهر آياته وقدرته،
 وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته. فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه
 وكليمه موسى بن عمران، عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرفه هاهنا
 باللام، وعرفه في موضع آخر بالإضافة. فقال: ﴿وَطُورٍ سَيْنَاءَ﴾^(٢)، وهذا الجبل
 مظهر بركة الدنيا والآخرة، وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه..

الثاني: الكتاب المسطور في الرق المنشور، واختلف في هذا الكتاب، فقيل:
 هو اللوح المحفوظ، وهذا غلط؛ فإنه ليس برقّ، وقيل: هو الكتاب الذي تضمن
 أعمال بني آدم، وقال مقاتل: تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور. وهذا
 وإن كان أقوى وأصح من القول الأول، واختاره جماعة من المفسرين، ومنهم من
 لم يذكّر غيره؛ فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله، وأقسم الله به
 لعظمته وجلالته، وما تضمنه من آيات ربوبيته، وأدلة توحيده وهداية خلقه.

(١) المؤمنون: الآية (٢٠).

(٢) التين: الآية (٢).

ثم قيل : هو التوراة التي أنزل الله على موسى ، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور، فقال : هو التوراة، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق، إلا أن يقال : هي في رق السماء وأنزلت في ألواح . وقيل : هو القرآن ؛ ولعل هذا أرجح الأقوال ؛ لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة ، بأيدي سفرة كرام بررة ، فالصحف هي الرق ، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورًا ، وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب ، ويكون ذلك متضمنًا للنبوتين المعظمتين : نبوة موسى ، ونبوة محمد . وكثيرًا ما يقرن بينهما وبين محلهما ؛ كما في سورة (التين والزيتون) .

ثم أقسم بسيد البيوت ، وهو البيت المعمور . وفي وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوبًا مفروغًا منه . وفي وصفه بأنه منشور إيذان بالاعتناء به ، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور .

وأما البيت المعمور ، فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء ، الذي رفع للنبي ﷺ ليلة الإسراء ؛ يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم ، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض ، وقيل : هو البيت الحرام . ولا ريب أن كلاً منهما معمر : فهذا معمر بالملائكة وعبادتهم ، وهذا معمر بالطائفين والقائمين والركع والسجود ، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت .

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته ، وهما مظهر آياته ، وعجائب صنعته ، وهما : السقف المرفوع ، وهو السماء ؛ فإنها من أعظم آياته قدرًا ، وارتفاعًا ، وسعةً ، وسمكًا ، ولونًا ، وإشراقًا ، وهي محل ملائكته ، وهي سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار ، والسنين والشهور والأيام ، والصيف والشتاء والربيع والخريف . ومنها تنزل البركات ، وإليها تصعد الأرواح ، وأعمالها ، وكلماتها الطيبة .

والثاني : البحر المسجور ، وهو آية عظيمة من آياته ، وعجائبه لا يحصيها إلا الله . واختلف في هذا البحر : هل هو الذي فوق السموات ، أو البحر الذي نشاهده ؟ على قولين ؛ فقالت طائفة : هو البحر الذي عليه العرش ، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام . . والثاني : أنه بحر الأرض . واختلف في المسجور ، فقيل : المملوء ، هذا قول جميع أهل اللغة ، قال الفراء : المسجور في كلام العرب :

المملوء؛ يقال: سجرت الإناء: إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاورا أقلامها

وقال المبرد: المسجور: المملوء عند العرب، وأنشد للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة

يريد عينًا مملوءة ماءً، وكذا قال ابن عباس: المسجور: الممتلئ، وقال مجاهد: المسجور: الموقد. قال الليث: السجر: إيقادك في التنور، تسجره سجرًا، والسجر اسم الحطب، وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما، قال: البحر يسجر فيزداد في جهنم، وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال مسجور: قال الفراء: وهذا يرجع إلى القول الأول؛ لأنك تقول: سجرت التنور: إذا ملأته حطبًا. وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس: أن المسجور اليابس الذي قد نضب ماؤه وذهب، وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف. وهذا القول اختيار أبي العالية، قال أبو زيد: المسجور: المملوء، والمسجور: الذي ليس فيه شيء؛ جعله من الأضداد. وقد روى عن ابن عباس أن المسجور: المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه. والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض على الأرض فيغرقها؛ فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرًا للأرض فوقها؛ كما أن الهواء فوق الماء، ولكن أمسكه الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية؛ فإنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض، مع كون كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضي بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضي تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره. وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الإلهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم، هو كما ذكروا، ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير - وهو أحكم الحاكمين - غير معقولة؛ فإن العناية الإلهية تقضي حياته، وقدرته، ومشيئته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، وإحسانه إلى خلقه، وقيام الأفعال به. فإثبات العناية الإلهية مع نفي هذه الأمور ممتنع، وبالله التوفيق.

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد، وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْحَاؤُ سُجِرَتْ ۝١﴾^(١)، قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت نارًا، ومن قال: يبست وذهب ماؤها؛ فلا يناقض كونها نارًا موقدة، وكذا من قال: ملئت؛ فإنها تملأ نارًا.

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته، رأيت اللفظة تدل على ذلك كله؛ فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارًا، فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني، والله أعلم..

وأقسم سبحانه بهذه الأمور على المعاد والجزاء، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ مَأْلَمٌ مِنْ دَافِعٍ^(٨)، ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له. وهذا يتناول أمرين: أحدهما: أنه لا دافع لوقوعه، والثاني: أنه لا دافع له إذا وقع^(٩).

قال الشنقيطي: «هذه الأقسام التي أقسم الله بها تعالى في أول هذه السورة الكريمة أقسم ببعضها بخصوصه، وأقسم بجميعها في آية عامة لها ولغيرها.

أما الذي أقسم به منها إقسامًا خاصًا فهو الطور، والكتاب المسطور، والسقف المرفوع، والأظهر أن الطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وقد أقسم الله تعالى بالطور في قوله: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ۝١٠ وَطُورِ سِينِينَ ۝١١﴾^(١٢).

والأظهر أن الكتاب المسطور هو القرآن العظيم، وقد أكثر الله من الإقسام به في كتابه كقوله تعالى: ﴿حَمْدَ ۝١٢ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ۝١٣﴾^(١٤)، وقوله تعالى: ﴿يَسَّ ۝١٤ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝١٥﴾^(١٥)، وقيل: هو كتاب الأعمال، وقيل غير ذلك، والسقف المرفوع: هو السماء، وقد أقسم الله بها في كتابه في آيات متعددة؛ كقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝١٦﴾^(١٦)، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١٧﴾^(١٧)، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا

(١) التكويد: الآية (٦).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٥٩-١٦٣).

(٣) التين: الآيتان (٢١ و٢٢).

(٤) الزخرف: الآيتان (٢١ و٢٢).

(٥) يس: الآيتان (٢١ و٢٢).

(٦) الذاريات: الآية (٧).

(٧) البروج: الآية (١).

بَنَّا ﴿٥﴾ ﴿١﴾، والرَّق، بفتح الراء: كل ما يكتب فيه من صحيفة وغيرها، وقيل: هو الجلد المرقق ليكتب فيه. وقوله: ﴿مَنْشُورٌ﴾، أي: مبسوط، ومنه قوله: ﴿صَكَبْنَا يَلْقَهُ مَنْشُورًا﴾ ﴿٢﴾، وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْفَىٰ صُحُفًا مَّنْشُورَةً﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٣﴾.

والبيت المعمور: هو البيت المعروف في السماء المسمى بالضراح، بضم الضاد، وقيل فيه: معمر؛ لكثرة ما يغشاها من الملائكة المتعبدین، فقد جاء الحديث أنه «يزوره كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه بعدها» ﴿٤﴾.

وقوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ ﴿١﴾ فيه وجهان من التفسير للعلماء. أحدهما: أن المسجور هو الموقد نارًا. قالوا: وسيضطرم البحر يوم القيامة نارًا، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ﴿٥﴾.

الوجه الثاني: هو أن المسجور بمعنى المملوء؛ لأنه مملوء ماء، ومن إطلاق المسجور على المملوء قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاورا أقلامها

فقوله: مسجورة، أي: عينا مملوءة ماء، وقول النمر بن تولب العكلي:

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والساسما

وهذان الوجهان المذكوران في معنى المسجور هما أيضًا في قوله: ﴿وَإِذَا أَلْبَحَارُ سِجَرَتْ﴾ ﴿١﴾ ﴿٦﴾، وأما الآية العامة التي أقسم فيها تعالى بما يشمل جميع هذه الأقسام وغيرها؛ فهي قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٧﴾؛ لأن الإقسام في هذه الآية عامة في كل شيء ﴿٨﴾.

قال السعدي: «هذه الأشياء التي أقسم الله بها مما يدل على أنها من آيات الله، وأدلة توحيده، وبراهين قدرته وبعثه الأموات» ﴿٩﴾.

(١) الشمس: الآية (٥).

(٢) المدثر: الآية (٥٢).

(٣) سيأتي تخريجه قريباً.

(٤) الإسراء: الآية (١٣).

(٥) غافر: الآية (٧٢).

(٦) التكوين: الآية (٦).

(٧) الحاقة: الآيتان (٣٨ و٣٩).

(٨) أضواء البيان (٧/ ٦٨٣-٦٨٤).

(٩) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨٦).

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿عَذَابَ رَبِّكَ﴾ فيه لطيفة عزيزة، وهي أنه تعالى لو قال: إن عذاب الله لواقع، و(الله) اسم منبئ عن العظمة والهيبة؛ كان يخاف المؤمن، بل النبي ﷺ من أن يلحقه ذلك؛ لكونه تعالى مستغنياً عن العالم بأسره، فضلاً عن واحد فيه، فأمنه بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾؛ فإنه حين يسمع لفظ (الرب) يأمن»^(١).

وقال: «قوله: ﴿لَوْعٌ﴾ فيه إشارة إلى الشدة؛ فإن الواقع والوقوع من باب واحد، فالواقع أدل على الشدة من الكائن. ثم قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾، والبحث فيه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢)، وقد ذكرنا أن قوله: ﴿وَالْطُّورِ﴾... ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾... ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾، فيه دلالة على عدم الدافع؛ فإن من يدفع عن نفسه عذاباً قد يدفع بالتحصن بقلل الجبال، ولجج البحار، ولا ينفع ذلك، بل الوصول إلى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة المبينة لمعنى كون القرآن كلام الله مكتوباً في المصحف ومسطوراً فيه

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده: غلبت -أو قال- سبقت رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش»^(٤).

★ فوائد الحديث:

ترجم البخاري -رحمه الله تعالى- لهذا الحديث بقوله: «باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ في لوحٍ مَحْفُوظٍ»^(٥) ﴿وَالْطُّورِ﴾ وكتب مسطوراً قال قتادة: مكتوب، يسطرون: يخطون في أم الكتاب، جملة الكتاب وأصله: ما يلفظ من قول، ما يتكلم من شيء إلا كتب عليه، وقال ابن عباس: يكتب الخير والشر،

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/٢٤٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/٢٥٨-٣١٣-٣٥٨)، والبخاري (١٣/٦٣٩-٧٥٥٣-٧٥٥٤)، ومسلم (٤/٧٠١٢-٧٠١٢).

(٥) ١٢/٨٠١٧، والترمذي (٥/٥١٣/٣٥٤٣)، وابن ماجه (١/٦٧/١٨٩).

(٥) البروج: الآيتان (٢٢ و٢١).

يحرفون: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل ولكنهم يحرفونه: يتأولونه عن غير تأويله، دراستهم: تلاوتهم، واعية: حافظة، وتعيها: تحفظها، وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به: يعني أهل مكة، ومن بلغ هذا القرآن فهو له نذير^(١).

قال الغنيمان: «الكتابة هي إثبات الكلام المكتوب في محل الكتابة، والله سبحانه كتب ذلك الكتاب في شيء ثبت فيه الكتابة، وثبت الكلام في ذلك الشيء بالكتابة، سواء كان اللوح المحفوظ أو غيره، فالمقصود إثبات الكتابة للكلام، وأن كون الكلام في الكتاب ليس ككون الماء في الإناء، والعرض بالجوهر، والرجل في البيت، بل هو قسم غير هذا، وهو معقول يدركه الناس ويفهمون معنى كون الكلام في الكتاب، وهذا الحديث تقدم شرحه، وغرضه من الطريق الأخرى تصريح أبي رافع وقتادة بالتحديث، فيزول احتمال التدليس. وقوله: «قبل أن يخلق الخلق» لا يعارض قوله في الرواية قبلها: «لما قضى»؛ لأنه يجوز أن يراد بالخلق التقدير والفراغ منه، وهو غير الإيجاد، ومعلوم أن خلق الله تعالى لا نهاية له. وتبين أن مقصود البخاري رحمه الله بهذا الباب أن يبين معنى كون القرآن في المصحف أنه مكتوب مسطور فيه، مثل ما أن اسم (الله) في المصحف، فإن القرآن كلام الله، والكلام يقوم بالمتكلم صفة له.

قال شيخ الإسلام: ليس معنى قول السلف: القرآن كلام الله منه بدأ ومنه خرج، أنه فارق ذاته وحل في غيره، فإن كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفارق ذاته ويحل بغيره، فكيف كلام الله؟ قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(٢). فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم^(٣).

فالقرآن كلام الله، ويحفظ في القلوب كما يحفظ الكلام، ومذكور بالألسنة كما يذكر الكلام بالألسنة، وهو مكتوب في المصاحف والأوراق كما أن الكلام يكتب في الكتاب والورق. والكلام هو مجموع اللفظ والمعنى، فاللفظ يطابق المعنى ويدل عليه، ولا يجوز أن يقال: إن القرآن محفوظ كما أن الله معلوم، وهو متلو كما

(١) فتح الباري (١٣/٦٣٨-٦٣٩).

(٢) الكهف: الآية (٥).

(٣) الفتاوى (١٢/٥١٧-٥١٨).

أن الله مذكور، ومكتوب كما أن الرسول مكتوب، فهذا خطأ وضلال. فليس وجود الأعيان القائمة بأنفسها كوجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها، والفرق ظاهر بين قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ نَجِيدٌ﴾ (١) في لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٣) في كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٤﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ﴾ (٥)؛ فإن القرآن لم ينزل على نبي قبل محمد ﷺ، وإنما الذي في زبر الأولين ذكره والخبر عنه، كما أن محمداً ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل. فالله ورسوله معلوم بالقلوب مذكور بالألْسنة مكتوب في المصحف، كما أن القرآن معلوم لأهل الكتاب قبلنا مكتوب عندهم وذلك ذكره والخبر عنه. ولكن الذي في المصحف عندنا هو نفس القرآن، ولهذا يجب أن يفرق بين قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٦) وبين قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ (٧) فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿٨﴾ فإن كون الأعمال في الزبر مثل كون القرآن والرسول محمد ﷺ في زبر الأولين. وأما الكتاب المسطور في الرق المنشور فهو كما يكتب الكلام نفسه في الكتاب. فأين هذا من هذا؟

وذلك أن كل شيء له في الوجود أربع مراتب: وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في الكتاب، والكلام وجود في اللسان وليس بينه وبين المحل المكتوب فيه مرتبة أخرى بل نفس الكلام يثبت في الكتاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٩) في كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿١٠﴾ وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ نَجِيدٌ﴾ (١١) في لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ﴿١٢﴾ وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ (١٣) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿١٤﴾ وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنَذْكُرُ﴾ (١٥) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٦﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٧﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٨﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ (١٩). وليس في المصحف من الأعيان إلا ذكرها ووصفها والخبر عنها، والكلام في الكتاب ليس هو فيه كما تكون الصفة بالموصوف والعرض بالجواهر والجسم بالمكان وما هو

(١) البروج: الآيتان (٢١ و ٢٢).

(٣) الشعراء: الآية (١٩٦).

(٥) الواقعة: الآيتان (٧٧ و ٧٨).

(٧) البينة: الآيتان (٣ و ٢).

(٩) الأنعام: الآية (٧).

(٢) الواقعة: الآيتان (٧٧ و ٧٨).

(٤) القمر: الآية (٥٢).

(٦) البروج: الآيتان (٢١ و ٢٢).

(٨) عبس: الآيات (١١-١٤).

بمنزلة الدليل على المدلول كالمخلوق الدال على الخالق، بل هو قسم آخر معقول بنفسه، والناس بفطرهم يفهمون معنى كون كلام الله في المصحف، وأن كلامه الذي قام به لم يفارق ذاته ويحل في غيره، ويعلمون أن الذي في المصحف ليس مجرد دليل على معنى قائم في نفس الله، بل الذي في المصحف كلام الله مطابق للفظه، ولفظه مطابق لمعناه، ومعناه مطابق لما في الخارج، وهو كلام الله حقيقة لا مجازاً. وهذه مسألة عظيمة ضل فيها طوائف من الناس، والبخاري رحمه الله ممن ابتلي فيها بمن لم يفهم الحق فيها، فارتكب شططاً، ونسب البخاري فيها إلى الباطل، ولهذا أكثر من البيان لها كما سبق، ومنشأ الاختلاف فيها يعود إلى أصلين: أحدهما: مسألة تكلم الله تعالى بالقرآن وغيره.

والثاني: تكلم العباد بكلام الله.

وقد حاولت بيان الحق في كلا المسألتين فيما سبق، قدر ما أوتيت من بيان، والله المستعان^(١).

وقوله: «كتب كتاباً عنده»: قال الغنيمة: «يجوز أن يكون المعنى: أمر القلم أن يكتب، كما قال الحافظ. ويجوز أن يكون على ظاهره بأن كتب تعالى بدون واسطة، ويجوز أن يكون قال: «كن» فكانت الكتابة، ولا محذور في ذلك كله. وقد ثبت في سنن الترمذي وابن ماجه في هذا الحديث: «أن الله عز وجل لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي»^(٢). ولا يصح أن يراد بالكتابة: الحكم الذي قضاه، نظير قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾^(٣) لقوله: «فهو عنده فوق العرش» وكتابته تعالى ذلك لتأكيد هذا الحكم، وإخبار عباده به حتى يؤمنوا به ويعملوا على مقتضاه، أو لحكمة الله أعلم بها، وليس خوفاً من النسيان، تعالى الله^(٤).

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/٥٤٥-٥٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٢٤٢)، والبخاري (٦/٣٥٢/٣١٩٤)، ومسلم (٤/٢١٠٧/٢٧٥١)، والترمذي (٥/٣٥٤٣/٥١٣)، والنسائي (٤/٤١٧/٤٧٥٠)، وابن ماجه (١/٦٧/١٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) المجادلة: الآية (٢١).

(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/٢٥٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان موضع البيت المعمور.

وأنه بيت للعبادة في السماء السابعة

* عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «... فأتينا السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ مرحبًا به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه فقال: مرحبًا بك من ابن ونبي، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم...»^(١).

* عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... ثم عرج إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه...»^(٢).

* فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد بيان موضع البيت المعمور، وأنه بيت للعبادة في السماء؛ قال السمعاني: «القول المعروف أنه بيت في السماء، قاله ابن عباس وعامة المفسرين، وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه»^(٣).

وفيهما بيان أنه في السماء السابعة، وقد اختلف في ذلك أيضًا على أقوال، هذا أصحها وأسندها. قال السمعاني: «وعن علي رضي الله عنه أنه في السماء السادسة، وعن الربيع بن أنس وغيره أنه في السماء الدنيا بحيال الكعبة، لو سقط سقط عليه... وعن بعضهم أنه في السماء الرابعة»^(٤).

(١) أخرجه: أحمد (٢٠٧-٢٠٨-٢١٠)، والبخاري (٣٧١/٦)، ومسلم (١٤٥-١٤٦/١٦٢) في حديث طويل، والترمذي (٤١٢-٤١٣/٣٣٤٦) مختصرًا ليس فيه ذكر محل الشاهد، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢٣٧-٢٤٠/٤٤٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١٤٨-١٤٩)، ومسلم (١٤٥-١٤٦/٢٥٩) [١٦٢].

(٣) تفسير القرآن (٢٦٧/٥)

(٤) تفسير القرآن (٢٦٧/٥)

قال ابن أبي جمرة: «قوله ﷺ: «رفع لي البيت المعمور» معناه: أنه أري له، وقد يحتمل أن يكون المراد المرفوع والرؤية معاً؛ لأنه قد يكون بينه وبين البيت عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فرفع إليه، وأمد في بصره وبصيرته حتى رآه، وقد يحتمل أن تكون تلك العوالم التي كانت بينه وبينه أزيلت حتى أدركه ببصره، وقد يحتمل أن يكون بقاء العالم على حاله والبيت على حاله وأحد في بصره وبصيرته حتى أدركه وعابنه، والقدرة صالحة للكل، يشهد لذلك قوله ﷺ: «رفع لي بيت المقدس» على ما سيأتي تأويله فيه كالتأويل في البيت المعمور»^(١).

قال ابن كثير في قوله: «هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليه» قال: «يعني: يتعبدون فيه ويطوفون به، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم. كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة. ولهذا وجد إبراهيم الخليل - عليه السلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة، والله أعلم»^(٢).

قال السهيلي: «ثم لقاءه في السماء السابعة لإبراهيم - عليه السلام - لحكمتين: إحداهما: أنه رآه عند البيت المعمور مسنداً ظهره إليه، والبيت المعمور حيال مكة، وإليه تحج الملائكة، كما أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة، وأذن في الناس بالحج إليها.

والحكمة الثانية: أن آخر أحوال النبي ﷺ حجه إلى البيت الحرام، وحج معه نحو من سبعين ألفاً من المسلمين، ورؤية إبراهيم عند أهل التأويل تؤذن بالحج؛ لأنه الداعي إليه، والرافع لقواعد الكعبة المحجوجة»^(٣).

قال الصالحى: «وقال ابن دحية: مناسبة لقائه لإبراهيم - عليه السلام - في السماء السابعة: أن النبي ﷺ اعتمر عمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة، ودخل مكة

(١) بهجة النفوس (٣/١٩٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٠٣-٤٠٤).

(٣) الروض الأنف (٢/١٥٨).

وأصحابه ملبيين معتمرين مُخَيَّيًّا لسنة إبراهيم، ومقيمًا لرسمه الذي كانت الجاهلية أماتت ذكره وبذلت أمره.

وفي بعض الطرق أنه رأى إبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة، وذلك -والله أعلم- إشارة إلى أنه يطوف بالكعبة في السنة السابعة، وهي أول دخلة دخل فيها مكة بعد الهجرة. والكعبة في الأرض قبالة البيت المعمور. وفي قوله ﷺ في وصف البيت المعمور: «فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يرجعون إليه إلى آخر الدهر» إشارة إلى أنه إذا دخل البيت الحرام لا يرجع إليه؛ لأنه لم يدخله بعد الهجرة إلا عام الفتح، ولم يعاوده في حجة الوداع^(١).

وقال ابن أبي جمرة: «قوله: «هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليه» فيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزها شيء؛ لأن هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم هذا العدد العظيم منذ خلق الله تعالى الخلق إلى الأبد، ثم طائفة هذا اليوم لا ترجع إليه أبدًا، ومع أنه قد روي: «أنه ليس في السماوات ولا في الأرض موضع شبر -وقيل: مرقد أربعة أصابع- إلا وملك واضع جبهته هناك ساجدًا..»^(٢) فإذا كانت السماوات والأرض والبحار هكذا، فهؤلاء الملائكة الذين يدخلون أين يذهبون؟ هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء، ولا تتوقف عن شيء»^(٣).

وقال أيضًا: «فيه دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات؛ لأنه إذا كان سبعون ألف ملك كل يوم يصلون في البيت على ما تقدم ثم لا يعودون آخر ما عليهم، مع أن الملائكة في السماوات والأرض والبحار على ما تقدم ذكره، فهم على هذا الظاهر أكثر المخلوقات»^(٤).

* * *

(١) سبل الهدى والرشاد (٣/١٣١).

(٢) يشير إلى حديث سبق تخريجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه في الصافات تحت الآيات: (١٦٤-١٦٦).

(٣) بهجة النفوس (٣/١٩٦-١٩٧).

(٤) المصدر نفسه (٣/١٩٧).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۚ﴾ ﴿٩﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۚ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ۖ﴾ ﴿١١﴾ ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۖ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۚ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿أَصْلَوْهَا فَأَصْبُرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ﴾ ﴿١٤﴾

★ غريب الآية:

تمور: يقال: مار الشيء يمور مورًا: إذا تحرك واضطرب. قال الأعشى:
 كأن مشيتها من بيت جاريتها مور السحابة لاريث ولا عجل
 خوض: أي: تردد في الباطل، وهو خوضهم في أمر محمد بالتكذيب،
 والخوض: الدخول في الحديث. وأصله: الدخول في الماء.
 يدعون: يدفعون بشدة وعنف. والدَّعُ: الدفع الشديد.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن القيم: «ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه [أي: المعاد والجزاء] فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۚ﴾ ، والمور قد فسر بالحركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب، والتحقيق أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء، ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال. فقال: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۚ﴾ ، وقال: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۖ﴾ ^(١) من مكان إلى مكان. وأما السماء فإنها تتكفأ، وتموج، وتذهب، وتجيء..

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع. فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب.

ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر؛ أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعًا، أي: يدفع في أقفيتهم وأكتافهم دفعًا بعد دفع. فإذا وقفوا عليها وعاینوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وتقولون: لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق، ثم يقال: ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا﴾؟ الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاء تكم به الرسل: إنه سحر، وإنهم سحرة. فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ أفعيت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ ثم سلب عنهم نفع البصر الذي كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه، وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها. فقل لهم يومئذ: ﴿فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾، كلاهما سواء عليكم، لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة، ولا يستنزل لكم الرحمة. ثم أعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذابًا، فلم يجدوا من اقترانهم به بدءًا، بل صارت عذابًا لازماً لهم، كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم.

ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة، والعقائد الباطلة، وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا. فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده، وبالتوبة النصوح، زوالاً كلياً؛ لم يعذبوا عليه في الآخرة؛ لأن أثره قد زال من قلوبهم وألستهم وجوارحهم، ولم يبق له أثر يترتب عليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها، وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال، ولكن عارضها معارض أقوى منها؛ كان التأثير للمعارض، وغلب الأقوى الأضعف. وإن تساوى الأمران؛ تدافعا، وقاوم كل منهما الآخر، وكان محل صاحبه جبال الأعراف بين الجنة والنار. فهذا حكم الله وحكمته في خلقه وأمره ونهيه وعقابه، ولا يظلم ربك أحداً^(١).

قال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي

(١) البيان في أقسام القرآن (ص: ١٦٣-١٦٤).

كُتِبَ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٦﴾ قال: «قد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين: أحدهما أن الكفار يدفعون إلى النار بقوة وعنف يوم القيامة. والثاني: أنهم يقال لهم يوم القيامة توبيخًا وتقريعًا: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ ﴿١٧﴾».

وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات أخرى، أما الأخير منهما، وهو كونهم يقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ ﴿١٧﴾، وقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله في السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ ﴿١١﴾ وقوله في سبأ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ وقوله تعالى في المرسلات: ﴿أَنْطَلِقُوا لِكُلِّ مَأْتِلَفٍ مَا كُتِبَ بِهِ تُكْذِبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ أَنْطَلِقُوا لِكُلِّ ذِي نَفْسٍ شَعْبٍ ﴿٢٢﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٢٣﴾ إِنَّهَا تَرَى بِشَكْرِ الْقَصْرِ ﴿٢٤﴾ الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأول منهما وهو كونهم يدفعون إلى النار بقوة فقد ذكره الله - جل وعلا - في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٤٦﴾ أي: جروه بقوة وعنف إلى وسط النار. والعتل في لغة العرب: الجر بعنف وقوة، ومنه قول الفرزدق:

ليس الكرام بناحليكَ أباهم حتى ترد إلى عطية نعتل

وقوله: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالتَّوَصَّى وَالْأَقْدَامِ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٧﴾ أي: تجمع الزبانية بين ناصية الواحد منهم، أي مقدم شعر رأسه وقدمه، ثم تدفعه في النار بقوة وشدة.

وقد بين - جل وعلا - أنهم أيضًا يسحبون في النار على وجوههم في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ إِذِ الْأَغْلَظُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٥١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٥٢﴾ وقوله: ﴿٥٣﴾

(٢) سبأ: الآية (٤٢).

(٤) الدخان: الآية (٤٧).

(١) السجدة: الآية (٢٠).

(٣) المرسلات: الآيات (٢٩-٣٢).

(٥) الرحمن: الآية (٤٧).

(٦) القمر: الآية (٤٨).

(٧) غافر: الآيات (٧٠-٧٢).

هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ﴾ ، بدل من قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ، في قوله تعالى قبله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾^(١) ﴿٢﴾.

وقال في قوله: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣) قال: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار معذبون في النار لا محالة، سواء صبروا أو لم يصبروا، فلا ينفعهم في ذلك صبر ولا جزع، وقد أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾^(٣) ﴿٤﴾.

* * *

(١) الطور: الآية (١١).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٨٤-٦٨٦).

(٣) إبراهيم: الآية (٢١).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٨٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٧﴾ فَتَكِينٍ بِمَا ءَانَتْهُمْ رَيْثُهمْ وَوَقْنَتْهمْ رَيْثُهمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٠﴾﴾

★ غريب الآية:

فاكِين: أي: معجيين ناعمين، يقال فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحا.

مصفوفة: أي: موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًا.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٧﴾﴾، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال.

﴿فَتَكِينٍ بِمَا ءَانَتْهُمْ رَيْثُهمْ﴾ أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مأكّل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقْنَتْهمْ رَيْثُهمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

قال ابن القيم: ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة والأعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة، وهم المتقون، فذكر مساكنهم وهم في الجنان، وحالهم في المساكن وهو النعيم، وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم ﴿فَتَكِينٍ بِمَا ءَانَتْهُمْ رَيْثُهمْ﴾ والفاكه: المعجب بالشيء المسرور المغتبط به، وفعله فكه - بالكسر - يفكه فهو فكه وفاكه إذا كان طيب النفس والفاكه: البال، ومنه الفاكهة وهي المرح الذي ينشأ عن طيب النفس، وتفكهت بالشيء إذا تمتعت به، ومنه الفاكهة التي يتمتع بها،

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٠٧).

ومنه قوله: ﴿فَطَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾^(١) قيل: معناه تندمون وهذا تفسير بلازم المعنى، وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه، وإذا زال التفكه خلفه ضده، يقال: تحنت إذا زال الحنت عنه، وتحرج وتحوب وتأثم ومنه تفكه، وهذا البناء يقال للداخل في الشيء: كتعلم وتحلم وللخارج منه: كتحرج وتأثم.

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه ونييم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقا، لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب: فكان جزاؤهم مطابقا لأعمالهم.

ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله: ﴿هَيِّئْ﴾ فإنهم لو علموا زواله وانقطاعه لخنص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم.

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ وفي ذكر اصطفاها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضا، كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾^(٢) فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه، ولا يكون بعيدا منه قد حيل بينه وبينه؛ بل سريه إلى جانب سريره من يحبه.

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين، وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين، قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجا كما يزوج البعل بالبعلة جعلناهم اثنين اثنين، وقال يونس: قرناهم بهن وليس من عقد التزويج، واحتج على هذا بأن العرب لا تقول تزوجت بها وإنما تقول تزوجتها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾^(٣) وفي الحديث: «زوجتكها بما معك من القرآن»^(٤) وقال غيره: العرب تقول تزوجت بامرأة. وقال الأزهري: العرب تقول: زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس في كلامهم تزوجت بامرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي

(١) الواقعة: الآية (٦٥).

(٢) الواقعة: الآية (١٦).

(٣) الأحزاب: الآية (٢٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/٣٣٠). والبخاري (٤/٦١٢/٢٣١٠). ومسلم (٢/١٠٤٠-١٠٤١/١٠٤٢٥). وأبو داود

(٢/٥٨٦-٥٨٧/٢١١١). والترمذي (٣/٤٢١-٤٢٢/١١١٤). والنسائي (٦/٤٢٢-٤٢٣/٣٣٣٩). وابن

ماجه (١/٦٠٨/١٨٨٩) من طرق عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

قرناهم، وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع. أي: شفعناهم وقرناهم بهن، وقالت طائفة منهم مجاهد: زوجناهم بهن أي: أنكحناهم إياهن. قلت: وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح، وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم فالقولان واحد، والله أعلم.

وأما الحور العين فقال مجاهد: التي يحار فيها الطرف باديا مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرأة من رقة الجلد وشفاء اللون، وقال قتادة: بحور أي بيض، وكذا قال ابن عباس. وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه. العين: الحسان الأعين وعين حوراء: شديدة السواد نقية البياض، طويلة الأهداب مع سوادها، كاملة الحسن، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد، فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة كما قال: ﴿خَيْرٌ حِسَانٌ﴾^(١) فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن، وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات، ودل بما وصف بما سكت عنه.

فإن شئت التفصيل فالذي يحمد ويستحب من وجه المرأة وبدنها وأخلاقها البياض في أربعة أشياء: اللون وبياض العين والفرق والثغر. والسواد في أربعة: سواد العين، وسواد شعر الرأس والجفن، وسواد الحاجبين، والحمرة في أربعة: اللسان، والشفيتين، والوجنتين، وحمرة تشوب البياض فتحسنه وتزينه. ومن التدوير أربعة أشياء: الوجه والرأس والكعب والمقعد، ومن الطول أربعة: القامة والعنق والشعر والحاجب، والسعة في أربعة: الجبهة والعين والوجه والصدر. ومن الصغر في أربعة: الثدي والفم والكف والقدم. ومن الطيب في أربعة: الفم والأنف والفرق والفرج. ومن الضيق في موضع واحد. ومن الأخلاق كما قال تعالى: ﴿عَرَبًا أَتْزَابًا﴾^(٢) إذ العرب جمع عروب وهي المرأة المتحبة إلى زوجها بأخلاقها، ولطافتها وشمائلها، قال ابن الأعرابي: العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحبة إليه، وقال أبو عبيدة: هي الحسنة التبعيل. قال المبرد: هي

(١) الرحمن: الآية (٧٢).

(٢) الواقعة: الآية (٣٧).

العاشقة لزوجها . وقال البخاري في صحيحه : هي الغنجة . ويقال : الشكلة . فهذا وصف أخلاقهن ، وذلك وصف خلقهن ، وأنت إذا تأملت الصفات التي وصفهن الله بها رأيتها مستلزمة لهذه الصفات ، ولما وراءها ، والله المستعان^(١) .

قال السعدي : « وصف الله السرر بأنها مصفوفة ، ليدل ذلك على كثرتها ، وحسن تنظيمها ، واجتماع أهلها وسرورهم بحسن معاشرتهم ، ولطف كلام بعضهم لبعض ، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال ، ولا يدور في الخيال ، من المآكل والمشارب اللذيذة ، والمجالس الحسنة الأنيقة ، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن ، فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافا ، وخلقاً وأخلاقاً ، ولهذا قال : ﴿ وَزَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهاءها ، ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين ، ويسلبن عقول العالمين ، وتكاد الأفئدة أن تطيش شوقاً إليهن ، ورغبة في وصالهن ، والعين : حسان الأعين مليحاتها ، التي صفا بياضها وسوادها^(٢) .

قال المراغي : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ فَكَهَيَّ بَمَاءِ أَنَّهُمْ رِيحٌ أَي : إن الذين خافوا ربهم وأخلصوا له العبادة في السر والعلن ، وأدوا فرائضه ، وتحلوا بأداب دينه ، وانتهوا عن معاصيه ، ولم يندسوا أنفسهم بالآثام ، ولم يدسوا أرواحهم بالذنوب ، يجازيهم ربهم جزاء وفاقاً ، بجنات يتنعمون فيها ، ويجدون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال في الدنيا ، وما حرموا منه أنفسهم من لذاتها ، وما صبروا عليه من مكارهها ، ابتغاء رضوانه ، وهم فيها قريرو الأعين طيبو النفوس ، لا يشغلهم شاغل ، ولا يجدون هما ولا نصيباً ، ولا يكدر صفو عيشهم مكدر^(٣) .

* * *

(١) التبيان (ص: ١٦٤-١٦٦) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٩٠) .

(٣) تفسير المراغي (٢٧/ ٢٢) .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ﴿٢١﴾

★ غريب الآية:

التناهم: أنقصناهم.

رهين: محبوس.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه؛ أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بأبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾»^(١).

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى؛ بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم.

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل، وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك؛ بل ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق كما في قوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء، وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء، فينقص أجر أعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما نقصناهم»^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٠٧-٤٠٨).

(٢) البيان (ص: ١٦٧).

وقال: ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلا من الله فربما وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضا حاصل لهم في حكم العدل، فإذا اكتسبوا سيئات أوجبت عقوبة، كان كل عامل رهينا بكسبه، لا يتعلق بغيره منه شيء، فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب، وهذا ونحوه نوع من أسرار القرآن وكنوزه التي يختص الله بفهمها من شاء، فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم: أشقيائهم وسعدائهم.

السعداء المتبوعين والأتباع، والأشقياء المتبوعين والأتباع، فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر في أي الأقسام هو، ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة، فإن كان من قسم سعيد انتقل منه إلى ما هو فوقه وبذل جهده، والله ولي التوفيق والنجاح، وإن كان من قسم شقي انتقل منه إلى القسم السعيد في زمن الإمكان قبل أن يقول: ﴿يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾^(١) «(٢)».

قال ابن كثير في قوله: ﴿كُلُّ أَنرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال: «أي: مرتتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾^(٣) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ^(٤) فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ^(٥) عَنِ الْمُجْرِمِينَ^(٦) ﴿٣٨﴾^(٧)».

قال الشنقيطي في قوله: ﴿كُلُّ أَنرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال: «ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الناس، وقد بين تعالى في آيات أخر أن أصحاب اليمين خارجون من هذا العموم، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾^(٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ^(٩) فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ^(١٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ^(١١) ﴿٤١﴾^(١٢)». ومن المعلوم أن التخصيص بيان كما تقرر في الأصول^(١٣).

قال ابن القيم: «وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان على ثلاثة أقوال، واختلافهم مبني على أن قوله: ﴿يَايَمَنُ﴾ حال من الذرية التابعين أو المؤمنين المتبوعين، فقالت طائفة: المعنى:

(١) الفرقان: الآية (٢٧).

(٢) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(٣) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(٤) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(٥) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(٦) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(٧) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(٨) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(٩) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(١٠) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(١١) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(١٢) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(١٣) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم فأتوا من الإيمان بمثل ما أتوا به،
 ألحقناهم بهم في الدرجات، قالوا: ويدل على هذا قراءة من قرأ: ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ
 ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فجعل الفعل في الاتباع لهم، قالوا: وقد أطلق الله سبحانه الذرية على
 الكبار كما قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾^(١) وقال: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ
 نُوحٍ﴾^(٢) وقال: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٣) وهذا قول الكبار
 العقلاء، قالوا: ويدل على ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه: «إن
 الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرب بهم عينه»^(٤) فهذا
 يدل على أنهم دخلوا بأعمالهم، ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم
 فبلغهم إياها، وإن تقاصر عملهم عنها، قالوا: وأيضا: فالإيمان هو القول والعمل
 والنية، وهذا إنما يمكن من الكبار، وعلى هذا فيكون المعنى: أن الله سبحانه
 يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا من الإيمان بمثل إيمانه، إذ هذا حقيقة التبعية، وإن
 كانوا دونه في الإيمان رفعهم الله إلى درجته إقرارا لعينه وتكميلا لنعيمه، وهذا كما
 أن زوجات النبي ﷺ معه في الدرجة تبعا وإن لم يبلغوا تلك الدرجة بأعمالهن.

وقالت طائفة أخرى: الذرية هاهنا الصغار، والمعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم
 ذرياتهم في إيمان الآباء، والذرية تتبع الآباء وإن كانوا صغارا في الإيمان وأحكامه
 من الميراث والدية والصلاة عليهم والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك. إلا فيما
 كان من أحكام البالغين، ويكون قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على هذا في موضع نصب على
 الحال من المفعولين، أي: وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء، قالوا: ويدل على
 صحة هذا القول أن البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب، فإنهم مستقلون
 بأنفسهم ليسوا تابعيين الآباء في شيء من أحكام الدنيا، ولا أحكام الثواب
 والعقاب، لاستقلالهم بأنفسهم، ولو كان المراد بالذرية البالغين لكان أولاد
 الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم، وتكون أولاد التابعين البالغون كلهم في
 درجة آبائهم وهلم جرا إلى يوم القيامة، فيكون الآخرون في درجة السابقين، قالوا:

(١) الأنعام: الآية (٨٤).

(٢) الإسراء: الآية (٣).

(٣) الأعراف: الآية (١٧٣).

(٤) أخرجه: ابن جرير (٢٧/٢٤)، وصححه الحاكم (٢/٤٦٨)، وسكت عنه الذهبي، موقوفا عن ابن عباس

ويدل عليه أيضا أنه سبحانه جعلهم معهم تبعاً في الدرجة كما جعلهم تبعاً معهم في الإيمان، ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعاً؛ بل إيمان استقلال، قالوا: ويدل عليه أن الله ﷻ جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين، وأما الأتباع فإن الله ﷻ يرفعهم إلى درجة أهلهم، وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم، وأيضا: فالحور العين والخدم في درجة أهلهم وإن لم يكن لهم عمل، بخلاف المكلفين البالغين فإنهم يرفعون إلى حيث بلغت أعمالهم.

وقالت فرقة منهم الواحدي: الوجه أن تحمل الذرية الصغار والكبار؛ لأن الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه، والصغير يتبع الأب بإيمان الأب، قالوا: والذرية تقع على الصغير والكبير، والواحد والكثير، والابن والأب، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ﴾ (١) أي: آباءهم، والإيمان يقع على التبعية وعلى الاختياري الكسبي، فمن وقوعه على التبعية قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ (٢) فلو أعتق صغيراً جاز، قالوا: وأقوال السلف تدل على هذا، قال سعيد ابن جبير عن ابن عباس، إن الله يرفع درجة المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عيونهم، ثم قرأ هذه الآية، وقال ابن مسعود: في هذه الآية الرجل يكون له القدم ويكون له الذرية فيدخل الجنة فيرفعون إليه، لتقر بهم عينه وإن لم يبلغوا ذلك، وقال أبو مجلز، يجمعهم الله له، كما كان يحب أن يجتمعوا في الدنيا، وقال الشعبي: أدخل الله الذرية بعمل الآباء الجنة. وقال الكلبي عن ابن عباس: إن كان الآباء أرفع درجة من الأبناء رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء رفع الله الآباء إلى الأبناء، وقال إبراهيم: أعطوا مثل أجور آبائهم ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئاً، قال: ويدل على صحة هذا القول أن القراءتين كالآيتين، فمن قرأ: واتبعتهم ذريتهم، فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ (٣) ومن قرأ: واتبعتهم ذرياتهم، فهذا من حق الصغار الذين أتبعهم الله إياهم في الإيمان حكماً، فدللت القراءتان على النوعين (٤).

(١) النساء: الآية (٩٢).

(٢) يس: الآية (٤١).

(٣) التوبة: الآية (١٠٠).

(٤) حادي الأرواح (ص: ٢٧٩-٢٨١).

قال ابن عطية: «وأرجح الأقوال في هذه الآية القول الأول؛ لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى أهل الجنة، فذكر من جملة إحسانه أنه يرضى المحسن في المسيء، ولفتة ألحقنا تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال، ومعنى هذه الآية: أن الله يلحق المقصر بالمحسن، ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير والجمهور»^(١).

قال ابن كثير: «وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وأبو صالح والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد، وهو اختيار ابن جرير»^(٢).

قال ابن جرير بعد حكايته للاختلاف الواقع بين أهل التأويل في المعنى المقصود بهذه الآية قال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل عليه ظاهر التنزيل: القول الذي ذكرنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وهو: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ الذين أدركوا الإيمان ﴿يَايْمَنُونَ﴾ وآمنوا بالله ورسوله، ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم الذين أدركوا الإيمان، فأمنوا في الجنة فجعلناهم معهم في درجاتهم، وإن قصرت أعمالهم عن أعمالهم، تكرمة منا لأبائهم، وما ألتناهم من أجور عملهم شيئاً. وإنما قلت: ذلك أولى التأويلات به لأن ذلك الأغلب من معانيه، وإن كان للأقوال الآخر وجوه»^(٣).

قال ابن القيم: «فهذه الآية تدل على أن الله سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم في الجنة، وأنهم يكونون معهم في درجاتهم، ومع هذا فلا يتوهم نزول الآباء إلى درجة الذرية، فإن الله لم يلتهم أي: لم ينقصهم من أعمالهم شيئاً؛ بل رفع ذرياتهم إلى درجاتهم مع توفير أجور الآباء عليهم، ولما كان إلحاق الذرية بالآباء في الدرجة إنما هو بحكم التبعية لا بالأعمال، ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم في العذاب تبعاً، وإن لم يكن لهم أعمال الآباء، فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِنَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ وتأمل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ كيف أتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية، وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم، فجعل الخبر مستحقاً بأمرين: أحدهما: إيمان الآباء. والثاني: إلتباع

(١) المحرر الوجيز (٥/١٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٤٠٨).

(٣) جامع البيان (٢٧/٢٦).

اللَّهُ ذريتهم إياهم، وذلك لا يقتضي أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له، ولو أريد هذا المعنى لقليل: والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم، فعطف الإتيان بالواو يقتضي أن يكون المعطوف بها قيداً وشرطاً في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ، وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: أتى النبي بصبي من الأنصار يصلي عليه فقلت: يا رسول الله! طوبى لهذا لم يعمل شراً ولم يدره. قال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم»^(١) فهذا الحديث يدل على أنه لا يشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين بالجنة، وإن أطلق على أطفال المؤمنين في الجملة أنهم في الجنة، لكن الشهادة للمعين ممتنعة، كما يشهد للمؤمنين مطلقاً أنهم في الجنة، ولا يشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبي ﷺ، فهذا وجه الحديث الذي يشكل على كثير من الناس، ورده الإمام أحمد وقال: لا يصح ومن يشك أن أولاد المسلمين في الجنة، وتأوله قوم تأويلات بعيدة^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضل الله على الآباء

ببركة دعاء الأبناء

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول: أنى هذا؟! فيقال: باستغفار ولدك لك»^(٣).

* فوائد الحديث:

في هذا الحديث بيان «فضل الله تعالى على الآباء ببركة دعاء الأبناء»^(٤).

(١) أخرجه: أحمد (٤١/٦) و (٢٠٨)، ومسلم (٤/٢٠٥٠/٢٦٦٢ [٣١])، وأبو داود (٥/٨٦/٤٧١١)، والنسائي (٤/٣٥٩/١٩٤٦)، وابن ماجه (١/٣٢/٨٢).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ٣٩٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥٠٩/٢)، وابن ماجه (٢/١٢٠٧/٣٦٦٠)، قال البوصيري: «إسناده صحيح رجاله ثقات». وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/٢١٣)، وقال: «رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجلها رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة وقد وثق». وقال ابن كثير (٧/٤٠٩): «إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

(٤) أفاده ابن كثير في تفسير (٧/٤٠٩).

قال الطيبي: «دل الحديث على أن الاستغفار يحط من الذنوب أعظمها، وهذا يدل على أنه يرفع درجة غير المستغفر إلى ما لم يبلغها بعمله فما ظنك بالعامل المستغفر؟ ولو لم يكن في النكاح فضيلة غير هذا لكفى به فضلاً»^(١).

وقال الساعاتي: «فيه أن دعاء الولد لوالديه ينفعهما بعد موتهما، فمن لم يدرك والديه وأراد برهما أو أدركهما وقصر في برهما، فليكثر من الدعاء لهما بعد موتهما، فهو من أعظم أنواع البر بالوالدين، ويكون للولد أجر عظيم في ذلك»^(٢).

* * *

(١) شرح الطيبي (١٨٥٥-١٨٥٦).

(٢) الفتح الرباني (٢٠٥/٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَلَاحِهِمْ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ ۝٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ۝٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝٢٨﴾

★ غريب الآية:

يتنازعون: أي: يتعاطون، وتناقل بعضهم بعضا كأن كلا منهم ينزع الكأس عن صاحبه.

مكنون: مصون محفوظ. من كُنْتُ الشيء: جعلته في كِنٍّ، أي: ما يستره ويصونه.

مشفقين: أي: خائفين وجلين من عذاب الله.

السموم: الريح الحارة، تؤث، يقال منه: سم يومنا فهو مسموم، والجمع سمائم، قال أبو عبيدة: السموم بالنهار، وقد تكون بالليل، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار، وقد تستعمل السموم في لفح البرد، وهو في لفح الحر والشمس أكثر.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن القيم: «ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم. ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه، ولحقوق الإثم لهم فقال: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ فنفى باللغو السباب والتخاصم والهجر والفحش في المقال والعريضة، ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ ولم يقل: ولا إثم، أي: ليس فيها ما يحملهم على الإثم، ولا يؤثم بعضهم بعضا بشربها، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة، فلا يلغون

ولا يأثمون. قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا ولم يقع منهم ما يؤثمهم^(١). قال ابن كثير: «نزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفي عنها -كما تقدم- صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخيرها فقال: ﴿يَبْضَاءَ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤١) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ^(٢)»، وقال: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ (٤٢)، وقال هاهنا: ﴿يَنْشَرُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾ (٤٣).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَكَهَةٍ وَلَحِيرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٤٣) قال: لم يذكر هنا شيء من صفات هذه الفاكهة، ولا هذا اللحم إلا أنه مما يشتهون، وقد بين صفات هذه الفاكهة في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَفَلَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ (٤٣) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ^(٥) وبين أنها أنواع في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (٦) الآية. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهٖ مُتَشَبِهًا﴾ (٧) الآية. وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَرَوْا مَعْلُومٌ﴾ (٨) فَوَكَهَهُمْ^(٩) وَهُمْ مُكْرَمُونَ^(١٠) إلى غير ذلك من الآيات. ووصف اللحم المذكور بأنه من الطير، والفاكهة بأنها مما يتخيرونه على غيره، وذلك في قوله: ﴿وَفَلَكَهَةٍ مِمَّا يَنْخَبِئُونَ﴾ (١١) وَلَحِيرٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ^(١٢).

قال ابن القيم: «ثم وصف خدمتهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم، والمكنون: المصون الذي لا تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة؛ بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون، ووصفهم في موضع آخر ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤًا مَنُورًا﴾ (١١) ففي ذكره المنثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم وذهابهم ومجيئهم، وسعة المكان بحيث

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------------|
| (١) التبيان (ص: ١٦٧). | (٢) الصافات (٤٦-٤٧). |
| (٣) الواقعة: الآية (١٩). | (٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١٠). |
| (٥) الواقعة: الآيتان (٣٢ و ٣٣). | (٦) محمد: الآية (١٥). |
| (٧) البقرة: الآية (٢٥). | (٨) الصافات: الآيتان (٤١ و ٤٢). |
| (٩) الواقعة: الآيتان (٢٠ و ٢١). | (١٠) أضواء البيان (٧/ ٦٨٦-٦٨٧). |
| (١١) الإنسان: الآية (١٩). | |

لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه»^(١).

قال الشنقيطي في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾^(٢) قال: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة يطوف عليهم غلمان، جمع غلام، أي: خدم لهم، وقد قدمنا إطلاقات الغلام وشواهدا العربية في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ﴾^(٣). ولم يبين هنا ما يطوفون عليهم به، وذكر هنا حسنهم بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾ في أصدافه؛ لأن ذلك أبلغ في صفاته وحسنه، وقيل: مكنون أي: مخزون لنفاسته، لأن النفيس هو الذي يخزن ويكن.

وبين تعالى في الواقعة بعض ما يطوفون عليهم به في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾^(٤) يَأْكُوبُ وَأُكَّابٌ مِنْ مَّعِينٍ^(٥). وزاد في هذه الآية كونهم مخلدين، وذكر بعض ما يطاف عليهم به في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾^(٦). وقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِتَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾^(٧) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُهَا نَقِيرًا^(٨).

والظاهر أن الفاعل المحذوف في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ في آية الزخرف والإنسان المذكورتين هو الغلمان المذكورون في الطور والواقعة، وذكر بعض صفات هؤلاء الغلمان في الإنسان في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا﴾^(٩) ^(١٠).

قال ابن القيم: «ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر، فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا فأمننا مما نخاف ﴿وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورا، فهذا كان مسرورا مع إساءته، وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم، فبدل الله سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف، فبالله سبحانه المستعان.

(٢) الحجر: الآية (٥٣).

(٤) الزخرف: الآية (٧١).

(٦) الإنسان: الآية (١٩).

(١) التبيان (ص: ١٦٧).

(٣) الواقعة: الآيتان (١٧ و ١٨).

(٥) الإنسان: الآيتان (١٥ و ١٦).

(٧) أضواء البيان (٧/ ٦٨٨-٦٨٩).

ثم أخبر عن حالهم في الدنيا وأنهم كانوا يعبدون الله فيها، فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته، فإنه هو البر الرحيم، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة والله أعلم^(١).

قال الشنقيطي: في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيْ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَعْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ﴿٢٣﴾ قال: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإشفاق الذي هو الخوف الشديد من عذاب الله في دار الدنيا سبب للسلامة في الآخرة، يفهم من دليل خطابه، أعني مفهوم مخالفته، أن من لم يخف من عذاب الله في الدنيا لم ينج منه في الآخرة. وما تضمنته هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فذكر تعالى أن السرور في الدنيا وعدم الخوف من الله سبب العذاب يوم القيامة، وذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كَيْفُهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ﴾ ﴿٢٤﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿٢٥﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيْ أَهْلِهِمْ مَّرْجُورًا ﴿٢٧﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَنْ يَحْجُوزَ ﴿٢٨﴾ الآية^(٢).

وقد تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِيْ أَهْلِهِمْ مَّرْجُورًا﴾ ﴿٢٧﴾ علة لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ ﴿٢٥﴾. والمسرور في أهله في دار الدنيا ليس بمشفق ولا خائف، ويؤيد ذلك قوله بعده: ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَنْ يَحْجُوزَ﴾ ﴿٢٨﴾ لأن معناه، ظن أن يرجع إلى الله حياً يوم القيامة، ولا شك أن من ظن أنه لا يبعث بعد الموت لا يكون مشفقاً في أهله خوفاً من العذاب؛ لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء، وكون لن يحور، بمعنى لن يرجع معروف في كلام العرب، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي:

أبليتنا بذني حسم أنبيري إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فقوله: فلا تحوري، أي: فلا ترجعي. وقول لبيد بن ربيعة العامري:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد ما هو ساطع

أي: يرجع رماداً، وقيل: يصير، والمعنى واحد.

(١) النبيان (١٦٧-١٦٨).

(٢) الانشقاق: الآيات (١٠-١٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَى الشَّمَالُ مَا أَحْصَتْ الشَّمَالُ ۖ فِي سَمَوٍ وَحَمِيمٍ ۝١٦ وَظَلَّ مِنْ يَحْمُومٍ ۝١٧ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ۝١٨ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۝١٩ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٢٠﴾ (١) الآية؛ لأن تنعمهم في الدنيا المذكور في قوله: ﴿مُتْرَفِينَ﴾، وإنكارهم للبعث المذكور في قوله: ﴿أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الآية. دليل على عدم إشفاقهم في الدنيا، وهو علة كونهم في سموم وحميم.

وقد قدمنا قريباً أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۝١٩﴾، الآية. علة لقوله: ﴿فِي سَمَوٍ وَحَمِيمٍ ۝١٦﴾ الآية. قد ذكر - جل وعلا - أن الإشفاق من عذاب الله من أسباب دخول الجنة والنجاة من العذاب يوم القيامة، كما دل عليه منطوق آية الطور هذه، قال تعالى في المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝٢١ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٢﴾ (٢) إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُكْرَمُونَ ۝٢٣﴾ (٣)، وذكر ذلك من صفات أهل الجنة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝٢٤﴾ (٤) إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ يُدْعَوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝٢٥﴾ (٥)، وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝٢٦ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٧﴾ (٦) في جَنَّةِ النَّعِيمِ (٦).

وقوله في آية الواقعة المذكورة: ﴿وَكَانُوا يُصْرَفُونَ عَلَى الْخَنِثِ الْعَظِيمِ ۝٢٨﴾ (٧)، أي: يديمون ويعزمون على الذنب الكبير، كالشرك وإنكار البعث، وقيل المراد بالحنث: حنثهم في اليمين الفاجرة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ۝٢٩﴾ (٨) (٩).

* * *

(٢) المعارج: الآيات (٢٧ و ٢٨).

(٤) المؤمنون: الآية (٥٧).

(١) الواقعة: الآيات (٤١-٤٧).

(٣) المعارج: الآية (٣٥).

(٥) المؤمنون: الآية (٦١).

(٦) الواقعة: الآيات (١٠-١٢).

(٧) الواقعة: الآية (٤٦).

(٨) النحل: الآية (٣٨).

(٩) أضواء البيان (٧/ ٦٩٠-٦٩٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَنذَكِّرَنَّ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾

★ غريب الآية:

بكاهن: الكاهن: الذي يُخْبِرُ بالأخبار بضرب من الظن، من التكهّن.

نتربص: ننتظر.

رب المنون: حوادث الدهر وصروفه التي تريب عند مجيئها. قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها سيهلك عنها بعلها أو سيجنح

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين، أمره بالتذكير، إنذاراً للكافر، وتبشيراً للمؤمن، ودعاء إلى الله تعالى بنشر رسالته، ثم نفى عنه ما كان الكفار ينسبونه إليه من الكهانة والجنون، إذا كانا طريقين إلى الإخبار ببعض المغيبات، وكان للجن بهما ملازمة للإنس. وممن كان ينسبه إلى الكهانة شيبة بن ربيعة، وممن كان ينسبه إلى الجنون عقبة بن أبي معيط. وقال الزمخشري: ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم، ولا يثبطنك قولهم كاهن أو مجنون، ولا تبال به، فإنه قول باطل متناقض. فإن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله؛ وما أنت، بحمد الله تعالى وإنعامه عليك بصدق النبوة ورصافة العقل»^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى أمرا رسوله -صلوات الله وسلامه عليه-، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل

(١) البحر المحيط (٨/١٤٨).

البهتان والفجور فقال: ﴿تَذَكَّرَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا بَجُونٍ﴾ ﴿١٩﴾ أي: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿وَلَا بَجُونٍ﴾: وهو الذي يتخطبه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم في قولهم في الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّهِ الْغَنُوبِ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: قوارع الدهر. والمنون: الموت: يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ ﴿٢١﴾ أي: انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة^(١).

قال الشنقيطي: «نفى الله -جل وعلا- عن نبيه ﷺ في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة رماه بها الكفار، وهي الكهانة والجنون والشعر، أما دعواهم أنه كاهن أو مجنون، فقد نفاه صريحاً بحرف النفي الذي هو ما في قوله: ﴿فَمَا أَنْتَ﴾ وأكد النفي بالباء في قوله: ﴿بِكَاهِنٍ﴾ وأما كونه شاعراً فقد نفاه ضمناً بأمر المنقطعة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾، لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفي.

وقد جاءت آيات أخر بنفي هذه الصفات عنه ﷺ كقوله تعالى في نفي الجنون عنه في أول القلم: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وقوله في التكويد: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿٢٣﴾ وكقوله في نفي الصفتين الأخيرتين أعني الكهانة والشعر: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾.

قال المراغي: «بعد أن ذكر فيما سلف أن العذاب واقع بالكافر لا محالة، وأن الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون بأعمالهم، وأن الرسول على الحق المبين الذي من كذبه باء بغضب من الله، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه، أمر رسوله هنا بالثبات على التذكر والموعظة، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤١١).

(٢) القلم: الآية (٢).

(٣) التكويد: الآية (٢٢).

(٤) الحاقة: الآيتان (٤١ و٤٢).

(٥) أضواء البيان (٧/٦٩٢).

الكائدون، فإنه هو الغالب حجة وسيفا في هذه الدار، ومنزلة ورفعة في دار القرار، ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه على فساد آرائهم، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعا للهوى لا اتباعا للدليل والبرهان، وفي ذلك تسلية لرسوله ﷺ كما لا يخفى، إذ ما أبعد حال من كان أرجحهم عقلا، وأبينهم قولا، منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشد، من الجنون والكهانة، إلى ما في هذا من التناقض والاضطراب، فإن الكهان كانوا من الكملة وكان قولهم مقنعا، فأين هذا من الجنون، ثم ترقوا في نسبته إلى الكذب، فقالوا إنه شاعر، وأعذب الشعر أكذبه، ثم قالوا فلنصبر عليه، ولنتربص به صروف الدهر وأحداثه، فسيكون حاله حال زهير والنابعة وأضرابهم ممن انقرضوا وساروا كأمس الدابر، ثم أمره بتهديدهم بمثل صنيعهم بقوله: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١).

* * *

(١) تفسير المراغي (٢٧/٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ
نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾

★ غريب الآية:

أحلامهم: عقولهم، جمع حلم، وهو العقل.
تقوله: أي: افتعله وافتراه، يعني القرآن، والتقول تكلف القول، وإنما يستعمل
في الكذب في غالب الأمر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة
التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: ولكن هم قوم
ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ أي: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن: قال
الله: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة. ﴿فَلْيَأْتُوا
بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٢٥) أي: إن كانوا صادقين في قولهم: نقوله وافتراه
فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل
الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من
مثله»^(١).

قال الشنقيطي: «قد قدمنا أن الله تحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة
البقرة في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٢) الآية.
وفي سورة يونس في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ
أَسْطَظَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٣) الآية. وتحداهم في سورة هود بعشر سور منه في قوله: ﴿أَمْ

(٢) البقرة: الآية (٢٣).

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١١-٤١٢).

(٣) يونس: الآية (٣٨).

يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ يَمْشِي سُورَ مِثْلِهِ مُفْتَرِيًا وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ^(١) الآية. وتحداهم في سورة الطور هذه به كله في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ الآية. وبين في سورة بني إسرائيل أنهم لا يقدرُونَ على شيء من ذلك في قوله: ﴿قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ^(٢) الآية.

وقد أطلق -جل وعلا- اسم الحديث على القرآن في قوله هنا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ كما أطلق عليه ذلك في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ ^(٣) الآية، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ^(٤) ^(٥).

قال البقاعي: «ولما كان المقصود هنا مطلق التعجيز للمكذبين لا بقيد الاجتماع كما في (سبحان) لأن نزول هذه أوائل ما نزل، تحداهم بالإتيان بالمثل في التنجيم والتطبيق على الوقائع سوراً أو آيات أو دون ذلك، تحدث وتتجدد شيئاً في أثر شيء بما أشار إليه التعبير بالحدوث، ولذلك أعراه عن تظاهرهم بالاجتماع ودعاء المستطاع، ولكونهم كاذبين في جزمهم بنسبته إلى القول وغيره، أشار إلى ذلك بقوله مفرعاً لهم إلهاباً إلى الخوض في المعارضة: ﴿إِنْ كَانُوا﴾ أي: كوناً هم راسخون فيه: ﴿صَادِقِينَ﴾ أي: في أنه تقوله من عند نفسه شيئاً فشيئاً، كوناً هم عريقون فيه كما يزعمون سواء ادعوا أنه شاعر أو كاهن أو مجنون أو غير ذلك؛ لأن العادة تحيل أن يأتي واحد من قوم وهو مساوٍ لهم بما لا يقدرُونَ كلهم على مثله، والعقل لا يجزم بشيء إلا وهو عالم به، ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل ما يأتي به، فإنه ﷺ مثلهم في الفصاحة والبلد والنسب، وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشعر ومخالطة العلماء، ومزاولة الخطب والرسائل وغير ذلك، فلا يقدر على ما يعجزون عنه إلا بتأييد إلهي، وهو المراد من تكذيبهم، وقد علم من هذا ومما تقدم من نحوه مفرعاً في السور التي فيها مثله أن المتحدى به في كل سورة غير المتحدى به في الأخرى، والله الهادي» ^(٦).

(١) هود: الآية (١٣).

(٢) الإسراء: الآية (٨٨).

(٣) الزمر: الآية (٢٣).

(٤) يوسف: الآية (١١١).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٦٩٣-٦٩٤).

(٦) نظم الدرر (١٩/ ٢٥-٢٦).

قال المراغي: «ثم زاد في تسفيه أحلامهم بأن مصدر هذا التكذيب إما كتاب أنزل عليهم بذلك، وإما أن عقولهم تأمرهم بما يقولون، لا بل الحق أنهم قوم طاغون يفترون ويقولون ما لا دليل عليه من كتاب، ولا مقتضى له من عقل، ثم زادوا في الإنكار ونسبوه إلى القول والافتراء، فإن صح ما يقولون فليأتوا بمثل أقصر سورة من مثل هذا المفترى إن كانوا صادقين، لا بل هم قوم جاحدون لا يؤمنون فليقولوا ما تسوله لهم أنفسهم فإن الله قد أعمى بصائرهم، فهم لا أحلام لهم تميز الحق من الباطل، والغث من السمين، فامض لشأنك، ولا تأبه لمقالهم فالله معك ولن يترك شيئاً من أعمالك»^(١).

* * *

(١) تفسير المراغي (٢٧/٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا»^(١).

قال السعدي: «وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم. وقد تقرر في العقل مع الشرع أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال. أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضا محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم. فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث أن الله الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدا. ولكن المكذبين ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية»^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/١٩٥-١٩٦).

قال ابن القيم: «فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة، يقول تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم، فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل، أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق.

ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانیا بناها.

ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصعبا ولا ظفرا ولا شعرة كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه، وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقا خلقهم، وفاطرا فطرهم، فهو الإله الحق الذي استحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلها غيره، وهو وحده الخالق لهم. فإن قيل: فما موقع قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ من هذه الحجة قيل: أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقا وفاطرا، وأنهم مخلوقون، وبين بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكين وبخلق العالم العلوي والسفلي»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في منقبة جبير بن مطعم رضي الله عنه

* عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب ب(الطور)، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(١) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ^(٢) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ^(٣)»، كاد قلبي أن يطير»^(٤).

(١) الصواعق (٢/٤٩٣-٤٩٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/٨٥)، والبخاري (٨/٧٧٦/٤٨٥٤)، وبنحوه: مسلم (١/٣٣٨/٤٦٣)، وأبو داود (١/

٥٠٨/٨١١)، والنسائي (٢/٥٠٩/٩٨٦)، وابن ماجه (١/٢٧٢/٨٣٢).

* فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «جبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حملة على الدخول في الإسلام في ذلك»^(١).

قال الخطابي: «إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، فاستدركها، واستشف معناها بذكي فهمه، وهذه الآية مشكلة جدًا.

قال أبو سحاق الزجاج في هذه الآية: «هي أصعب ما في هذه السورة. قال بعض أهل اللغة: ليس هم بأشد خلقًا من خلق السماوات والأرض؛ لأن السماوات والأرض خلقتا من غير شيء، وهم خلقوا من آدم، وآدم خلق من تراب. قال: وقيل فيها قول آخر: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أم خلقوا لغير شيء، أي: خلقوا باطلا لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون. قلت: وهاهنا قول ثالث هو أجود من القولين اللذين ذكرهما أبو إسحاق، وهو الذي يليق بنظم الكلام، وهو أن يكون المعنى: أم خلقوا من غير شيء، فوجدوا بلا خالق، وذلك ما لا يجوز أن يكون؛ لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم، فلا بد له من خالق، فإذا قد أنكروا الإله الخالق، ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم، أفهم الخالقون لأنفسهم؟ وذلك في الفساد أكثر، وفي البطلان أشد؛ لأن ما لا وجود له فيجوز أن يكون موصوفاً بالقدرة، كيف يخلق وكيف يتأتى منه الفعل؟! وإذا بطل الوجهان معًا قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا، فليؤمنوا به إذا.

ثم قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: إن جاز لهم أن يدعوا خلق أنفسهم في تلك الحال، فليدعوا خلق السموات والأرض، وذلك شيء لا يمكنهم أن يدعوه بوجه فهم منقطعون، والحجة لازمة لهم من الوجهين معًا، ثم قال: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ فذكر العلة التي عاقبتهم عن الإيمان، وهي عدم اليقين الذي هو موهبة من الله عز وجل، ولا ينال إلا بتوقيفه، ولهذا كان انزعاج جبير بن مطعم حتى قال: «كاد قلبي أن يطير»، والله أعلم. وهذا باب لا يفهمه إلا أرباب

القلوب»^(١).

قال الحافظ: «ويستفاد من قوله: «فلما بلغ هذه الآية» أنه استفتح من أول السورة، وظاهر السياق أنه قرأ إلى آخرها»^(٢).

وفي الحديث صحة التحمل قبل وجود الأهلية، فتقبل رواية من تحمل قبل الإسلام وروى بعده، وكذا رواية من سمع قبل البلوغ وروى بعده، قلت: والفاسق أولى من الكافر ومما علم أن الصحابي تحمله في حال الكفر ثم رواه بعد إسلامه^(٣).

* * *

(١) أعلام الحديث (٣/١٩١٣-١٩١٤).

(٢) فتح الباري (٨/٧٧٧).

(٣) انظر نشر البنود لعبد الله الشنقيطي (٢/٤١).

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُضَيِّطُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلُوفٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعْمُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أعند هؤلاء المكذبين بآيات الله خزائن ربك يا محمد، فهم لا استغنائهم بذلك عن آيات ربهم معرضون، أم هم المسيطرون. اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: أم هم المسلطون. . وقال آخرون: بل معنى ذلك: أم هم المنزلون. . وقال آخرون: بل معنى ذلك: أم هم الأرباب، وممن قال ذلك معمر بن المثنى، قال: يقال: سيطرت عليّ: أي اتخذتني خولا لك.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أم هم الجبارون المتسلطون المستكبرون على الله، وذلك أن المسيطر في كلام العرب الجبار المتسلط، ومنه قول الله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُضَيِّطٍ﴾ ﴿٣٧﴾. يقول: لست عليهم بجبار مسلط.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلُوفٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يقول: أم لهم سلم يرتفون فيه إلى السماء يستمعون عليه الوحي، فيدعون أنهم سمعوا هنالك من الله أن الذي هم عليه حق، فهم بذلك متمسكون بما هم عليه.

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعْمُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يقول: فإن كانوا يدعون ذلك فليأت من يزعم أنه استمع ذلك، فسمعه بسُلطان مبين، يعني: بحجة تبين أنها حق، كما أتى محمد ﷺ بها على حقيقة قوله، وصدقه فيما جاءهم به من عند الله» (٢).

قال السعدي: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُضَيِّطُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ أي: أعند هؤلاء

(١) الغاشية: الآية (٢٢).

(٢) جامع البيان (٢٧/٣٣-٣٤).

المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاءون ويمنعون من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمدا ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضرر، ولا موت ولا حياة ولا نشور. ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١)

﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْطَانٌ يَسْتَعِیُونَ فِيهِ﴾ أي: ألهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملائكة الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟ ﴿فَلْيَأْنِمْ مُسْتَعِیَهُمْ﴾ المدعي لذلك ﴿يَسْطَیْنِ مِیْنِ﴾ وأنى له ذلك؟ والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد الله، ووعد، ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد، فأی المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصا والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلا عن إقامة حجة^(٢).

* * *

(١) الزخرف: الآية (٣٢).

(٢) تفسير السعدي (٧/١٩٦-١٩٨).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشوكاني: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: بل أتقولون لله البنات ولكم البنون، سفه سبحانه أحلامهم، وضلل عقولهم ووبخهم، أي: يضيفون إلى الله البنات وهي أضعف الصنفين، ويجعلون لأنفسهم البنين وهم أعلاهما، وفيه إشعار بأن من كان هذا رأيه، فهو بمحل سافل في الفهم والعقل، فلا يستبعد منه إنكار البعث ووجد التوحيد^(١).

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ إشارة إلى نفي الشرك، وفساد ما يقولون بطريق آخر، وهو أن المتصرف إنما يحتاج إلى الشريك لعجزه، والله قادر فلا شريك له، فإنهم قالوا: نحن لا نجعل هذه الأصنام وغيرها شركاء، وإنما نعظمها لأنها بنات الله، فقال تعالى: كيف تجعلون لله البنات، وخلق البنات والبنين إنما كان لجواز الفناء على الشخص، ولولا التوالد لانقطع النسل وارتفع الأصل، من غير أن يقوم مقامه الفصل، فقدّر الله التوالد، ولهذا لا يكون في الجنة ولادة^(٢)، لأن الدار دار البقاء، لا موت فيها للأباء، حتى تقام العمارة بحدوث الأبناء. إذا ثبت هذا فالولد إنما يكون في صورة إمكان فناء الأب، ولهذا قال تعالى في أوائل سورة آل عمران ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿٣﴾ أي: حي لا يموت فيحتاج إلى ولد يرثه، وهو قيوم لا يتغير ولا يضعف، فيفتقر إلى ولد ليقوم مقامه، لأنه ورد في نصارى نجران. ثم إن الله تعالى بيّن هذا بأبلغ الوجوه، وقال: إنهم يجعلون له بنات، ويجعلون لأنفسهم بنين، مع أن جعل البنات لهم أولى، وذلك

(١) فتح القدير (١٤٤/٥).

(٢) وهذه المسألة قد اختلف فيها السلف والخلف على قولين ما بين ناف ومثبت للولادة، وقد تقدم بسط الخلاف في ذلك في سورة الزخرف عند قوله تعالى: ﴿يُطَاغَىٰ عَلَيْهِمْ فِيهَا وَيُنَادَىٰ زَيْنُ دَهْرٍ أَكُونُ مِن تَشْتَهُيهِ الْأُنثَىٰ وَسَبَّحْتَ الْأَعْرَىٰ وَأَسْرَىٰ فِيهَا خُلَيْدُونَ﴾ ﴿٧١﴾ الآية (٧١).

(٣) آل عمران: الآية (٢).

لأن كثرة البنات تعين على كثرة الأولاد، لأن الإناث الكثيرة يمكن منهن الولادة بأولاد كثيرة من واحد. وأما الذكور الكثيرة لا يمكن منهم إحبال أنثى واحدة بأولاد، ألا ترى أن الغنم لا يذبح منها الإناث إلا نادراً، وذلك لما ثبت أن إبقاء النوع بالأنثى أنفع نظراً إلى التكاثر، فقال تعالى: أنا القيوم الذي لا فناء لي، ولا حاجة لي في بقاء النوع في حدوث الشخص، وأنتم معرضون للموت العاجل، وبقاء العالم بالإناث أكثر، وتبرءون منهن والله تعالى مستغن عن ذلك وتجعلون له البنات، وعلى هذا فما تقدم كان إشارة إلى نفي الشريك نظراً إلى أنه لا ابتداء لله، وهذا إشارة إلى نفي الشريك نظراً إلى أنه لا فناء له.

فإن قيل كيف وقع لهم نسبة البنات إلى الله تعالى مع أن هذا أمر في غاية القبح لا يخفى على عاقل، والقوم كان لهم العقول التي هي مناط التكليف، وذلك القدر كاف في العلم بفساد هذا القول؟ نقول: ذلك القول دعاهم إليه اتباع العقل، وعدم اعتبار النقل، ومذهبهم في ذلك مذهب الفلاسفة حيث يقولون: يجب اتباع العقل الصريح، ويقولون: النقل بمعزل لا يتبع إلا إذا وافق العقل، وإذا وافق فلا اعتبار للنقل؛ لأن العقل هناك كاف، ثم قالوا الوالد يسمى والدًا، لأنه سبب وجود الولد، ولهذا يقال: إذا ظهر شيء من شيء هذا تولد من ذلك، فيقولون: الحمى تتولد من عفونة الخلط، فقالوا الله تعالى سبب وجود الملائكة سببًا واجبًا لا اختيار له فسموه بالوالد، ولم يلتفتوا إلى وجوب تنزيه الله في تسميته بذلك عن التسمية بما يوهم النقص، ووجوب الاختصار في أسمائه على الأسماء الحسنى التي ورد بها الشرع لعدم اعتبارهم النقل، فقالوا يجوز إطلاق الأسماء المجازية والحقيقية على الله تعالى وصفاته، فسموه عاشقًا ومعشوقًا، وسموه أبًا ووالدًا، ولم يسموه ابنًا ولا مولودًا باتفاقهم، وذلك ضلالة^(١).

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٨/٢٦٣-٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

★ غريب الآية:

مغرم: من العُرْمُ: وهو أداة شيء لازم.

مثقلون: أي: مجهودون لما كلفتهم به.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ: أتسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم يا محمد على ما تدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته ثوابا وعوضا من أموالهم، فهم من ثقل ما حملتهم من الغرم لا يقدرّون على إجابتك إلى ما تدعوهم إليه»^(١).

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ وجه التعلق هو أن المشركين لما اطرحوا الشرع واتبعوا ما ظنوه عقلا، وسموا الموجود بعد العدم مولودا ومتولدا والموجد والدا، لزمهم الكفر بسببه والإشراك، فقال لهم ما الذي يحملكم على اطراح الشرع، وترك اتباع الرسول ﷺ؟ هل ذلك لطلبه منكم شيئا فما كان يسعهم أن يقولوا نعم، فلم يبق لهم إلا أن يقولوا: لا، فنقول لهم: كيف اتبعتم قول الفيلسفي الذي يسوغ لكم الزور وما يوجب الاستخفاف بجانب الله تعالى لفظا إن لم يكن معنى كما تقولون، ولا تتبعون الذي يأمركم بالعدل في المعنى والإحسان في اللفظ، ويقول لكم اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعملوا اللفظ الحسن المؤدب؟ وهذا في غاية الحسن من التفسير ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في سؤال النبي ﷺ حيث قال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ ولم يقل أم يسألون أجرا كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ

(١) جامع البيان (٢٧/٣٤).

(٢) يونس: الآية (٣٨).

كَيْدًا^(١) إلى غير ذلك؟ نقول فيه فائدتان :

إحدهما : تسلية قلب النبي ﷺ ، وذلك لأنهم لما امتنعوا من الاستماع واستنكفوا من الاتباع صعب على النبي ﷺ ، فقال له ربه : أنت أتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم ، وإنما كنت تلام لو كنت طلبت منهم أجراً فهل طلبت ذلك فأثقلهم ؟ لا ، فلا حرج عليك إذا .

ثانيهما : أنه لو قال : أم يسألون لزم نفي أجر مطلقاً ، وليس كذلك ، وذلك لأنهم كانوا يشركون ويطالبون بالأجر من رؤسائهم ، وأما النبي ﷺ فقال له أنت لا تسألهم أجراً فهم لا يتبعونك ، وغيرك يسألهم وهم يسألون ، ويتبعون السائلين ، وهذا غاية الضلال . . .

المسألة الثالثة : هل في خصوص قوله تعالى : ﴿ أَجْرًا ﴾ فائدة لا توجد في غيره لو قال : أم تسألهم شيئاً أو مالاً أو غير ذلك؟ نقول نعم ، وقد تقدم القول مني أن كل لفظ في القرآن فيه فائدة وإن كنا لا نعلمها ، والذي يظهر هاهنا أن ذلك إشارة إلى أن ما يأتي به النبي ﷺ فيه مصلحتهم ، وذلك لأن الأجر لا يطلب إلا عند فعل شيء يفيد المطلوب منه الأجر فقال : أنت أتيتهم بما لو طلبت عليه أجراً وعلموا كمال ما في دعوتك من المنفعة لهم وبهم ، لأتوك بجميع أموالهم ، ولغدوك بأنفسهم ، ومع هذا لا تطلب منهم أجراً ، ولو قال شيئاً أو مالاً لما حصلت هذه الفائدة ، والله أعلم .

المسألة الرابعة : هذا يدل على أنه لم يطلب منهم أجراً ما . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾^(٢) يدل على أنه طلب أجراً ما ، فكيف الجمع بينهما؟ نقول لا تفرقة بينهما ؛ بل الكل حق وكلاهما ككلام واحد ، وبيانه هو أن المراد من قوله : ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ هو أنني لا أسألكم عليه أجراً يعود إلى الدنيا ، وإنما أجري المحبة في الزلفى إلى الله تعالى ، وأن عباد الله الكاملين أقرب إلى الله تعالى من عباده الناقصين ، وعباد الله الذين كلمهم الله وكلموه وأرسلهم لتكميل عباده فكملموا أقرب إلى الله من الذين لم يكلمهم ولم يرسلهم الله ولم يكملوا ، وعلى هذا فهو في معنى قوله : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾^(٣) وإليه أنتمي وقوله ﷺ :

(٢) الشورى : الآية (٢٣) .

(١) الطور : الآية (٤٢) .

(٣) يونس : الآية (٧٢) .

«فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة»^(١)، وقوله: ﴿فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّقْلَوْنَ﴾ وبين ما ذكرنا أن قوله: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْرًا﴾ المراد أجر الدنيا، وقوله: ﴿قُلْ لَا أَشْتَلِكُمْ عَلَيْهِ أُجْرًا﴾ المراد العموم ثم استثنى، ولا حاجة إلى ما قاله الواحدي أن ذلك منقطع معناه: لكن المودة في القربى»^(٢).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١٥٨/٣)، وابن حبان (الإحسان ٩/٣٣٨/٤٠٢٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٥٨/٤)،

وقال: «رواه أحمد والطبراني في الأوسط وإسناده حسن».

(٢) التفسير الكبير (٢٨/٢٦٤-٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك للناس فينبؤونهم بما شاءوا، ويخبرونهم بما أرادوا»^(١).

قال الرازي: «قوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿١١﴾ إشارة إلى أن ما عند النبي ﷺ من علم الغيب علم بالوحي أمورًا وأسرارًا وأحكامًا وأخبارًا كثيرة كلها هو جازم بها، وليس كما يقول المتفلسف، الأمر كذا وكذا، فإن قيل: اكتب به خطك أنه يكون يمتنع ويقول: أنا لا أدعي فيه الجزم والقطع ولكن أذكره كذا وكذا على سبيل الظن والاستنباط، وإن كان قاطعًا يقول: اكتبوا هذا عني، وأثبتوا في الدواوين أن في اليوم الفلاني يقع كذا وكذا، فقوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿١١﴾ يعني هل صاروا في درجة محمد ﷺ حتى استغنوا عنه وأعرضوا، ونقل عن ابن قتيبة أن المراد من الكتابة الحكم، معناه: يحكمون، وتمسك بقوله ﷺ: «اقض بيننا بكتاب الله»^(٢) أي: حكم الله، وليس المراد ذلك، بل هو من باب الإضمار معناه، بما في كتاب الله تعالى يقال فلان يقضي بمذهب الشافعي أي: بما فيه، ويقول الرسول الذي معه كتاب الملك للرعية اعملوا بكتاب الملك»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (٣٥/٢٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١١٥/٤)، والبخاري (٢٨٩/١٣-٢٩٠/٢٩٦٠)، ومسلم (١٣٢٤/٣/١٦٩٧)، وأبو داود (٤٤٤٥/٥٩١/٤)، والترمذي (١٤٣٣/٣٠/٤)، والنسائي (٥٤٨٥/٦٣٢/٨)، وابن ماجه (٨٥٢/٢).

(٢٥٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) التفسير الكبير (٢٦٦-٢٦٧/٢٨).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾

★ غريب الآية:

كيدًا: مكرًا، وهو استعمال الحيلة للإضرار بالغير.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : بل يريد هؤلاء المشركون يا محمد بك، وبدين الله كيدا ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾» يقول: فهم المكيدون الممكور بهم دونك، فثق بالله، وامض لما أمرك به^(١).

قال الشوكاني: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: الممكور بهم المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٢) وقد قتلهم الله في يوم بدر، وأذلهم في غير موطن، ومكر سبحانه بهم ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ﴾ ﴿٥٤﴾^(٣) ﴿٤﴾.

قال الرازي: «ما الفائدة في تنكير الكيد حيث لم يقل: أم يريدون كيدك أو الكيد أو غير ذلك ليزول الإبهام؟ نقول فيه فائدة، وهي الإشارة إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون، فكأنه قال: يأتيهم بغتة ولا يكون لهم به علم، أو يكون إيرادًا لعظمته كما ذكرنا مرارًا»^(٥).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/٣٥).

(٢) فاطر: الآية (٤٣).

(٣) آل عمران: الآية (٥٤).

(٤) فتح القدير (٥/١٤٤-١٤٥).

(٥) التفسير الكبير (٢٨/٢٦٨).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَلَمْزِ اللَّهُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: أم لهم معبود يستحق عليهم العبادة غير الله، فيجوز لهم عبادته، يقول: ليس لهم إله غير الله الذي له العبادة من جميع خلقه ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: تنزيها لله عن شركهم وعبادتهم معه غيره»^(١).

قال السعدي: «وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد»^(٢).

قال البقاعي: «وأخر سبحانه هذا القسم وهو من الشركة لكن بالغير لأنه آت على تقدير التصديق للرسول ﷺ، ولأنه دينهم الذي أوقفهم عن الهدى، فأوقعهم في الردى، ليختم بنفسه والتنزيه عن الإقسام فيحصل به غاية القصد والمرام. والحاصل أنه قسم به سبحانه حالهم في ردهم القرآن إلى التكذيب وغيره، ولما كان التكذيب -وهو النسبة إلى الكذب وهو عدم المطابقة للواقع- إما في الإرسال، وإما في المعاني، وما وقع به الإرسال إما لنقص في الرسول وإما النقص في المرسل، والذي في الرسول إما أن يكون لأمر خارج عنه أو لأمر داخل فيه، ولما كان الخارج قد يكون معه نقص دخل بذاته، ولما كان ذلك قد يكون فيه ما يمدح به ولو من وجه، وهو الكهانة بدأ بها، وأتبعه الداخل لذلك بادئاً بما قد يمدح به وهو الشعر.

(١) جامع البيان (٢٧/٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/١٩٩-٢٠٠).

ولما كان القول بجمع الكهانة والشعر والجنون في شخص واحد على غاية من ظهور التناقض لا يخفى، أتبعها الرمي بالتهكم على عقولهم. ولما كان الكذب في الرمي بالتقول قد يخفى، أتبعه دليله بالعجز عن المعارضة. ولما قسم ما رموا به الرسول، أتبعهم ما ألزمهم به في المرسل، ولما كان ذلك إما أن يكون بالتعطيل أو لا، وكان التعطيل أشد، بدأ به وهو الخلق من غير شيء، ولما كان النقص مع الإقرار بالوجود إما أن يكون بالشركة أو لا، وكان بالشركة إما أن يكون المكذب هو المشارك أو لا، وكانت الشركة المكذب أقعد في التكذيب بدأ بها، ولما كانت شركة المكذب إما أن تكون في الخلق أو لا، وكان الأول إما أن يكون بخلق النفس أو الغير، وكانت الشركة بخلق النفس ألصق، بدأ بها في قوله: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ .

ولما كانت الشركة بغير الخلق إما أن يكون بضبط الحواس أو لا، وكان الثاني إما أن يكون بضبط الكتاب فيها وإليه الإشارة بالمسيطر، أو بضبط ما يؤمر به فيها، وإليه الإشارة بالسلم أو بسفه صاحب الخزائن لرضاه بالبنت، وكان كل قسم أشد مما بعده رتبة هكذا .

ولما انتهى ما يرجع إلى التكذيب، أتبعه الرد لا للتكذيب بل لأمر آخر، ولما كان ذلك الأمر إما من الآتي أو من المأتي إليه أو من غيرهما، كان ما من الآتي ألصق بدأ به وهو المغرم، ولما كان ما من المأتي إليه إما لحسد أو غيره، وكان أمر الحسد أشد، بدأ به وهو المشاركة في الأبناء بما يكون به الفخر والرئاسة وهو علم الغيب، الناظر بوجه للكهانة المبدوء بها في قسم التكذيب، وأخر ما من الغير وهو الشريك المانع لهم من القبول، وخلطه بهذا القسم مع كونه قسيماً لما فرض فيه المكذب مشاركاً لخلوه عما قارن تلك الأقسام من التكذيب .

هذا تمام القول في إبطال ما لزمهم فيما تقولوه في أمر القرآن، وقد تضمن ما ترى من تأصيله وتقسيمه وتفصيله من بيان مقذورات الله وعجائب مصنوعاته ما ألزمهم حتماً التوحيد الملزم بتصديق الرسالة، والإذعان للحق مع ما له من الإعجاز في ترتيبه ونظمه وتهذيبه وتسهيله وتقريبه، مجلوا أسلوبه العظيم بالفاظ هي الدر النظيم، ومعان علت عن لاحق بغريزة أو تعليم، يكاد لها أثبت القلوب بهيم فيطير، وأبلغ البلغاء في أفنان روحها يتبلد ويحير، فكان ذلك كما قال جبير بن مطعم رضي الله عنه كما روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ

في المغرب بالطور، وقال البخاري في التفسير: فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمْ الْمُهَيَّيِّطُونَ ﴿٣٧﴾ (١) كاد قلبي يطير، وقال ابن ماجة: فلما سمعته يقرأ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُونَ﴾ (٣٥) إلى قوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعِثُّهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٣٧) كاد قلبي يطير. . ولما كان التقدير تسكيناً لقلب من يريد إجابتهم إلى الآيات المقترحات طمعاً في إيمانهم: فلقد تلونا عليهم في هذه السورة وغيرها من الآيات، وخلونا من المعجزات البينات، وأتينا من تناقضهم في هذه التقسيمات، بما يهد الجبال الشامخات، وبيننا من فضائحهم بحسن سوقها وحلاوة ذوقها، وصحة معانيها وإحكام مبانيها، ما يزلزل الراسيات، ويحل العزمات، ويفرج الأزمام، ويصد ذوي المروات عن أمثال هذه النقائص الفاضحات، لما لها من الأدلة الواضحات، ولكنهم لما ألزمنهم به من العكس لا يؤمنون، وكدناهم بما أعمينا من بصائرهم فهم لا يعلمون أنهم المكيدون» (٣).

قال ابن عطية: «وهذه الأشياء التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع المعاني التي توجب الانتحاء والتكبر والبعد من الائتمار، فوقفهم تعالى عليها أي ليست لهم ولا بقي شيء يوجب ذلك إلا أنهم قوم طاغون، وهذه صفة فيها تكسبهم وإيثارهم فيتعلق بذلك عقابهم» (٤).

* * *

(١) الطور: الآيات (٣٥-٣٧).

(٢) الطور: الآية (٣٨).

(٣) نظم الدرر (٢٩/٣١-٣٤).

(٤) المحرر الوجيز (٥/١٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾

★ غريب الآية:

كِسْفًا: جمع كسفة، وهي القطعة من السحاب والقطن ونحوهما من الأجسام المتخلخلة.

مركوم: أي: متراكب بعضه فوق بعض.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «وإنما عني بذلك جلّ ثناؤه المشركين من قريش الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات، فقالوا له: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾. إلى قوله: ﴿عَلَيْنَا كِسْفًا﴾^(١) فقال الله لنبيه محمد ﷺ: وإن ير هؤلاء المشركون ما سألوا من الآيات، فعاینوا كِسْفًا من السماء ساقطًا، لم ينتقلوا عما هم عليه من التكذيب، ولقالوا: إنما هذا سحاب بعضه فوق بعض، لأن الله قد حتم عليهم أنهم لا يؤمنون»^(٢).

قال ابن عطية: «وصفهم تعالى بأنهم على الغاية من العتو والتمسك بالأقوال الباطلة في قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ الآية، وذلك أن قريشًا كان في جملة ما اقترحت به أن تنزل من السماء عليها كسف وهي القطع، واحدا كسفة، وتجمع أيضًا على كسف كثمرة وتمر، قال الرماني: هي التي تكون بقدر ما يكسف ضوء الشمس. فأخبر الله عنهم في هذه الآية أنهم لو رأوا كسفًا ساقطًا حسب اقتراحهم لبلغ بهم العتو والجهل والبعد عن الحق أن يغالطوا أنفسهم وغيرهم ويقولوا هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، أي: كثيف قد تراكم بعضه فوق بعض، ولهذه الآية نظائر في آيات أخر»^(٣).

(١) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٢).

(٢) جامع البيان (٢٧-٣٦).

(٣) المحرر الوجيز (٥/١٩٥).

قال ابن كثير: «وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١)» (٢).

* * *

(١) الحجر: الآية (١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤١٣/٧).

قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ ﴿٤٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن عطية: «قوله: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ وما جرى مجراه من المودعة منسوخ بآية السيف واختلف الناس في اليوم الذي توعدوا به، فقال بعض المتأولين: هو موتهم واحداً واحداً وهذا على تجوز، والصعق: التعذيب في الجملة، وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإنسان من الصيحة المفردة ونحوه. ويحتمل أن يكون اليوم الذي توعدوا به يوم بدر، لأنهم عذبوا فيه، وقال الجمهور: التوعد بيوم القيامة، لأن فيه صعقة تعم جميع الخلائق، لكن لا محالة أن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقاً»^(١).

قال السعدي: «وهؤلاء [المكذبون] لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم [فيه] من العذاب والنكال، ما لا يقادر قدره، ولا يوصف أمره»^(٢).

* * *

(١) المحرر الوجيز (٥/١٩٣-١٩٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢٠١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ لا يغني عنهم كيدهم شيئا، يوم القيامة، حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون، ثم بين عن ذلك اليوم أي يوم هو، فقال: يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا، يعني: مكرهم أنه لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئا، فاليوم الثاني ترجمة عن الأول.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: ولا هم ينصرهم ناصر، فيستفيد لهم ممن عذبهم وعاقبهم»^(١).

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية أن كيد الكفار لا يغني عنهم شيئا في الآخرة في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ﴾ (٢٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٢٩)﴾»^(٢).

وبين أنه لا ينفعهم في الدنيا أيضا كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤١) وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) وَآكِدُ كَيْدًا (١٦)، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) وَأَمْلَىٰ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾^(٣) إلى غير ذلك من الآيات»^(٤).

* * *

(١) جامع البيان (٣٦/٢٧).

(٢) المرسلات: الآيتان (٣٨ و٣٩).

(٣) الطور: الآية (٤٢).

(٤) الطارق: الآيتان (١٥ و١٦).

(٥) القلم: الآيتان (٤٤ و٤٥).

(٦) أضواء البيان (٦٩٥/٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في العذاب الذي توعد الله به هؤلاء الظلمة من دون يوم الصعقة، فقال بعضهم: هو عذاب القبر. . وقال آخرون: عني بذلك الجوع. . وقال آخرون عني به المصائب التي تصيبهم في الدنيا من ذهاب الأموال والأولاد. . والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله - تعالى ذكره - أخبر أن للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به عذابا دون يومهم الذي فيه يصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذاب القبر دون يوم القيامة، لأنه في البرزخ، والجوع الذي أصاب كفار قريش، والمصائب التي تصيبهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم دون يوم القيامة، ولم يخص الله نوعا من ذلك أنه لهم دون يوم القيامة دون نوع؛ بل عم فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ فكل ذلك لهم عذاب، وذلك لهم دون يوم القيامة، فتأويل الكلام: وإن للذين كفروا بالله عذابا من الله دون يوم القيامة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأنهم ذائقو ذلك العذاب»^(١).

قال الشنقيطي: «الظاهر أن قوله: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ هو ما عذبوا به في دار الدنيا من القتل وغيره، لما دل على ذلك قوله: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾^(٢) الآية. وقوله تعالى: ﴿فَنَلِّقُوهُمْ بِعَذَابِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(٣) إلى غير ذلك من الآيات، ولا مانع من دخول عذاب القبر في ذلك، لأنه قد يدخل في ظاهر الآية، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي. والعلم عند الله تعالى»^(٤).

قال أبو السعود في قوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: «فيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصبر عنادا أو لا يعلمون شيئا أصلا»^(٥).

(١) جامع البيان (٢٧/٣٦-٣٧).

(٣) التوبة: الآية (١٤).

(٥) تفسير أبي السعود (٩/١٥٣).

(٢) السجدة: الآية (٢١).

(٤) أضواء البيان (٧/٦٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿١٨﴾

★ غريب الآية:

بأعيننا : أي : بمرأى ومنظر منا نرى ونسمع ما تقول وتفعل .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: « يقول - تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يا محمد الذي حكم به عليك ، وامض لأمره ونهيه ، وبلغ رسالاته ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول جل ثناؤه : فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أراذك بسوء من المشركين »^(١).

قال القرطبي: « قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ اختلف في تأويل قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فقال عون بن مالك وابن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحوص: يسبح الله حين يقوم من مجلسه ، فيقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمدك، فإن كان المجلس خيرا ازدادت ثناء حسنا، وإن كان غير ذلك كان كفارة له. . وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع: المعنى حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحاك يقول: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا.

قال الكيا الطبري: وهذا فيه بعد، فإن قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ لا يدل على التسبيح بعد التكبير، فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام، والتسبيح يكون وراء ذلك، فدل على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية: المعنى حين تقوم من منامك. قال حسان: ليكون مفتتحا لعمله بذكر الله. وقال الكلبي: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهي صلاة الفجر. وفي هذا روايات مختلفات

صاحح . . وقال زيد بن أسلم : المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر .
قال ابن العربي : أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل . وقال الضحاك : إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها . قال الماوردي : وفي هذا التسبيح قولان : أحدهما وهو قوله سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود . الثاني أنه التوجه في الصلاة يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . قال ابن العربي : من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله ، والآثار في ذلك كثيرة^(١) .

قال القاسمي : «ولا يخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها وتدل الأحاديث المذكورة على الأخذ بعمومها فإن السنة بيان للكتاب الكريم»^(٢) .

وقال : «قال الشهاب : . . ونكتة جمع العين هنا وإفرادها في قصة الكليم عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد ، وهو المبالغة في الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظه له بأعينهم ، لأن المقصود تصوير حبيبه على المكاييد ، ومشاق التكاليف والطاعة ، فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس . بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام»^(٣) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على التسبيح

* عن أبي برزة الأسلمي قال : «كان رسول الله ﷺ يقول بأخـرة إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل : إنك لتقول قولاً ما كنت تقول فيما مضى يا رسول الله ، فقال : كفارة لما يكون في المجلس»^(٤) .

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/٧٨-٨٠)، وانظر أحكام القرآن للكميا الطبري (٤/٣٩١)، وأحكام القرآن أيضا لابن العربي (٤/١٧٣٣)، والنكت والعيون للماوردي (٥/٣٨٧) .

(٢) محاسن التأويل (١٥/٢١٩) .

(٣) محاسن التأويل (١٥/٢١٨) .

(٤) أخرجه : أبو داود (٥/١٨٢-١٨٣/٤٨٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/١١٢-١١٣/١٠٢٥٩)، وصححه الحاكم (١/٥٣٧) .

* غريب الحديث:

بأخرة: هو بهمزة مقصورة مفتوحة وبفتح الخاء، ومعناه: في آخر الأمر. أي آخر شؤونه وأحواله في مجلسه هذا الذكر، والله أعلم.

سبحانك اللهم: سبحان الله، تنزيه لله عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به، ونصب على المصدر، وتقول: سبحت الله تسييحاً، أي: نزّهته تنزيهاً، ومعنى تنزيه الله من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسييحه تبعيده، من قولك: سبحت في الأرض: إذا أبعدت فيها، وجماع معناه: بعده -تبارك وتعالى- عن أن يكون له مثل أو شريك أو ضد أو ند.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»^(١).

* غريب الحديث:

لغظه: اللغظ، بالتحرك: الصوت. وأراد به الهراء من القول، وما لا طائل تحته من الكلام، فأحل ذلك محل الصوت العربي عن المعنى.

* فوائد الحديثين:

احتج بهذين الحديثين من ذهب من المفسرين إلى القول بأن المراد بقوله في هذه الآية ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ القيام من المجلس، وقد تقدم ذكر من قال بذلك وبيان أن ذلك من جملة ما يدخل في عموم الآية، والله تعالى أعلم.

قوله: «سبحانك اللهم وبحمدك»: قال القاري: «لعله مقتبس من قوله تعالى:

(١) أخرجه الترمذي (٥/٤٦٠-٤٦١/٣٤٣٣) وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، وأبو داود (٥/١٨٢/٤٨٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/١٠٥-١٠٦/١٠٢٣٠)، والحاكم (١/٥٣٦-٥٣٧) وقال: «هذا الإسناد صحيح على شرط مسلم، إلا أن البخاري قد علله بحديث وهيب عن موسى بن عقبة عن سهيل عن أبيه عن كعب الأحبار من قوله، ووافقه الذهبي وقال: وله شواهد. وأخرجه: ابن حبان (الإحسان ٢/٣٥٤-٣٥٥/٥٩٤)، والبيهقي (٥/١٣٤-١٣٥/١٣٤٠)، وللحديث شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة منها:
- حديث أبي برزة الأسلمي أخرجه أبو داود (٥/١٨٢/٤٨٥٩)، والدارمي (٢/٢٨٣)، والحاكم (١/٥٣٧).
- رافع بن خديج أخرجه الحاكم (١/٥٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٤/٢٨٧/٤٤٤٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/١٤١): «رجال ثقات وغيرهم».

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ و«اللهم» معترض؛ لأن قوله: «وبحمدك» متصل بقوله: «سبحانك»، إما بالعطف، أي: أسبح وأحمد، أو بالحال، أي: أسبح حامداً لك^(١).

قال ابن علان: «وإنما ترتب على هذا الذكر غفر ما كسب في ذلك المجلس؛ لما فيه من تنزيه المولى سبحانه، والثناء عليه بإحسانه، والشهادة بتوحيده، ثم سؤال المغفرة من جنبه، وهو الذي لا يخيب قاصد بابه»^(٢).

* عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: اللهم اغفر لي - أو دعا - استجيب له. فإن توضأ قبلت صلاته»^(٣).

★ غريب الحديث:

تعارّ: التعارّ: السهر والتقلب على الفراش ليلاً مع كلام، أخذه من عرار الطير، وهو صوته.

★ فوائد الحديث:

احتج بهذا الحديث وشبهه من الأحاديث من ذهب من المفسرين إلى أن المراد بقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ القيام من النوم، وقد تقدم ذكر من قال بذلك وبيان أن ذلك من جملة ما يدخل في عموم الآية، والله تعالى أعلم.

قال ابن بطال: «حديث عبادة شريف عظيم القدر، وفيه ما وعد الله عباده على التيقظ من نومهم لهجة ألسنتهم بشهادة التوحيد له والربوبية، والإذعان له بالملك، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التي لا تحصى، رطبة أفواههم بالإقرار له بالقدرة التي لا تتناهى، مطمئنة قلوبهم بحمده وتسبيحه وتنزيهه عما لا يليق بالإلهية

(١) المرقاة (٥/٢٨٨).

(٢) دليل الفالحين (٣/٣١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/٣١٣)، والبخاري (٣/٤٩/١١٥٤)، وأبو داود (٥/٣٠٥/٥٠٦٠)، والترمذي (٥/

٤٤٧/٣٤١٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٢١٥/١٠٦٩٧)، وابن ماجه (٢/١٢٧٦/٣٨٧٨).

من صفات النقص، والتسليم له بالعجز عن القدرة عن نيل شيء إلا به تعالى، فإنه وعد بإجابة دعاء من بهذا دعاه، وقبول صلاة من بعد ذلك صلى، وهو تعالى لا يخلف الميعاد، وهو الكريم الوهاب. فينبغي لكل مؤمن بلغه هذا الحديث أن يغتنم العمل به، ويخلص نيته لربه العظيم أن يرزقه حظًا من قيام الليل، فلا عون إلا به، ويسأله فكاك رقبتة من النار، وأن يوفقه لعمل الأبرار، وأن يتوفاه على الإسلام. قد سأل ذلك الأنبياء الذين هم خيرة الله وصفوه من خلقه. فمن رزقه الله حظًا من قيام الليل فليكثر شكره على ذلك، ويسأله أن يديم له ما رزقه، وأن يختم له بفوز العاقبة وجميل الخاتمة^(١).

* عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر ثم يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، ثم يقول: لا إله إلا الله -ثلاثًا-، ثم يقول: الله أكبر كبيرًا -ثلاثًا-، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه، ثم يقرأ»^(٢).

* غريب الحديث:

تبارك اسمك: «هو (تَفَاعَلَ) من البركة، وهي الكثرة والاتساع، وتبارك، أي: بارك، مثل قاتل، إلا أن (فَاعَلَ) يتعدى، و(تَفَاعَلَ) لا يتعدى، ومعناه: تعالى وتعاضم وكثرت بركاته في السموات والأرض؛ إذ به تقوم، وبه تستنزل الخيرات. وفي كتاب الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٣) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾^(٤) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٥) وكل ذلك تنبيه على اختصاصه سبحانه بالخيرات الإبداعية والبركات المتوالية»^(٦).

وتعالى جدك: «أي: عظمتك، ومنه قول أنس رضي الله عنه: «كان الرجل منا إذا قرأ

(١) شرح ابن بطال (٣/١٤٧-١٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/٥٥)، وأبو داود (١/٥٧٧/٩٤) واللفظ له، والترمذي (٢/٩-١٠١/٢٤٢)، والنسائي

(٢/٩٦٤-٨٩٨-٩٩٨)، وابن ماجه (١/٤٦٢/٤٠٨).

(٣) المؤمنون: الآية (١٤).

(٤) الفرقان: الآية (١).

(٥) الملك: الآية (١).

(٦) شرح الطيبي (٣/٩٩٢).

(البقرة) و(آل عمران) جد فينا «أي: عظم»^(١).

همزه: «الهمز: النخس والغمز، وكل شيء دفعته فقد همزته». «وقد فسر عمر رضي الله عنه الهمز بالمؤنة، وهي بالضم وفتح التاء المنقوطة: ضرب من الجنون، والصرع يعتري الإنسان، فإذا أفاق عاد إليه كمال عقله، كالنائم والسكران»^(٢).

نفخه: كبره؛ لأن المتكبر يتعاضم، ويجمع نفسه ونفسه، فيحتاج أن ينفخ. نفثه: «قال في «النهاية»: جاء تفسيره في الحديث أنه الشعر؛ لأنه ينث من الفم»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام في معرض ذكره لأنواع الاستفتاح في الصلاة وأنواع الأذكار وذكره لأوجه تفضيل بعضها على بعض، قال: «إذا تبين هذا الأصل، فأفضل أنواع الاستفتاح ما كان ثناء محضاً، مثل: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك» وقوله: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا»، ولكن ذاك فيه من الثناء ما ليس في هذا؛ فإنه تضمن ذكر الباقيات الصالحات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن، وتضمن قوله: «تبارك اسمك وتعالى جدك» وهما من القرآن أيضًا، ولهذا كان أكثر السلف يستفتحون به، وكان عمر بن الخطاب يجهر به يعلمه الناس... وأيضًا فإن قوله: «سبحانك اللهم...» يتضمن الباقيات الصالحات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن كما في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، وأيضًا ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده»^(٤) فهذه الكلمة هي أول ما في الاستفتاح، وهي أفضل الكلام. وأيضًا فالله قد أمر بالتسبيح بحمده، وعبر بذلك عن الصلاة بقوله:

(٢) شرح الطيبي (٣/٩٩٤).

(١) المصدر نفسه.

(٣) النهاية (٥/٨٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/١٧٦) ومسلم (٤/٢٠٩٣/٢٧٣١) والترمذي (٥/٥٣٧-٥٣٨/٣٥٩٣) والنسائي في

الكبرى (٦/٢٠٦/١٠٦٦٠).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ قُومُوا﴾^(١)، فكان ابتداء الامثال بهذا الذكر أولى، وقد قال طائفة من المفسرين كالضحاك في تفسير هذه الآية: هو قول المصلي: (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)، وقد بسطت الكلام على معنى هذه الكلمة في غير هذا الموضع، وبينت أنها تشتمل على التنزيه والتحميد والتعظيم بصفات البقاء والإثبات وأفعاله كلها سبحانه وبحمده^(٢).

قال ابن القيم مبيناً أوجه تفضيل هذه الصيغة في الاستفتاح على غيرها من الصيغ الأخرى، قال: «... ومنها اشتماله على أفضل الكلام بعد القرآن فإن أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقد تضمنها هذا الاستفتاح مع تكبيرة الإحرام، ومنها أنه استفتاح أخلص للثناء على الله، وغيره متضمن للدعاء والثناء أفضل من الدعاء، ولهذا كانت سورة (الإخلاص) ثلث القرآن؛ لأنها أخلصت لوصف الرحمن تبارك وتعالى، والثناء عليه، ولهذا كان «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» أفضل من غيره من الاستفتاح،... ومنها أن هذا الاستفتاح إنشاء للثناء على الرب تعالى، متضمن للإخبار عن صفات كماله ونعوت جلاله. والاستفتاح ب: «وجهت وجهي» إخبار عن عبودية العبد، وبينهما من الفرق ما بينهما^(٣).

فائدة هامة:

قال ابن بطال: «قال بعض الناس: وهذه الفضائل التي جاءت عن النبي ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفر له...» وما شاكلها، إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال والطهارة من الجرائم العظام، ولا يظن أن من فعل هذا وأصر على ما شاء من شهواته وانتهك دين الله وحرماته أنه يلحق بالسابقين المطهرين وينال منزلتهم في ذلك بحكاية أحرف ليس معها تقى ولا إخلاص ولا عمل، ما أظلمه لنفسه من يتأول دين الله على هواه^(٤).

قال الحافظ: «ويشهد له قول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٥)»^(٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٣٩٤-٣٩٧).

(٤) شرح صحيح البخاري (١٠/١٣٤).

(٦) فتح الباري (١١/٢٤٨-٢٤٩).

(١) الطور: الآية (٤٨).

(٣) زاد المعاد (١/٢٠٥-٢٠٦).

(٥) الجاثية: الآية (٢١).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ ﴿٤٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ومن الليل فعظم ربك يا محمد بالصلاة والعبادة، وذلك صلاة المغرب والعشاء . . . ﴿وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ يعني حين تدبر النجوم للأفول عند إقبال النهار»^(١).

قال البقاعي: «فصارت عبادة الصبح محثوثاً عليها مرتين تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها، فإن ذلك ينجي من العذاب الواقع، وينصر على العدو الدارع، من المجاهر المدافع، والمنافق المخادع، وقد رجع آخرها على أولها، ومقطعها على موصلها، بحلول العذاب على الظالم، وبعده عن الطائع السالم، والله الموفق»^(٢).
قال القاسمي: «قال في الإكليل عن الكرماني: إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل؛ لأن النجوم لا إدار لها، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون. انتهى وهو استدلال متين»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي احتج بها من ذهب من المفسرين إلى أن المراد بالتسبيح في الآية الركعتان اللتان قبل صلاة الصبح

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل، أشد منه تعاهداً على ركعتي الفجر»^(٤).

* عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»^(٥).

(١) جامع البيان (٢٧/٣٩-٤٠).

(٢) نظم الدرر (١٩/٣٩).

(٣) محاسن التأويل (١٥/٢٢٠) وانظر الإكليل (ص: ٢٤٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/٤٣)، والبخاري (٣/٧٥-٨٥/٩٦١١)، ومسلم (١/٥٠١/٧٢٤ [٩٤])، وأبو داود (٢/١٢٥٤/٤٤).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/٢٦٥)، ومسلم (١/٥٠١/٧٢٥)، والترمذي (٢/٢٧٥/٤١٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣/٢٧٩-٢٨٠/١٧٥٨).

* فوائد الحديثين:

احتج بهذين الحديثين من ذهب من المفسرين إلى القول بأن المراد بالتسبيح أدبار النجوم المأمور به في هذه الآية هو الركعتان اللتان قبل صلاة الصبح، وممن قال بهذا القول ابن عباس وعمر وعلي وقتادة رضي الله عنهم، قال ابن جرير: وقال آخرون عني بالتسبيح إدبار النجوم صلاة الصبح الفريضة. وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عني بها: الصلاة المكتوبة صلاة الفجر، وذلك أن الله أمر فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (الأنعام: ٩٦) والركعتان قبل الفريضة غير واجبتين، ولم تقم حجة يجب التسليم لها، أن قوله: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ على الندب، وقد دللنا في غير موضع من كتابنا على أن أمر الله على الفرض حتى تقوم حجة بأنه مراد به الندب، أو غير الفرض بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع^(١).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/٣٩-٤٠).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النجم

أغراض السورة

قال البقاعي: «مقصودها ذم الهوى؛ لإنتاجه الضلال بالإخلاق إلى الدنيا التي هي دار الكدر والبلاء والتصرم والفناء. ومدح العلم؛ لإثماره الهدى في الإقبال على الأخرى؛ لأنها دار البقاء في السعادة أو الشقاء. والحث على اتباع النبي ﷺ في نذارته التي بينتها (ق)، وصدقها (الذاريات)، وأوقعها (الطور).

كما يتبع في بشارته؛ لأن علمه هو العلم؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، لا في صريح كتابه، ولا في بيانه له؛ لأن الكل عن الله الذي له صفات الكمال، فلا بد من بعث الخلق إليه، وحشرهم لديه، لتظهر حكمته غاية الظهور، فيرفع أهل التزكي والظهور، ويضع أهل التدسي والفجور، ويفضح كل متحلّ بالزور، منتحل للشور»^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ
﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

★ غريب الآية:

هوى: سقط من أعلى إلى أسفل.

غوى: الغي: الضلال والخيبة. خلافة: الرشد والهدى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبته إليه أعداؤه من الضلال والغي».

واختلف الناس في المراد بالنجم: فقال الكلبي عن ابن عباس: أقسم بالقرآن إذا نزل منجماً على رسوله: أربع آيات، وثلاثاً، والسورة. وكان بين أوله وآخره عشرون سنة. وكذلك روى عطاء عنه، وهو قول مقاتل والضحاك، ومجاهد. واختاره الفراء. وعلى هذا فسمي القرآن نجماً؛ لفرقه في النزول. والعرب تسمي التفرق تنجماً، والمفرق نجماً، ونجوم الكتاب: أقساطها، ويقول: جعلت مالي على فلان نجومًا منجمة كل نجم كذا وكذا، وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون: إذا طلع النجم يريدون الثريا - حل عليك الدين. ومنه قول زهير في دية جعلت نجومًا على العاقل:

ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهرقوا ما بينهم ملء مجحم

ثم جعل كل تنجم تفريقاً وإن لم يكن موقتاً بطلوع نجم.

وقوله: ﴿هَوَىٰ﴾ على هذا القول، أي: نزل من علي إلى سفلى. قال أبو زيد: هوت العقاب تهوي هويًا - بفتح الهاء - إذا انقضت على صيد أو غيره. وكذلك قال

ابن الأعرابي . وفرق بين الهوى لقوله :

والدلو في إصعادها عجل الهوى

وقال الليث : العامة تقول : الهوى - بالضم - في مصدر هوى يهوى وكذلك قال الأصمعي : هوى يهوى هو بفتح الهاء : إذا سقط إلى أسفل . قال وكذلك الهوى في السهر إذا مضى .

وها هنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم أقبح غلط فذكر في أسماء الرب تعالى الهوى - بفتح الهاء - واحتج بما في الصحيح ، من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده : «سبحان ربي الأعلى الهوى»^(١) . فظن أبو محمد : أن الهوى صفة للرب وهذا من غلطه رحمته . وإنما الهوى على وزن (فعيل) اسم لقطعة من الليل . يقال : مضى هوى من الليل ، على وزن (فعيل) . ومضى هزيع منه ، أي : طرف وجانب ، وكان يقول : «سبحان ربي الأعلى» في قطعة من الليل وجانب منه . وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر . فقالت : كان يقول : «سبحان ربي الأعلى» الهوى من الليل .

عدنا إلى قوله : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ وقال ابن عباس ، في رواية علي ابن أبي طلحة ، وعطية : يعني الثريا إذا سقطت وغابت ، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد ، والعرب إذا أطلقت النجم تعني به الثريا . قال : فباتت تعد النجم ، وقال أبو حمزة اليماني : يعني النجوم إذا انتشرت يوم القيامة . وقال ابن عباس في رواية عكرمة : يعني النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع . وهذا قول الحسن . وهو أظهر الأقوال . ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق ، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه ، بل قد أحرس بالنجم إذ هوى رصدًا بين يدي الوحي ، وحرسًا له . وعلى هذا فالارتباط بين

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ من حديث عائشة رضي الله عنها وأخرجه بنحوه من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي أحمد (٤/ ٥٧) ، والنسائي (٣/ ٢٣٠-٢٣١/ ١٦١٧) ، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٦-١٢٧٧/ ٣٨٧٩) ، وصححه ابن حبان (٦/ ٣٢٨-٣٢٩/ ٢٥٩٦ الإحسان) ، ولفظه : عن ربيعة بن كعب الأسلمي ، قال : كنت أبيت مع رسول الله ﷺ ، فأتيته بوضوئه وحاجته ، وكان يقوم من الليل يقول : «سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده» الهوى ، ثم يقول : «سبحان رب العالمين ، سبحان رب العالمين» الهوى .

المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور . وفي المقسم به دليل على المقسم عليه .
وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بـ (النجم إذا هوى) ، ولا تسمية نزوله هويًا .
ولا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه . وليس بالبين تخصيص هذا القسم
بالثريا وحدها إذا غابت . وليس بالبين أيضًا القسم بالنجوم عند انتشارها يوم
القيامة . بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلًا ، لعدم
ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكرو البعث ، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن
جحدته ولا المكابرة فيه . فأظهر الأقوال قول الحسن . والله أعلم .

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى ؛ فإن النجوم التي ترمي
الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بها
ظهر دينه وشرعه وأسماءه وصفاته ، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً
لهذه النجوم الهاوية . ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى ، والغى
المنافي للرشاد . ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد . فالهدى
في علمه والرشاد في عمله . وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد ، وبهما سعادته
وفلاحه . وبهما وصف النبي ﷺ خلفاء فقال : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء
الراشدين المهديين من بعدي»^(١) فالراشد ضد الغاوي ، والمهدي ضد الضال ، وهو
الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو صاحب الهدى ودين الحق ،
ولا يشبهه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلبًا ،
وأبعدهم من حقيقة الإنسانية . ولله در القائل :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم
فالناس أربعة أقسام : ضال في علمه غاوي في قصده وعمله . وهؤلاء شرار الخلق
وهم مخالفو الرسل .

الثاني : مهتد في علمه غاوي في قصده وعمله ، وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن
تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به .

(١) أخرجه : أحمد (١٢٦-١٢٧/٤) ، وأبو داود (١٣-١٥/٥٠-٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦/٤٣/٥) وقال : «هذا حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه (١٦-١٧/٤٣-٤٤) ، والحاكم (٩٥-٩٧/١) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه ابن حبان (١٧٨-١٧٩/٥ الإحسان) كلهم من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه .

الثالث : ضال في علمه ، ولكن قصده الخير وهو لا يشعر .

الرابع : مهتد في علمه راشد في قصده . وهؤلاء ورثة الأنبياء . وهم وإن كانوا الأقلين عدداً فهم الأكثرون عند الله قدراً ، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه . وتأمل كيف قال سبحانه : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ ولم يقل : ما ضل محمد ؛ تأكيداً لإقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله ، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال ، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط . وقد نبه على هذا المعنى بقوله : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾^(١) ويقول : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾^(٢) .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى . وبهذا الكمال هداه ورشده وقال : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ ولم يقل : وما ينطق بالهوى ؛ لأن نطقه عن الهوى أبلغ ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى ، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمن نفى الأمرين : نفى الهوى عن مصدر النطق ، ونفيه عن نفسه ، فنطقه بالحق ، ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال .

ثم قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل ، أي : ما نطقه إلا وحي يوحى . وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن ؛ فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة ، وإن كليهما وحي يوحى . وقد احتج الشافعي لذلك فقال : لعل من حجة من قال بهذا قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾^(٣) قال : ولعل من حجته أن يقول : قال رسول الله ﷺ لأبي الزاني بامرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم : « والذي نفسي بيده لأقضي بينكما بكتاب الله : الغنم والخادم رد عليك »^(٤) الحديث . وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر : ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي ، فلما كان بالجعرانة

(١) المؤمنون : الآية (٦٩) .

(٢) التكوين : الآية (٢٢) .

(٣) النساء : الآية (١١٣) .

(٤) أخرجه : أحمد (٤/١١٥-١١٦) ، والبخاري (٥/٣٧٧-٢٦٩٥-٢٦٩٦) ، ومسلم (٣/١٣٢٤-١٣٢٥) .

(٥) أخرجه : أبو داود (٤/٥٩١-٥٩٣/٤٤٤٥) ، والترمذي (٤/٣٠-٣١/١٤٣٣) ، والنسائي (٨/١٦٩٨-١٦٩٧) ، وابن ماجه (٢/٨٥٢/٢٥٤٩) كلهم من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد .

سأله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمره في جبهته بعدما تضمخ بالخلق؟ فنظر إليه النبي ﷺ ساعة ثم سكت، فجاء الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء، فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محرم يغط، ثم سري عنه، فقال: «أين السائل آنفاً؟» فجيء به، فقال: «انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجبك»^(١) وقال الشافعي: أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبي طاووس عن أبيه أن عنده كتاباً نزل به الوحي، وما فرض رسول الله ﷺ من صدقة وعقول فإنما نزل به الوحي. وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه. وذكر الأوزاعي أيضاً عن أبي عبيد، صاحب سليمان، أخبرني القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال: قيل لرسول الله ﷺ: سحر لنا. قال: «لا تسألني عن سنة أحدثها فيكم، لم يأمرني بها ولكن سلوا الله من فضله»^(٢) وابن فضيلة هذا يسمى طلحة، وقد صح عنه أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه» وهذا هو السنة بلا شك، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٣) وهما القرآن والسنة، وبالله التوفيق»^(٤).

قال السعدي في قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿١﴾ قال: «دل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه؛ لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى»^(٥).

قال القرطبي: «قد يحتج بهذه الآية من لا يجوز لرسول الله ﷺ الاجتهاد في الحوادث»^(٦).

قال الألوسي بعد ذكره لبعض من يذهب هذا المذهب كأبي علي الجبائي وابنه

(١) أخرجه: أحمد (٢٢٢-٢٢٤)، والبخاري (٧٨٣/٣)، ومسلم (٨٣٦/٢)، وأبو داود (٢/٤٠٧)، والترمذي (١٩٦/٣)، والنسائي (٢٦٦٧/٥)، كلهم من حديث يعلى بن أمية.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع وعزاه للطبراني في الكبير وقال: «فيه بكر بن سهل الدماطي ضعفه النسائي، وثقه غيره، وبقية رجاله ثقات».

(٣) النساء: الآية (١١٣).

(٤) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٥-١٥٠).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢٠٤).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٧/٨٥).

أبي هاشم، قال: «وجه الاحتجاج أن الله تعالى أخبر بأن جميع ما ينطق به وحي، وما كان عن اجتهاد ليس بوحي، فليس مما ينطق، وأجيب بأن الله تعالى إذا سوغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهاد كان الاجتهاد وما يسند إليه وحيًا لا نطقًا عن الهوى، وحاصله منع كبر القياس، واعترض عليه بأنه يلزم أن تكون الأحكام التي تستنبطها المجتهدون بالقياس وحيًا، وأجيب بأن النبي عليه الصلاة والسلام أروحي إليه أن يجتهد بخلاف غيره من المجتهدين، وقال القاضي البيضاوي: إنه حينئذ بالوحي لا وحي، وتعقبه صاحب «الكشف» بأنه غير قادح؛ لأنه بمنزلة أن يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: متى ما ظننت بكذا فهو حكمي، أي: كل ما ألقيته في قلبك فهو مرادي، فيكون وحيًا حقيقة، والظاهر أن الآية واردة في أمر التنزيل بخصوصه، وإن كان مثله الأحاديث القدسية والاستدلال بها على أنه عليه الصلاة والسلام غير متعبد بالوحي محوج لارتكاب خلاف الظاهر، وتكلف في دفع نظر البيضاوي عليه الرحمة كما لا يخفى على المنصف، ولا يبعد عندي أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٣﴾ على العموم؛ فإن من يرى الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كالإمام أحمد وأبي يوسف عليهما الرحمة - لا يقول بأن ما ينطق به صلى الله تعالى عليه وسلم مما أدى إليه اجتهاده صادر عن هوى النفس وشهوتها حاشا حضرة الرسالة عن ذلك، وإنما يقول: هو واسطة بين ذلك وبين الوحي، ويجعل الضمير في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ للقرآن على أن الكلام جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: إذا كان شأنه عليه الصلاة والسلام أنه ما ينطق عن الهوى، فما هذا القرآن الذي جاء به وخالف فيه ما عليه قومه، واستمال به قلوب كثير من الناس، وكثرت فيه الأقاويل؟ فقيل: ما هو إلا وحي يوحيه الله عز وجل إليه صلى الله تعالى عليه وسلم، فتأمل. وفي «الكشف» أن في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ مضارعًا مع قوله سبحانه: ﴿مَا مَلَ﴾ ﴿وَمَا عَرَى﴾ ما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام حيث لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ تميز وقبل تحنكه واستنبائه لم يكن له نطق عن الهوى، كيف وقد تحنك ونبي! وفيه حث لهم على أن يشاهدوا منطق الحكيم»^(١).

(١) روح المعاني (٢٧/٤٦-٤٧).

قال القرطبي: «وفيها أيضًا دلالة على أن السنة كالوحي المنزل في العمل»^(١).

قال صديق حسن خان: «وفي قوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله، وعبر بالصحبة لأنها مع كونها أدل على القصد مرغبة لهم فيه، ومقبلة بهم ومقبحة عليهم اتهامه في إنذاره، وهم يعرفون طهارة شمائله»^(٢).

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه ﷺ على هدى مستقيم، جاء موضحًا في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥).

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (الزخرف) في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَسِمْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٦)، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(٧) استدلل به علماء الأصول على أن النبي ﷺ لم يكن يجتهد، والذين قالوا: إنه قد يقع منه الاجتهاد، استدلوا بقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾^(٨) الآية، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخَذَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٩) الآية، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾^(١٠) الآية.

قالوا: فلو لم يكن هذا عن اجتهاد لما قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ الآية، ولما قال: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْبِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾، ولا منافاة بين الآيات؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(١١) معناه أن النبي ﷺ لا يبلغ عن الله إلا شيئًا أوحى الله إليه أن يبلغه، فمن يقول: إنه شعر أو سحر أو كهانة، أو أساطير الأولين هو أكذب خلق الله وأكفرهم، ولا ينافي ذلك أنه أذن للمتخلفين عن غزوة تبوك، وأسر الأسارى يوم بدر، واستغفر لعمه أبي طالب من غير أن ينزل عليه وحي خاص في ذلك، وقد أوضحنا هذا في غير هذا الموضع»^(١٢).

- | | |
|-----------------------------------|----------------------------|
| (١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/٨٥). | (٢) فتح البيان (١٣/٢٤٤). |
| (٣) النمل: الآية (٧٩). | (٤) الحج: الآية (٦٧). |
| (٥) الشورى: الآية (٥٢). | (٦) الزخرف: الآية (٤٣). |
| (٧) التوبة: الآية (٤٣). | (٨) الأنفال: الآية (٦٧). |
| (٩) التوبة: الآية (١١٣). | (١٠) أضواء البيان (٧/٧٠٢). |

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عصمة الله لرسوله ﷺ عن الزلل في القول والعمل

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله! إنك تداعبنا، قال: «إنني لا أقول إلا حقاً»^(١).

* غريب الحديث:

تداعبنا: من الدعابة، أي: تمازحنا.

* عن عبد الله بن عمرو قال: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟ قال: فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأوماً بأصبعه إلى فيه فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق»^(٢).

* فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد بيان عصمته ﷺ عن الزلل في القول والعمل^(٣). قال القاضي عياض: «فصل في عصمة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله: وأما أقواله ﷺ فقامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه، وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به، لا قصداً وعمداً، ولا سهواً وغلطاً.

أما تعمد الخلف في ذلك فمتنف، بدليل المعجزة القائمة مقام قول الله فيما قال اتفاقاً وبإطباق أهل الملة إجماعاً.

وأما وقوعه على جهة الغلط في ذلك فبهذه السبيل عند الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني ومن قال بقوله، ومن جهة الإجماع فقط، وورود الشرع بانتفاء ذلك،

(١) أخرجه: أحمد (٣٦٠/٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٥)، والترمذي (١٩٩٠/٣١٤/٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (١٩٢/٢) وأبو داود (٣٦٤٦/٦٠/٤)، والدارمي في سننه (١٢٥/١)، وصححه الحاكم (١٠٥/١-١٠٦).

(٣) أفاده المناوي في «فيض القدير» (١٣/٣).

وعصمة النبي ﷺ لا من مقتضى المعجزة نفسها عند القاضي أبي بكر الباقلاني ومن وافقه لا اختلاف بينهم في مقتضى دليل المعجزة لا نطول بذكره فنخرج عن غرض الكتاب، فلنعتمد على ما وقع عليه إجماع المسلمين أنه لا يجوز عليه خلف في القول في إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبر به عن ربه، وما أوحاه إليه من وحيه، لا على وجه العمد، ولا على غير عمد، ولا في حالي الرضا والسخط، والصحة والمرض.

وفي حديث عبدالله بن عمرو: «قلت: يا رسول الله! أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم. قلت: في الرضا والغضب؟ قال: نعم. فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً».

ولنرد ما أشرنا إليه من دليل المعجزة عليه بيانا فنقول: إذا قامت المعجزة على صدقه وأنه لا يقول إلا حقاً، ولا يبلغ عن الله إلا صدقاً، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له: صدقت فيما تذكره عني، وهو يقول: إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم، وأبين لكم ما نزل عليكم، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ﴾ ﴿١﴾ ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ﴿٣﴾، فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان.

ولو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره، ولا اختلط الحق بالباطل؛ فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص، فتنزيه النبي عن ذلك كله واجب برهاناً وإجماعاً كما قاله ابن إسحاق^(١).

ثم أجاب ﷺ تعالى بأجوبة شافية كافية عن سؤالات توجهت في هذا المقام لبعض الطاعنين على الإسلام. ثم ذكر -رحمه الله تعالى- فصلاً في عصمته ﷺ وغيره من الأنبياء عليهم السلام من الفواحش والكبائر والموبقات والصغائر، وأشار إلى الخلاف الواقع في ذلك فقال: «قد علم من دين الصحابة قطعاً الاقتداء

(١) النساء: الآية (١٧٠).

(٢) الحشر: الآية (٧).

(٣) الشفا (٢/ ٧٤٥-٧٤٨).

بأفعال النبي ﷺ كيف توجهت ومن كل فن كالاقتداء بأقواله فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ خاتمته، وخلعوا نعالهم حين خلع، واحتجاجهم برؤية ابن عمر إياه جالساً لقضاء حاجته مستقبلاً بيت المقدس.

واحتج غير واحد منهم في شيء مما باباه العبادة أو العادة بقوله: رأيت رسول الله ﷺ يفعله، وقال: «هلا خبرتها أني أقبل وأنا صائم»، وقالت عائشة محتجة: «كنت أفعله أنا ورسول الله ﷺ». وغضب رسول الله ﷺ على الذي أخبر بمثل هذا عنه، وقال: «يحل الله لرسوله ما يشاء، إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده».

والآثار في هذا أكثر من أن نحيط عليها، لكنه يعلم من مجموعها على القطع اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها. ولو جوزوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتسق هذا، ولنقل عنهم وظهر بحثهم عن ذلك، ولما أنكر ﷺ على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه.

وأما المباحات فجائز وقوعها منهم، إذ ليس فيها قبح، بل هي مأذون فيها وأيديهم كأيدي غيرهم مسلطة عليها إلا أنهم بما خصوا به من رفيع المنزلة، وشرحت له صدورهم من أنوار المعرفة، واصطفوا به من تعلق همهم بالله والدار الآخرة لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات مما يتقوون به على سلوك طريقهم، وصلاح دينهم وضرورة دنياهم وما أخذ على هذه السبيل التَّحَقُّ طاعة، وصار قرينة كما بينا منه أول الكتاب طرفاً في خصال نبينا ﷺ فبان لك عظيم فضل الله على نبينا وعلى سائر أنبيائه عليهم السلام بأن جعل أفعالهم قربات وطاعات بعيدة عن وجه المخالفة ورسم المعصية^(١).

قلت: ومن هذا الباب مزاحه ﷺ.

قال المناوي: «قيل لابن عيينة: المزاح سبة، فقال: بل سنة، ولكن من يحسنه، وإنما كان يمزح لأن الناس مأمورون بالتأسي به، والاقتداء بهديه، فلو ترك اللطافة والبشاشة، ولزم العبوس والقطوب، لأخذ الناس من أنفسهم بذلك على ما في

(١) الشفا (٢/ ٧٩٠-٧٩٢).

مخالفة الغريزة من الشفقة والعناء، فمزح ليمزحوا، ولا يناقض ذلك خبر: «ما أنا من دد، ولا الدد مني»^(١)؛ فإن الدد: اللهو والباطل، وهو كان إذا مزح لا يقول إلا حقاً، فمن زعم تناقض الحديثين من الفرق الزائغة فقد افترى»^(٢).

* * *

(١) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٧٨٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٢٦/٨)، وقال عنه: «رواه الطبراني عن محمد بن أحمد بن نصر الترمذي عن محمد بن عبد الوهاب الأزهري ولم أعرفهما، وبقيّة رجاله ثقات».

(٢) الفيض (١٣/٣). وانظر الكاشف (٣١٤٠/١٠).

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ
الْأَعْلَى ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝ فَأَوْحَى إِلَى
عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۝﴾

★ غريب الآية:

مِرَّة: الجِرَّة: القوة وشدة العقل.

الأفق: ناحية السماء. جمعه آفاق. وتسمى نواحي الأرض: آفاقاً. قال امرؤ
القيس:

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
تدلى: التدلى: الامتداد إلى جهة الأسفل.

قاب: قدر. والقاب والقاد والقيد: عبارة عن مقدار الشيء.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن القيم: «أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن، مما يعلم أنه
مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية. فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝﴾
وهذا نظير قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ۝﴾^(١) وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ ۝﴾ أي: جميل المنظر حسن الصورة ذو جلاله، ليس شيطاناً
أقبح خلق الله وأشوههم صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة
ومكانة عند الله. وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتركية له. كما تقدم نظيره في
سورة (التكوير). فوصفه بالعلم والقوة، وجمال المنظر وجلالته. وهذه كانت
أوصاف الرسول البشري والملكوتي؛ فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأعلمهم،
وأجملهم، وأجلهم. والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك، فهم أقبح الخلق صورة

(١) التكوير: الآية (٢٠).

ومعنى ، وأجهل الخلق ، وأضعفهم همماً ونفوساً .

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى ، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ ، وإيحاء الله ما أوحى . فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده إلى أن استوى بالأفق ، ثم دنا وتدلى ، وقرب من رسوله ، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه ، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطاً من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى ، مستوياً عليه ، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ وخاطبه بما أمره الله به قائلاً : ربك يقول لك كذا وكذا . وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك ، وليس هذا على وجه الشك ، بل تحقيق لقدر المسافة ، وأنها لا تزيد عن قوسين البتة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (١) تحقيق لهذا العدد ، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجل واحداً ونظيره قوله : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (٢) أي : لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة ، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها . وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل (أو) في هذه المواضع بمعنى (بل) ، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي ، وقول من جعلها بمعنى (الواو) فتأمل . انتهى (٣) .

قال الشنقيطي في قوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ (٤) : « هذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين :

أحدهما : أن هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم ، علمه جبريل النبي ﷺ بأمر من الله .

والثاني : أن جبريل شديد القوة . وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع .

أما الأول منهما وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعلمه إياه ، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ

(١) الصافات : الآية (١٤٧) .

(٢) البقرة : الآية (٧٤) .

(٣) البيان في أقسام القرآن (ص : ١٥٠-١٥١) .

عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ^(١) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٤) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْقِ قُرْآنَهُ﴾^(٥) ﴿٤﴾ أي: إذا قرأه عليك الملك المرسل به إليك من مبلغا له عنا فاتبع قرآنه، أي: اقرأ كما سمعته يقرأ.

وأما الأمر الثاني؛ وهو شدة قوة جبريل النازل بهذا الوحي، فقد ذكره في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾^(٦) ﴿٥﴾، وقوله في آية (التكوير) هذه: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أي: لقوله المبلغ له عن الله، فقريضة ذكر الرسول تدل على أنه إنما يبلغ شيئا أرسل به، فالكلام كلام الله بالفاظه ومعانيه، وجبريل مبلغ عن الله، وبهذا الاعتبار نسب القول له؛ لأن النبي ﷺ ما سمعه إلا منه، فهو القول الذي أرسله الله، وأمره بتبليغه، كما تدل عليه قريضة ذكر الرسول، وسيأتي إيضاح هذه المسألة إن شاء الله في سورة (التكوير)، والعلم عند الله تعالى^(٧).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾: قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾^(٨)، أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾^(٩)، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(١٠) ﴿٦﴾، أي: ليسوا أقل منها، بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(١١) ﴿١٠﴾.

قال الرازي: «وقوله: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ فيه فوائد:

الأولى: أن مدح المعلم مدح المتعلم، فلو قال: علمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبي ﷺ فضيلة ظاهرة.

(١) البقرة: الآية (٩٧).

(٢) طه: الآية (١١٤).

(٣) التكوير: الآيات (١٩ و ٢٠).

(٤) البقرة: الآية (٧٤).

(٥) الصافات: الآية (١٤٧).

(٦) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٤).

(٧) القيامة: الآيات (١٦-١٨).

(٨) أضواء البيان (٧/٧٠٣).

(٩) النساء: الآية (٧٧).

(١٠) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٢٢).

الثانية: هي أن فيه ردًا عليهم حيث قالوا: أساطير الأولين سمعها وقت سفره إلى الشام، فقال: لم يعلمه أحد من الناس، بل معلمه شديد القوى، والإنسان خلق ضعيفًا، وما أوتي من العلم إلا قليلًا.

الثالثة: فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام، فقله تعالى: ﴿عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ﴿٥﴾ جمع ما يوجب الوثوق؛ لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل؛ لأننا إن ظننا بواحد فساد ذهن، ثم نقل إلينا عن بعض الأكابر مسألة مشكلة لا نثق بقوله ونقول: هو ما فهم ما قال، وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول: أدركها لكن نسيها، وكذلك قوة الأمانة حتى لا نقول: حرفها وغيّرها، فقال: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ﴿١٠﴾ إلى أن قال: ﴿أَمِينٍ﴾ ﴿١١﴾ ﴿٢﴾.

استشهد أبو إسماعيل الهروي في منازل السائرين بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ في باب الاتصال من منزلة السر.

قال ابن القيم رحمه الله: «كان الشيخ فهم من الآية: أن الذي دنا فتدلى، فكان من محمد ﷺ قاب قوسين أو أدنى هو الله عز وجل. وهذا - وإن قاله جماعة من المفسرين - فالصحيح أن ذلك هو جبريل عليه الصلاة والسلام، فهو الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ﴿١٢﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٣﴾ ﴿٣﴾ هكذا فسر النبي ﷺ في الحديث الصحيح، قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية؟ فقال: «جبريل، لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين»، ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ﴿٥﴾ وهذا جبريل الذي وصفه الله بالقوة في سورة (التكوير)، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿١٦﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٠﴾. الثاني: أنه قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: حسن الخلق، وهو الكريم المذكور في (التكوير).

الثالث: أنه قال: ﴿فَاسْتَوَى﴾ ﴿١١﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿١٢﴾ وهو ناحية السماء العليا،

(١) التكوير: الآيتان (٢١ و ٢٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨ / ٢٨٥).

(٣) النجم: الآيتان (١٣ و ١٤).

وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.
 الرابع: أنه قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ﴿١٠﴾ فهذا دنو جبريل
 وتدليه إلى الأرض، حيث كان رسول الله ﷺ. وأما الدنو والتدلي في حديث
 المعراج، فرسول الله ﷺ كان فوق السموات. فهناك دنا الجبار جل جلاله منه
 وتدلى. فالدنو والتدلي في الحديث: غير الدنو والتدلي في الآية، وإن اتفقا في
 اللفظ.

الخامس: أنه قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿١١﴾ والمرئي عند
 السدرة: هو جبريل قطعاً. وبهذا فسر النبي ﷺ، فقال لعائشة: «ذاك جبريل».
 السادس: أن مفسر الضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ﴾
 ﴿١٢﴾ وفي قوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ واحد. فلا يجوز
 أن يخالف بين المفسر والمفسر من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين: الملكي
 والبشري. ونزه البشري عن الضلال والغواية، ونزه الملكي عن أن يكون شيطاناً
 قبيحاً ضعيفاً؛ بل هو قوي كريم حسن الخلق. وهذا نظير الوصف المذكور في
 سورة (التكوير) سواء.

الثامن: أنه أخبر هناك: أنه ﴿رَآهُ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿١٤﴾ وهاهنا أخبر: أنه رآه ﴿بِالْأُفُقِ
 الْأَعْلَىٰ﴾ وهو واحد، وُصف بصفيتين. فهو (مبين) وهو (أعلى) فإن الشيء كلما علا،
 بان [و] أظهر.

التاسع: أنه قال: ﴿ذُرِّمَتْ ۖ وَالْمَرَّةُ: الخلق الحسن المحكم. فأخبر عن حسن
 خلق الذي علّم النبي ﷺ. ثم ساق الخبر كله عنه نسقاً واحداً.

العاشر: أنه لو كان خبراً عن الرب تعالى لكان القرآن قد دل على أن رسول الله
 ﷺ رأى ربه سبحانه مرتين: مرة بالأفق، ومرة عند السدرة. ومعلوم أن الأمر لو كان
 كذلك لم يقل النبي ﷺ لأبي ذر -وقد سأله: هل رأيت ربك؟- فقال: «نور، أنى
 أراه؟» فكيف يخبر القرآن أنه رآه مرتين، ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنى أراه؟» وهذا

أبلغ من قوله : لم أره ؛ لأنه - مع النفي - يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط ، وهذا يتضمن النفي وطرفاً من الإنكار على السائل . كما إذا قال لرجل : هل كان كيت وكيت ؟ فيقول : كيف يكون ذلك ؟

الحادي عشر : أنه لم يتقدم للرب ﷻ ذكر يعود الضمير عليه في قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَذَكَرَ ۝٨ ﴾ والذي يعود الضمير عليه : لا يصلح له ؛ وإنما هو لعبده .

الثاني عشر : أنه كيف يعود الضمير إلى ما لم يذكر ، ويترك عوده إلى المذكور مع كونه أولى به ؟ .

الثالث عشر : أنه قد تقدم ذكر (صاحبكم) وأعاد عليه الضمائر التي تليق به . ثم ذكر بعده شديد القوى ذا المرة ، وأعاد عليه الضمائر التي تليق به . والخبر كله عن هذين المفسرين ، وهما الرسول الملكي ، والرسول البشري .

الرابع عشر : أنه سبحانه أخبر أن هذا الذي دنا فتدلى كان بالأفق الأعلى ، وهو أفق السماء ؛ بل هو تحتها قد دنا من رسول رب العالمين ﷺ ، ودنو الرب تعالى وتدليّه على ما في حديث شريك - كان من فوق العرش لا إلى الأرض .

الخامس عشر : أنهم لم يماروه صلوات الله وسلامه عليه - على رؤية ربه ، ولا أخبرهم بها ، لتقع مماراتهم له عليها . وإنما ماروه على رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه الله إياها . ولو أخبرهم [أنه رأى] الرب تعالى لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم على رؤية المخلوقات .

السادس عشر : أنه سبحانه قرر صحة ما رآه الرسول ﷺ ، وأن مماراتهم له على ذلك باطلة بقوله : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ۝٩ ﴾ ^(١) ، فلو كان المرئي هو الرب ﷻ ، والممارسة على ذلك منهم : لكان تقرير تلك الرؤية أولى ، والمقام إليها أحوج ، والله أعلم ^(٢) .

وقال ﷻ : « قوله : ﴿ مَا أَوْحَى ﴾ أبهمه لعظمه ؛ فإن الإبهام قد يقع للتعظيم ؛ ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَاشَيْهِمْ ﴾ ^(٣) أي : أمر عظيم فوق الصفة ^(٤) .

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣١٩-٣٢٢) .

(٤) المصدر السابق (٣/ ٢٢١) .

(١) النجم : الآية (١٨) .

(٣) طه : الآية (٧٨) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة جبريل ﷺ

* عن عبدالله عن النبي ﷺ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ❶ قال: «رأيت جبريل ﷺ عند السدرة له ستمائة جناح يتناثر منها تهاويل الدر» ❷.

* غريب الحديث:

تهاويل الدر: أي: الأشياء المختلفة الألوان، ومنه يقال لما يخرج في الرياض من ألوان الزهر: التهاويل، وكذلك لما يعلق على الهودج من ألوان العهن والزينة، وكان واحدا: تهاويل، وأصلها مما يهول الإنسان ويحيره ❸.

* فوائد الحديث:

أورد الحافظ ابن كثير هذا الحديث في معرض الانتصار والاحتجاج للقول بأن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ ❶ جبريل ﷺ.

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَوَى﴾ يعني جبريل ﷺ، قال الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ ❶ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى، قاله عكرمة وغير واحد، قال عكرمة: والأفق الأعلى يأتي منه الصبح، وقال مجاهد: هو مطلع الشمس، وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار، وكذا قال ابن زيد وغيرهم .

وقد قال ابن جرير هاهنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي: هذا الشديد القوي ذو المرة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى، أي استويا جميعاً بالأفق الأعلى، وذلك ليلة الإسراء، كذا قال، ولم يوافقهم أحد على ذلك، ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية فقال: وهو كقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَرِيكَ وَإِنَّا كُنَّا نَعْلَمُ﴾ ❷، فعطف بالآباء على المكنى في (كنا) إظهار نحن، فكذا ذلك قوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾ ❶ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾، قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

(١) أخرجه: أحمد (١/٣٩٥ و٤١٢ و٤٦٠)، وأبو يعلى (٨/٤٠٩-٤١٠/٤٩٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٣/١١٥٤٢)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/٣٣٧/٦٤٢٨).

(٢) النهاية (٥/٢٨٣).

(٣) النمل: الآية (٦٧).

ألم تر أن النبع يصلب عوده ولا يستوي والخروج المتقصف
وهذا الذي قاله من جهة العربية، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه
الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط
عليه جبريل عليه السلام، وتدلّى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها،
له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى، عند سدره المنتهى، يعني ليلة
الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدما جاءه جبريل عليه السلام أول
مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة ﴿أَقْرَأْ﴾، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها
مراراً ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هم بذلك ناداه جبريل من الهواء: يا
محمد! أنت رسول الله حقاً، وأنا جبريل، فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما
طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تبدى له جبريل، ورسول الله ﷺ بالأبطح في
صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، فاقترب منه
وأوحى إليه عن الله ﷻ ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه
بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه^(١).

* عن الشيباني قال: سألت زربن حبيش عن قول الله عز وجل: ﴿فَكَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قال: «أخبرني ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة
جناح»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال ابن هبيرة بعد ذكره للألفاظ المروية عن ابن مسعود في هذا الحديث داخل
الصحيحين: «مجموع هذا الحديث أنه حكاية عما كان يراه عبدالله بن مسعود في
هذه الآيات، وإلا ففي أحاديث آخر أن محمداً ﷺ رأى ربه عز وجل، ونص القرآن
على ذلك»^(٣).

قال الحافظ: «والحاصل أن ابن مسعود كان يذهب في ذلك إلى أن الذي رآه

(١) التفسير (٧/٤١٩-٤٢٠).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/٣٨٥)، ومسلم (١/١٥٨)، والترمذي (٥/٣٦٧)، وقال:

«حسن غريب صحيح»، النسائي في الكبرى (٦/٤٧٢/١١٥٣٤).

(٣) الإفصاح (٢/٤٦).

النبي ﷺ هو جبريل ، كما ذهب إلى ذلك عائشة ، والتقدير على رأيه : ﴿ فَأَوْحَى ﴾ أي : جبريل ﴿ إِنْ عَبْدِي ﴾ أي : عبد الله محمد ؛ لأنه يرى أن الذي ﴿ دَنَا فَذَلَّ ﴾ هو جبريل ، وأنه هو الذي أوحى إلى محمد ، وكلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله ، أوحى إلى عبده محمد ، ومنهم من قال : إلى جبريل ^(١) .

* * *

(١) فتح الباري (٨/ ٧٨٦) .

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رآه عيناه، وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده وبصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك. وفيها قراءتان: إحداهما بتخفيف كذب، والثانية بتشديدها، يقال: كذبت عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده: إذا أخلف ما ظنه وحده؛ قال الشاعر:

كذبتك عينك، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالاً
أي: أرتك ما لا حقيقة له. فنفي هذا عن رسوله، وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه، و(ما) إما أن تكون مصدرية، فيكون المعنى: ما كذب فؤاده رؤيته، وإما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه. وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر، وتوافقهما، وتصديق كل منهما لصاحبه. وهذا ظاهر جداً في قراءة التشديد. وقد استشكلها طائفة منهم المبرد، وقال: في هذه القراءة بعد. قال: لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضاً بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه؛ فإنه إذا كان الشيء في القلب معلوماً، فكيف يكون معه تكذيب؟

قلت: وجواب هذا من وجهين: أحدهما: أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه، إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه، كما تكذبه عينه، فيقال: كذبه قلبه، وكذبه ظنه، وكذبت عينه. فنفي سبحانه ذلك عن رسوله، وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه، كمن رأى الشيء على حقيقة ما هو به؛ فإنه يصح أن يقال: لم تكذبه عينه.

الثاني: أن يكون الضمير في ﴿رَأَى﴾ عائداً إلى الرأي لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه البصر. وهذا بحمد الله لا إشكال فيه. والمعنى ما

كذب الفؤاد ما رآه بالبصر، بل صدقه. وعلى القراءتين فالمعنى: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، ولا اتهم بصره^(١).

فصل في بيان اختلاف الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم من أهل التأويل في المراد بالذي لم يكذب فؤاد النبي ﷺ رؤيته

* عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ قال: «رأى ﷺ جبريل في حلة من رفر ف أخضر، قد ملأ ما بين السماء والأرض»^(٢).

★ غريب الحديث:

رفر: أي: بساطاً، وقيل: فراشاً، أراد شيئاً كان يحجب بينه وبين الأفق^(٣).
* عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ «ولقد رآه نزلة أخرى» ﴿١٢﴾ قال: «رآه بفؤاده مرتين»^(٤).

★ فوائد الحديثين:

في هذين الأثرين من الفوائد: اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في الذي لم يكذب فؤاد النبي ﷺ رؤيته في هذه الآية. قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي رآه فؤاده فلم يكذبه، فقال بعضهم: الذي رآه فؤاده رب العالمين، وقالوا: جعل بصره في فؤاده، فرآه بفؤاده ولم يره بعينه»^(٥).

قلت: وهو قول ابن عباس وأبي صالح والسدي وغيرهما.

قال ابن كثير: «وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٥١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/٣٩٤ و٤١٨)، والترمذي (٥/٣٦٩ و٣٧٠٢)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٣ و١١٥٤١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/٣٥٥-٣٥٦/٥٩)، والحاكم (٢/٤٦٨-٤٦٩) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وهو عند البخاري مختصراً (٨/٧٨٦ و٤٨٥٨) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَى مِنْ مَلَائِكَةِ رَبِّهِ الْكَرْبَةَ» ﴿١١﴾ قال: «رأى رفر فأ أخضر قد سد الأفق».

(٣) النهاية (٢/٢٤٣).

(٤) النجم: الآية (١٣).

(٥) أخرجه: أحمد (١/٢٢٣)، ومسلم (١/١٥٨ و١٧٦ [٢٨٥])، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٢ و١١٥٣٥).

(٦) جامع البيان (٢٧/٤٧).

بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب؛ فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم، وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر، والله أعلم^(١).

قال ابن جرير: «وقال آخرون: بل الذي رآه فؤاده فلم يكذبه جبريل عليه السلام»^(٢). ثم رواه عن ابن مسعود وقتادة.

قال السعدي: «ولكن الصحيح.. أن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً عليه السلام رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين: مرة في الأفق الأعلى، تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله عليه السلام، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾^(٣) أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى نازلاً إليه»^(٤).

وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن خزيمة، فقال بعد ذكره أثر ابن عباس: «احتج بعض أصحابنا بهذا الخبر أن ابن عباس رضي الله عنه وأبا ذر كانا يتأولان هذه الآية أن النبي عليه السلام رأى ربه بفؤاده؛ لقوله بعد ذكر ما بينا: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(٥) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ^(٦). وتأول أن قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾^(٧) إلى قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(٨) أن النبي عليه السلام دنا من خالقه عز وجل قاب قوسين أو أدنى، وأن الله عز وجل أوحى إلى النبي عليه السلام ما أوحى، وأن فؤاد النبي عليه السلام لم يكذب ما رأى يعنون رؤيته خالقه -جل وعلا-.

وليس هذا التأويل الذي تأولوه لهذه الآية بالبين، وفيه نظر؛ لأن الله إنما أخبر في هذه الآية أنه رأى من آيات ربه الكبرى، ولم يعلم الله في هذه الآية أنه رأى ربه -جل وعلا-، وآيات ربنا ليس هو ربنا -جل وعلا-، فتفهموا لا تغالطوا في تأويل هذه الآية»^(٩).

(١) التفسير (٧/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٤٩).

(٣) النجم: الآية (١٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٠٦).

(٥) كتاب التوحيد (٢/ ٤٩٢).

ثم قال : «والدليل على صحة ما ذكرت أن آيات ربنا الكبرى غير جائز أن يتأول أن آيات ربنا هي ربنا . . فأخبار ابن مسعود دالة على أن قوله : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَابَتِ رَبِّيَ الْكَذِبَ﴾^(١) تأويله : أي : رأى جبريل على الصفة التي ذكرت في هذه الأخبار»^(٢).

* * *

(١) النجم : الآية (١٨).

(٢) كتاب التوحيد (٢/٥٠٨).

قوله تعالى: ﴿أَفْتَمْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ﴿١٢﴾

★ غريب الآية:

أفتمارونه: أي: أفتجادلونه. والمرء: الجدال. قال الشاعر:
وإيساك إيساك المرء فإنه إلى الشر دعاء وللشر جالب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم أنكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه، كما ينكر على الجاهل مكابرتة للعالم ومماراته له على ما علمه. وفيها قراءتان: (أفتمارونه) و(أفتمرونه) وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع، يقول: مريت الرجل حقه: إذا جحدته، كما قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة لقد مريت أخا ما كان يمريكا
ومنه المماراة، وهي المجادلة والمكابرة. ولهذا عدى هذا الفعل بـ(على) وهي على بابها، وليست بمعنى (عن) كما قاله المبرد، بل الفعل متضمن معنى المكابرة. وهذا في قراءة الألف أظهر، ورجح أبو عبيدة قراءة من قرأ: ﴿أَفْتَمْرُونَهُ﴾ قال: وذلك أن المشركين إنما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي، وهذا كان أكثر من المماراة منهم، يعني أن من قرأ: ﴿أَفْتَمْرُونَهُ﴾ فمعناه: أفتجادلونه؟ ومن قرأ: أفتمرونه معناه أفتجحدونه، وجحودهم لما كان هو جحدهم، وكان أكثر من مجادلته لهم، وخالفه أبو علي وغيره واختاروا قراءة: أفتمرونه، قال أبو علي: من قرأ أفتمارونه، فمعناه: أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده، ويقوي هذا الوجه قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾^(١) ومن قرأ: أفتمرونه كان المعنى: أفتجحدونه؟ قال: والمجادلة كأنها أشبه في هذا؛ لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره. وقد جادله المشركون في الإسراء.

(١) الأنفال: الآية (٦).

قلت : القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار . فكان جدالهم جدال جحود ودفع لا جدال استرشاد وتبين الحق ، وإثبات الألف يدل على المجادلة ، والإتيان بـ(على) يدل على المكابرة ، فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعًا ، فهي أولى ، وبالله التوفيق»^(١) .

قال القاسمي : «أي : أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه .

قال القاشاني : أي : أفتخاصمونه على شيء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفي والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا مخاصمة حقيقة . انتهى . وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبي ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهاها ، وإنما عليهم الإيمان بها ، والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجمله ، فالمراد أنه لا يصح المجادلة في المرئي ؛ لأنه لا يجوز الجدال في المحسوسات ، لا سيما إذا تعددت المشاهدة لها»^(٢) .

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص : ١٥١-١٥٢) .

(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٢٣٠) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة (سبحان) بما أغنى عن إعادته ها هنا، وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما، كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية. وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم»^(١).

قال السعدي: «﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه. ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ وهي شجرة عظيمة جداً فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاه علم الخلق إليها، أي: لكونها فوق السموات والأرض، فهي المنتهى في علوها، أو لغير ذلك، والله أعلم.

فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة. عند تلك الشجرة ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه الأماني، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة»^(٢).

قال ابن القيم: «ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى استطرد منها، وذكر أن جنة المأوى عندها، وأنه يغشاها من أمره وخلقها ما يغشى، وهذا من أحسن

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٥١/٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٠٦/٧-٢٠٧).

الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جداً في القرآن، وهو نوعان: أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلى لازمه، مثل هذا ومثل قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝﴾^(١)، ثم استطرد من جوابهم إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝﴾^(٢) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝﴾^(٣) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَنْزَجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝﴾^(٤) لِنَسْتَوِيَ عَلَى ظُهُورِهِ ۝﴾^(٥)، وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم. ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَتَمَوَّسُونَ؟ ۚ قَالَ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۝﴾ قال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۝﴾ قال: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝﴾^(٦)، فهذا جواب موسى، ثم استطرد سبحانه منه إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّاكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۝﴾^(٧) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾^(٨) وَمِنَّا خَلَقْنَاهُمْ فِيهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنَّا نُنْخِرُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝﴾^(٩)، ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه.

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع، كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝﴾^(١٠) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝﴾^(١١) إلى آخره، فالأول آدم، والثاني بنوه ومثله قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَاَمَرَتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَبَلًا لَّنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝﴾^(١٢) فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَبَلًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا ۝﴾^(١٣) إلى آخر الآيات، فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما. والله أعلم^(١٤).

وقال: «والمأوى (مفعول) من أوى يأوي: إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به. وقال عطاء عن ابن عباس: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل

(١) الزخرف: الآية (٩).

(٢) طه: الآيات (٥٣-٥٥).

(٣) طه: الآيات (٤٩-٥٢).

(٤) المؤمنون: الآيات (١٢ و ١٣).

(٥) الأعراف: الآيات (١٨٩ و ١٩٠).

(٦) البين في أقسام القرآن (ص: ١٥٨-١٥٩).

والملائكة . وقال مقاتل والكلبي : هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء . وقال كعب :
 جنة المأوى : جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء . وقالت عائشة رضي الله عنها وزر
 ابن حبيش : هي جنة من الجنان ، والصحيح أنه اسم من أسماء الجنة ، كما قال
 تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ ^(١) ،
 وقال في النار : ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَمَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ ﴾ ^(٣) ^(٤) .
 قال السمعاني في قوله : ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ : في الآية دليل على أن الجنة
 في السماء ، وأنها مخلوقة . ومن زعم أنها غير مخلوقة فهو كافر بهذه الآية ^(٥) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا

* عن ابن عباس في قول الله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ قال ابن عباس : «قد
 رآه النبي ﷺ» ^(٦) .

* عن عبد الله عن النبي ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ قال : «رأيت جبريل عليه السلام عند
 السدرة له ستمائة جناح يتناثر منها تهاويل الدر» ^(٧) .

* عن مسروق قال : «كنت متكئا عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة ! ثلاث من
 تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن
 محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئا فجلست ، فقلت :
 يا أم المؤمنين ! أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ^(٨) ،
 ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك
 رسول الله ﷺ ، فقال : «إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير

(١) النازعات : الآيات (٤٠ و ٤١) .

(٢) النازعات : الآية (٣٩) .

(٣) العنكبوت : الآية (٢٥) .

(٤) حادي الأرواح (ص : ٦٧) .

(٥) تفسير القرآن (٢٩١ / ٥) .

(٦) أخرجه : الترمذي (٣٦٩ / ٥ و ٣٢٨٠) ، وقال : «حديث حسن» ، والنسائي في الكبرى (١١٥٣٧ / ٦ و ٤٧٢) ،

وصححه ابن حبان (الإحسان ١ / ٢٥٣ - ٢٥٤ / ٥٧) .

(٧) أخرجه : أحمد (٣٩٥ / ١ و ٤٦٠) ، وأبو يعلى (٤٠٩ - ٤١٠ / ٤٩٩٣) ، والنسائي في الكبرى (٦ / ١١٥٤٢ و ٤٧٣) ،

وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤ / ٣٣٧ و ٦٤٢٨) وقد تقدم قريبا .

(٨) التکویر : الآية (٢٣) .

هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء، ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض»، فقالت: أولم تسمع أن الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١)، أولم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَدِيمٍ﴾ (٢) قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كنتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (٣) قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٤)، (٥).

* عن ابن عباس قال: «أتعجبون أن تكون الخلعة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ» (٦).

* عن أبي هريرة: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ الآية، قال: «رأى جبريل» (٧).

* عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه» (٨).

* فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد:

بيان اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في الذي رآه محمد نزلة أخرى أي مرة أخرى وذلك ليلة الإسراء نحو اختلافهم في قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (٩).

-
- (١) الأنعام: الآية (١٠٣).
 (٢) الشورى: الآية (٥١).
 (٣) المائدة: الآية (٦٧).
 (٤) النمل: الآية (٦٥).
 (٥) أخرجه: أحمد (١/٦١-٤٩/٥٠)، والبخاري (٦/٣٨٥/٣٢٣٤)، ومسلم (١/١٥٩/١٧٧) واللفظ له، والترمذي (٥/٢٤٥/٣٠٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٣٥-٣٣٦/١١١٤٧).
 (٦) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/٤٧٢/١١٥٣٩)، وصححه الحاكم (٢/٤٦٩) على شرط البخاري ووافقه الذهبي.
 (٧) مسلم (١/١٥٨/١٧٥).
 (٨) أخرجه أحمد (٥/١٥٧ و١٧١/١٧٥)، ومسلم (١/١٦١/١٧٨)، والترمذي (٥/٣٦٩/٣٢٨٢).
 (٩) من كلام ابن جرير في تفسيره (٢٧/٥٠) بتصرف.

قال البيهقي: «فاتفقت رواية عبد الله بن مسعود وعائشة بنت الصديق وأبي هريرة رضي الله عنهم على أن هذه الآيات أنزلت في رؤية النبي ﷺ جبريل عليه الصلاة والسلام، وفي بعضها أسند الخبر إلى النبي ﷺ، وهو أعلم بمعنى ما أنزل إليه»^(١).
قال ابن عطية: «وحدث عائشة عن النبي ﷺ قاطع بكل تأويل في اللفظ؛ لأن قول غيرها إنما هو متزع من ألفاظ القرآن»^(٢).

وذهب ابن عباس وتبعه جماعة من السلف والخلف إلى أن الذي رآه محمد ﷺ ليلة الإسراء نزلة أخرى هو الله عز وجل، وإليه مال النووي في شرحه على مسلم تبعاً للقاضي عياض وصاحب «التحرير»، فقال بعد حكاية مذاهب العلماء في رؤية النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء: «فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء؛ لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله، هذا لا ينبغي أن يتشكك فيه، ثم إن عائشة رضي الله عنها لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ، ولو كان معها فيه حديث لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات»^(٣).

قال الحافظ: «وجزمه بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع تبع فيه ابن خزيمة؛ فإنه قال في كتاب «التوحيد» من صحيحه: النفي لا يوجب علماً، ولم تحك عائشة أن النبي ﷺ أخبرها أنه لم ير ربه، وإنما تأولت الآية، انتهى. وهو عجيب، فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم الذي شرحه الشيخ، فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق في الطريق المذكورة: «قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: ألم يقل الله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: إنما هو جبريل»، وأخرجه ابن مردويه من طريق أخرى عن داود بهذا الإسناد: «فقالت: أنا أول من سأل رسول الله ﷺ عن هذا، فقلت: يا رسول الله! هل رأيت ربك؟ فقال: لا، إنما رأيت جبريل منهبطاً»^(٤).

(١) الأسماء والصفات (٢/ ٣٥١-٣٥٢).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ١٩٨).

(٣) شرح مسلم (٦/ ٣).

(٤) فتح الباري (٨/ ٧٨١-٧٨٢).

قال أبو شهبة: «فالسيدة عائشة اعتمدت في إنكارها على أن آية (التكوير) وآية (النجم) المراد بهما أن المرئي جبريل، لا الله سبحانه، اعتمادًا على إخبار رسول الله ﷺ لها بذلك. وكذلك كان ابن مسعود يرى أن المرئي هو جبريل ﷺ».

واعتمدت أيضًا على فهمها واجتهادها في الآيتين الآخرين. أما ما ذهبت إليه من أن آية (التكوير) و(النجم) في رؤية النبي لجبريل فهذا ما لا ننازعها فيه؛ لأن عائشة اعتمدت في ذلك على ما سمعته من رسول الله ﷺ، وما دامت الرواية صحت عن المعصوم ﷺ فلا كلام لأحد مع كلامه.

وليس الأمر كما زعم بعض العلماء من أن عائشة اعتمدت على فهمها واجتهادها في الآيتين؛ لأن رواية مسروق التي سقناها صريحة كل الصراحة في سماعها ذلك من رسول الله. وأما استدلالها بآية (الأنعام): ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ﴾^(١) وآية (الشورى): ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ﴾^(٢) السابقتين، فالظاهر أن هذا باجتهاد منها على حسب ما فهمته، والحق أن الآيتين لا تدلان على نفي الرؤية^(٣).

قلت: وقد تقدم بيان وجه عدم دلالة هذه الآية التي استدلت بها عائشة ﷺ على نفي الرؤية في موضعها من سورة (الأنعام) و(الشورى) فلا معنى لإعادة ذلك هنا، وبالله التوفيق.

«على أنه يمكن الجمع - كما قال الحافظ - بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب، ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم؛ لأنه ﷺ كان عالمًا بالله على الدوام، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما يخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادة بخلقها في العين، وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: «رأى محمد ربه»، وعند مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «نور»، ولأحمد عنه قال: «رأيت نورًا»، ولا بن خزيمة عنه قال: «رآه بقلبه، ولم يره بعينه»، وبهذا يتبين مراد

(١) الأنعام: الآية (١٠٣).

(٢) الشورى: الآية (٥١).

(٣) الإسراء والمعراج (ص: ١١٢-١١٣).

أبي ذر بذكره النور، أي: النور حال بين رؤيته له ببصره»^(١).

قال ابن القيم: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وليس قول ابن عباس: «إنه رآه» مناقضاً لهذا، ولا قوله: «رآه بفؤاده»، وقد صح عنه أنه قال: «رأيت ربي تبارك وتعالى»^(٢) ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله تعالى وقال: نعم رآه حقاً؛ فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد، ولكن لم يقل أحمد -رحمه الله تعالى-: إنه رآه بعيني رأسه يقظة، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرة: رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده، فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك، وأما قول ابن عباس أنه رآه بفؤاده مرتين، فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٣) ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(٤)، والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين في صورته التي خلق عليها، وقول ابن عباس هذا هو مستند الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم»^(٥).

قلت: وجملة القول في هذه الآيات: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾^(٦) أن الضمائر فيها كلها راجعة إلى جبريل عليه السلام، كما قال ابن القيم فيما تقدم من كلامه في أولى هذه الآيات، وهو الذي رجحه ابن كثير، وعوّل عليه عامة المفسرين^(٧).

قال ابن عطية: «والصحيح عندي أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(٨)، فإن ذلك يقضي بمنزلة متقدمة، وما روي قط أن محمداً رأى ربه قبل ليلة الإسراء»^(٩).

قال البيهقي: «وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل عليه السلام أصح»^(١٠).

قال ابن كثير: «وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق؛ فإن أبا

(٢) سيأتي تخريجه قريباً.

(٤) أفاده القاسمي في محاسن التأويل (١٥/٢٣٣).

(٦) دلائل النبوة (٢/٣٨٥).

(١) فتح الباري (٨/٧٨٣).

(٣) زاد المعاد (٣/٣٧-٣٨).

(٥) المحرر الوجيز (٥/١٩٧).

ذر قال: يا رسول الله! هل رأيت ربك؟ قال: «نور»، وفي رواية: «رأيت نورًا»، أخرجه مسلم، وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَكَ﴾ (٨) إنما هو جبريل عليه السلام، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين وعن ابن مسعود وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية^(١).

قلت: وعلى هذا فلا يصح الاحتجاج بهذه الآيات على إثبات رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء، وإن كانت رؤيته ﷺ ثابتة من جهة أخرى في حديث المنام، كما تقدم من كلام شيخ الإسلام.

* عن أبي موسى قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور - وفي رواية أبي بكر: النار - لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٢).

★ غريب الحديث:

سُبحات: جمع سبحة، ومعنى سبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «هذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له. ولا ينافي هذا قوله في الحديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه»؛ فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه، وهو لو كشف لم يبق له شيء، كما قال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يبق له شيء، وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أنه قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ على عمومها وإطلاقه في الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ذلك أن لا يرى؛ بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك. وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هي عليه، وإن رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق، فالتفاوت الذي بين

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/٤٠٥)، ومسلم (١/١٦١-١٦٢/١٧٩)، وابن ماجه (١/٧٠/١٩٥).

أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم . ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تسافى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي .

وفي الحديث الصحيح المرفوع : « جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آتيتهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »^(١) . فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات . ولا يمنع من أصل الرؤية ، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى . فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة ، وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق . وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات ، لا تفارق ذات الرب جل جلاله . ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه . وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن . وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال .

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة (النجم) هو جبريل .

وأما قول ابن عباس : « رأى محمد ربه بفؤاده مرتين » ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية . وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالت عائشة . فقال - في نقضه على بشر المريسي ، في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت ربي البارحة في أحسن صورة »^(٢) فحكى تأويل المريسي الباطل - ثم قال : وملك إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهب إليه ؛ أما إن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذر : « إنه لم ير ربه » وقال رسول الله ﷺ : « لن تروا ربكم حتى تموتوا »^(٣) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . وأجمع

(١) أخرجه : أحمد (٤/٤١١) ، والبخاري (٨/٨٠٣/٤٨٧٨) ، ومسلم (١/١٦٣/١٨٠) ، والترمذي (٤/٥٨١/٢٥٢٨) ، والنسائي في الكبرى (٤/٤١٩-٤٢٠/٧٧٦٥) ، وابن ماجه (١/٦٦/١٨٦) .

(٢) أخرجه من حديث معاذ بن جبل : أحمد (٥/٢٤٣) ، والترمذي (٥/٣٤٤-٣٤٤/٢٥٣٥) ، وقال : حسن صحيح سألت محمد بن إسماعيل عن هذا فقال : « حسن صحيح » ، وصححه الحاكم (١/٥٢١) ، ووافقه الذهبي ، دون زيادة : « لما كان ليلة أسري بي » .

(٣) أخرجه : أحمد (٥/٣٢٤) ، وأبو داود (٤/٤٩٥/٤٣٢٠) ، والنسائي (٤/٤١٩/٧٧٦٤) ، وقال الألباني : « إسناده جيد » ، ظلال الجنة رقم (٤٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

المسلمون على ذلك، مع قول الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾^(١) يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «صليت ما شاء الله من الليل، ثم وضعت جنبي، فأتاني ربي في أحسن صورة»^(٢) فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم. وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد: هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الإسراء أم لا؟ على ثلاث روايات:

إحداها: أنه رآه، قال المروزي: قلت لأبي عبد الله: يقولون: إن عائشة قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فبأي شيء يدفع قول عائشة؟ فقال: بقول النبي ﷺ: «رأيت ربي» وقول النبي ﷺ أكبر من قولها. قال: وذكر المروزي في موضع آخر أنه قال لأبي عبد الله: ها هنا رجل يقول: إن الله يرى في الآخرة، ولا أقول: إن محمداً رأى ربه في الدنيا، فغضب، وقال: هذا أهل أن يخفى، يسلم الخبر كما جاء. قال: فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين. ونقل حنبل قال: قلت لأبي عبد الله: النبي ﷺ رأى ربه رؤيا حلم بقلبه؟ قال: فظاهر هذا نفي الرؤية. وكذلك نقل الأثرم وقد سأل عن حديث عبد الرحمن بن عائش عن النبي ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة» فقال: معمر مضطرب؛ لأن معمرًا رواه عن أيوب عن معبد عن عبد الرحمن بن عائش عن النبي ﷺ، ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس، ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس، ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبد الرحمن بن عائش عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، ورواه يحيى بن أبي كثير فقال: عن ابن عائش عن معاذ عن النبي ﷺ. وأصل الحديث واحد، قال الأثرم: فقلت لأبي عبد الله: فإلى أي شيء تذهب؟ فقال: قال الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال: (رأى محمد ربه بقلبه). ونقل الأثرم أن رجلاً قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال: لم ير النبي ﷺ ربه تعالى، فأنكره عليه إنسان وقال: لم تقول: رآه، ولا تقول بعينه ولا بقلبه؟ كما جاء الحديث. فاستحسن ذلك الأشيب. فقال أبو عبد الله: حسن. قال: وظاهر هذا إثبات رؤية لا يعقل معناها، هل كانت بعينه أم بقلبه؟.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿١٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن عطية: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿١٤﴾﴾ وقف على جهة التوبيخ والإنكار لحالهم ورأيهم . . . و(الإنسان) في قوله: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ﴾ اسم الجنس، كأنه يقول: ليست الأشياء بالتمني والشهوات، إنما الأمر كله لله، والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه، فليس لكم أيها الكفرة مرادكم في قولكم: هذه آلهتنا وهي تنفعنا وتقربنا زلفى ونحو هذا. وقال ابن زيد والطبري: (الإنسان) هنا: محمد، بمعنى أنه لم ينل كرامتنا بتأمل؛ بل بفضل الله، أو بمعنى: بل إنه تمنى كرامتنا فنالها؛ إذ الكل لله يهب ما شاء، وهذا لا تقتضيه الآيات، وإن كان اللفظ يعمله^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿١٥﴾﴾ أي: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن^(٢)».

قال الشنقيطي: «بيّن - جل وعلا - في هذه الكريمة أن له الآخرة والأولى وهي الدنيا، وبيّن هذا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٦﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٧﴾﴾ وبيّن في موضع آخر أن له كل شيء، وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْئًا ﴿١٨﴾﴾، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة^(٣)».

* * *

(١) المحرر الوجيز (٥/٢٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٣٤).

(٣) الليل: الآيتان (١٢ و ١٣).

(٤) النمل: الآية (٩١).

(٥) أضواء البيان (٧/٧٠٤).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (١٦)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (١٦) أي: يغشاها من أمر الله شيء عظيم لا يعلم من وصفه إلا الله عز وجل^(١).

قال صديق حسن خان: «وفي إبهام الموصول وصلته من التفخيم والتكثير للغواشي ما لا يخفى، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله تعالى وجلالته، أشياء لا يحيط بها الوصف، ولا يكتنفها نعت، ولا يحصيها عدد»^(٢).

قال أبو السعود: «وفي إبهام ما يغشى من التفخيم ما لا يخفى، وتأخير عن المفعول للتشويق إليه، أي: ولقد رآه عند السدرة وقت [غشيتها] ما غشيتها مما لا يكتنفه الوصف ولا يفي به البيان كيفاً ولا كمّاً. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، وللإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد»^(٣).

وقال القرطبي في هذه الآية: «قيل: هو تعظيم الأمر؛ كأنه قال: إذ يغشى السدرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته. وهكذا قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١٦)»، ﴿وَالْمُؤَنِّكَ أَمْوَىٰ﴾ (٥٣) ﴿فَنَشْنَهَا مَا غَشَّى﴾ (٥٤)»، ومثله: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ (١) ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ (٦).

وقال الماوردي في «معاني القرآن» له^(٧): فإن قيل: لم اختيرت السدرة لهذا

(٢) فتح البيان (١٣/٢٥٤).

(٤) النجم: الآية (١٠).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢٠٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/١٥٧).

(٥) النجم: الآيتان (٥٣ و ٥٤).

(٦) الحاقة: الآيتان (٢ و ١).

(٧) وانظر كلامه في (٥/٣٩٦) تفسيره الموسوم بـ«النكت والعيون».

الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأن السدرة تختص بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيد، ورائحة ذكية، فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً وعملاً ونية، فظلمها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النية لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما أعطيه الرسول ﷺ

عند سدرۃ المنتهى

* عن ابن مسعود قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرۃ المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَنْشَى السِّدْرَةَ مَا يَنْشَى﴾ ﴿١١﴾ قال: فراش من ذهب، قال: فأعطني رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطني الصلوات الخمس، وأعطني خواتيم سورة (البقرة)، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحّمات»^(٢).

* غريب الحديث:

فراش من ذهب: الفراش: كل ما يضر من الحشرات والديدان^(٣).
المقحّمات: بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء، ومعناه: الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها، وتوردهم النار، وتقحّمهم إياها، والتقحّم: الوقوع في المهالك^(٤).

* فوائد الحديث:

قال النووي: «قوله: «انتهى به إلى سدرۃ المنتهى، وهي في السماء السادسة» كذا هو في جميع الأصول: السادسة، وقد تقدم في الروايات الأخر من حديث أنس أنها فوق السماء السابعة، قال القاضي: كونها في السابعة هو الأصح وقول

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩٧/١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٢/٣٨٧/١)، ومسلم (١٧٣/١٥٧/١)، والترمذي (٣٢٩٦/٣٦٦/٥) وقال: «حسن

صحيح»، والنسائي (٤٥٠/٢٤٣/١).

(٣) المفهم (٣٩٥/١).

(٤) شرح مسلم للنووي (٣/٣).

الأكثرين وهو الذي يقتضيه المعنى . . قلت : ويمكن أن يجمع بينهما فيكون أصلها في السادسة ومعظمها في السابعة فقد علم أنها في نهاية من العظم . وقد قال الخليل رحمه الله : هي سدرة في السماء السابعة قد أظلت السموات والجنة»^(١) .

قال ابن أبي جمرة : «وإنما سميت بهذا الاسم لأن إليها تنتهي الأعمال ، ومن هناك ينزل الأمر وتلقى الأحكام ، وعندها تقف الحفظة وغيرهم ولا يتعدونها ، فكانت منتهى ؛ لأن إليها ينتهي ما يصعد من السفلى ، وما ينزل من العالم العلوي من أمر العلي»^(٢) .

وقال القاضي عياض : «وتسميتها بالمنتهى قال كعب : هي في أصل العرش ، إليها ينتهي علم كل ملك مقرب أو نبي مرسل ، وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله ، وقيل : إليه تنتهي أرواح الشهداء ، وقال ابن عباس : «هي عن يمين العرش» ، وقيل : إليها ينتهي كل من كان على سنة محمد ﷺ ، وقال الخليل : هي سدرة في السماء السابعة لا يجاوزها ملك ولا نبي ، قد أظلت السموات والجنة»^(٣) .

قلت : وفي حديث أنس الطويل مزيد بيان لصفة نبقتها وورقها وفيه : «نبقتها مثل قلال هاجر ، وورقها كأذان الفيلة»^(٤) .

قال ابن أبي جمرة : «النبق هو الطعم الذي تطعم هذه الشجرة ، وقدره قدر قلة هجر ، وقلة هجر أكبر أواني أهل الأرض من جنسها على ما كان أهل الحجاز يعهدون ، وإنما شبه ﷺ بنبقتها بالقلال وورقها بأذان الفيلة ؛ لأنه ليس في الدنيا ما يشبههما من جنسها ، فأشار إلى ذلك ليعلم قدرها ، وأما جنسها فلا يتوصل إليه إلا من أطلعه الله عز وجل عليها ، أو يراها في الآخرة إن شاء الله تعالى»^(٥) .

قوله : ﴿إِذْ يَنْشَى اللَّيْذَرَةُ مَا يَنْشَى﴾ ❶ قال : فراش من ذهب .

قال الحافظ : «قال الله تعالى : ﴿إِذْ يَنْشَى اللَّيْذَرَةُ مَا يَنْشَى﴾ ❷ قال : «فراش من ذهب» كذا فسر المبهم في قوله : ﴿مَا يَنْشَى﴾ بالفراش ، ووقع في رواية يزيد بن أبي

(١) شرح مسلم للنووي (٣/٣) .

(٢) بهجة النفوس (٣/١٩٨) .

(٣) الإكمال (١/٥٩٥) .

(٤) أخرجه : أحمد (٤/٢٠٧-٢٠٨) ، والبخاري (٦/٢٥٥-٢٥٦/٣٨٨٧) ، والنسائي (١/٢٣٧-٢٤١/٤٤٧) من

(٥) بهجة النفوس (٣/١٩٨) .

حديث مالك بن صعصعة ؓ .

مالك عن أنس : «جراد من ذهب» ، قال البيضاوي : «وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل ؛ لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه ، وجعلها من الذهب لصفاء لونها وإضاءتها في نفسها» انتهى . ويجوز أن يكون من الذهب حقيقة ، ويخلق فيه الطيران ، والقدرة صالحة لذلك . وفي حديث أبي سعيد وابن عباس : «يغشاها الملائكة» ، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي : «على كل ورقة منها ملك» ، ووقع في رواية ثابت عن أنس عند مسلم : «فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها» ، وفي رواية حميد عن أنس عند ابن مردويه نحوه ، لكن قال : تحولت ياقوتاً ونحو ذلك»^(١) .

قال القاضي عياض : «وفي رواية ابن جريج : «غشيها فراش من ذهب ، وأرخت عليها ستور من لؤلؤ وياقوت وزبرجد» ، وزاد بعضهم في روايته : فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتاً أو نحو هذا»^(٢) .

وقال ابن هبيرة : «وقوله : «غشيها فراش من ذهب» فالذي أراه أن أنواراً تلالأت فيها لورود رسول الله ﷺ فبلغ ذلك إلى أن غشيها فراش ؛ لأن الفراش من شأنه موافقة الأضواء ، وهذا مما أخبر الله تعالى به من كثرة الأنوار تلك الليلة ، وكونه فراشاً من ذهب لكون الذهب مناسباً لون الأنوار ، فلو كان من فضة لأثر لمخالفته في لون الأنوار ، وهذا مما يدل على شرف مقام النبي ﷺ ، وأن الفرق ما بين سدرة المنتهى وشجرة موسى ﷺ فرق ما بين المنزلتين»^(٣) .

قال الطيبي : «فإن قلت : كيف التوفيق بين هذا وبين قوله في غير هذا الحديث : «فغشيها ألوان لا أدري ما هي؟» .

قلت : قوله : «غشيها ألوان لا أدري ما هي؟» في موقع قوله : ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾^(٤) في إرادة الإبهام للتفخيم والتهويل ، وإن كان معلوماً ، كما في قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلَيمٍ مَا غَشِيَهُمْ﴾^(٥) في حق فرعون ثم قوله : «فراش من ذهب»

(١) فتح الباري (٧/ ٢٧٠) .

(٢) الإكمال (١/ ٥٢٥) .

(٣) الإنصاح (٢/ ١١٨-١١٩) .

(٤) طه : الآية (٧٨) .

بيان له^(١).

قال ابن هبيرة: «وأعطي الصلوات الخمس» وهذا مختصر، وسيأتي في حديث المعراج مشروحاً، وأنها كانت خمسين، وإنما ردت إلى خمس وجعل لها ثواب الخمسين^(٢).

قال الحافظ: «والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به رأى في تلك الليلة تعبد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد والراكم فلا يسجد والساجد فلا يقعد، فجمع الله له ولأمته تلك العبادات كلها في كل ركعة يصلّيها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة، وقال: وفي اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إشارة إلى عظيم بيانها، ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة، بل بمراجعات تعددت على ما سبق بيانه^(٣).

قال السهيلي: «وأما فرض الصلاة عليه هنالك، ففيه التنبيه على فضلها، حيث لم تفرض إلا في الحضرة المقدسة، ولذلك كانت الطهارة من شأنها، ومن شرائط أدائها، والتنبيه على أنها مناجاة الرب، وأن الرب تعالى مقبل بوجهه على المصلي يناجيه، يقول: حمدني عبدي، أثنى عليّ عبدي إلى آخر السورة، وهذا مشاكل لفرضها عليه في السماء السابعة حيث سمع كلام الرب، وناجاه، ولم يعرج به حتى طهر ظاهره وباطنه بماء زمزم كما يتطهر المصلي للصلاة، وأخرج عن الدنيا بجسمه، كما يخرج المصلي عن الدنيا بقلبه، ويحرم عليه كل شيء إلا مناجاة ربه وتوجهه إلى قبلته في ذلك الحين، وهو بيت المقدس، ورفع إلى السماء كما يرفع المصلي يديه إلى جهة السماء إشارة إلى القبلة العليا فهي البيت المعمور، وإلى جهة عرش من يناجيه ويصلي له سبحانه^(٤).

قوله: «وأعطي خواتيم سورة (البقرة)»: قال ابن هبيرة: «وأما خواتيم سورة (البقرة) فإنها من عتيد النعم؛ لأنها ليست في القرآن ما اتصلت فيه الأدعية أكثر

(١) الكاشف (١٢/٣٧٥٢).

(٢) الإنصاح (١١٩/٢).

(٣) فتح الباري (٧/٢٧٤).

(٤) الروض الأنف (٢/١٥٩).

منها؛ لأنه قال سبحانه فيها: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾^(١) إلى آخر الآية، فجمعت الاستعاذة من النسيان والخطأ وحمل الإصر وإن كان حمله من كان قبلنا، والاستعاذة من تحمل ما لا طاقة لنا به، ثم طلب العفو، وإرداف ذلك بطلب المغفرة، ثم بسؤال الرحمة، ثم ختم ذلك كله بسؤال النصر على القوم الكافرين، وكأن الله تعالى بإنزال هذا علمهم أن ادعوني بكذا وكذا، أفيظن ظان أن الله تعالى لقننا هذا الدعاء لندعوه به إلا وهو سبحانه يجيب حتمًا، إن الله على ما يشاء قدير^(٢).

قال الطيبي: «قوله: «خواتيم سورة (البقرة)» قال التوربشتي: ليس معنى قوله: «أعطي» أنها نزلت عليه، بل المعنى أنه استجيب له فيما لقن في الآيتين من قوله سبحانه: ﴿عُفِّرْنَاكَ رَبَّنَا﴾ إلى قوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٣) ولمن يقوم بحقها من السائلين.

أقول: في كلامه إشعار بأن الإعطاء بعد الإنزال؛ لأن المراد منه الاستجابة، والاستجابة مسبقة بالطلب، والسورة مدنية، والمعراج في مكة، ويمكن أن يقال: إن هذا من قبيل ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(٤) والنزول بالمدينة من قبيل: ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(٥) **﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾** **﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾**^(٦).

قال القاري: «وحاصله أنه وقع تكرار الوحي فيه تعظيمًا له، واهتمامًا بشأنه، فأوحى إليه في تلك الليلة بلا واسطة، ثم أوحى إليه في المدينة بواسطة جبريل، وبهذا يتم أن جميع القرآن نزل بواسطة جبريل، كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾^(٧) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ^(٨) ويمكن أن يحمل كلام الشيخ على أن المراد هنا بالإعطاء استجابة الدعاء مما اشتمل الإتيان عليه، وهو لا ينافي نزولها بعد الإسراء إليه^(٩).

(١) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٣) البقرة: الآيتان (٢٨٥ و ٢٨٦).

(٥) النجم: الآيات (٣-٥).

(٧) الشعراء: الآيتان (١٩٣ و ١٩٤).

(٨) المرقاة (١٠/١٧٨).

(٢) الإنصاح (٢/١١٩).

(٤) النجم: الآية (١٠).

(٦) الكاشف (١٢/٣٧٥٢).

قال الطيبي: «وإنما أوتر الإعطاء لما عبر عنهما بكنز تحت العرش، وروينا عن أحمد بن حنبل عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة (البقرة) من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي»^(١) وكان لنبينا ﷺ مع الله تعالى مقامان يغطهما الأولون والآخرون، أحدهما في الدنيا ليلة المعراج، وثانيهما في العقبى، وهو المقام المحمود، ولا اهتم فيهما بشأن إلا بشأن هذه الأمة المرحومة»^(٢).

قوله: «وغفر لمن لم يشرك بالله من أمتي شيئاً المقحّمات»: قال القاري: «المعنى أنه ﷺ وعد تلك الليلة الكاملة بهذه المغفرة الشاملة، وإن نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) بعد ذلك، فإنه من سورة (النساء) وهي مدنية، ولعل عدم ذكر المشيئة في الحديث لظهور القضية في حكم القديم والحديث»^(٤).

قال النووي: «ومعنى الكلام: من مات من هذه الأمة غير مشرك بالله غفر له المقحّمات. والله أعلم.

والمراد بغفرانها أنه لا يخلد في النار بخلاف المشركين، وليس المراد أنه لا يعذب أصلاً، فقد تقررت نصوص الشرع وإجماع أهل السنة على إثبات عذاب بعض العصاة من الموحدين. ويحتمل أن يكون المراد بهذا خصوصاً من الأمة أي: يغفر لبعض الأمة المقحّمات، وهذا يظهر على مذهب من يقول: إن لفظة (من) لا تقتضي العموم مطلقاً، وعلى مذهب من يقول: لا تقتضيه في الإخبار وإن اقتضته في الأمر والنهي، ويمكن تصحيحه على المذهب المختار وهو كونها للعموم مطلقاً لأنه قد قام دليل على إرادة الخصوص وهو ما ذكرناه من النصوص والإجماع. والله أعلم»^(٥).

(١) أخرجه: أحمد (١٥٠/٥)، والحاكم (٥٦٢/١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعبه الذهبي بقوله: ومعاوية لم يحتج به البخاري ورواه ابن وهب عن معاوية مرسلاً. وجود إسناده الألباني في الصحيحة رقم (١٤٨٢).

(٢) الكاشف (٣٧٥٣/١٢).

(٣) النساء: الآية (٤٨).

(٤) المرقاة (١٧٩/١٠).

(٥) شرح مسلم (٤-٣/٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لقاطع السدر

* عن عبدالله بن حبشي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع سدره صوب الله رأسه في النار»^(١).

* غريب الحديث:

صوب الله رأسه: أي: نكسه.

* فوائد الحديث:

قال البيهقي: «قال أبو داود: يعني: من قطع السدر في فلاة يستظل بها ابن السيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها.

قال الإمام أحمد رحمه الله: وقد قرأت في كتاب أبي الحسن العاصمي روايته عن أبي عبدالله محمد بن يوسف عن محمد بن يعقوب بن الفرجي عن أبي ثور أنه قال: سألت أبا عبدالله الشافعي رحمه الله عن قطع السدر فقال: لا بأس به؛ قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اغسله بماء وسدر»^(٢).

قلت: فالحديث الذي روي في قاطع السدر يكون محمولا على ما حمله عليه أبو داود السجستاني رحمه الله إن صح طريقه، ففيه من الاختلاف ما قدمنا ذكره. وروينا عن عروة بن الزبير أنه كان يقطعه من أرضه، وهو أحد رواة النهي فيشبه أن يكون النهي خاصا كما قال أبو داود رحمه الله، والله أعلم.

وقرأت في كتاب أبي سليمان الخطابي رحمه الله أن إسماعيل بن يحيى المزني رحمه الله سئل عن هذا، فقال: وجهه أن يكون ﷺ سئل عن هجم على قطع سدر لقوم أو ليتيم أو لمن حرم الله أن يقطع عليه فتحامل عليه بقطعه، فاستحق ما قاله، فتكون

(١) أخرجه: أبو داود (٥٢٣٩/٤٠٤/٥)، والنسائي في الكبرى (٨٦١/١٨٥)، وصححه العلامة الألباني (انظر السلسلة الصحيحة (٢/١٧٣/٦١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢١٥/١)، والبخاري (١٧٥/٣)، ومسلم (١٢٠٦/٨٦٥/٢)، وأبو داود (٥٦٠/٣) (٢٢٣٨) (٣/٢٨٦/٩٥١)، والنسائي (٣٣٩-٣٤٠/٤)، وابن ماجه (١٠٣٠/٢/٣٠٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

المسألة سبقت السامع فسمع الجواب ولم يسمع المسألة وجعل نظيره حديث أسامة ابن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الربا في النسيئة»^(١) فسمع الجواب ولم يسمع المسألة، وقد قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل يدا بيد» واحتج المزني بما احتج به الشافعي رحمهما الله من إجازة النبي ﷺ أن يغسل الميت بالسدر ولو كان حراماً لم يجز الانتفاع به، قال: والورق من السدر كالغصن، وقد سوى رسول الله ﷺ فيما حرم قطعه من شجر الحرم بين ورقه وبين غيره، فلما لم أر أحداً يمنع من ورق السدر دل على جواز قطع السدر»^(٢).

قال السيوطي: «والأولى عندي في تأويل الحديث أنه محمول على سدر الحرم كما وقع في رواية الطبراني»^(٣).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢٠٠/٥)، ومسلم (١٢١٧/٣)، والنسائي (٤٥٩٥/٧)، وابن ماجه (٢/

٧٥٨-٧٥٩/٧٥٩).

(٢) السنن الكبرى (١٤١/٦).

(٣) رفع العذر عن قطع السدر. انظر الحاوي (٥٧/٢)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٧/٢).

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾

★ غريب الآية:

ما زاغ: أي: ما عدل يمينا ولا شمالا، ولا مال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «قال ابن عباس: ما زاغ البصر يمينا ولا شمالا، ولا جاوز ما أمر به، وعلى هذا المفسرون، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يمينا وشمالا، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانبا، ولم يمد بصره إلى غير ما أرى من الآيات وما هناك من العجائب؛ بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراره وإقباله على ما رأى دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب وطمانينته. وهذا غاية الكمال، وزيف البصر التفاته جانبا، وطغيانه مده أمامه إلى حيث ينتهي، فزعه في هذه السورة علمه من الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيف والطغيان، وهكذا يكون المدح:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا»^(١).

وقال: «وفي هذه الآية أسرار عجيبة، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر: تواطأ هناك بصره وبصيرته، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره، فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضا حق مشهود بالبصر، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة، ولهذا قال ﷺ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ أَفَتُؤْمِنُونَ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴿١٢﴾ أي: ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

(١) البيان (١٥٨).

(٢) النجم: الآيتان (١١ و١٢).

ولهذا قرأها أبو جعفر: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) بتشديد الذال، أي: لم يكذب الفؤاد البصر؛ بل صدقه وواطأه؛ لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقا. وقرأ الجمهور: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ بالتخفيف، وهو متعذر. و﴿مَا رَأَى﴾ مفعوله أي: ما كذب قلبه ما رآته عيناه؛ بل واطأه ووافقه. فلمواطأة قلبه لقلبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده فيطغى، ولم يمل عن المرئي فيزيغ بل اعتدل البصر نحو المرئي ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عما سواه؛ فإنه أقبل على الله بكليته. وللقلب زيغ وطغيان كما للبصر زيغ وطغيان. وكلاهما منتف عن قلبه وبصره، فلم يزع قلبه التفاتا عن الله إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه. وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه؛ ألا ترى إلى موسى ﷺ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه، فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة.

ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه. وقال: «يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على الله. وهذا قد جاوزني وخلفني علوا. فلو أنه وحده ولكن معه كل أمته». وفي رواية للبخاري: «فلما جاوزته بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكي أن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»^(١) ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة، ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلا لحال راكمه، وبعد شأوه الذي سبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

(١) أخرجه: أحمد (٤/٢٠٧-٢٠٨)، والبخاري (٧/٢٥٥-٢٥٧/٣٨٨٧)، ومسلم (١/١٤٩-١٥١/١٦٤)، والترمذي (٥/٤١٢-٤١٣/٣٣٤٦)، والنسائي (١/٢٣٧-٢٤٠/٤٤٧) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

فلم يزل في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته له، حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق، وجاور سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصببت إليه هناك أقسام القرب انصباباً، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً، وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً يغبطه به الأولون والآخرين، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، ما زاغ البصر عنه وما طغى. فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى. وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾^(١) فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم^(٢).

قال ابن كثير: «وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة؛ فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنة المأوى وما فوقها، ولو رأى غيره ما قد رآه لتأها»^(٣).

* * *

(١) يس: الآيات (١-٤).

(٢) مدارج السالكين (٢/٣٨٢-٣٨٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٢٩).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَابَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿١٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَابَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿١٨﴾، كقوله: ﴿لِرَبِّكَ مِنْ ءَابَتِنَا﴾^(١) أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَابَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿١٨﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة (سبحان)^(٢)».

* * *

(١) طه: الآية (٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ ﴿١٨﴾ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْآخَرَىٰ ۖ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «لما زكى تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا (اللات) من (الإله) المستحق للعبادة، و(العزى) من (العزیز) و(مناة) من (المنان)، إلحاداً في أسماء الله، وتجرياً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة من المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها»^(١).

قال صديق حسن خان: «﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ ﴿١٨﴾﴾ أي: أخبروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله: هل لها قدرة توصف بها؟ وهل أوحى إليكم شيئاً كما أوحى الله إلى محمد ﷺ؟ أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع؟ وقال أبو السعود: الهمزة للإنكار، والفاء لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ما ذكر من شؤونه تعالى المنافية لها غاية المنافاة، والمعنى: أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمته، وإحكام قدرته، ونفاذ أمره في الملأ الأعلى، وما تحت الشرى، وما بينهما، رأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وذلتها شركاء لله؟ على ما تقدم من عظمته»^(٢).

قال الفوزان: «الآية تدل على منع التبرك بالأحجار، ومنع التبرك بالقبور، وما زال هذا الصنم يُعبد من دون الله إلى أن فتح النبي ﷺ مكة في السنة الثامنة من

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢٠٨-٢٠٩).

(٢) فتح البيان (١٣/٢٥٥).

الهمجرة، وأمر بهدم هذا الصنم كغيره من الأصنام التي هدمت»^(١).
أورد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمته الله هذه الآيات في كتاب التوحيد له تحت ترجمة بعنوان: «باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما».

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: «ومطابقة الآيات للترجمة: من جهة أن عبّاد هذه الأوثان أنهم كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها، ودعائها، والاستعانة بها، والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها، ويؤملونه ببركاتها، وشفاعتها وغير ذلك، فالتبرك بقبور الصالحين كالللات، وبالأشجار، كالعزى ومناة من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك. فאלله المستعان»^(٢).

قال الفوزان: «والشاهد من الآية الكريمة: بطلان التبرك بالأشجار والأحجار؛ لأن هذه أشجار وأحجار، ولم تدفع عن نفسها فضلاً عن أن تدفع عن غيرها».

ففي هذا: بطلان التبرك بالأحجار والأشجار، وفيه: أن من تبرك بحجر أو شجر يعتقد فيه أنه ينفع ويضر من دون الله، أو تقرب إليه بشيء من العبادة؛ فهو مثل من عبد اللات والعزى سواء، ولا فرق، بل من غلا في قبر من القبور فهو كمن عبد اللات؛ لأن اللات - على التفسير الثاني - هو رجل صالح، غلوا فيه بعد موته، فالذين يعبدون القبور اليوم مثل الذين يعبدون اللات سواء بسواء، والقرآن واضح في هذا، لكن يحتاج إلى التدبر، ونبذ التقاليد والعادات والبيئات الفاسدة، والتحرر من الخرافات والأباطيل، ورجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ففيهما الشفاء للقلوب»^(٣).

قال سليمان آل الشيخ: «ذكر صفة هذه الأوثان ليعرف المؤمن كيفية الأوثان،

(١) إعانة المستفيد (١/٢١٦).

(٢) فتح المجيد (ص: ١٦٣).

(٣) إعانة المستفيد (١/٢١٧).

وكيفية عبادتها، وما هو شرك العرب الذين كانوا يفعلونه حتى يفرق بين التوحيد والإخلاص وبين الشرك والكفر، فأما (اللات) فقرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحמיד وأبو صالح ورويس عن يعقوب: (اللات) بتشديد التاء، فعلى الأولى قال الأعمش: سموا (اللات) من (الإله) و(العزى) من (العزى)، قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من الله تعالى، فقالوا: اللات مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وكذا العزى من العزيز، قال ابن كثير: وكانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن هشام: وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى فلم يزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار. وعلى الثانية قال ابن عباس: «كان رجلاً يلت السوق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره»^(١) ذكره البخاري، وقال ابن عباس: «كان يبيع السوق والسمن عند صخرة ويلته عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السوق»، وعن مجاهد نحوه، وقال: «فلما مات عبده»، رواه سعيد بن منصور والفاكهي، وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم عبده، وقال ابن جرير: كان رجل من ثقيف يلت السوق بالزيت، فلما توفي جعلوا إلى قبره وثناً. وبنحو ذلك قال جماعة من أهل العلم، ولا تخالف بين القولين؛ فإن من قال: إنها صخرة، لم ينف أن تكون صخرة على القبر أو حوالية، فعظمت وعبدت تبعاً لا قصداً، فالعبادة إنما أرادوا بها صاحب القبر، فهو الذي عبده بالأصالة، يدل على ذلك ما روى الفاكهي عن ابن عباس: «أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة، فعبدوها، وبنوا عليها بيتاً». فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن، ووازن بينه وبين بناء القباب على القبور، والعكوف عندها، ودعائها، وجعلها ملاذاً عند الشدائد.

وأما العزى فقال ابن جرير: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة

(١) سيأتي تخريجه.

والطائف، كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: «لنا العزى ولا عزى لكم» فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»^(١) وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات، فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئا» فرجع خالد فلما أبصرته السدنة وهم حجبها امتنعوا في الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب على رأسها، فعلاها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «تلك العزى»^(٢).

قال ابن هشام: وكانوا يسمعون منها الصوت، وقال أبو صالح: العزى نخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن، رواه عبد بن حميد وابن جرير، فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن ووازن بينه وبين ما يفعله عباد القبور من دعائها والذبح عندها، وتعليق الخيوط وإلقاء الخرق في ضرائح الأموات ونحو ذلك، فالله المستعان.

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة. وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة، وأصل اشتقاقها من اسم الله المنان، وقيل من منى الله الشيء إذا قدره، وقيل سميت مناة لكثرة ما يمنى أي يراق عندها من الدماء للتبرك بها. قال ابن هشام فبعث رسول الله ﷺ عليا فهدمها عام الفتح. قال ابن اسحق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما يهدي للكعبة، وتطوف بها وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده. قلت: هذا الذي ذكره ابن إسحاق من شرك

(١) أخرجه: أحمد (٢٩٣/٤)، والبخاري (١٩٩/٦-٢٠٠/٣٩)، وأبو داود (١١٧/٣-١١٨/٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (١٨٩/٥-١٩٠/٨٦٣٥).

(٢) أخرجه: أبو يعلى (٩٠٢/٢-٩٩٦/٢)، والنسائي في الكبرى (١١٥٤٧/٦-٤٧٤/٦)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٧٦/٦)، وقال: «رواه الطبراني وفيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف»، وصحح محقق أبي يعلى إسناده.

العرب هو بعينه الذي يفعله عباد القبور؛ بل زادوا على الأولين إذا تبين هذا فمعنى الآية -كما قال القرطبي- إن فيها حذفاً تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله. وقال غيره: ومناة الثالثة الأخرى ذم، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله وقالت أولاهم لأخراهم أي: وضعاؤهم لرؤسائهم^(١).

وقال أيضاً: «فقد رأيت أن سبب عبادة اللات هو الغلو في قبره، حتى صار وثناً يعبد، كما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وغيرهم، وكما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين من الأموات وغيرهم اليوم، فإنهم غلوا فيهم، وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد، وجعلوها ملاذاً لقضاء المآرب، وبالجملية فالغلو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة. وقد أمرنا الله تعالى بمحبة أوليائه، وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم، فلا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نحطهم منها؛ لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم، فإن الشرك بهم غلو فيهم وأنزلوهم منازل الإلهية، وعصوا أمرهم، وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم العاكفين على قبورهم معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، عائبين لها، مشتغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه. وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم، دون عبادتهم وعبادة قبورهم والعكوف عليها كالذين يعكفون على الأصنام واتخاذها أعياداً ومجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات، فإن من اقتفى آثارهم كان متسبباً في تكثير أجورهم باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرّمهم ذلك الأجر، فأبي تعظيم لهم واحترام في هذا؟!»^(٢).

قال ابن القيم: «ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته حتى جعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا هو التشبيه الواقع

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٦٩-١٧٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٤٤-٣٤٥).

في الأمم الذي أبطله الله سبحانه وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله، فهو سبحانه ينفي وينهى أن يجعل غيره مثلاً له ونذراً له، وشبهاً له، لا أن يشبه هو بغيره، إذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلاً لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلاً وشبهت به الخالق، فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بني آدم، وإنما الأول هو المعروف في طوائف أهل الشرك، غلوا فيمن يعظمونه ويحبونه حتى شبهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهية، بل صرحوا أنه إله، وأنكروا جعل الآلهة إلهاً واحداً وقالوا: ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾^(١)، وصرحوا بأنه إله معبود يرجى ويخاف ويعظم ويسجد له ويحلف باسمه وتقرب له القرابين، إلى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى، فكل مشرك فهو مشبه لإلهه ومعبوده بالله سبحانه، وإن لم يشبهه به من كل وجه، حتى إن الذين كفروا وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب كقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) وإن ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(٣)، وإنه استراح لما فرغ من خلق العالم، والذين جعلوا له ولداً وصاحبة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلاً ثم يشبهون به الخالق، بل وصفوه بهذه الأشياء استقلالاً لا قصداً أن يكون غيره أصلاً فيها وهو مشبه به، ولهذا كان وصفه سبحانه بهذه الأمور من أبطل الباطل^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير اللات

* عن ابن عباس رضي الله عنهما : قوله: ﴿الَّلَتَّ وَالْمَرْئِي﴾ : «كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج»^(٥).

* غريب الحديث:

يلت السويق : هو خلطه بالسمن ونحوه .

(١) ص : الآية (٦).

(٢) آل عمران : الآية (١٨١).

(٣) المائدة : الآية (٦٤).

(٤) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٥) أخرجه : البخاري (٨/ ٧٨٧/ ٤٨٥٩).

السويق: هو ما يتخذ من الحنطة والشعير.

★ فوائد الحديث:

أفاد الحديث تفسير اللات، وأنه رجل كان يلت السويق للحاج، وقد تقدم الكلام عليه في توضيح الآية بما أغنى عن إعادته هنا.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الزجر عن الحلف بالأوثان

والتحذير من تعظيمها

★ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليصدق»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية»^(٢).

قال القرطبي: «ولما نشأ القوم على تعظيم تلك الأصنام، وعلى الحلف بها، وأنعم الله عليهم بالإسلام بقيت تلك الأسماء تجري على ألسنتهم من غير قصد للحلف بها، فأمر النبي ﷺ بذلك أن يقول بعده: لا إله إلا الله، تكفيراً لتلك اللفظة، وتذكيراً من الغفلة، وإتماماً للنعمة، وخص اللات بالذكر في هذا الحديث لأنها كانت أكثر ما كانت تجري على ألسنتهم، وحكم غيرها من أسماء آلهتهم حكمها؛ إذ لا فرق بينها»^(٣).

قال الخطابي: «إنما أوجب قول (لا إله إلا الله) على من حلف باللات والعزى شفقةً من الكفر أن يكون قد لزمه؛ لأن اليمين إنما تكون بالمعبود الذي يعظم، فإذا

(١) أخرجه: أحمد (٣٠٩/٢)، والبخاري (٧٨٧/٨)، ومسلم (١٢٦٧/٣)، وأبو داود (٣/٣٧٨٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٣١/٧).

(٣) المفهم (٦٢٥-٦٢٦/٤).

حلف بهما فقد ضاهى الكفار في ذلك ، وأمر أن يتداركه بكلمة التوحيد المبرئة من الشرك^(١).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت : إنما كان من أهل لمناة الطاغية التي بالمشلل لا يطوفون بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَمْرَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِ اللَّهِ ﴾^(٢) فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون ، قال سفيان : مناة بالمشلل من قديد ، وقال عبدالرحمن بن خالد عن ابن شهاب : قال عروة : قالت عائشة : نزلت في الأنصار ، كانوا هم وغسان - قبل أن يسلموا - يهلون لمناة مثله ، وقال معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة : كان رجال من الأنصار ممن كان يهل لمناة - ومناة صنم بين مكة والمدينة - قالوا : يا نبي الله ! كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة نحوه^(٣).

* غريب الحديث:

الطاغية : مفرد الطواغي ، وهي ما كانوا يعبدونه من الأصنام وغيرها .
المشلل : بضم أوله وفتح المعجمة هي الثنية المشرفة على قديد ، وقديد بقاف مصغر قرية جامعة بين مكة والمدينة كثيرة المياه .

* فوائد الحديث:

قال ابن القيم : « واتخذت العرب الأصنام ، فكان أقدمها مناة ، وقد كانت العرب تسمى « عبد مناة » و « زيد مناة » ، وكان منصوبًا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعها تعظمه ، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له ، وكان أولاد معد على بقية من دين إسماعيل ، وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه ، ولم يكن أحد أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج »^(٤).

(٢) البقرة: الآية (١٥٨).

(١) أعلام الحديث (٣/١٩١٨).

(٣) أخرجه : أحمد (٦/١٦٢) ، البخاري (٨/٧٨٨-٧٨٩/٤٨٦١) ، ومسلم (٢/٩٢٨/١٢٧٧) ، والترمذي (٥/١٩٢-٢٩٦٥) وقال : « حسن صحيح » ، والنسائي (٥/٢٦٣-٢٦٤/٢٩٦٧-٢٩٦٨).

(٤) إغاثة اللهفان (٢/٣٠٤).

قلت: وقول عائشة رضي الله عنها: «إنما كان من أهل لمناة الطاغية التي بالمشلل لا يطوفون بين الصفا والمروة». الحديث، ظاهره صريح في أنهم كانوا في الجاهلية لا يطوفون بين الصفا والمروة، ويقتضون على الطواف بمناة، فسألوا عن حكم الإسلام في ذلك. وفي لفظ لمسلم: «إنما كان ذلك لأن الأنصار كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر، يقال لهما: إساف ونائلة، فيطوفون بين الصفا والمروة، ثم يحلون، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما؛ للذي كانوا يصنعون في الجاهلية» فهذه الرواية تقتضي أن تخرجهم إنما كان لثلاث يفعلوا في الإسلام شيئاً كانوا يفعلونه في الجاهلية؛ لأن الإسلام أبطل أفعال الجاهلية إلا ما أذن فيه الشارع، فهذه الرواية توجيهها ظاهر بخلاف الرواية الأولى، فإنها تقتضي أن التخرج عن الطواف بين الصفا والمروة لكونهم كانوا لا يفعلونه في الجاهلية، ولا يلزم من تركهم فعل شيء في الجاهلية أن يتخرجوا من فعله في الإسلام.

ويحتمل أن يكون الأنصار في الجاهلية كانوا فريقين: منهم من كان يطوف بينهما على ما اقتضته الرواية الثانية، ومنهم من كان لا يقربهما على ما اقتضته الرواية الأولى، واشترك الفريقان في الإسلام على التوقف عن الطواف بينهما لكونه كان عندهم جميعاً من أفعال الجاهلية، فيجمع بين الروایتين بهذا، وقد أشار إلى نحو هذا الجمع البيهقي، والله أعلم^(١).

قال الكاندهلاوي: «قلت: وهذا الجمع أولى مما ذكره الحافظ من الاحتمال الثاني من الحذف واختصار في الروايات، ويؤيده أيضاً ما في رواية البخاري وغيره من الزيادة في حديث الباب، قال الزهري: فأخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إن هذا لعلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجلاً من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة رضي الله عنها ممن كان يهل لمناة كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة.

قال الجصاص في أحكام القرآن: كان السبب في نزول هذه الآية عند عائشة سؤال من كان لا يطوف بهما في الجاهلية لأجل إهلاله لمناة، وعلى ما ذكره ابن عباس وأبو بكر بن عبد الرحمن أن ذلك كان لسؤال من كان يطوف بين الصفا والمروة، وقد كان عليهما الأصنام، فتجنب الطواف بهما بعد الإسلام، وجائز أن

(١) أفاده الحافظ في الفتح (٣/٦٣٧-٦٣٨) بتصرف.

يكون سبب نزولها سؤال الفريقين انتهى، «فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك» أي: عن السعي بين الصفا والمروة فأنزل الله -تبارك الله وتعالى-: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(١) والحكمة في التعبير بهذا السياق مطابقة جواب السائلين؛ لأنهم توهموا من كونهم كانوا يفعلونه في الجاهلية أنه لا يستمروا في الإسلام فخرج الجواب مطابق لسؤالهم^(٢).

* عن أبي واقد الليثي: «أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٣)، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم»^(٤).

* غريب الحديث:

حُنين: موضع بين الطائف ومكة^(٥).

ذات أنواط: شجرة للمشركين ينوطون بها سلاحهم، أي: يعلقونه بها، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها، فنهاهم عن ذلك^(٦).

* فوائد الحديث:

قال سليمان آل الشيخ: «قوله: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾» إلخ، أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذي طلبوه منه وهو اتخاذ شجرة للعكوف عندها وتعليق الأسلحة بها تبركًا كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى ﷺ حيث قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٧)، فإذا كان

(١) البقرة: الآية (١٥٨).

(٢) أوجز المسالك (٧/ ١٦٠-١٦١).

(٣) الأعراف: الآية (١٣٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٤/ ٤١٢/ ٢١٨٠) واللفظ له وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٦/ ١١٨٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٩٤/ ٦٧٠٢).

(٥) النهاية (٥/ ١٢٨).

(٦) تحفة الأحوذى (٦/ ٣٣٩).

(٧) الأعراف: الآية (١٣٨).

اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والذبح، والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقييلها وتقييل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها، وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركا.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي من أئمة المالكية: فانظروا رحمكم الله أينما وجدت سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها^(١).

وقال الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في «كتاب البدع والحوادث»^(٢): ومن هذا القسم أيضًا ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر. وفي مدينة دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث. ثم ذكر الحديث المتقدم وكلام الطرطوشي الذي ذكرنا.

ثم قال^(٣): ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو اسحق الجبنياني - رحمه الله تعالى - أحد الصالحين ببلاد إفريقية في المائة الرابعة حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبداللّه محمد بن أبي العباس المؤدب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية، كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت:

(١) انظر كلامه في كتابه الحوادث والبدع (ص: ٣٨-٣٩).

(٢) انظر كلامه في كتابه الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص: ١٠١-١٠٢).

(٣) الباعث على إنكار البدع والحوادث (١٠٣-١٠٤).

امضوا بي إلى العافية، فتعرف بها الفتنة، قال أبو عبدالله: فأنا في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها، وأذن الصبح عليها، ثم قال: اللهم اني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأساً. قال: فما رفع لها رأس إلى الآن. قلت: أبو إسحاق الذي هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم بن أحمد بن علي بن أسلم، وكان الإمام أبو محمد بن أبي زيد يعظم شأنه ويقول: طريق أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في الوقت، وكان القابسي يقول: الجبنياني إمام يقتدى به. مات سنة تسع وستين وثلاثمائة.

وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة ثم قال^(١): فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر، أي: تقبل العبادة من دون الله؛ فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، وفي هذه الجملة من الفوائد أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون هذا شركاً ويقع في هذه الأمة؛ فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة. وفيها أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك وإن سمي شركه ما سماه كمن يسمي دعاء الأموات والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيماً ومحبة، فإن ذلك هو الشرك وإن سماه ما سماه، وقس على ذلك. وفيها أن من عبد فهو إله؛ لأن بني إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق، وإنما أرادوا البركة والعكوف عندها، فكان ذلك اتخاذاً له مع الله تعالى. وفيها أن معنى الإله هو المعبود، وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلاً، فنهى عن ذلك فانتهى، لا يكفر، وأن (لا إله إلا الله) تنفي هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة، ذكره المصنف، فكيف بما هو أعظم منه، ففيه رد على الجهال الذين يظنون أن معناها الإقرار بأن الله خالق كل شيء وأن ما سواه

(١) انظر كلامه في إغاثة اللهفان (١/٣٢٩).

مخلوق، ونحو ذلك من العبارات، والإغلاظ على من وقع منه ذلك جهل»^(١).

قوله: «لتركبن...»: قال سليمان آل الشيخ: «وهذا خبر صحيح وجد كما أخبر ﷺ، ففيه دليل على شهادة أن محمدًا رسول الله. وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين، وأنه متقرر عندهم أن العبادات مبناهما على الأمر، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر: أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: ﴿أَجْمَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ إلى آخره، قاله المصنف. وفيه أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة، كما وقع فيمن قبلها، ففيه رد على من قال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة. وفيه سد الذرائع، والغضب عند التعليم، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه لنا لنحذره، ذكر ذلك المصنف»^(٢).

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد (١٧٦-١٧٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٧٨).

قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾

★ غريب الآية:

ضيزى: جائزة ماثلة عن الحق، من ضاز في الحكم: جَارَ، وضَارُهُ حَقُّهُ: نَقَصَهُ وبَحَسَهُ. قال الشاعر:

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عثيمين: «قوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ﴿٢١﴾ هذا أيضًا استفهام إنكاري على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين، فإذا وُلدَ لهم الذكر فرحوا واستبشروا به، وإذا وُلدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسودًا، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات الله، فيجعلون البنات لله -والعياذ بالله- ولهم ما يشتهون»^(١).

قال ابن جرير: «﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ ﴿٢٢﴾ يقول جل ثناؤه: قسمتكم هذه قسمة جائزة غير مستوية، ناقصة غير تامة؛ لأنكم جعلتم لربكم من الولد ما تكرهون لأنفسكم، وأثرتم أنفسكم بما ترضونه..

وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله: ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ قال أهل التأويل، وإن اختلفت ألفاظهم بالعبارة عنها، فقال بعضهم: قسمة عوجاء.. وقال آخرون: قسمة جائزة.. وقال آخرون: قسمة منقوصة.. وقال آخرون: قسمة مخالفة»^(٢).

* * *

(١) القول المفيد (١/١٨٩).

(٢) جامع البيان (٢٧/٦٠-٦١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ ﴿١٣﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ما هذه الأسماء التي سميتوها وهي اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم أيها المشركون بالله، وآباؤكم من قبلكم، ما أنزل الله بها، يعني بهذه الأسماء، يقول: لم يبع الله ذلك لكم، ولا أذن لكم به»^(١).

قال السعدي: «وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان يتقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم الظنُّ الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك، والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي ذلك إلا اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأمانى، ويغترون بأنفسهم»^(٢).

(١) جامع البيان (٢٧/٦١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢٠٩-٢١٠).

قال السيوطي: «قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ استدل بها على أن اللغات توقيفية، ووجهه أن الله تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء بما سموها به، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف لما صح هذا الذم؛ لكون الكل اصطلاحاً منهم»^(١).

قال الشيخ سليمان آل الشيخ: «في هذه الآيات من الدلائل القطعية على بطلان عبادة هذه الطواغيت وأشباهها ما لا مزيد عليه، فسبحان من جعل كلامه شفاءً وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين، منها أنها أسماء مؤنثة دالة على اللين والرخاوة، وما كان كذلك فليس بإله، ومنها أنكم قاسمتم الله بزعمكم فجعلتم له هذه الأسماء المؤنثة شركاء، ودعوتهم له الأولاد، ثم جعلتموهم بنات، واختصصتم بالذكر، فجعلتم له المكروه الناقص، ولكم المحبوب الكامل، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢)، ومنها أنها أسماء سميتوها أنتم وآبائكم وابتدعتموها، ومنها أنها ما أنزل الله بها من سلطان، أي: حجة وبرهان، ومنها أنكم لم تستندوا في تسميتها إلى علم ويقين، وإنما استندتم في ذلك إلى الظن والهوى اللذين هما أصلا الهلاك دنيا وأخرى، ومنها: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾^(٣) أي: بإبطال عبادتها، وما كان كذلك فهو عين المحال البين البطلان، وكل واحد من هذه الأدلة كاف شاف في بطلان عبادتها»^(٤).

* * *

(١) الإكليل (ص: ٢٥٠).

(٢) النحل: الآية (٦٠).

(٣) النجم: الآية (٢٣).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٧٣).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن عطية: «﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾﴾ وقف على جهة التوبيخ والإنكار لحالهم ورأيهم . . و(الإنسان) في قوله: ﴿﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ﴾﴾ اسم الجنس، كأنه يقول: ليست الأشياء بالتمني والشهوات، إنما الأمر كله لله، والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه، فليس لكم أيها الكفرة مرادكم في قولكم: هذه آلهتنا وهي تنفعنا وتقربنا زلفى ونحو هذا. وقال ابن زيد والطبري: (الإنسان) هنا: محمد، بمعنى أنه لم ينل كرامتنا بتأميل؛ بل بفضل الله، أو بمعنى: بل إنه تمنى كرامتنا فنالها؛ إذ الكل لله يهب ما شاء، وهذا لا تقتضيه الآيات، وإن كان اللفظ يعمه»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾﴾﴾ أي: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»^(٢).

قال الشنقيطي: «بيّن - جل وعلا - في هذه الكريمة أن له الآخرة والأولى وهي الدنيا، وبيّن هذا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٧﴾﴾﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٨﴾﴾ وبيّن في موضع آخر أن له كل شيء، وذلك في قوله: ﴿﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَكَذَا الْبَلَدَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْئًا ﴿٤﴾﴾﴾، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة»^(٣).

* * *

(١) المحرر الوجيز (٢٠٢/٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٣٤/٧).

(٣) الليل: الآيات (١٢ و ١٣).

(٤) النمل: الآية (٩١).

(٥) أضواء البيان (٧٠٤/٧).

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ﴿٢٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي﴾ : كثير من ملائكة الله ، لا تنفع شفاعتهم عند الله لمن شفعا له شيئا ، إلا أن يشفعوا له من بعد أن يأذن الله لهم بالشفاعة لمن يشاء منهم أن يشفعوا له ويرضى ، يقول : ومن بعد أن يرضى لملائكته الذين يشفعون له أن يشفعوا له ، فتنفعه حينئذ شفاعتهم ، وإنما هذا توبيخ من الله - تعالى ذكره - لعبدة الأوثان والملا من قريش وغيرهم الذين كانوا يقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(١) فقال الله جل ذكره لهم : ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعا له ، إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له ورضاي ، فكيف بشفاعة من دونهم ، فأعلمهم أن شفاعة ما يعبدون من دونه غير نافعتهم»^(٢).

يقول ابن كثير: «وهذه الآية كقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٣) ، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ﴾^(٤) ، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله ، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه»^(٥).

قال سليمان آل الشيخ: «في هذه الآيات من الرد على من عبد الملائكة والصالحين لشفاعة أو غيرها ما لا يخفى ؛ لأنهم إذا كانوا لا يشفعون إلا بإذن من الله ابتداءً ، فلا ي معنى يُدعون ويُعبدون؟ وأيضاً فإن الله لا يأذن إلا لمن ارتضى

(٢) جامع البيان (٢٧/٦٢).

(١) الزمر: الآية (٣).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٥٨).

(٤) سبأ: الآية (٢٣).

قوله وعمله، وهو الموحد لا المشرك، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَىٰ لَهُ قَوْلًا﴾ (١)، واللَّهُ لا يرتضي إلا التوحيد، كما قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢)، وقال النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: (لا إله إلا الله) خالصاً من قلبه» (٣). فلم يقل: أسعد الناس بشفاعتي من دعاني. فإن قال المشرك: أنا أعلم أنهم لا يشفعون إلا بإذنه، لكن أدعوهم ليأذن الله لهم في الشفاعة لي. قيل: فإن الله لم يجعل الشرك به ودعاء غيره سبباً لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لغضبه، ولهذا نهى عن دعاء غيره في غير آية، كقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ (٤).

فتبين أن دعاء الصالحين من الملائكة والأنبياء وغيرهم شرك، كما كان المشركون الأولون يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله، فانكر الله عليهم ذلك، وأخبر أنه لا يرضاه، ولا يأمر به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ أُتِيعُوا مِنْ الدِّينِ أَتَّبِعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٦) ﴿٧﴾.

قال الرازي: «ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ بمعنى كثير من الملائكة، مع أن كل من في السموات منهم لا يملك الشفاعة؟ نقول: المقصود الرد عليهم في قولهم: هذه الأصنام تشفع، وذلك لا يحصل ببيان أن ملكاً من الملائكة لا تقبل شفاعته، فاكتمى بذكر الكثيرة، ولم يقل: ما منهم أحد يملك الشفاعة؛ لأنه أقرب إلى المنازعة فيه من قوله: (كثير)، مع أن المقصود حاصل به. ثم هاهنا بحث؛ وهو أن في بعض السور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير، وفي البعض يستعمل الكثير والمراد الكل، وكلاهما على طريقة واحدة، وهو استقلال الباقي وعدم الاعتداد، ففي قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (٨) كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

(١) طه: الآية (١٠٩).

(٣) سيأتي تخريجه قريباً.

(٥) آل عمران: الآية (٨٠).

(٧) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٨١-٢٨٢).

(٨) الأحقاف: الآية (٢٥).

(٢) آل عمران: الآية (٨٥).

(٤) يونس: الآية (١٠٦).

(٦) البقرة: الآية (١٦٦).

يَعْلَمُونَ^(١) وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾^(٢) يجعل المخرج غير ملتفت إليه، فيجعل كأنه ما أخرجه كالأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج، وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام، فإن كان الكلام مذكوراً لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل؛ مثاله: يقال للملك: كل الناس يدعون لك، إذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير، وإن كان الكلام مذكوراً لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه؛ لأن المقصود غيره، فلا يستعمل الكل؛ مثاله: إذا قال الملك لمن قال له اغتنم دعائي كثير من الناس يدعون لي؛ إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه، لا لبيان كثرة الدعاء له، فكذاك هاهنا.

قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾، ولم يقل: لا يشفعون مع أن دعواهم أن هؤلاء شفاعونا، لا أن شفاعتهم تنفع أو تغني، وقال تعالى في مواضع أخرى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٣) فنفي الشفاعة بدون الإذن وقال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾^(٤) نفى الشفيع، وهاهنا نفى الإغناء؟ نقول: هم كانوا يقولون: هؤلاء شفاعونا، وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم، كما قال تعالى: ﴿يُقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٥)، ثم نقول: نفى دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة، أما نفى دعواهم لأنهم قالوا: الأصنام تشفع لنا شفاعاة مقربة مغنية، فقال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ بدليل أن شفاعاة الملائكة لا تغني، وأما الفائدة فلأنه لما استثنى بقوله: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ أي: فيشفع، ولكن لا يكون فيه بيان أنها تقبل وتغني أو لا تقبل، فإذا قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ فيكون معناه: تغني فيحصل البشارة؛ لأنه تعالى قال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٧) والاستغفار شفاعاة.

وأما قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فليس المراد نفى الشفاعاة وقبولها كما في هذه الآية حيث رد عليهم قولهم، وإنما المراد عظمة الله تعالى،

(١) النحل: الآية (٧٥).

(٢) سبأ: الآية (٤١).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٤) السجدة: الآية (٤).

(٥) الزمر: الآية (٣).

(٦) غافر: الآية (٧).

(٧) الشورى: الآية (٥).

وأنه لا ينطق في حضرته أحد ولا يتكلم، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾^(١) «(٢)».

وقال: «ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَرَضَى﴾؟ نقول: فيه فائدة الإرشاد، وذلك لأنه لما قال: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كان المكلف متردداً لا يعلم مشيئته فقال: ﴿وَرَضَى﴾ ليعلم أنه العابد الشاكر لا المعاند الكافر؛ فإنه تعالى قال: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾^(٣)، فكأنه قال: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ثم قال: ﴿وَرَضَى﴾ بياناً لمن يشاء، وجواب آخر على قولنا: لا تغني شفاعتهم شيئاً ممن يشاء، هو أن فاعل (يرضى) المدلول عليه لمن يشاء، كأنه قال: ويرضى هو، أي: تغنيه الشفاعة شيئاً صالحاً فيحصل به رضاه، كما قال: ﴿وَرَضَى﴾ هو أي: تغنيه الشفاعة، وحينئذ يكون (يرضى) للبيان؛ لأنه لما قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ إشارة إلى نفى كل قليل وكثير، كان اللازم عنده بالاستثناء أن شفاعتهم تغني شيئاً ولو كان قليلاً، ويرضى المشفوع له ليعلم أنها تغني أكثر من اللازم بالاستثناء، ويمكن أن يقال: ﴿وَرَضَى﴾ لتبيين أن قوله: ﴿يَشَاءُ﴾ ليس المراد المشيئة التي هي الرضا؛ فإن الله تعالى إذا شاء الضلالة بعد لم يرض به، وإذا شاء الهداية رضي فقال: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَى﴾ ليعلم أن المشيئة ليست هي المشيئة العامة، إنما هي الخاصة»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الشفاعة المنفية

وصفة الشفاعة المثبتة

* عن أنس في حديث الشفاعة الطويل وفيه: «ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تُشَفِّعْ»^(٥).

* عن أبي هريرة أنه قال: «قيل: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث

(١) النبأ: الآية (٣٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/٣٠٧-٣٠٨).

(٣) الزمر: الآية (٧).

(٤) المصدر السابق (٢٨/٣٠٨).

(٥) أخرجه: أحمد (١١٦/٣)، والبخاري (٤٨٣/١٣)، ومسلم (٧٤١٠/١)، وابن ماجه (١٩٣/١٨١)، وابن ماجه (٢/١١٢٤٣-١٤٤٣).

(٦) والنسائي في الكبرى (٦/٣٦٤-٣٦٥/١١٢٤٣).

أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه، أو نفسه»^(١).

★ فوائد الحديثين:

قال ابن القيم: «تأمل قول النبي ﷺ لأبي هريرة وقد سأله: «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: (لا إله إلا الله) خالصاً من قلبه» كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله. فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة هو تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً: أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم. ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله. كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢)، وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٣)، وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية: (كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟).

فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله. فالله تعالى لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(٤)، وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاتة والمحبة، كما في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِثْلٌ مِمَّنْ يَتَّبِعُكَ يَوْمَ تَكُونُ الْأَنْفُسُ فِي أَنْفُسِكُمْ رَبِّ أَلْمِ الْفَالِقِينَ﴾^(٥)، وكما في آية (البقرة): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ

(١) أخرجه: أحمد (٣٧٣/٢)، والبخاري (٩٩/٢٩٧/١)، والنسائي في الكبرى (٣/٤٢٦-٤٢٧/٤٢٧-٥٨٤٢)..

(٢) الأنبياء: الآية (٢٨).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٤) الشعراء: الآيتان (٩٧ و٩٨).

(٥) الأنعام: الآية (١).

مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴿١﴾ .

وترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله ؛ فإنه يقول : لا نحبههم كحب الله ، ولا نسويهم بالله ، ثم يغضب لهم ولحرمااتهم -إذا انتهكت- أعظم مما يغضب لله ، ويستبشر بذكرهم ، ويتشبهش به ؛ سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم : من إغائة اللهفات ، وكشف الكربات ، وقضاء الحاجات ، وأنهم الباب بين الله وبين عباده ؛ فإنك ترى المشرك يفرح ويسرّ ويحزنّ قلبه ، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة ، وإذا ذكرت له الله وحده ، وجردت توحيده لحقته وحشة ، وضيق ، وحرّج ، ورماك بنقص الإلهية التي له ، وربما عاداك .

رأينا والله منهم هذا عياناً ، ورمونا بعداوتهم ، وبغوا لنا الغوائل ، والله مخزيهم في الدنيا والآخرة . ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا ، كما قال إخوانهم : عاب آلهتنا ، فقال هؤلاء : تنقصتم مشايخنا ، وأبواب حوائجنا إلى الله . وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ لما قال لهم : «إن المسيح عبد الله» قالوا : تنقصت المسيح وعبته . وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً تعبد ، ومساجد تقصد ، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله ، قالوا : تنقصت أصحابها .

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم ، حتى كأنهم قد تواصلوا به ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَحْدِلْ﴾ وَلِيَا مُرْشِدًا ﴿٢﴾ .

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعاً ، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه : أن من اتخذ من دون الله ولياً ، أو شافعياً ، فهو ﴿كَمَثَلِ الْمَنْكُوبِ﴾ أَخْخَذَتْ بَيْتًا وَلِإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْمَنْكُوبِ ﴿٣﴾ فقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكِ﴾ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٤﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَكُمْ ﴿٥﴾ .

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع . والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريده عابده منه ، فإن لم يكن مالكا

(١) البقرة : الآية (١٦٥) .

(٢) العنكبوت : الآية (٤١) .

(٣) الكهف : الآية (١٧) .

(٤) سبا : الآيتان (٢٢ و٢٣) .

كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفي سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفي الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالهما ونظائرها. ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنون في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يُعقِّبوا وارثاً. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوّبه وحسنه. وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه. فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه. ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة. ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً، والله المستعان^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُوكَ الْمَلَائِكَةَ سَمِيَّةً الْأُنثَى﴾^(١)
وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا^(٢)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «يعني: أن المشركين بالله المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: (الملائكة بنات الله)، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثاً، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزّه عن الأولاد والصاحبة؛ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون إلى الله، قائمون بخدمته ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) والمشركون إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة»^(٢).

قال أبو السعود: «وفي تعليقها [أي: تسميتهم الملائكة بالأنثى] بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة والفضاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً»^(٣).

قال الألوسي في قوله: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾: «استدل بالآية من لم يعتبر التقليد في الاعتقادات - وفيه بحث - والظاهرية على إبطاله مطلقاً، وإبطال القياس ورده على أتم وجه في الأصول، وما أخرج ابن أبي حاتم عن أيوب قال:

(١) التحريم: الآية (٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢١٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٦٠).

قال عمر بن الخطاب: «احذروا هذا الرأي على الدين؛ فإنما كان الرأي من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مصيباً لأن الله تعالى كان يريه، وإنما هو منا تكلف وظن، ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾» هو أحد أدلتهم على إبطال القياس أيضاً، وقد حكى الآمدي في «الأحكام» نحوه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فقال: قال ابن عمر: «اتهموا الرأي عن الدين؛ فإن الرأي منا تكلف وظن، ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾»، وأجاب عنه بأن غايته الدلالة على احتمال الخطأ فيه وليس فيه ما يدل على إبطاله، وأن المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ﴾ إلخ، استعمال الظن في مواضع اليقين، وليس المراد به إبطال الظن بدليل صحة العمل بظواهر الكتاب والسنة، ويقال نحو هذا في كلام عمر رضي الله تعالى عنه، وقد ذكر جملة من الآثار استدلل بها المبطل على ما زعمه، وردھا كلها. فمن أراد ذلك فليراجعه»^(١).

وقال الشوكاني: «فيه دليل على أن مجرد الظن لا يقوم قيام العلم، وأن الظان غير عالم، وهذا في الأمور التي يحتاج فيها إلى العلم، وهي المسائل العلمية، لا فيما يكتفى فيه بالظن، وهي الحقائق العملية، وقد قدّمنا تحقيق هذا. ولا بد من التخصيص؛ فإن دلالة العموم والقياس وخبر الواحد ونحو ذلك ظنية، فالعمل بها عمل بالظن، وقد وجب علينا العمل به في مثل هذه الأمور، فكانت أدلة وجوبه العمل بما فيها مخصصة لهذا العموم، وما ورد في معناه من الذم لمن عمل بالظن والنهي عن اتباعه»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من اتباع الظن

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٣).

(١) روح المعاني (٢٧/٥٩-٦٠).

(٢) فتح القدير (١٥٩/٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٢٤٥)، والبخاري (١٠/٥٩٣/٦٠٦٦)، ومسلم (٤/١٩٨٥/٢٥٦٣)، وأبو داود (٥/

٢١٦-٢١٧/٤٩١٧)، والترمذي (٤/٣١٣/١٩٨٨) مختصراً، وقال: «حسن صحيح».

* فوائد الحديث:

قال القاري: «إياكم والظن» أي: احذروا اتباع الظن في أمر الدين الذي مبناه على اليقين؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^(١)، قال القاضي: التحذير عن الظن فيما يجب فيه القطع أو التحدث به عند الاستغناء عنه أو عما يظن كذبه، اهـ. أو اجتنبوا الظن في التحديث والإخبار، ويؤيده قوله: «فإن الظن»: في موضع الظاهر زيادة تمكين في ذهن السامع حثًا على الاجتناب «أكذب الحديث»: ويقويه حديث: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»^(٢) وقيل: أي: أكذب حديث حديث النفس؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان أو اتقوا سوء الظن بالمسلمين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾^(٣) وهو ما يستقر عليه صاحبه دون ما يخطر بقلبه أن بعض الظن وهو أن يظن ويتكلم إثم فلا تجسسوا، وهو الملائم لقوله: «ولا تحسسوا ولا تجسسوا»^(٤).

وقال الباجي: «وقوله ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث» قال عيسى بن دينار في المزنية: يريد ظن السوء، ومعناه أن تعادي أهلك وصديقك على ظن تظنه به دون تحقيق أو تحدث بأمر على ما تظنه فتنقله على أنك قد علمته. ويحتمل أن يريد به -والله أعلم- أن يحكم في دين الله بمجرد الظن دون إعمال نظر ولا استدلال بدليل، وقد قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٥) وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(٦)، وهذا يقتضي أن منه ما ليس بإثم، وهو ما يوصل إلى الحكم فيه بالنظر والاجتهاد من كان من أهل النظر والاجتهاد، والله أعلم وأحكم»^(٧).

وقال الحافظ: «قال الخطابي وغيره: ليس المراد ترك العمل بالظن الذي تناط به الأحكام غالبًا، بل المراد ترك تحقيق الظن الذي يضر بالمظنون به، وكذا ما يقع في القلب بغير دليل، وذلك أن أوائل الظنون إنما هي خواطر لا يمكن دفعها، وما

(١) يونس: الآية (٣٦).

(٢) أخرجه: مسلم في المقدمة (١/١٠/٥)، وأبو داود (٥/٢٦٥-٢٦٦/٢٦٩٢) من طريق حفص بن عاصم عن

(٣) الحجرات: الآية (١٢).

أبي هريرة ؓ.

(٥) الإسراء: الآية (٣٦).

(٤) المرقاة (٨/٧٦٠).

(٧) المتقى (٧/٢١٦).

(٦) الحجرات: الآية (١٢).

لا يقدر عليه لا يكلف به، ويؤيده حديث: «تجاوز الله للأمة عما حدثت به أنفسها»^(١) وقد تقدم شرحه. وقال القرطبي: المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها، ولذلك عطف عليه قوله: «ولا تجسسوا» وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويستمع، فنهي عن ذلك، وهذا الحديث يوافق قوله تعالى: ﴿أَجْنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾^(٢) فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهي عن الخوض فيه بالظن، فإن قال الظان: أبحث لأتحقق، قيل له: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، فإن قال: تحققت من غير تجسس، قيل له: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾. وقال عياض: استدل بالحديث قوم على منع العمل في الأحكام بالاجتهاد والرأي، وحمله المحققون على ظن مجرد عن الدليل ليس مبنياً على أصل ولا تحقيق نظر. وقال النووي: ليس المراد في الحديث بالظن ما يتعلق بالاجتهاد الذي يتعلق بالأحكام أصلاً، بل الاستدلال به لذلك ضعيف أو باطل. وتعقب بأن ضعفه ظاهر وأما بطلانه فلا؛ فإن اللفظ صالح لذلك، ولا سيما إن حمل على ما ذكره القاضي عياض، وقد قرره في «المفهم» وقال: الظن الشرعي الذي هو تغليب أحد الجانبين أو هو بمعنى اليقين ليس مراداً من الحديث ولا من الآية. فلا يلتفت لمن استدل بذلك على إنكار الظن الشرعي. وقال ابن عبد البر: احتج به بعض الشافعية على من قال بسد الذريعة في البيع فأبطل بيع العينة، ووجه الاستدلال النهي عن الظن بالمسلم شراً، فإذا باع شيئاً حمل على ظاهره الذي وقع العقد به، ولم يبطل بمجرد توهم أنه سلك به مسلك الحيلة، ولا يخفى ما فيه. وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث، مع أن تعمد الكذب الذي لا يستند إلى ظن أصلاً أشد من الأمر الذي يستند إلى الظن، فللاشارة إلى أن الظن المنهي عنه هو الذي لا يستند إلى شيء يجوز الاعتماد عليه، فيعتمد عليه ويجعل أصلاً ويجزم به، فيكون الجازم به كاذباً؛ وإنما صار أشد من

(١) أخرجه: أحمد (٢/٣٩٣). والبخاري (٩/٤٨٥/٥٢٦٩). ومسلم (١/١١٦/١٢٧ [٢٠١]). وأبو داود (٢/

٦٥٨-٦٥٩/٢٢٠٩). والترمذي (٣/٤٨٩/١١٨٣). والنسائي (٦/٤٦٩/٣٤٣٥). وابن ماجه (١/٦٥٨/

٢٠٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحجرات: الآية (١٢).

الكاذب؛ لأن الكذب في أصله مستقبح مستغنى عن ذمه، بخلاف هذا فإن صاحبه بزعمه مستند إلى شيء، فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة في ذمه والتنفير منه، وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالباً ووضوح الكذب المحض^(١).

* * *

(١) فتح الباري (١٠/٥٩٠).

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ﴾^(٢٩)
 ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّٰ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن
 أَهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «لما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبا الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصلوها، وبأي طريق سنحت ابتدروها، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: هذا منتهى علمهم وغايتهم، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ممن لا يستحق ذلك فيكله إلى نفسه ويخذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّٰ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَىٰ﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به»^(١).

قال الرازي: «أكثر المفسرين يقولون: بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ منسوخ بآية القتل، وهو باطل؛ فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال، فكيف ينسخ به؟ وذلك لأن النبي ﷺ كان مأموراً بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة، فلما عارضوه بأباطيلهم قيل له: ﴿وَجِدْ لَهُمْ إِلَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢) ثم لما لم ينفع، قال له ربه: فأعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان؛ فإنهم

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢١٢-٢١٣).

(٢) النحل: الآية (١٢٥).

لا يتبعون إلا الظن، ولا يتبعون الحق، وقابلهم بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقابلة، فكيف يكون منسوخاً؟ والإعراض من باب (أشكاه) والهمزة فيه للسلب، كأنه قال: أزل العرض، ولا تعرض عليهم بعد هذا أمراً، وقوله تعالى: ﴿عَنْ مَّن تَوَكَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ لبيان تقديم فائدة العرض والمناظرة؛ لأن من لا يصغي إلى القول كيف يفهم معناه؟ ..

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُرَدُّ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر، كما قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾^(١) وقال تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾^(٢) يعني لم يثبتوا وراءها شيئاً آخر يعملون له، فقوله: ﴿عَنْ مَّن تَوَكَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر؛ لأنه إذا ترك النظر في آلاء الله تعالى لا يعرفه فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه. وإذا لم يقل بالحشر والحساب لا يخاف فلا يرجع عما هو عليه، فلا يبقى إذن فائدة في الدعاء، واعلم أن النبي ﷺ كان طبيب القلوب، فأتى على ترتيب الأطباء، وترتيبهم أن الحال إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوي، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحديد والكي، وقيل: آخر الدواء الكي، فالنبي ﷺ أولاً أمر القلوب بذكر الله فحسب؛ فإن بذكر الله تطمئن القلوب، كما أن بالغذاء تطمئن النفوس، فالذكر غذاء القلب، ولهذا قال أولاً: «قولوا: لا إله إلا الله» أمر بالذكر لمن انتفع مثل أبي بكر وغيره ممن انتفع، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾^(٣)، ﴿قُلْ أَنْظَرُوا﴾^(٤) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾^(٥) إلى غير ذلك، ثم أتى بالوعيد والتهديد، فلما لم ينفعهم قال: أعرض عن المعالجة، واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح»^(٦).

قال القاسمي: «المراد من الإعراض هجرهم هجراً جميلاً، وترك إيذائهم. وقول الزمخشري: أي: أعرض عن دعوة من رأيته معرضاً عن ذكر الله... الخ لا يصح؛ لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه، لا سيما والدعوة للمعرضين، وهي

(١) المؤمنون: الآية (٣٧).

(٢) التوبة: الآية (٣٨).

(٣) الأعراف: الآية (١٨٤).

(٤) يونس: الآية (١٠١).

(٥) الغاشية: الآية (١٧).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٨/٣١٢-٣١٣).

تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾^(١)، وإنما معنى الآية: فاصفح عنهم ودع أذاهم في مقابلة ما يجهلون به عليك، كما بين ذلك في مواضع من التنزيل، والقرآن يفسر بعضه بعضاً^(٢).

قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾: «فيه تسلية لرسول الله ﷺ وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه في دعوة من أصرَّ على الضلالة وسبقت له الشقاوة، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال كما علم حال الفريق الراشد»^(٣).

قال أبو السعود: «وتكرير قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزيادة التقرير، وللإيدان بكمال تباين المعلومين»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التعوذ من التعلق بالدنيا

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم اقم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»^(٥).

★ غريب الحديث:

ثأرنا: أصل الثأر: الحقد والغضب، من الثوران، يقال: ثار ثأره: إذا هاج غضبه.

(١) الفرقان: الآية (٥٢).

(٢) محاسن التأويل (٢٤٧/١٥).

(٣) فتح القدير (١٦٠/٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (١٦١/٨).

(٥) أخرجه: الترمذي (٤٩٣-٤٩٤/٥) وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (١٠٦/٦) - (١٠٧/١٠٢٣٤)، والحاكم (٥٢٨/١) وقال: «صحيح على شرط البخاري» ووافقه الذهبي.

* فوائد الحديث:

قوله: «ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا». قال القاري: «وفي رواية: «مصائب الدنيا» فإن من علم يقيناً أن مصيبات الدنيا مثوبات الأخرى، لا يغتم بما أصابه، ولا يحزن بما نابه»^(١).

قوله: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا» قال ابن علان: «أي: ما يكرهه في ديننا بأن نخل بأدنى شيء مما أمرنا بأدائه، أو نقع في شيء مما نهينا عن مداخلته، وذلك لأن مصيبة الدين هي المصيبة العظمى؛ لما قد يترتب عليها من الشقاوة الكبرى، أعاذنا الله من ذلك، ولا كذلك مصايب الدنيا؛ فإن ما فيها آثل إلى الذهاب، فما أصيب به المرء فذلك من عناية الله به إن ألهمه الصبر، فإنه جعل له في ذلك الثواب، ولو ذهب من غير مصيبة، لما أثيب عليه»^(٢).

قوله: «ولا تجعل الدنيا أكبر همنا» قال القاري: «أي: لا تجعل طلب المال والجاه أكبر قصدنا أو حزننا، بل اجعل أكبر قصدنا أو حزننا مصروفًا في عمل الآخرة»^(٣).

قال الطيبي: «أكبر همنا فيه أن قليلاً من الهم مما لا بد منه في أمر المعاش مرخص بل مستحب»^(٤).

قوله: «ولا مبلغ علمنا» قال ابن علان: «ولا مبلغ علمنا» بأن نقف عند ما يصلحها، ولا نجاوز لما يصلحها في آخرتنا؛ فإن الكافر لما لم يؤمن بدار القرار، وكان مبلغ علمه هذه الدار، استغرق بلذاتها، وسبح في بحار شهواتها، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾^(٥)، فمن استغرق من أرباب الإيمان أوقاته في عمارة دنياه، وغفل عن عمارة أخره، صار شبيهاً بأولئك الخاسرين»^(٦).

وقال القاري: «أي: لا تجعلنا حيث لا نعلم ولا نتفكر إلا في أمور الدنيا، بل اجعلنا متفكرين في أحوال الآخرة، متفحصين من العلوم التي تتعلق بالله تعالى

(٢) دليل الفالحين (٣/٣١٨).

(١) المرقاة (٥/٣٥٣).

(٣) المرقاة (٥/٣٥٥).

(٤) الكاشف (٦/١٩٢٨).

(٦) دليل الفالحين (٣/٣١٨).

(٥) الأنعام: الآية (٢٩).

وبالدار الآخرة، والمبلغ الغاية التي يبلغه الماشي والمحاسب، فيقف عنده قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾ (٢٩) ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعَالَمِ﴾ وقال عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ (٧) ﴿(١)﴾ (٢).

* * *

(١) الروم: الآية (٧).

(٢) المرقاة (٥/٣٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا
عَمَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿٣١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السموات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا﴾ العمل السيئات من الكفر فما دونه من المعاصي، وبما عملوا من أعمال الشر بالعقوبة الفظيعة. ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع ﴿بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بالجنة وما فيها من النعيم»^(١).

قال الألوسي: «في العدول عن ضمير ربك إلى الاسم الجامع ما ينبئ عن زيادة القدرة، وأن الكلام مسوق لوعيد المعرضين، وأن تسوية هذا الملك العظيم لهذه الحكمة فلا بد من ضال ومهتد، ومن أن يلقي كل ما يستحقه، وفيه أنه ﷺ يلقي الحسنى جزاءً لتبليغه، وهم يلقون السوءى جزاءً لتكذيبهم، وكرر فعل الجزاء لإبراز كمال الاعتناء به، والتنبيه على تباين الجزاءين»^(٢).

قال الرازي: «وقوله تعالى في حق المسيء: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ وفي حق المحسن ﴿بِالْحُسْنَى﴾ فيه لطيفة؛ لأن جزاء المسيء عذاب، فنه على ما يدفع الظلم فقال: لا يعذب إلا عن ذنب، وأما في الحسنى فلم يقل: بما عملوا؛ لأن الثواب إن كان

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢١٤).

(٢) روح المعاني (٢٧/ ٦١).

لا على حسنة يكون في غاية الفضل، فلا يخل بالمعنى هذا إذا قلنا : الحسنى هي المثوبة بالحسنى، وأما إذا قلنا : الأعمال الحسنى، ففيه لطيفة غير ذلك، وهي أن أعمالهم لم يذكر فيها التساوي، وقال في أعمال المحسنين : (الحسنى) إشارة إلى الكرم والصفح حيث ذكر أحسن الاسمين . و(الحسنى) صفة أقيمت مقام الموصوف كأنه تعالى قال : بالأعمال الحسنى، كقوله تعالى : ﴿الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَقَى﴾^(١)، وحينئذ هو كقوله تعالى : ﴿لَتُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) أي : يأخذ أحسن أعمالهم ويجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الأحسن أو هي صفة المثوبة، كأنه قال : ويجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى أو بالعاقبة الحسنى، أي : جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فحسب، وأما الزيادة التي هي الفضل بعد الفضل فغير داخله فيه^(٣).

* * *

(١) الأعراف : الآية (١٨٠).

(٢) العنكبوت : الآية (٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/٢٩).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾

★ غريب الآية:

اللمم: صغائر الذنوب. وأصله: ما يكون فعله على وجه القلة. قال أمية:
إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأبي عبد لك ما ألمّا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فسر المحسنين بأنهم الذين يحتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر؛ فإنه يغفر لهم ويستتر عليهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(١)، وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾. وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال»^(٢).

قال ابن جرير: «قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ﴾ يقول: الذين يتعدون عن كبائر الإثم التي نهى الله عنها وحرّمها عليهم فلا يقربونها، وذلك الشرك بالله، وما قد بيّناه في قوله: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ وهي الزنا وما أشبهه، مما أوجب الله فيه حدًّا.

وقوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى (إلا) في هذا الموضع، فقال بعضهم: هي بمعنى الاستثناء المنقطع، وقالوا: معنى الكلام: الذين يحتنبون كبائر الإثم والفواحش، إلا اللمم الذي ألموا به من الإثم والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام، فإن الله قد عفا لهم عنه، فلا يؤاخذهم به..

وكان بعض أهل العلم بكلام العرب ممن يوجه تأويل (إلا) في هذا الموضع إلى

(١) النساء: الآية (٣١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣٥).

هذا الوجه الذي ذكرته عن ابن عباس يقول في تأويل ذلك : لم يؤذن لهم في اللمم ، وليس هو من الفواحش ، ولا من كبائر الإثم ، وقد يُستثنى الشيء من الشيء ، وليس منه على ضمير قد كُفّ عنه فمجازاه : إلا أن يلمّ بشيء ليس من الفواحش ولا من الكبائر ، قال الشاعر :

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ إلا اليعافير وإلا العيسُ
واليعافير : الطباء ، والعيس : الإبل وليسا من الناس ، فكأنه قال : ليس به أنيس ، غير أن به طباء وإبلا . وقال بعضهم : اليعفور من الطباء الأحمر ، والأعيس : الأبيض . وقال بنحو هذا القول جماعة من أهل التأويل . .

وقال آخرون : بل ذلك استثناء صحيح ، ومعنى الكلام : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إلا أن يلمّ بها ثم يتوب . .
وقال آخرون ممن وجه معنى (إلا) إلى الاستثناء المنقطع : اللمم : هو دون حد الدنيا وحد الآخرة ، قد تجاوز الله عنه . .

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : (إلا) بمعنى الاستثناء المنقطع ، ووجه معنى الكلام إلى ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ بما دون كبائر الإثم ، ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، فإن ذلك معفو لهم عنه ، وذلك عندي نظير قوله جل ثناؤه : ﴿إِنْ جَاءَ نَصْرُكَ مِنَ رَبِّكَ فَكَبِّرْ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ﴿١١﴾ فوعد جل ثناؤه باجتناّب الكبائر العفو عما دونها من السيئات ، وهو اللمم الذي قال النبي ﷺ : «العينان تزنيان ، والبدان تزنيان ، والرجلان تزنيان ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»^(١) ، وذلك أنه لا حد فيما دون ولوج الفرج في الفرج ، وذلك هو العفو من الله في الدنيا عن عقوبة العبد عليه ، والله - جل ثناؤه - أكرم من أن يعود فيما قد عفا عنه ، كما روي عن النبي ﷺ ، واللمم في كلام العرب : المقاربة للشيء ، ذكر الفراء أنه سمع العرب تقول : ضربه ما لمم القتل ، يريدون : ضرباً مقارباً للقتل . قال : وسمعت من آخر : ألمّ يفعل في معنى : (كاد يفعل)^(٢) .

(١) أخرجه بنحوه : أحمد (٢/٢٧٦) ، البخاري (١١/٣٠/٦٢٤٣) ، مسلم (٤/٢٠٤٦/٢٦٥٧) ، أبو داود (٢/٢١٥٣/٦١٢) .
(٢) جامع البيان (٢٧/٦٤-٦٩) .

قال الألوسي: «الآية عند الأكثرين دليل على أن المعاصي منها كبائر ومنها صغائر؛ وأنكر جماعة من الأئمة هذا الانقسام وقالوا: سائر المعاصي كبائر، منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمين في «الإرشاد»، وتقي الدين السبكي، وابن القشيري في «المرشد»، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة، واختاره في تفسيره فقال: معاصي الله تعالى كلها عندنا كبائر؛ وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالإضافة، وحكى الانقسام عند المعتزلة، وقال: إنه ليس بصحيح، وقال القاضي عبد الوهاب: لا يمكن أن يقال في معصية: إنها صغيرة، إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر، ويوافق ذلك ما رواه الطبراني عن ابن عباس، لكنه منقطع، أنه ذكر عنده الكبائر فقال: «كل ما نهى الله تعالى عنه فهو كبيرة»، وفي رواية: «كل شيء عَصِيَ الله تعالى فيه فهو كبيرة»، والجمهور على الانقسام، قيل: ولا خلاف في المعنى، وإنما الخلاف في التسمية، والإطلاق لإجماع الكل على أن من المعاصي ما يقدر في العدالة، ومنها ما لا يقدر فيها، وإنما الأولون فروا من التسمية، فكروا تسمية معصية الله تعالى صغيرة؛ نظراً إلى عظمة الله عز وجل وشدة عقابه سبحانه، وإجلالاً له جل شأنه عن تسمية معصيته صغيرة؛ لأنها بالنظر إلى باهر عظمتها كبيرة أي كبيرة، ولم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم؛ وقسموها إلى ما ذكر لظواهر الآيات والأحاديث؛ ولذلك قال الغزالي: لا يليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر وقد عرفنا من مدارك الشرع.

ثم القائلون بالفرق اختلفوا في حد الكبيرة، فقيل: هي ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة، وهي عبارة كثير من الفقهاء. وقيل: كل معصية أوجبت الحدّ، وبه قال البغوي وغيره. والأول أوفق لما ذكره في تفصيل الكبائر؛ إذ عدّوا الغيبة والنميمة والعقوق وغير ذلك منها، ولا حدّ فيه؛ فهو أصح من الثاني، وإن قال الرافعي: إنهم إلى ترجيحه أميل، وقد يقال: يرد على الأول أيضاً أنهم عدّوا من الكبائر ما لم يرد فيه بخصوصه وعيد شديد. وقيل: هي كل ما نص الكتاب على تحريمه أو وجب في جنسه حدّ وترك فريضة تجب فوراً والكذب في الشهادة والرواية واليمين، زاد الهروي وشريح: وكل قول خالف الإجماع العام. وقيل: كل جريمة تؤذن بقلّة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة، وهو المحكي عن إمام الحرمين، ورجحه جمع لما فيه من حسن الضبط، وتعقب بأنه

بظاهره يتناول صغيرة الخسة، والإمام - كما قال الأذرعي - إنما ضبط به ما يبطل العدالة من المعاصي الشاملة لذلك لا الكبيرة فقط، نعم هو أشمل من التعريفين الأولين. وقيل: هي ما أوجب الحدّ أو توجه إليه الوعيد، ذكره الماوردي في فتاويه. وقيل: كل محرم لعينه منهي عنه لمعنى في نفسه، فإن فعله على وجه يجمع وجهين أو وجوداً من التحريم كان فاحشة، فالزنا كبيرة، وبحليلة الجار فاحشة، والصغيرة: تعاطي ما تنقص رتبته عن رتبته المنصوص عليه، أو تعاطيه على وجه دون المنصوص عليه، فإن تعاطاه على وجه يجمع وجهين أو أكثر من التحريم كان كبيرة، فالقبلة واللمس والمفاخضة صغيرة، ومع حليلة الجار كبيرة. كذا نقله ابن الرفعة وغيره عن القاضي حسين عن الحليمي. وقيل: هي كل فعل نص الكتاب على تحريمه، أي: بلفظ التحريم، وهو أربعة أشياء: أكل الميتة، ولحم الخنزير، ومال اليتيم، والفرار من الزحف، ورد بمنع الحصر، وقيل: إنها كل ذنب قرن به حدّ، أو وعيد، أو لعن بنص كتاب أو سنة، أو علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به ذلك أو أكثر، أو أشعر بتهاون مرتكبه في دينه إشعاراً صغر الكبائر المنصوص عليها بذلك كما لو قتل من يعتقد معصوماً فظهر أنه مستحق لدمه أو وطئ امرأة ظاناً أنه زان بها فإذا هي زوجته أو أمته، وإليه ذهب شيخ الإسلام البارزي وقال: هو التحقيق؛ وقيل: غير ذلك، واعتمد الواحدي أنها لا حدّ لها يحصرها فقال: الصحيح أن الكبيرة ليس لها حدّ يعرفها العباد به، وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها؛ ولكن الله تعالى أخفى ذلك عنهم ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه رجاء أن تجتنب الكبائر؛ ونظير ذلك إخفاء الاسم الأعظم، والصلاة الوسطى، وليلة القدر، وساعة الإجابة. وقال العلامة ابن حجر الهيتمي: كل ما ذكر من الحدود إنما قصد به التقريب فقط، وإلا فهي ليست بحدود جامعة، وكيف يمكن ضبط ما لا مطمع في ضبطه؟

وذهب جمع إلى تعريفها بالعدّ، فعن ابن عباس أنها ما ذكره الله تعالى في أول سورة (النساء) إلى قوله سبحانه: ﴿إِنْ جَحَنُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾^(١). وقيل: هي سبع. وروي ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه، وعطاء، وعبيد بن عمير، واستدل

(١) النساء: الآية (٣١).

له بما في الصحيحين: «اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراف بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١). وقيل: خمس عشرة. وقيل: أربع عشرة. وقيل: أربع. وعن ابن مسعود: ثلاث، وفي رواية أخرى: عشرة. وقال شيخ الإسلام العلائي: المنصوص عليه في الأحاديث أنه كبيرة خمس وعشرون، وتعقبه ابن حجر بزيادة على ذلك. وقال أبو طالب المكي: هي سبع عشرة: أربع في القلب: الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط، والأمن من المكر. وأربع في اللسان: القذف، وشهادة الزور، والسحر، وهو كل كلام يغير الإنسان أو شيئاً من أعضائه، واليمين الغموس، وهي التي تبطل بها حقاً أو تثبت بها باطلاً. وثلاث في البطن: أكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا، وشرب كل مسكر. واثنان في الفرج: الزنا، واللواط. واثنان في اليد: القتل، والسرقة. وواحدة في الرجل: الفرار من الزحف. وواحدة في جميع الجسد: عقوق الوالدين. وفيه ما فيه. وروى الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلاً قال له: كم الكبائر، سبع هي؟ فقال: «هي إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار».

وقد أُلّف فيها غير واحد من العلماء، وفي كتاب «الزواجر» - تأليف العلامة ابن حجر - ما فيه كفاية، فليراجع، والله تعالى الموفق، وإنا لنستغفره ونثوب إليه»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير ﴿الْأَلَمُ﴾

* عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه»^(٣).

(١) أخرجه: البخاري (٢٧٦٦/٤٩٤/٥)، ومسلم (٨٩/٩٢/١)، وأبو داود (٢٩٤-٢٩٥/٣)، والنسائي (٣٦٧٣/٥٦٨/٦).

(٢) روح المعاني (٦٣-٦٢/٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢٧٦/٢) و٣٤٣ و٤٣١ و٥٣٦، والبخاري (١١/٣٠/٦٢٤٣)، ومسلم (٤/٢٠٤٦/٢٦٥٧)، وأبو داود (٢/٦١٢-٦١١/٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٤-٤٧٣/٦).

* فوائد الحديث:

قال الخطابي: «قوله: «أشبه باللمم» يريد بذلك ما عفا الله عنه من صفات الذنوب وهو معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وهو ما يلم به الإنسان من صفات الذنوب التي لا يكاد يسلم منها إلا من عصمه الله تعالى وحفظه. وإنما سمي النظر زنا والقول زنا لأنهما مقدمتان للزنا؛ فإن البصر رائد، واللسان خاطب، والفرج مصدق ومحقق له بالفعل»^(١).

قال ابن بطال: «وزنا العين فيما زاد على النظرة الأولى التي لا تملك مما يديم النظر إليه على سبيل الشره والشهوة، وكذلك زنا المنطق فيما يلتذ به من محادثة من لا يحل له ذلك منه، وزنا النفس تمنى ذلك وتشتهيه فذلك كله سمي زنا، لأنه من دواعي زنا الفرج ودل قوله: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة» أن ابن آدم لا يخلص من ذلك»^(٢).

قال المهلب: وكل ما كتبه الله على ابن آدم فهو سابق في علم الله، لا بد أن يدركه المكتوب عليه، وأن الإنسان لا يملك دفع ذلك عن نفسه غير أن الله تعالى تفضل على عباده وجعل ذلك لمما وصفاته لا يطالب بها عباده إذا لم يكن للفرج تصديق لها، فإذا دقها الفرج كان ذلك من الكبائر رفقا من الله بعباده ورحمة لهم، لما جبلهم عليه من ضعف الخلقة، ولو أخذ عباده باللمم أو ما دونه من حديث النفس لكان ذلك عدلا منه في عباده وحكمة، ولا يسأل عما يفعل وله الحجة البالغة، لكن قبل منهم اليسير وعفا لهم عن الكثير تفضلا منه وإحسانا»^(٣).

قال ابن بطال: «أدرك ذلك لا محالة» إدراكه له من أجل أن الله كتبه عليه، وإنما سمي النظر والمنطق ومنى النفس وشهوتها زنا لما كانت دواعي إلى الزنا، والسبب قد يسمى باسم المسبب مجازا واتساعا لما بينهما من التعلق، غير أن زنا العين وزنا اللسان وتمنى النفس غير مؤاخذ به من اجتنب الزنا بفرجه؛ لأنه كذب زنا جوارحه بترك الزنا بفرجه، فاستحق زنا عينه ولسانه وقلبه؛ لأن ذلك من اللمم الذي

(١) معالم السنن (٣/ ٧١-٧٢).

(٢) شرح ابن بطال (٩/ ٢٣).

(٣) شرح ابن بطال (٩/ ٢٣-٢٤).

يغفر باجتنباب الكبائر، وزنا الفرج من أكبر الكبائر، فمن فعله فقد صدق زنا عينه ولسانه وقلبه، فيؤاخذ بإثم ذلك كله.

وفي قوله: «النفس تتمنى وتشتهي» دليل على أن فعل العبد ما نهاه الله عنه، مع تقدم تقديره تعالى وسابق علمه بفعله له باختيار منه وإيثار، وليس بمجبر عليه ولا مضطر إلى فعله، وعلى هذا علق الثواب والعقاب، فسقط قول جهنم بالإجبار بنص قوله ﷺ: «والنفس تتمنى وتشتهي»؛ لأن المجبر مكره مضطر، وهو بخلاف المتمنى والمشتهي، واللمم صغار الذنوب، وهي مغفورة باجتنباب الكبائر»^(١).

* عن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الثَّوَابِ وَالْفَوْحِشِ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال: قال النبي ﷺ:

«إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأني عبد لك لا أَلَمَّا»^(٢).
* غريب الحديث:

جمًّا: بألف بعد ميم مشددة، أي: كثيرًا كبيرًا.
أَلَمَّا: أَلَمَ: فعل ماض مفرد والألف للإطلاق، أي: لم يَلَمْ بمعصيته، يقال: لَمَّ، أي: نزل، وأَلَمَ: إذا فعل اللمم.

* فوائد الحديث:

"هذا البيت لأمية بن الصلت أنشده رسول الله ﷺ" ^(٣). "استشهدًا بأن المؤمن لا يخلو من اللمم" ^(٤).

قال القاري: «ومعنى بيت أمية: إن تغفر ذنوب عبادك، فقد غفرت ذنوبًا كثيرة، فإن عبادك كلهم خطاؤون، وأشار تعالى إليه في الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةَ﴾» ^(٥).

(١) شرح ابن بطلال (٣١٢/١٠).

(٢) أخرجه: الترمذي (٣٧٠/٥) وقال: «حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق»، والحاكم وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٣) من كلام البيضاوي (الكاشف ٦/١٨٥٢). (٤) من كلام القاري في المرقاة (٥/١٨١).

(٥) المرقاة (٥/١٨١).

قال الطيبي: «وجه مطابقة الآية وتفسيرها للبيت، هو أن يقال: إن الشرط والجزاء في البيت متحدان، فيدل على كمال الغفران ونهايته، ومجيئهما مضارعين للدلالة على الاستمرار وأن هذا من شأنه تعالى وكذا الاعتراض بـ(اللهم) يدل على فخامة الشأن، أي: من شأنك اللهم أن تغفر غفراناً كبيراً للذنوب العظيمة، وأما الجرائم الصغائر فلا تنسب إليك؛ لأن أحداً لا يخلو عنها، وأنها مكفرة باجتناب الكبائر.

فإن قلت: فعلى هذا كان الواجب أن يجاء بـ(إذا) المقتضية للقطع، لا (إن) لاقتضاها الشك.

قلت: (إن) هاهنا بمعنى التعليل، كما في قوله تعالى للنبي وأصحابه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١)، أي: لأجل أنكم مؤمنون لا تهنوا ولا تحزنوا، وقولك للسلطان: إن كنت سلطاناً فأعط الجزيل من النوال^(٢).

قال القاري: «وقال ابن حجر: (إن) بمعنى (إذ) كما في قوله تعالى: ﴿وَحَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣) فسقط ما قاله الطيبي، وفيه أن المؤدى واحد، فإن (إذ) للتعليل أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾^(٤) فلكل ساقط لاقط، انتهى. وعلى تقدير تقرير صحة الظرفية في ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لا يمتنع إرادة التعليل أيضاً فلا وجه للسقوط مع أن الظرفية غير مستقيمة في البيت لعدم تقييد غفاريته بوقت دون وقت، ولذا قال بنفسه ناقضاً لكلامه تابعاً للطبيبي في مراده فالمعنى: لأجل أنك غفار، إلخ^(٥).

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٣٩).

(٢) الكاشف (٦/١٨٥٢).

(٣) آل عمران: الآية (١٧٥).

(٤) الزخرف: الآية (٣٩).

(٥) المرقاة (٥/١٨٢).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةَ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿وَسِعُ الْمَغْفِرَةَ﴾ : واسع عفوه للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم . وإنما أعلم جل ثناؤه بقوله هذا عباده أنه يغفر اللمم بما وصفنا من الذنوب لمن اجتنب كبائر الإثم والفواحش»^(١).

قال ابن كثير : «قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةَ﴾ ، أي : رحمته وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها ، كقوله : ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (٦٩/٢٧).

(٢) الزمر : الآية (٥٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤٦٢/٧).

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾

★ غريب الآية:

أجنة: جمع جنين، وهو الولد في بطن أمه؛ سمي بذلك لاستتاره في الرحم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ربكم أعلم بالموءمن منكم من الكافر، والمحسن منكم من المسيء، والمطيع من العاصي، حين ابتدعكم من الأرض، فأحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها، وحين ﴿أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾»، يقول: وحين أنتم حمل لم تولدوا منكم، وأنفسكم بعدما صرتم رجالاً ونساء»^(١).

قال السعدي: «أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه من الضعف والخور عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشأكم الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه ناسب الحكمة الإلهية والوجود الرباني أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآثات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفتنة بعد الفتنة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً، وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً»^(٢).

(١) جامع البيان (٢٧/٦٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢١٥-٢١٦).

قال الرازي: «ما فائدة قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونٍ أَمْهَنَكُم﴾؟ نقول: التنبيه على كمال العلم والقدرة؛ فإن بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها، لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد»^(١).

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/١١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال البقاعي: «لما كان من عادة من سلم من الذنوب أن يفتخر على من قارفها؛ لما بني الإنسان عليه من محبة الفخر لما جبل عليه من نقصان، وكان حاله قد يتبدل فيسبق عليه الكتاب فيشقى، سبب عن ذلك قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا﴾ أي: تمدحوا بالزكاة وهو البركة والطهارة عن الدناءة ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: حقيقة بأن يشني على نفسه؛ فإن تزكيته لنفسه من علامات كونه محجوباً عن الله - قاله القشيري -، أو مجازاً بأن يشني على غيره من إخوانه؛ فإنه كثيراً ما يشني بشيء فيظهر خلافه، وربما حصل له الأذى بسببه، وإن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع»^(١) الحديث، ولذلك علل بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: منكم ومن جميع الخلق ﴿بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: جاهد نفسه حتى حصل فيه تقوى، فهو يوصله فوق ما يؤمل من الثواب في الدارين، فكيف بمن صارت له التقوى وصفاً ثابتاً»^(٢).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(٣)»^(٤).

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن أن يزكي نفسه، ويحتمل أن يكون نهياً عن أن يزكي بعض الناس بعضاً، وإذا كان هذا فإنما ينهى عن تزكية السمعة والمدح للدنيا والقطع بالتزكية، ومن ذلك الحديث في عثمان بن

(١) أخرجه: أحمد (١/٣٨٢ و ٤٣٠). والبخاري (٦/٣٧٣ و ٣٢٠٨). ومسلم (٤/٢٠٣٦ و ٢٦٤٣). وأبو داود

(٥/٨٢-٨٣/٤٧٠٨). والترمذي (٤/٣٨٨-٣٨٩/٢١٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٦٦ و ١١٢٤٦)،

وابن ماجه (١/٢٩ و ٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) نظم الدرر (١٩/٦٩). (٣) النساء: الآية (٤٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٦٢).

مظعون عند موته . وأما تزكية الإمام والقدوة أحدًا ليؤتم به أو ليهتم الناس بالخير فجائز ، وقد زكى رسول الله ﷺ بعض أصحابه أبا بكر وغيره ، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائزة للضرورة إليها . وأصل التزكية إنما هو التقوى ، والله تعالى هو أعلم بتقوى الناس منكم^(١) .

**ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن تزكية الإنسان نفسه
إلا لموجب وآداب تزكية غيره**

* عن زينب بنت أبي سلمة : «أنها سميت (برّة) ، فقال رسول الله ﷺ : لا تزكوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البر منكم ، فقالوا : بم نسميها ؟ قال : سموها (زينب)»^(٢) .

★ فوائد الحديث :

وفي الحديث النهي عن التسمي بما فيه تزكية من الأسماء^(٣) .

قال القرطبي : «وأما تغييره (برّة) فلو جهين :

أحدهما : أنه كان يكره أن يقال : خرج من عند (برّة) إذ كانت المسماة بهذا الاسم زوجته وهي التي سماها (جويرية) .

والثاني : لما فيه من تزكية الإنسان نفسه فهو مخالف لقوله تعالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ ويجري هذا المجرى في المنع ما قد كثر في هذه الديار من نعتهم أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية ، كزكي الدين ، ومحبي الدين وما أشبه ذلك من الأسماء الجارية في هذه الأزمان التي يقصد بها المدح والتزكية ، لكن لما كثرت قبائح المسمين بهذه الأسماء في هذا الزمان ظهر تخلف هذه النعوت عن أصلها ، فصارت لا تفيد شيئاً من أصل موضوعاتها ، بل ربما ليسبق منها في بعض المواضع ، أو في بعض الأشخاص نقيض موضوعها ، فيصير الحال فيها كالحال في تسمية العرب المهلكة بالمفازة والحقير بالجليل تجملاً بإطلاق الاسم مع القطع باستقباح المسمى^(٤) .

(١) المحرر الوجيز (٢٠٥/٥) .

(٢) أخرجه : مسلم (٢١٤٢/٣/١٦٨٧) ، وأبو داود (٤٩٥٣/٢٣٩/٥) .

(٣) المفهم (٤٦٤-٤٦٥) .

(٤) الإكمال (١٦/٧) .

وقال: «وقولها: «سميت برة» إنما كان هذا الاسم يدل على التزكية؛ لأنه في أصله اسم علم لجميع خصال البر، كما أن (فجار) اسم علم للفجور»^(١).

* عن أبي بكرة قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال: «ويلك! قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك» (مراراً) ثم قال: «من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»^(٢).

★ غريب الحديث:

ويلك: وأكثر أهل اللغة على أن (ويل) كلمة عذاب، و(ويح) كلمة رحمة، وعن البيهقي: هما بمعنى واحد، تقول: ويح لزيد، وويل لزيد، ولك أن تنصبهما بإضمار فعل، كأنك قلت: ألزمه الله ويلاً أو ويحاً^(٣).

قطعت عنق صاحبك: معناه: أهلكته.

لا محالة: أي: لا حيلة له في ترك ذلك، وهي بمعنى: لا بد، والميم زائدة، ويحتمل أن يكون من الحول، أي: القوة والحركة. والله حسيبه: أي: كافيه، ويحتمل أن يكون هنا (فعيل) من الحساب، أي: محاسبه على عمله الذي يعلم حقيقته.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «معنى هذا الحديث -والله أعلم-: النهي عن أن يفرط في مدح الرجل بما ليس فيه، ويدخله من ذلك الإعجاب، ويظن أنه في الحقيقة بتلك المنزلة، ولذلك قال: قطعتم ظهر الرجل، حين وصفتموه بما ليس فيه. فربما حملة ذلك على العجب والكبر، وعلى تضييع العمل، وترك الازدياد من الفضل، واقتصار على حاله من حصل موصوفاً بما وصف به»^(٤).

(١) المفهم (٥/٤٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/٤٦٧)، والبخاري (٥/٣٤٣/٢٦٦٢)، ومسلم (٤/٢٢٩٦/٣٠٠٠)، وأبو داود (٥/

١٥٤/٤٨٠٥)، وابن ماجه (٢/١٢٣٢/٣٧٤٤).

(٤) الكاشف (٩/٢٥٣-٢٥٤).

(٣) الفتح (١٠/٦٧٧).

"ورد هذا الحديث في النهي عن المدح، وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيحين بالمدح في الوجه، قال العلماء: وطريق الجمع بينها أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله ومعرفته فلا نهى في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير، والازدياد منه، أو الدوام عليه، أو الاقتداء به، كان مستحبًا، والله أعلم^(١)."

وقال القرطبي: «وقد مدح النبي ﷺ مشافهة نظمًا ونثرًا، ومدح هو أيضًا جماعة من أعيان أصحابه مشافهة، لكن ذلك كله إنما جاز لما صحت المقاصد، وأمنت الآفات المذكورة^(٢)».

* عن أبي معمر قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء فجعل المقداد يحثي عليه التراب، وقال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب»^(٣).

★ غريب الحديث:

أن نحثي: أي: أن نرمي، يقال: حَثَا يحثو حَثْوًا، ويحثي حَثِيًا.

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «المداحون هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة، وجعلوه بضاعة يستأكلون به الممدوح ويفتنونه، فأما من مدح الرجل على الفعل الحسن والأمر المحمود يكون منه، ترغيبًا له في أمثاله وتحريضًا للناس على الاقتداء به في أشباهه، فليس بمداح، وإن كان قد صار مادحًا بما تكلم به من جميل القول فيه. وقد استعمل المقداد الحديث على ظاهره، وحمله على وجهه في تناول عين التراب بيده وحثيه في وجه المادح. وقد يتأول أيضًا على وجه آخر وهو أن يكون معناه

(١) شرح مسلم للنووي (١٨/٩٩).

(٢) المفهم (٦/٦٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٣٩)، ومسلم (٤/٢٢٩٧/٣٠٠٢)، وأبو داود (٥/

١٥٣/٤٨٠٤)، والترمذي (٤/٥١٨/٢٣٩٣)، وابن ماجه (٢/١٢٣٢/٣٧٤٢).

الخيبة والحرمان، أي: من تعرض لكم بالثناء والمدح فلا تعطوه واحرموه. كني بالتراب عن الحرمان كقولهم: ما له غير التراب، وما في يده غير التراب، وكقوله ﷺ: «إذا جاءك يطلب ثمن الكلب فاملاً كفه تراباً»^(١)، وكقوله: «وللمعاهر الحجر»^(٢) ومثله كثير في الكلام»^(٣).

وقد ذكر القرطبي هذين الوجهين في تأويل الحديث، وزاد وجهين فقال: «وقيل: معناه التنبيه للمدح على أن يتذكر أن المبدأ والمنتهى التراب، فليعرضه على نفسه لئلا يعجب بالمدح، وعلى المداح لئلا يفرط ويطري بالمدح، وأشبه المحامل بعد المحمل الظاهر الوجه الأول، وما بعده ليس عليه معول»^(٤).

قال الغزالي: «والمدح يدخله ست آفات: أربع في المادح، واثنان في الممدوح.

فأما المادح فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي إلى الكذب..

والثانية: أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله، فيصير به مرآئياً منافقاً.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، وروي أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي ﷺ فقال له ﷺ: «ويحك! قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح» ثم قال: «إن كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه، فليقل: أحسب فلاناً، ولا أزكي على الله أحداً، حسيبه الله، إن كان يرى أنه كذلك». وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله: إنه من متق وورع وزاهد وخير ما يجري مجراه، فأما إذا قال: رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج، فهذه أمور مستيقنة. ومن ذلك قوله: إنه عدل رضا، فإن ذلك خفي، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه..

(١) أخرجه: أحمد (١/٢٧٨-٢٥٠)، وأبو داود (٣/٧٥٤/٣٤٨٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٦٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣٨٦)، والبخاري (١٢/١٥٣/٦٨١٨)، مسلم (٢/١٠٨١/١٤٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) معالم السنن (٤/١٠٣-١٠٤).

(٤) المفهم (٦/٦٢٩).

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز. . والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم، ولا يمدح ليفرح.
وأما الممدوح فيضره من وجهين: أحدهما: بأنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً، وهما مهلكان.

الثاني: هو أنه إذا أثنى عليه بالخير، فرح به وفترورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشمره، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك، ولهذا قال ﷺ: «قطعت عنق صاحبك»^(١).

* * *

(١) الإحياء (٣/١٥٩-١٦٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ۚ﴾ (٣٣) ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ (٣٥) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ (٣٦) ﴿وَأَنبَرَهُمُ الَّذِي وَفَّى ۖ﴾ (٣٧) ﴿أَلَا نَزِرُ وَرَزَّةً وَرَزُّ أُخْرَىٰ﴾ (٣٨) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٣٩) ﴿وَأَن سَعَيْهِمْ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (٤٠) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَىٰ﴾ (٤١) ﴿

* غريب الآية:

أكدى: قطع العطاء، كما تقطع البئر الماء. مأخوذ من الكدية، وهي الأرض الصلبة تمنع الحافر من إتمام الحفر. قال الحطيطي: فاعطى قليلاً ثم أكدى عطاءه ومن يبذل المعروف في الناس يحمده

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٣٢)»، ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ (٣٣) قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد. قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: أكدينا، ويتركون العمل.

وقوله: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ (٣٥) أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عياناً؟! أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً؛ ولهذا جاء في الحديث: «أنفق بلائاً، ولا تخش من ذي العرش إقللاً» (٣)، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا

(١) القيامة: الآيتان (٣١ و٣٢).

(٢) أخرجه: من حديث ابن مسعود الطبراني في الكبير (١/٢٤٠/١٠٢٠)، والبخاري (٥/٤٤٨-٤٤٩/١٩٧٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/١٢٦) وقال: «فيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه كلام، وبقية رجاله ثقات». والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٦٦١).

أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿١﴾ .

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَلْبَسْنَا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣١﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: أي: بلغ جميع ما أمر به .

وقال ابن عباس: ﴿وَفَّىٰ﴾ لله بالبلاغ . وقال سعيد بن جبير: ﴿وَفَّىٰ﴾ ما أمر به . وقال قتادة: ﴿وَفَّىٰ﴾ طاعة الله ، وأدى رسالته إلى خلقه . وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، وهو يشمل الذي قبله ، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنُفِثْ مِن رَّبِّهِ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي بَاعِعْتُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿٣٢﴾﴾ فقام بجميع الأوامر ، وترك جميع النواهي ، وبلغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إمامًا يقتدى به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٣﴾﴾ . . .

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَا نَزَرُ﴾ وَزَرَ ﴿٣٤﴾ أَي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها ، لا يحمله عنها أحد ، كما قال: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿٤١﴾﴾ ، ﴿وَأَنْ لِّئَلَّا نَسْأَلَنَ إِلَّا مَا سَأَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ أَي: كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمته الله ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به» ^(٥) ، فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده

(١) البقرة: الآية (١٢٤) .

(١) سبأ: الآية (٣٩) .

(٤) فاطر: الآية (١٨) .

(٣) النحل: الآية (١٢٣) .

(٥) سيأتي تخريجه .

وعمله ، كما جاء في الحديث : «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه»^(١) . والصدقة الجارية كالوقوف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَيَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ﴾^(٢) الآية . والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله ، وثبت في الصحيح : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا»^(٣) .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾^(٤) أي : يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالْشَّهَادَةِ فَيُنْتَشَرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(٥) ، أي : فيخبركم به ، ويجزيكم عليه أتم الجزاء ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر . وهكذا قال هاهنا : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾^(٦) أي : الأوفر»^(٧) .

قال الشنقيطي : «قد تضمنت هذه الآيات الكريمة سبعة أمور :

الأول : إنكار علم الغيب المدلول عليه بالهمزة في قوله : ﴿ أَعِنْدُ عِلْمُ الْغَيْبِ ﴾ ، والمراد نفي علمه للغيب .

الثاني : أن لكل من إبراهيم وموسى صحفًا لم ينبأ بما فيها هذا الكافر .

الثالث : أن إبراهيم وقى ، أي : أتم القيام بالتكاليف التي كلفه ربه بها .

الرابع : أن في تلك الصحف أنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

الخامس : أن فيها أيضًا أنه ليس للإنسان إلا ما سعى .

السادس : أن سعيه سوف يُرى .

السابع : أنه يجزاء جزاء الأوفى ، أي الأكمل الأتم . وهذه الأمور السبعة قد جاءت كلها موضحة في غير هذا الموضع .

أما الأول منها : وهو عدم علمهم الغيب ، فقد ذكره تعالى في مواضع كثيرة كقوله تعالى : ﴿ أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾^(٨) ، وقوله : ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ

(٢) يس : الآية (١٢) .

(٤) التوبة : الآية (١٠٥) .

(٦) الطور : الآية (٤١) ، القلم : الآية (٤٧) .

(١) سيأتي تخريجه .

(٣) سيأتي تخريجه .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٣-٤٦٥) .

عَنْهَا ﴿٧٨﴾^(١)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(٣) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴿٧٩﴾^(٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٥)، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مرارًا.

والثاني: الذي هو أن لإبراهيم وموسى صحفًا لم يكن هذا المتولي المعطي قليلًا المكدي عالمًا بها، ذكره تعالى في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾^(٦) صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿٨٠﴾^(٧).

والثالث منها: وهو إبراهيم وفي تكاليفه، فقد ذكره تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾^(٨)، وقد قدمنا أن الأصح في الكلمات التي ابتلى بها أنها التكاليف.

وأما الرابع منها: وهو أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٩)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾^(١٠).

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا، والجواب عما يرد عليها من الإشكال، في سورة (بنی اسرائیل) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١١)، وذكرنا وجه الجمع بين الآيات الواردة في ذلك في سورة (النحل) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضْلِلُونَهُمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾^(١٢).

وأما الخامس منها: وهو أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، فقد جاء موضحًا في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ

(١) مريم: الآية (٧٨).

(٢) النمل: الآية (٦٥).

(٣) البقرة: الآية (١٢٤).

(٤) فاطر: الآية (١٨).

(٥) الجن: الآيتان (٢٦ و ٢٧).

(٦) الأعلى: الآيتان (١٨ و ١٩).

(٧) العنكبوت: الآية (١٢).

(٨) الإسراء: الآية (١٥).

(٩) النحل: الآية (٢٥).

فَلَهَا ﴿١﴾ الآية، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (٢) الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَتَهَدُونَ﴾ (٣)، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنْ لِّئْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٤) يدل على أن الإنسان لا يستحق أجرًا إلا على سعيه بنفسه، ولم تتعرض هذه الآية لانتفاعه بسعي غيره بنفي ولا إثبات؛ لأن قوله: ﴿وَأَنْ لِّئْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٥) قد دلت (اللام) فيه على أنه لا يستحق ولا يملك شيئًا إلا بسعيه، ولم تتعرض لنفي الانتفاع بما ليس ملكًا له ولا مستحقًا له. وقد جاءت آية من كتاب الله تدل على أن الإنسان قد ينتفع بسعي غيره وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ آلِهِنَا إِنَّا تُرِيتُهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٦). وقد أوضحنا وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لِّئْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٧) وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ آلِهِنَا﴾ (٨) الآية، في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة (النجم)، وقلنا فيه ما نصه والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه، ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره؛ لأنه لم يقل: وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى، وإنما قال: ﴿وَأَنْ لِّئْسَ لِلْإِنْسَانِ﴾، وبين الأمرين فرق ظاهر؛ لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه. وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه.

الثاني: أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم؛ إذ لو كانوا كفارًا لما حصل لهم ذلك؛ فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين، كما وقع في الصلاة في الجماعة، فإن صلاة بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاته منفردًا، وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة، وهذا الوجه يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ آلِهِنَا﴾.

(١) الإسراء: الآية (٧).

(٢) فصلت: الآية (٤٦).

(٣) الروم: الآية (٤٤).

(٤) الطور: الآية (٢١).

الثالث: أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٩٦)، ولكن من سعي الآباء، فهو سعي للآباء أقر الله عيونهم بسببه بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم. فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها؛ لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الأولاد، فانتفاع الأولاد تبع، فهو بالنسبة إليهم تفضل من الله عليهم بما ليس لهم، كما تفضل بذلك على الولدان والحوار العين والخلق الذين ينشئهم للجنة، والعلم عند الله تعالى. اهـ منه.

والأمر السادس والسابع: وهما أن عمله سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، فقد جاء موضحين في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (١) الآية، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (١٧) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (٣٠) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (٤) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُوَ بَرُّ﴾ أي: يعلم ذلك الغيب، والآية تدل على أن سبب النزول لا يخلو من إعطاء شيء في مقابلة تحمل الذنوب عمن أعطى؛ لأن فاعل ذلك ليس عنده علم الغيب، فيعلم به أن الذي ضمن له تحمل ذنوبه بفعل ذلك، ولم ينبأ بما في الصحف الأولى، من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، أي: لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى.

وقد قدمنا تفسيره موضحاً في سورة (بنی اسرائیل)، وأنه لا يملك الإنسان ولا يستحق إلا سعي نفسه، وقد اتضح بذلك أنه لا يمكن أن يتحمل إنسان ذنوب

(١) الأعراف: الآيةان (٨و٩).

(٢) الزلزلة: الآيةان (٧و٨).

(٣) الأنبياء: الآية (٤٧).

(٤) الإسراء: الآيةان (١٣و١٤).

غيره، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة معلومة.

وقال أبو حيان في «البحر»: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ بمعنى: أخبرني، والمفعول الأول هو الموصول وصلته، والمفعول الثاني هو جملة: ﴿أَعِنْدُ عَلِمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ (٢٥) ﴿﴾^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما ينتفع به ابن آدم من الأعمال بعد موته

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢).

* عن عمار بن عمير عن عمته أنها سألت عائشة رضي الله عنها: في حجري يتيم أفأكل من ماله؟ فقالت: قال رسول الله ﷺ: «إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه»^(٣).

فصل مهم في بيان حكم إهداء ثواب الأعمال إلى الأموات

قال محمد رشيد رضا: «اعلم أيها المسلم الحريص على دينه أن أهل الحق من سلف الأمة إنما سموا بأهل السنة والجماعة لأنهم ساروا في الاهتداء بالإسلام على السنة، وهي الطريقة العملية التي جرى عليها النبي ﷺ في بيان القرآن كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٤) وتلقاها عنه بالعمل جماعة الصحابة، وقد أصاب الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله في حصره حجية الإجماع الديني بإجماع الصحابة رضي الله عنهم، وما روي من الآثار في شذوذ أفراد عما ثبت عمل الجمهور به فلا يعتد به، فعمل الجمهور هو السنة وهم الجماعة.

(١) أضواء البيان (٧/٧٠٩-٧١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣٧٢)، ومسلم (٣/١٢٥٥/١٦٣١)، وأبو داود (٣/٣٠٠/٢٨٨٠)، والترمذي (٣/١٣٧٦/٦٦٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/٥٦١-٥٦٢/٣٦٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/٣١٧ و١٩٣)، وأبو داود (٣/٨٠٠/٣٥٢٨) واللفظ له، والنسائي (٧/٢٧٦/٤٤٦١)، والترمذي (٣/٦٣٩/١٣٥٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/٧٦٨-٧٦٩/٢٢٩٠)، والحاكم (٢/٤٦) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٠/٧٢/٤٢٥٩).

(٤) النحل: الآية (٤٤).

والأقوال وحدها لا يتبين بها المراد بياناً قطعياً لا يحتمل التأويل كالأفعال وإن كانت في غاية الجلاء والوضوح، ولذلك قال علي . . لابن عباس رضي الله تعالى عنهما عندما أرسله لمحااجة الخوارج: احملهم على السنة، فإن القرآن ذو وجوه .

فمراده بالسنة ما ذكرناه من معناها الموافق للغة لا المعنى الاصطلاحي للمحدثين وسائر علماء الشرع الذي يشمل الأخبار القولية وغيرها فإن هذه الأخبار ذات وجوه أيضاً وربما كانت وجوهها التي يتوجه إليها أهل التأويل أكثر من وجوه القرآن؛ لأنها دونه في الفصاحة والبلاغة والبيان، ولذلك أوجز القرآن في بيان أحكام الدين العملية، ووكّل بيانها لعمل الرسول ﷺ، وهو أحوال في بيانها على العمل فقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١).

أقول هذا تمهيدا لتذكيرك بعدم الاغترار بما لعلك اطلعت أو تطلع عليه من الوجوه التي حمل عليها بعض المتفقهة والمصنفين في التفسير قوله تعالى في سورة النجم: ﴿أَلَا نَزَرُ وَأَنْزَرُهُ وَبَزَرُهُ وَأُفْرِقُهُ ۖ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۚ فَحَرَفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ تَارَةً بِالتَّأْوِيلَاتِ السَّخِيفَةِ، وَتَارَةً بِدَعْوَى النِّسْخِ الْبَاطِلَةِ، وَتَارَةً بِدَعْوَى أَنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى لَا مِنْ شَرْعِنَا، وَتَارَةً بِتَخْصِصِهِمَا بِالْكَفَّارِ دُونَ الْمُسْلِمِينَ .

وقد غفل هؤلاء عن كون مضمون الآيتين من قواعد الدين وأصول الإسلام الثابتة على السنة جميع الرسل ومؤيدا بآيات كثيرة بلفظها ومعناها كآية الأنعام، وآية سورة فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلَةٍ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢) والآيات الكثيرة المتعلقة للفلاح والخسر ودخول الجنة والنار بالأعمال، والآيات الناطقة بأن الناس لا يجزون إلا بأعمالهم، وإنما يجزون بأعمالهم، هكذا بصيغتي الحصر الذي تعد دلالة أقوى الدلالات في بيان المراد -ولذلك عبر به عن التوحيد الذي هو أساس أركان الدين كلها، وهذه

(١) أخرجه: أحمد (٥٣/٥)، والبخاري (١٤٢/٢)، ومسلم (١/٤٦٥-٤٦٦/٤٦٧)، وأبو داود (١/٣٩٥-٣٩٦/٣٩٧)، والترمذي (١/٣٩٩/٢٠٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢/٣٣٦).

(٢) وابن ماجه (١/٣١٣/٩٧٩) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) فاطر: الآية (١٨).

القاعدة في الجزاء من أصول الدين وهي مقررة للتوحيد أيضًا كما بيناه في تفسيرها مفصلاً وأشرنا فيه إلى بعض تلك الآيات .

أما هؤلاء المقلدون من المتأخرين فسبب غفلتهم وتأويلهم أنهم يحاولون تصحيح كل ما فشا من البدع بين أقوامهم والمنسويين إلى مذاهبهم وليسوا من أهل الدليل ، ولكنهم لا يتركون ضلالة التأويل ، وأما أهل النظر في أدلة المذاهب منهم فلا هم لهم من النظر في الكتاب والسنة إلا أخذ ما يرونه مؤيداً لمذاهبهم وترك ما سواه بضرب من التأويل ، أو دعوى النسخ أو احتماله بغير دليل .

ولو كان هؤلاء المقلدون العميان هم الذين جوزوا وحدهم للناس إهداء عباداتهم للموتى . . ولكن تابعهم على ذلك بعض علماء السنة من أهل الأثر والنظر إذ ظنوا أن الأحاديث التي أشرنا إليها في الدعاء للموتى والإذن للأولاد بأن يقضوا ما على والديهم من صيام أو صدقة أو نسك تدل على انتفاع الموتى بعبادات الأحياء مطلقاً غافلين عن حصر ما ورد من ذلك في الصحيح في الأولاد الذين خص الشارع المؤمنين منهم بذلك في الوقائع التي سئل عنها ، وحديث «صام عنه وليه»^(١) يتعين أن يراد بالولي منه الولد ليوافقها مع سائر الآيات إذ لا يمكن تأويلها كلها وهي من الأصول الصريحة القطعية لأجل حمله على عموم الأولياء ، وهو غير متعين على أن عائشة الراوية له كانت تصرح بعدم جواز صيام أحد عن أحد عملاً بالنصوص العامة كما تقدم ، وقد قال الطحاوي من علماء الأثر إنه منسوخ . وما قلناه أولى لجمعه بين الروايات وموافقته للآيات ولعمل أهل المدينة الذي هو حجة مالك وهو هنا مؤيد لعمل الصحابة عمومًا وخصوصًا لا حجة مستقلة . وقد سقط بهذا الجمع كل ما يتعلق بإطلاق الجواز من الأقوال .

وأما الدعاء لأموات المسلمين ولأحيائهم فهو عبادة لا ينتقل ثوابها من الداعي إلى المدعوله ولم يرو في إهداء ثواب الدعاء شيء ، بل ثوابه للداعي وحده سواء استجاب له أم لا ! وإنما ينتفع المدعوله بالاستجابة ، واستجابة الدعاء للأحياء

(١) أخرجه : أحمد (٦٩/٦) ، والبخاري (٤١٢٤١/٢٤١) ، ومسلم (٨٠٣/٢) ، وأبو داود (٧٩١/٢) - (٧٩٢/٢٤٠٠) ، والنسائي في الكبرى (٢٩١٩/١٥٧) من حديث عائشة . وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنه .

والأموات لا يمكن أن تكون بما ينقض قواعد الشرع، ولا بما يبطل سنن الله تعالى في الكون، فنفوض الأمر في صفته إلى الله تعالى ونكتفي من العلم بفائدة الدعاء لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان وغيرهم أنه عبادة مشتملة على تحاب المؤمنين وتكافلهم واهتمامهم بأمر سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وما عدا الدعاء من العبادات فإنما ورد الإذن فيه للأولاد، وولد المرء من عمله فانتفاعه بعمله يدخل في القاعدة لا أنه يعارضها، ولو كان الإذن عاماً لكثير عمل الصحابة به، ورؤي مستفيضاً أو متواتراً عنهم لتوفر الدواعي على نقله؛ فإن من دأب البشر وطباعهم الراسخة الاهتمام بكل ما يتعلق بأمر موتاهم، وقد نقل الرواة من التابعين كل ما رأوه وعلموا به من أعمال الصحابة رضي الله عنهم.

كتبت هذا لأنني بعد كتابة ما تقدم من تفسير الآية وطبعه راجعت ما كتبه العلامة المحقق ابن القيم في هذه المسألة في كتاب «الروح»^(١)، فوجدته قد أطنب فيها وأطال كعاداته بما لم يطل به غيره ولا قارب، وأورد كل ما قيل وما تصور أن يقال في إثبات وصول ثواب أعمال الأحياء إلى الأموات مطلقاً ونفيه مطلقاً أو مقيداً بما تسبب إليه الميت في حياته أو بالعبادات التي تدخلها النيابة كالصدقة والحج دون غيرها كالتلاوة والصلاة، وكذا ما وقع فيه الخلاف من فروع المسألة، وذكر حجج كل فريق ورد المخالفين لهم عليها وأكثرها نظريات باطلة، ولكنه على سعة اطلاعه ودقة فهمه قد غفل عن كون الأحاديث التي جعلها حجة المثبتين الوحيدة على انتفاع أموات المسلمين بأي عمل يهدي إليهم ثوابه من عمل أحيائهم قد وردت في أعمال خاصة ورخص للأولاد وحدهم أن يقوموا بها عن والديهم.

وهو لم ينس من حجج المانعين لوصول ثواب قراءة القرآن ونحوها عدم نقل شيء من ذلك عن السلف، ولكنه وهو من أكبر أنصار اتباع السلف قد أجاب عن هذه الحجة بجواب ضعيف جداً فقال: فإن قيل: فهذا لم يكن معروفاً في السلف، ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا أرشدهم النبي ﷺ إليه، وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام. فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدتهم إليه ولكانوا يفعلونه.

(١) انظر كلامه في (ص: ١١٧) فما بعدها.

فالجواب : أن مورد هذا السؤال إن كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار قيل له ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات؟ وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع.

وأما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدي إلى الموتى ، ولا كانوا يعرفون ذلك البتة ، ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده كما يفعله الناس اليوم ، ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت ولا ثواب هذه الصدقة والصوم.

ثم يقال لهذا القائل : لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال : اللهم اجعل ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت ، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر ، فلم يكونوا يشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم .

فإن قيل : فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والصدقة دون القراءة .

قيل : هو ﷺ لم يتدثم بذلك ؛ بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميتة فأذن له ، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك ، وأي فرق بين وصول ثواب الصيام الذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر؟ والقائل : إن أحداً من السلف لم يفعل ذلك ، قائل ما لا علم له به ؛ فإن هذه شهادة على نفي ما لم يعلمه ، فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه؟ بل يكفي اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لا سيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم .

وسر المسألة : أن الثواب ملك للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه ، فما الذي خص من هذا ثواب قراءة القرآن ، وحجر على المرء أن يوصله إلى أخيه وهذا عمل الناس حتى المنكرين في سائر الأعصار والأمصار من غير تكبر من العلماء ، اهـ .

أقول وبالله التوفيق والهداية : عفا الله عن شيخنا وأستاذنا المحقق فلول الغفلة عن تلك المسألة الواضحة لما وقع في هذه الأغلاط التي نردها عليه ببعض ما كان

يردها هو في غير هذه الحالة، وسبحان من لا يغفل ولا يعزب عن علمه شيء .
أما قوله لمورد السؤال إذا كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام : ما هذه
الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن . . إلخ؟

فنجيب عنه على طريقتنا بأن المانع لذلك نصوص القرآن التي تقدمت في أن
عمل كل عامل له دون غيره، والسائل إنما يعترف بأن النبي ﷺ أذن لمن سألته عن
قضاء صيام وحج ثبنا على أحد والديه وكذا عن الصدقة ولا سيما عمن لم يوص بها
من الوالدين : هل يفعلون ذلك عن والديهم؟ فأذن لهم بأن يقضوا دين الله عنهم كما
يقضون ديون الناس وأن يتصدقوا عنهم، فهذه حقوق ثبتت على الوالدين أو صدقة
كان المتوقع من أحدهم الوصية بها فقام مقامهم أولادهم فيها، أو تبرعوا عنهم فهي
ليست كقراءة القرآن التي ليست مفروضة على الأعيان في غير الصلاة كالحج
والصيام ولا من الأعيان المملوكة كالمال الذي كان ملك الميت وانتقل إلى ولده أو
من كسب الولد الذي عد في الحديث الصحيح من كسب الوالد كما يأتي قريباً وقد
ألحقه الله تعالى به في قوله : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا
أَلَلْنَاهُمْ مِنْهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١)، وبهذا كانت غير معارضة لتلك الآيات، ولو عارضتها
لكانت هي المرجوحة الساقطة بها فبطل قوله : وهل هذا إلا تفريق بين التماثلات،
إذ العمل مختلف والعامل المأذون له به له خصوصية ليست لغيره فلا تماثل .

وأما تعليله عدم نقل شيء من هذه الأعمال عن السلف الذي اعترف به وأيده
بأنهم كانوا يكتمون أعمال البر .

فجوابه : أنه ما من نوع من أنواع البر المشروعة إلا وقد نقل عنهم فيه الكثير
الطيب حتى الصدقات التي صرح القرآن بتفضيل إخفائها على الإبداء تكريماً للفقراء
وسترا عليهم ولما قد يعرض فيها من المن والأذى والرياء المبطله لها .

وقراءة القرآن للموتى ليست كذلك حتى إن المراءة بها مما لا يكاد يقع ؛ لأن
الذي يقرأ لغيره لا يعد من العباد الممتارين على غيرهم فيكتمه خوف الرياء .

ثم أين الذين نصبوا أنفسهم للإرشاد والقُدوة والدعوة إلى الخير من الصحابة

(١) سورة الطور : الآية (٢١) .

والتابعين لم يؤثر عنهم قول ولا فعل في هذا النوع من البر الذي عم بلاد الإسلام بعد خير العصور لو كان مشروعًا؟ فهل يمكن أن يقال إنهم كانوا يتركون الأمر بالبر كما قيل جدلاً إنهم أخفوا هذا النوع منه وحده؟ كلا إنهم كانوا هداة بأقوالهم وأعمالهم، وتأثير الأعمال في الهداية أقوى.

وأما تعليله تخصيص الإذن في الأحاديث بالصوم والصدقة والحج دون القراءة بقوله: إن النبي ﷺ لم يبتدئهم بذلك؛ بل خرج مخرج الجواب ولم يمنعهم مما سوى ذلك ولا فرق بين الصوم والقراءة؛ فجوابه: أن عدم ابتداء الرسول ﷺ إياهم بذلك على إطلاقه دليل على أنه ليس من دينه، وإلا لم يكن مبينا لما أنزل إليه كما أمر به وهذا محال. وسؤال أولئك الأفراد إياه دليل على أنهم لم يكونوا يعلمون من نصوص الدين ولا من السنة العملية ما يدل على شرعيته فلذلك استفتوه فيه، ولم يستفتوه في العمل عن غير الوالدين لنص القرآن في منعه.

وأما الفرق بين وصول ثواب الصيام ووصول ثواب الذكر فقد بينا آنفاً أنه لا دليل على وصول ثواب الصيام مطلقاً من كل من يصوم عن ميت حتى يقاس عليه غيره؛ لأن ما ذكر من أحاديث الصيام خاص بالقضاء من الولد نيابة عن الوالد، وليس فيه أنه عمله لنفسه وأهدى ثوابه لغيره كما تقدم على أن هذا مما ورد على خلاف القياس فلا يقاس عليه.

وأما قوله: إن القائل بأن أحداً من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به، إلخ.

فجوابه: أن الذي يثبت ما ذكر للسلف أجدر بقول ما لا علم له به، وناهيك به إذا كان معترفاً بأنه لم ينقل ذلك عن أحد منهم، والنفي هو الأصل، وحسب النافي نفيه للنقل عنهم في أمر تدل الآيات الصريحة على عدم شرعيته ويدل العقل وما علم بالضرورة من سيرتهم أنه لو كان مشروعاً لتواتر عنهم أو استفاض.

وأما قوله: وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل، إلخ. فلم تكن تنتظره من أستاذنا ومرشدنا إلى اتباع النقل في أمور الدين دون النظريات والآراء، على أن هذه القاعدة النظرية غير مسلمة؛ فإن الثواب أمر مجهول بيد الله تعالى وحده كأمور الآخرة كلها، فإنها من عالم الغيب التي لا مجال للعقل فيها، وما وعد الله تعالى به

المؤمنين الصالحين المخلصين له الدين من الثواب على الإيمان والأعمال بشروطها لا يعرفون كنهه ولا مستحقه على سبيل القطع ، ولذلك أمروا بأن يكونوا بين الخوف والرجاء .

ولا يوجد في الآيات ولا الأخبار الصحيحة ما يدل على أن العامل يملك ثواب عمله وهو في الدنيا كما يملك الذهب والفضة أو القمح والتمر فيتصرف فيه كما يتصرف فيها بالهبة والبيع ، بل ذلك جزاء بيد الله تعالى أعده للذين آمنوا وعملوا الصالحات بحسب تأثير الإيمان والعمل في إعداد أنفسهم له بتزكيتها وجعلها أهلاً لجواره ورضوانه كما قال : ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) ﴾ (١) .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) ﴾ (٢) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٧٦) ﴾ (٣) ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا (٧٦) ﴾ (٤) وقال : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ ﴾ (٥) فذكر الوصف على إطلاقه وتقدم تفسيره ، وذكر في آيات أخرى الصفات العامة التي هي مصدر جميع الأعمال وهي الصبر والشكر والصدق ، ومنها ما ذكر بصيغة الحصر ، فهذه الآيات الكثيرة الصريحة المعنى ، المعقولة الحكمة وسائر آيات الجزاء ، والآيات النافية للعدل والفداء ، والآيات النافية لملك نفس لنفس شيئاً من الأشياء في الآخرة ، تؤيد كلها آية (الأنعام) التي نحن بصدد تفسيرها وآيات (النجم) وغيرها ، وتبطل دعوى ملك الإنسان لثواب عباداته وتصرفه بها ، ولو كان الثواب كالمال يوهب لكان يباع ويشترى ، ولو كان كذلك لكان كثير من الفقراء يبيعون ثواب كثير من أعمالهم للأغنياء ، وحاش لله ولحكمة دينه من ذلك ، وعمل الخلف وحده في أمر تعبدي كهذا لا حجة فيه ، على أنهم لم يجمعوا عليه .

فإن قيل : إن انتفاع الميت بعمل أولاده ينافي القاعدة التي ذكرتها في الجزاء أيضاً فإن من لم يزك نفسه في الدنيا بالإيمان والأعمال الصالحة وما تطبعه في النفس من الصفات والأخلاق الحسنة لا يزكيها عمل أولاده من بعده قلنا : نعم ، إن

(١) سورة طه : الآيتان (٧٦ و٧٥) .

(٢) سورة الأعلى : الآية (١٤) .

(٣) سورة الشمس : الآية (٩) .

(٤) سورة التوبة : الآية (١٠٣) .

(٥) سورة الأنعام : الآية (١٣٩) .

هذا هو الأصل، ولكن من بيده أمر الثواب والعقاب استثنى من عموم هذا الأصل، لا بل الحق به شيئاً لا ينقضه ولا يذهب بحكمته وهو انتفاع بعض الوالدين المؤمنين ببعض عمل أولادهم أو جعله منه بالتبع والسببية، كما أدخل في عموم انتفاع من سن سنة خير من علم أو عمل بعمل من استن بسنته وعمل بعلمه أو اقتدى بعمله من غير أن ينقص من ثواب هؤلاء وأولئك شيء، كما ثبت في حديث الصحيحين. وروى أصحاب السنن وغيرهم بأسانيد يحتج بها أنه ﷺ قال: «أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه»^(١)، وفي رواية: «ولد الرجل من أطيب كسبه فكلوا من أموالهم»^(٢)، وقال ﷺ لمن ذكر له أن والده يحتاج إلى ماله: «أنت ومالك لأبيك» رواه ابن ماجه بسند صحيح^(٣).

وجملة القول: أن ثواب الأعمال ليس أعياناً مملوكة للعامل يتصرف فيها كما يشاء؛ بل هو جزاء من فضل الله تعالى، وهو نوعان: أحدهما: ما يكون مرتباً على تأثير الأعمال في تزكية النفس مباشرة وهو ما بيناه آنفاً.

وثانيهما: ما يترتب على الأعمال التي يتعدى فيها نفع العامل إلى غيره كالسنة الحسنة، والصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به، والولد الصالح الذي يدعو له، أو يقضي دين الله أو الناس أو يتصدق عنه، وتقدمت الأحاديث الصحيحة في ذلك. وهذه تكون بقدر انتفاع الناس من هذه الأعمال لا بحسب تأثير العامل في السببية لها عند مباشرته للسبب، كتأليف الكتاب وتربية الولد، وفوق ذلك كله مضاعفة الله لمن يشاء بفضلله.

خلاف العلماء في المسألة:

الخلاف بين العلماء في المسألة مشهور، وقد ذكره ابن القيم في أول المسألة

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) أخرجه: أحمد (١٢٧/٦)، وأبو داود (٨٠١-٨٠٠/٣)، وابن ماجه (٢٢٩٢/٧٦٩/٢)، والحاكم (٤٦/٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٢٠٤/٢)، وأبو داود (٨٠٢-٨٠١/٣)، وابن ماجه (٢٢٩٢/٧٦٩/٢) من حديث عبد الله بن عمرو، وسنده حسن.

السادسة عشرة وهي : هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا؟ وذكر في الجواب أنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير :

أحدهما : ما تسبب إليه الميت في حياته .

والثاني : دعاء المسلمين له واستغفارهم له ، قال والصدقة والحج على نزاع : ما الذي يصل من ثوابه؟ هل هو ثواب الإنفاق أو ثواب العمل؟ فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه ، وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق . ثم ذكر اختلافهم في العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر ؛ وزعم أن مذهب أحمد وجمهور السلف وصولها ، واستدل على مذهب أحمد بأنه قيل له : الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟ قال : أرجو .

وأنت ترى أن الإمام أحمد رحمته الله لم يجزم بالجواب ، وأن موضوع السؤال انتفاع الوالدين بعمل الولد خاصة ، وليس في رجائه خروج عن النص إلا في مسألة الصلاة ثم قال : والمشهور من مذهب الشافعي ومالك أن ذلك لا يصل . وذكر أن بعض أهل البدع من المتكلمين على أنه لا يصل إلى الميت شيء لا دعاء ولا غيره؟ أقول : راجعت بعد كتابة ما تقدم كتاب «الفروع» من كتب الحنابلة فرأيت فيه خلافاً كثيراً في هذه المسألة عن علماء الحنابلة وغيرهم ، أحسنه وأولاه باتباع السنة قول شيخ الإسلام قدس الله روحه في بحث إهداء الثواب . وقد ذكر قبله كلاماً في عدم جواز الإيثار بالفضائل والدين للوالدين ، وقول بعضهم بجواز بعضه في حال الحياة كتقديم والده في الصف الأول ، وكلاماً في الفرق بين الإيثار بما أحرزه وما لم يحرزه .

ثم قال : وقال شيخنا : لم يكن من عادة السلف إهداء ذلك إلى موتى المسلمين ؛ بل كانوا يدعون لهم ، فلا ينبغي الخروج عنهم ، ولهذا لم يره شيخنا كمن له أجر العامل كالنبي ﷺ معلم الخير بخلاف الوالد ؛ لأن له أجراً لا كأجر الولد ؛ لأن العامل يثاب على إهدائه فيكون له مثله أيضاً ، فإن جاز إهداؤه فهلهم جرّاً ، ويتسلسل ثواب العامل الواحد ، وإن لم يجز فما الفرق بين عمل وعمل ، وإن قيل : يحصل

ثوابه مرتين للمهدي إليه ولا يبقى للعامل ثواب فلم يشرع الله لأحد أن ينفع غيره في الآخرة ولا منفعة له في الدارين فيتضرر (كذا)، ولا يلزم دعاؤه له ونحوه لأنه مكافأة له كمكافأته لغيره ينتفع به المدعو له وللعامل أجر المكافأة والمدعو له مثله فلم يتضرر ولم يتسلسل ولا يقصد أجره إلا من الله . اهـ .

وذكر أيضًا أن أقدم من بلغه أنه أهدى للنبي ﷺ علي بن الموفق أحد الشيوخ المشهورين من طبقة أحمد وشيوخ الجنيد، ثم نقل صاحب الفروع عن تاريخ الحاكم مثل ذلك عن أبي العباس محمد بن إسحاق السراج النيسابوري، وقد بينا أن الصحابي إذا انفرد بقول أو عمل لا يعد أحد من المسلمين قوله أو عمله حجة أو يتخذة قدوة فيه فكيف بمن بعد تابع التابعين، فكيف إذا كان ذلك مخالفًا للنصوص الصريحة في الكتاب والسنة .

وقد ذكر ابن عابدين محرر مذاهب الحنفية هذه المسألة في أواخر تنقيح الفتاوى الحامدية، فذكر إجماع العلماء على نفع الدعاء، وخلافهم في وصول ثواب القراءة، واختيار الوصول والاستدلال عليه بحديث : «إذا مات العبد انقطع عمله»^(١) إلخ . وهو لا يدل عليه بإطلاق؛ بل على عدمه كما علمت .

ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر سئل عن قرأ شيئًا من القرآن وقال في دعائه : اللهم اجعل ثواب ما قرأته أو مثل ثواب ما قرأته زيادة في شرف سيدنا رسول الله ﷺ فما معنى الزيادة مع كماله ﷺ؟ قال فأجاب بقوله : هذا مخترع من متأخري القراء لا أعرف لهم سلفًا ولكنه ليس بمحال كما تخيله السائل، فقد ذكر في رؤية الكعبة : اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا، إلخ .

فلعل المخترع المذكور قاسه على ذلك، وكأنه لاحظ أن معنى طلب الزيادة أن تتقبل قراءته فيشبه عليها، وإذا أثيب أحد من الأمة على فعل طاعة من الطاعات كان للذي علمه نظير أجره، وللمعلم الأول وهو الشارع ﷺ جميع ذلك، فهذا معنى الزيادة في شرفه وإن كان شرفه مستقرًا حاصلًا . اهـ .

ونقول : حسبنا من الحافظ أثابه الله أن هذا مخترع من بعض المتأخرين لم يرد

(١) تقدم تخريجه .

عن أحد من سلف الأمة، فهو إمام النقل وحافظ السنة بلا نزاع.
وأما قياس هذا الدعاء على الدعاء بزيادة شرف البيت فهو قياس في أمر تعبدية لا محل له، وقد يفرق بينهما فإن معنى زيادة شرف البيت وتعظيمه حقيقة واقعة بكثرة من يحجه ويعبد الله فيه، وزيادة ثواب المعلم المرشد بعمل من أخذ بعلمه وهديه لا يسمى شرفاً في اللغة إلا بضرب من التجوز، على أنه ليس مما نحن بصدده.
ثم قال ابن عابدين: وقد أجاز بعض المتأخرين كالسبكي والبارزي وبعض المتقدمين من الحنابلة كابن عقيل تبعاً لعلي بن الموفق وكان في طبقة الجنيد ولأبي العباس محمد بن إسحاق السراج النيسابوري من المتقدمين إهداء ثواب القرآن له عليه الصلاة والسلام الذي هو تحصيل الحاصل، والعز بن عبد السلام من المجيزين.

وقال ابن تيمية: لا يستحب، بل هو بدعة. وقال ابن قاضي شهبة: يمنع، وابن العطار ينبغي أن يمنع.

وقال ابن الجزري: لا يروى عن السلف، ونحن بهم نقندي، ثم قال بعضهم بجوازه؛ بل باستحبابه قياساً على ما كان يهدي إليه في حال حياته من الدنيا، ولما طلب الدعاء من عمر رضي الله عنه وحث الأمة على الدعاء له بالوسيلة عند الأذان، ثم قال: فإن لم تفعل ذلك فقد اتبعت، وإن فعلت فقد قيل به، انتهى كلام ابن الجزري.

وقال الكمال بن حمزة الحسيني: الأحوط الترك. (من «كنز الراغبين» للبرهان التاجي ملخصاً). فهذا ملخص ما ذكره ابن عابدين وحيّاً الله مرجحي اتباع السلف من هؤلاء العلماء كلهم وليس هو الأحوط فقط، بل المتعين الذي يرد كل ما خالفه ويضرب بأقيسة المخالفين عرض الحائط لا لمخالفتها هدي سلف الأمة فقط، بل لظهور بطلانها ومصادمتها للنصوص أيضاً، فإن قياس إهداء العبادات أو ثوابها في الآخرة على إهداء متاع الدنيا قياس مع الفارق، والفرق بينهما كالفرق بين العبادة والعادة، وبين الدنيا والآخرة، فكيف وهو مصادم للنص؟، وحسبنا اتباع السلف في فهم القرآن والعمل به.

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف
ثم أقول: وقد اضطرب كلام الشوكاني من أئمة فقه الحديث عند الكلام على

أحاديث المسألة في مواضع، فاغتر بالإطلاق ولكنه اهتدى إلى الصواب فيما كتبه على أحاديث المنتقى في باب ما يهدى من القرب إلى الموتى، وكلها واردة في تصدق الأولاد عن الوالدين كما تقدم في الصيام والحج، قال: «وأحاديث الباب تدل على أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما، ويصل إليهما ثوابها، فيخصص بهذه الأحاديث عموم قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ولكن ليس في أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد، وقد ثبت أن ولد الإنسان من سعيه فلا حاجة إلى التخصيص، وأما من غير الولد فالظاهر من العمومات القرآنية أنه لا يصل ثوابه إلى الميت فيوقف عليها حتى يأتي دليل يقتضي تخصيصها ثم ذكر خلاف العلماء في المسألة.

هذا وإننا نختم هذا البحث بأحاديث اغتر بها بعض القائلين بانتفاع الموتى بكل ما يعمل لأجلهم أو يهدى إليهم من ثواب غيرهم:

١- حديث وضع النبي ﷺ الجريدتين على القبرين اللذين أوحى إليه أن أصحابهما يعذبان^(١). قال بعضهم: إنه يستأنس به لانتفاع الموتى بعمل الأحياء، ولم يقل إنه يدل على ذلك، ونحن نقول: إنه لا يقوم دليلاً ولا استثناساً، فإنه واقعة حال في أمر غيبي غير معقول المعنى، والظاهر فيه أنه من خصائص النبي ﷺ.

٢- حديث ابن عباس عند أبي داود وابن ماجه: «أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: لبيك عن شبرمة. قال: من شبرمة؟ قال أخ لي أو قريب لي، قال: حججت عن نفسك؟ قال: لا، قال: حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة»^(٢). قال الحافظ في «بلوغ المرام»: صححه ابن حبان والراجح عند أحمد وقفه.

وفي «عون المعبود»^(٣): رجح الطحاوي وقفه، وقال أحمد: رفعه خطأ، وقال ابن المنذر: لا يثبت رفعه. وأقول: إن في سنده قتادة عن عزرة ولم ينسب عزرة إلى

(١) أخرجه: أحمد (٢٢٥/١)، والبخاري (٤٢٧/١)، ومسلم (٢٤٠/١-٢٩٢/٢)، وأبو داود (٢٥/١-٢٠/٢٦)، والترمذي (٧٠/١٠٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢٠٦٨/٤)، وابن ماجه (٣٤٧/١٢٥).

(٢) أخرجه: أبو داود (١٨١١/٤٠٣)، وابن ماجه (٢٩٠٣/٩٦٩)، وابن حبان (٣٩٨٨/٢٩٩)، والإحسان، وابن خزيمة (٣٠٣٩/٣٤٥).

(٣) (٢٥١/٥).

والد ولا بلد. وقد قال النسائي: إن عزرة الذي روى عنه قتادة ليس بالقوي، فترجح بهذا أنه عزرة بن تميم؛ لأن قتادة قد انفرد بالرواية عنه كما قال الخطيب. ذكر ذلك في التهذيب.

وقال الحافظ في «تهذيب التهذيب»^(١) في ترجمة عزرة بن عبدالرحمن: «وأما الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه من طريق عبدة بن سليمان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن عزرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قصة شبرمة فوقع عندهما عزرة غير منسوب، وجزم البيهقي بأنه عزرة بن يحيى، ونقل عن أبي علي النيسابوري أنه قال: روى قتادة أيضًا عن عزرة بن ثابت وعن عزرة بن عبدالرحمن وعن هذا، فقتادة قد روى عن ثلاثة كل منهم اسمه عزرة، فقول النسائي في التمييز: «عزرة الذي روى عنه قتادة ليس بذلك القوي» لم يتعين في عزرة بن تميم كما ساقه فيه المؤلف فليتفطن لذلك. قلت: وعزرة بن يحيى لم أر له ذكرًا في تاريخ البخاري». اهـ

ونقول قد تفتنا لما ذكره الحافظ فوجدنا لجرح النسائي له مخرجًا وهو أن كلاً من عزرة بن ثابت وعزرة بن عبدالرحمن قد وثقا، والنسائي ممن وثق الأول فتعين أن يكون المجروح غيرهما، فهو إما ابن تميم وإما ابن يحيى المجهول، فكيف نأخذ بحديث موقوف انفرد به مثل هذين الراويين في مسألة مخالفة لنصوص القرآن الكثيرة.

٣- حديث معقل بن يسار: «اقرأوا (يس) على موتاكم»^(٢) قال في المنتقى رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد، ولفظه: «يس قلب القرآن، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، واقرأوها على موتاكم» قال الشوكاني في شرحه له: الحديث أخرجه النسائي وابن حبان وصححه، وأعله ابن القطان بالاضطراب

(١) (١٩٣/٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٦/٥)، وأبو داود (٣/٤٨٩/٣١٢١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦/٢٦٥/١٠٩١٣-١٠٩١٤)، وابن ماجه (١/٤٦٦/١٤٤٨)، وابن حبان (٧/٢٦٩/٣٠٠٢) (الإحسان)، والحاكم (١/٥٦٥)، وذكره الحافظ في التلخيص الحبير (٢/١٠٤) وقال بعد تخريجه: «وأعله ابن القطان بالاضطراب وبالقوف، وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه، ونقل أبو بكر بن العربي عن الدارقطني أنه قال: «هذا حديث ضعيف الإسناد، مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث».

وبالوقف وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه في السند، وقال الدارقطني: هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث، انتهى.

أقول: إن اللفظ الأول للحديث لأبي داود، والأخير لأحمد فيما يظهر، فإن لفظ ابن ماجه «اقرأوها عند موتاكم» يعني: يس، والنسائي لم يخرجها في سننه؛ بل في عمل اليوم والليلة، وابن حبان يتساهل في التصحيح فيتثبت في تصحيحه، وإن لم يوجد نص للنقد في معارضته فيه، فكيف إذا صرح جهابذة النقد بمعارضته، والجرح مقدم على التعديل، فكيف إذا كان الحديث الذي صرحوا بعدم صحته مخالفاً للآيات الصريحة، وما في معناها من الأحاديث الصحيحة، ولكن الذين أخذوا قول بعض العلماء بجواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال لا يميزون بين فضائل الأعمال التي تشملها النصوص العامة، وبين ما تدل هذه النصوص على عدم جوازه، بل على حظره وكونه بدعة مخالفة لأصول الشريعة، ولذلك تجد قراء سورة يس على القبور قد عم المشارق والمغارب، وصار كالسنن الصحيحة المتبعة لما للأنفس من الهوى في ذلك، ثم إن معنى الحديث - على عدم صحته متناً وسنداً - القراءة عند الميت أي: الذي حضره الموت كما صرح به رواية الحديث ابن حبان وغيره، وصرحوا بأن حكمته سماع ما في السورة من ذكر البعث ولقاء الله تعالى ليكون آخر ما تشتغل به نفس الميت، وقد أورده أبو داود في باب القراءة عند الميت، وابن ماجه في باب ما جاء فيما يقال عند المريض إذا احتضر.

وقال صاحب عون المعبود شرح سنن أبي داود عند عبارة: «على موتاكم» أي: الذين حضرهم الموت، ولعل الحكمة في قراءتها أن يستأنس المحتضر بما فيها، من ذكر الله، وأحوال القيامة والبعث. قال الإمام الرازي في التفسير الكبير: الأمر بقراءة يس على من شارف الموت مع ورود قوله ﷺ: «لكل شيء قلب، وقلب القرآن يس» إيذاناً بأن اللسان حينئذ ضعيف القوة، ساقط المنة، لكن القلب أقبل على الله بكلية، فيقرأ عليه ما يزداد به قوة قلبه، ويشتد تصديقه بالأصول، فهو إذا عمله ومهمه قاله القاري اهـ.

وأقول: إن ابن القيم ذكر هذا الحديث في أول كتاب الروح، وحقق هذا المعنى الذي قاله علماء المنقول وعلماء المعقول، بما أربى به على الفريقين، قال نفعا الله

بعلومه : وفي النسائي وغيره من حديث معقل بن يسار المزني عن النبي ﷺ أنه قال : «اقرأوا يس عند موتاكم» وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله : «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»^(١) ، ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر ، والأول أظهر لوجوه :

أحدها : أنه نظير قوله : «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» .

الثاني : انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد وغبطة من مات عليه بقوله : ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾^(١٦) بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ^(١٧) ﴿١٧﴾ فيستبشر الروح بذلك فيحب لقاء الله ، فيحب الله لقاءه ، فإن هذه السورة قلب القرآن ، ولها خاصية عجيبة في قراءتها عند المحتضر .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي قال : كنا عند شيخنا أبي الوقت عبد الأول وهو في السياق ، وكان آخر عهدنا به أنه نظر إلى السماء وضحك وقال : ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾^(١٦) بِمَا عَفَّرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ^(١٧) ﴿١٧﴾ وقضى .

الثالث : إن هذا عمل الناس وعادتهم قديما وحديثا يقرأون يس عند المحتضر .
الرابع : أن الصحابة لو فهموا من قوله ﷺ : «اقرأوا يس عند موتاكم» قراءتها عند القبر لما أدخلوا به ، وكان ذلك أمرا معتادا مشهورا بينهم .

الخامس : أن انتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود ، وأما قراءتها عند قبره فإنه لا يثاب على ذلك ؛ لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع وهو عمل وقد انقطع من الميت اهـ .

أقول : هذا التحقيق كاف في بابه ولا ينافيه ما ذكره قبله في قراءة فاتحة البقرة وخاتمتها عند رأس الميت عند دفنه ، وهو أثر مروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أوصى به ، فإنه في معنى تلقين التوحيد قبل الموت ، وهو صحيح والتلقين بعد الدفن والحديث فيه ضعيف ، وإلا فهو باطل ، فقد انفرد بروايته مبشر الحلبي عن عبد الرحمن بن العلاء اللجلاج ، ولم يرو عن عبد الرحمن أحد غير مبشر هذا ،

(١) أخرجه : أحمد (٣/٣) ، ومسلم (١٦٣١/٢) ، وأبو داود (٤٨٧/٣) ، والترمذي (٣٠٦/٣) ، والنسائي (٣٠٢-٣٠٣/٤) ، وابن ماجه (١٤٤٥/١) ، وابن ماجه (١٤٤٥/١) ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) يس : الآيتان (٢٦-٢٧) .

وغاية ما قالوا فيه : إنه مقبول وليس له في دواوين السنة غير حديث واحد عند الترمذي ، والصواب أنه لا ينقض قول الإمام أحمد أن القراءة عند القبر بدعة ، وإنما يخصص عمومه بورود القراءة عن بعضهم عند دفن الميت فقط على ما فيه من الشذوذ ، ومما ذكرناه يعلم سبب اختلاف الحنابلة في المسألة ، قال ابن مفلح في كتاب الفروع : فصل : لا تكره القراءة على القبر وفي المقبرة ، نص عليه واختاره أبو بكر والقاضي وجماعة ، وهو المذهب خلافا للشافعي ، وعليه العمل عند مشايخ الحنفية ، فقيل : تباح ، وقيل : تستحب ، قال ابن تميم : نص عليه كالسلام والذكر والدعاء والاستغفار ، وعنه : لا يكره وقت دفنه ، وعنه : يكره ، اختاره عبد الوهاب الوراق وأبو حفص وفاقا لأبي حنيفة ومالك ، قال شيخنا : نقلها الجماعة ، وهو قول جمهور السلف ، وعليها قدماء أصحابه ، أي : أصحاب أحمد . . قال ابن عقيل : أبو حفص يغلب الحظر ، أي : كونها حراما ثم هاهنا ذكر وصية ابن عمر بقراءة فاتحة البقرة وخاتمتها على رأسه عند دفنه التي هي سبب رجوع أحمد عن حظر القراءة مطلقا ، والخلاف في نذر القراءة بناء على هذا الخلاف . وقول المروزي بناء على الحظر فيمن نذر أن يقرأ عند قبر أبيه يكفر عن يمينه ولا يقرأ ، ثم قال : وعنه أي : الإمام أحمد بدعة ، لأنه ليس من فعله عليه السلام وفعل أصحابه ، فعلم أنه محدث ، وسأله عبد الله أي : ابنه : يحمل مصحفا إلى المقبرة؟ فيقرأ فيه عليه قال : بدعة . قال شيخنا : ولم يقل أحد من العلماء المعتبرين : إن القراءة عند القبر أفضل ، ولا رخص في اتخاذها عيدا كاعتقاد القراءة عنده في وقت معلوم ، أو الذكر أو الصيام ، قال : واتخاذ المصاحف عندها ولو للقراءة فيها بدعة ، ولو نفع الميت لفعله السلف انتهى .

ولهؤلاء العلماء الأعلام نصوص في بطلان الوقف على قراءة القرآن عند القبور كبطلانه على ما نهى عنه الشرع من تشييدها ، والبناء ، وإيقاد السرج عليها ، ونحو ذلك من البدع التي صارت عند الجماهير في عداد السنن ؛ بل يهتمون لها ما لا يهتمون للفرائض للأهواء الموروثة في ذلك ، وإذ قد علمت أن حديث قراءة سورة يس على الموتى غير صحيح ، وإن أريد به من حضرهم الموت ، وأنه لم يصح في هذا الباب حديث قط كما قال المحقق الدارقطني ، فاعلم أن ما اشتهر وعم البدو والحضر من قراءة الفاتحة للموتى لم يرد فيه حديث صحيح ولا ضعيف ، فهو

من البدع المخالفة لم تقدم من النصوص القطعية، ولكنه صار بسكوت اللابسين لباس العلماء، وبإقرارهم له، ثم بمجارة العامة عليه من قبيل السنن المؤكدة، أو الفرائض المحتمة.

وخلاصة القول: أن المسألة^(١) من الأمور التعبدية التي يجب فيها الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وعمل الصدر الأول من السلف الصالح. وقد علمنا أن القاعدة المقررة في نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة أن الناس لا يجزون في الآخرة إلا بأعمالهم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾^(٢)، ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾^(٣)، وأن النبي ﷺ بلغ أقرب أهل عشيرته إليه بأمر ربه أن «اعملوا لا أغني عنكم من الله شيئاً»^(٤)، فقال ذلك لعمه وعمته ولا بنته سيدة النساء^(٥). وأن مدار النجاة في الآخرة على تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح، والثواب ما يثوب ويرجع إلى العامل من تأثير عمله في نفسه، إلخ ما تقدم شرحه مع التذكير بالآيات الكثيرة والأحاديث فيه، وكل ذلك من الأخبار وقواعد العقائد فلا يدخلها النسخ.

وورد مع ذلك الأمر بالدعاء لأحياء المؤمنين وأمواتهم في صلاة الجنازة وفي غيرها فالدعاء عبادة ثوابها لفاعلها سواء استجيب أم لا، ويستحيل شرعاً وعقلاً استجابة كل دعاء لتناقض الأدعية، ولاقتضاء الاستجابة ألا يعاقب فاسق ولا مجرم إلا إذا اتفق وجود أحد لا يدعو له أحد برحمة ولا مغفرة في صلاة ولا غيرها، ولما يترتب على ذلك من تعطيل كثير من النصوص أو عدم صدقها.

وورد في الأخبار جواز صدقة الأولاد عن الوالدين ودعائهم لهما وقضاء ما وجب عليهما من صيام أو صدقة أو نسك، وقد بينا حكمته مع النصوص فيه، والظاهر من هذا أن الوالدين ينتفعان ببعض عمل أولادهما؛ لأن الشارع ألحقهم

(٢) سورة الانفطار: الآية (١٩).

(١) أي: إهداء ثواب القراءة للأموات.

(٣) سورة لقمان: الآية (٣٣).

(٤) أخرجه: من حديث أبي هريرة: أحمد (٣٣٣/٢)، والبخاري (٢٧٥٣/٤٨٠/٥)، ومسلم (٢٠٤/١٩٢/١)،

والترمذي (٣١٨٥/٣١٦/٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي (٣٦٤٦/٥٥٩-٥٥٨/٦).

وفي الباب غيره من الصحابة.

(٥) أخرجه: البخاري (٤٧٧١/٦٤٣/٨)، ومسلم (٢٠٦/١٩٣-١٩٢/١) من حديث أبي هريرة.

بهما فيسقط عنهما ما ينوبان عنهما فيه من أداء دين الله تعالى كديون الناس ، وينالهما من دعائهم لهما خير ليس هو ثواب الدعاء نفسه . ولكن مدار الجزاء والنجاة على عمل المرء لنفسه لا على عمل أولاده جمعا بين النصوص .

فمن أراد أن يتبع الهدى ، ويتقي جَلَلَ الدين تابعا للهوى ، فليقف عند النصوص الصحيحة ويتبع فيها سيرة السلف الصالح ، ويعرض عن أقيسة بعض الخلف المروجة للبدع .

وإذا زين لك الشيطان أنه يمكنك أن تكون أهدى وأكمل عملا بالدين من الصحابة والتابعين فحاسب نفسك على الفرائض والفضائل المجمع عليها والصحيحة التي يضعف الخلاف فيها ، وانظر أين مكانك منها ، فإن رأيت ولو بعيني العجب والغرور أنك بلغت مد أحدهم أو نصيفه من الكمال فيها ، فعند ذلك تعذر في الزيادة عليها ، وهيئات هيهات لا يدعي ذلك إلا جهول مفتون ، أو من به مس من الجنون .

وأن أكثر المتعبدین بالبدع مقصرون في أداء الفرائض أو في المواظبة على السنن ، ومنهم المصرون على الفواحش والمنكرات ، كإصرارهم على ما التزموا في المقابر من العادات ، كاتخاذها أعيادا تشد إليها الرحال ، ويجتمع لديها النساء والرجال والأطفال ، ولا سيما في ليلتي العيدين وأول جمعة من رجب ، وتذبح عندها الذبائح ، وتطبخ أنواع المأكّل ، فيأكلون ثم يشربون ، ويبولون ويغوطون ، ويلغون ويصخبون ، ويقرأ لهم القرآن ، من يستأجرون لذلك من العميان ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، وإذا كان ما يأتون من القراءة والذكر هناك من البدع المنكرة ، وكان بعض المباحات يعد هناك من الأمور المكروهة أو المحرمة ، فما القول في سائر أفعالهم الظاهرة والباطنة؟

ولولم يرد في حظر هذه الاجتماعات في المقابر إلا حديث ابن عباس في السنن الثلاث مرفوعا بسند صحيح : «لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج»^(١) لكفى ، ولكن ذلك كله قد صار من قبيل شعائر الدين ، وآيات اليقين ،

(١) أخرجه : أحمد (٢٢٩/١) ، وأبو داود (٣/٥٥٨/٣٢٣٦) ، والترمذي (٢/١٣٦/٣٢٠) وقال : «حديث ابن عباس حديث حسن» ، والنسائي (٤/٤٠٠/٢٠٤٢) ، وابن ماجه (١/٥٠٢/١٥٧٥) مختصرا ، وابن حبان (٧/٤٥٢-٣١٧٩/٤٥٣) (الإحسان) ، والحاكم (١/٣٧٤) .

توقف له الأوقاف التي يسجلها ، ويحكم بصحتها قضاة الشرع الجاهلون ، ويأكل منها أدياء العلم والعرفان الضالون المضلون ، ولقد كان بعض الصحابة وغيرهم من علماء السلف يتركون بعض السنن أحياناً حتى لا يظن العوام أنها مفروضة بالتزامها تأسيساً بالرسول ﷺ في ترك المواظبة على بعض الفضائل خشية أن تصير من الفرائض ، فخلف من بعدهم خلف قصروا في الفرائض ، وتركوا السنن والشعائر ، وواظبوا على هذه البدع ، حتى إنهم ليتركون لأجلها الأعياد والجمع ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).

قلت : ما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في هذا البحث هو جيد ؛ فكله دفاع عن السنة ، ورد للبدعة التي انتشرت بين كثير من الأنام وصارت عندهم أوكد من المفروضات ؛ بل من الجمع والجماعات ؛ حيث ترصد لها الأموال عند الأكابر وتخصص لها ميزانيات . ومن لم يفعل ذلك اتهم في دينه وخروجه عن الإسلام ! وصارت المقابر تعج بذلك عند الدفن وعند تغسيل الميت ، وفي اليوم الثاني والثالث من الوفاة يستدعى هؤلاء المرتزقة الذين غالبهم لا دين لهم ولا دنيا ، وبعضهم من تاركي الصلاة فينهب كما تنهب الحمير ، وينتظرون أجورهم ومقابلهم بالأموال . وإلا لعنوا الميت وأبناءه وأقاربه ، فأمثال هؤلاء المنافقين لو كان أهل الميت على الأقل من العقلاء ما أدخلوهم لبيوتهم ولا طلبوا منهم القراءة ؛ فإن حالهم يغني عن مقالهم . وترى معهم من ينسب إلى العلم والعلماء ! وأحياناً يأخذون نصيبهم من الأجرة وهي إثم وعدوان ، وأما الأضرحة وسدنتها فلا تسأل عن الشرك وأصنافه وتلاعب سدنتها من أمثال هؤلاء المنافقين بالليل والنهار ، وهي أيضاً رغم تجمع الشرك والمشركين فيها تخصصص لها ميزانيات من المنافقين الذين يحادون الله ورسوله في توحيده وإقراره بالعبودية التي لا تجوز إلا له . فما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله نزر يسير ، وقطرة من بحر . وقد تكالب الراسميون الذين يريدون بالأمة الانغماس في واقع كله شرك وضلال ، ولا يرقبون في ذلك إلا الأذمة ، ويحاربون كل من دعا إلى التوحيد والسنة بزعم أن هذا من مقومات البلد ، ومن خصوصيات الوطن ، ومن ميراث الأجداد ، وهي دعاوى كلها موروثة عن

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٥٤-٢٧٠).

المشركين من عهد نوح ﷺ حتى عهد قريش وإلى يومنا هذا، فهل من معتبر بهذا الواقع السيئ الذي من عرضه على الكتاب والسنة وعقله وفطرته السليمة؛ اشمأز وتفطر قلبه واحترقت أعصابه لما يرى ويسمع من المنكرات التي ضاهوا فيها أصحاب اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى! وكأن الأمة لم ينزل فيها قرآن، ولا بعث فيها رسول، ولا ترك الصحابة، ولا التابعون، ولا علماء الحديث والسنة المصنفات الطافحة بالترهيب من الشرك والمشركين والبدع والمبتدعين، والله المستعان.

قال القرطبي: «وقوله: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة..» الحديث، هذه الثلاث الخصال إنما جرى عملها بعد الموت على من نسبت إليه؛ لأنه تسبب في ذلك، وحرص عليه، ونواه. ثم إن فوائدها متجددة بعد دائمة فصار كأنه باشرها بالفعل، وكذلك حكم كل ما سنه الإنسان من الخير، فتكرر بعده، بدليل قوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».. وإنما خص هذه الثلاثة بالذكر في هذا الحديث، لأنها أصول الخير، وأغلب ما يقصد أهل الفضل بقاء بعدهم. والصدقة الجارية بعد الموت هي الحبس فكان حجة على من ينكر الحبس. وفيه ما يدل على الحظ على تخليد العلوم الدينية بالتعليم والتصنيف، وعلى الاجتهاد في حمل الأولاد على طريق الخير والصلاح، ووصيتهم بالدعاء عند موته وبعد الموت»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «هذا الباب أبلغ شيء في فضائل تعليم العلم اليوم والدعاء إليه وإلى جميع سبل البر والخير؛ لأن الميت منها كثير جداً، ومثل هذا الحديث في

(١) المفهم (٤/٥٥٤-٥٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣٩٧)، ومسلم (٤/٢٠٦٠/٢٦٧٤)، وأبو داود (٥/١٥-١٦/٤٦٠٩)، والترمذي (٥/

٤٢/٢٦٧٤) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/٧٥/٢٠٦).

المعنى قوله ﷺ: «ينقطع عمل المرء بعده إلا من ثلاث: علم علمه فعمل به بعده، وصدقة موقوفة يجري عليه أجرها، وولد صالح يدعو له». . . وعلى قدر فضل معلم الخير وأجره يكون وزر من علم الشر ودعا إلى الضلال؛ لأنه يكون عليه وزر من تعلمه منه ودعا إليه وعمل به، عصمنا الله برحمته»^(١).

قال الطيبي: «هدى» وهو إما الدلالة الموصلة إلى البغية، أو مطلق الإرشاد، وهو في الحديث ما يهتدى به من الأعمال الصالحة، وهو بحسب التنكير مطلق شائع في جنس ما يقال له: هدى، يطلق على القليل والكثير والعظيم والحقير، فأعظمه هدى من دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين، وأدناه هدى من دعا إلى إمالة الأذى عن طريق المؤمنين، ومن ثم عظم شأن الفقيه الداعي المنذر، حتى فضل واحد منهم على ألف عابد؛ لأن نفعه يعم الأشخاص والأعصار إلى يوم الدين»^(٢).

قال المناوي: «فإن عليه من الإثم مثل آثام من تبعه» لتولده عن فعله الذي هو من خصال الشيطان، والعبد يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه، كما يعاقب السكران على جنايته حال سكره، وإذا كان السبب محظورًا لم يكن السكران معذورًا فالله يعاقب على الأسباب المحرمة وما تولد منها كما يثيب على الأسباب المأمور بها وما تولد منها، ولهذا كان على قابيل القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل»^(٣).

قلت: وكل ما ورد عن الرسول ﷺ في ذم البدع صادق على جميع المبتدعة بأصولهم وفروعهم في كل أزمئتهم وأمكنتهم، فالإثم يتراكم ويتعاضد منذ إحداث البدعة وإلى أن تقوم الساعة حسب العمل بتلك البدعة؛ فأول من أحدث تشييد الأضرحة في أمة محمد ﷺ - التي كانت في عافية من ذلك - فهو آثم بإثمته وإثم من بنى ضريحًا بعده في مشارق الأرض ومغاربها، في المدن وفي القرى، وفي السهل وفي الجبل، كل ذلك يرجع الإثم إليه.

(١) فتح البر (١/١٥٢).

(٢) الكاشف (٢/٦٢٥-٦٢٦).

(٣) فيض القدير (٦/١٢٥).

وكل من أحدث علم الكلام فعليه إثمه وإثم من تبعه إلى أن تقوم الساعة، وكل من أحدث بدعة التصوف البغيض الممقوت؛ فإثمه عليه وعلى من بعده إلى أن تقوم الساعة، وكل من أحدث بدعة الرفض فإثمه عليه إلى يوم القيامة، وكل من أحدث بدعة التجهم فإثمه عليه وعلى من تبعه إلى يوم القيامة، فليحذر المسلمون من البدع والمبتدعة حتى لا يقعوا في الأوزار ويحملوا وزرهم ووزر من تبعهم إلى يوم القيامة.

قال المناوي: «أخذ المقرئ من هذا الخبر أن كل أجر حصل للشهيد حصل للنبي ﷺ بسببه مثله، والحياة أجر فيحصل للنبي ﷺ مثلها زيادة على ما له من الأجر الخاص من نفسه على هذا المهتدي وعلى ما له من الأجور على حسناته الخاصة من الأعمال والمعارف والأحوال التي لا تصل جميع الأمة إلى عرف نشرها، ولا يبلغون معاشر عشرها، فجميع حسنات المسلمين وأعمالهم الصالحة في صحائف نبينا ﷺ، زيادة على ما له من الأجر مع مضاعفة لا يحصيها إلا الله»^(١).

قال القاري: «وبهذا يعلم أن له ﷺ من مضاعفة الثواب بحسب تضاعف أعمال أمته معا لا يعد ولا يحد، وكذا السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وكذا بقية السلف بالنسبة إلى الخلف، وكذا العلماء المجتهدون بالنسبة إلى أتباعهم، وبه يعرف فضل المتقدمين على المتأخرين في كل طبقة وحين»^(٢).

* * *

(١) فيض القدير (٦/ ١٢٥).

(٢) المرقاة (١/ ٣٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ ﴿٢٧﴾

★ غريب الآية:

المنتهى: أي: المرجع، والمرد، والمصير.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه ﷺ: وأن إلى ربك - يا محمد - انتهاء جميع خلقه ومرجعهم، وهو المجازي جميعهم بأعمالهم، صالحهم وطالحهم، ومحسنهم ومسيئهم»^(١).

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ ﴿٢٧﴾ متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحلّ منقطع؛ فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتَهت إلى خلقه ومشيتته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبتة عناء وعذاب. وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل. وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾^(٢)، واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ ﴿٢٧﴾، فليس وراءه سبحانه غاية تُطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحَبّ ويُراد فمراد لغيره. وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى. ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه. ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد»^(٣).

(١) جامع البيان (٢٧/٧٤).

(٢) الحجر: الآية (٢١).

(٣) الفوائد (ص: ٢٦٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي احتج بها من ذهب إلى أن المراد بالآية أن الله ﷻ هو منتهى الأفكار

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وليتبه»^(١).

* فوائد الحديث:

احتج بهذا الحديث من ذهب من المفسرين إلى أن المعنى المراد من هذه الآية هو «أنه عز وجل منتهى الأفكار فلا تزال الأفكار تسير في بقاء حقائق الأشياء وما هيئتها وللإحاطة بها فيها حتى إذا وجهت إلى ذات الله عز وجل وحقائق صفاته سبحانه وقفت وحرنت وانتهى سيرها»^(٢).

قال الخطابي: «وجه هذا الحديث ومعناه: ترك الفكر فيما يخطر بالقلب من وساوس الشيطان، والامتناع من قبولها، واللياذ بالله عز وجل في الاستعاذة منه، والكف عن مجاراته في حديث النفس، ومطاولته في المحاجة والمناظرة، والاشتغال بالجواب على ما يوجهه حق النظر في مثله لو كان المناظر عليه بشراً وكلمك في مثل هذا، فإن من ناظره وتسمع كلامه ويسمع كلامك لا يمكنه أن يغالطك فيما يجري بينكما من الكلام حتى يخرجك من حدود النظر ورسوم الجدل، فإن باب السؤال والجواب وما يجري فيه من المعارضة والمناقضة معلوم، والأمر فيه محدود محصور، فإذا رعيت الطريقة، وأصبحت الحجة، وألزمته خصمك انقطع، وكفيت مؤنته، وحسنت شغبه، وباب ما يوسوس به الشيطان إليك غير محدود ولا متناه، لأنك كلما ألزمته حجة، وأفسدت عليه مذهباً راغ إلى نوع آخر من الوسوس التي أعطي التسليط فيها عليك، فهو لا يزال يوسوس إليك حتى يؤديك إلى الحيرة والضلال فأرشد النبي ﷺ عندما يعرض من وساوسه في هذا الباب إلى الاستعاذة بذكر الله والاشتغال بأمر سواه، وهذا حيلة بليغة، وجنة

(١) أخرجه: أحمد (٣٣١/٢)، والبخاري (٤١٣/٦-٣٢٧٦)، ومسلم (١/١٢٠/١٣٤ [٢١٤])، وأبو داود

(٥/٩١-٩٢/٤٧٢١)، والنسائي في الكبرى (٦/١٧٠/١٠٤٩٩).

(٢) أفاده الألوسي في روح المعاني (٢٧/٦٨).

حصينة يخزى معها الشيطان ويبطل كيده .

قلت : ولو أراد النبي ﷺ محاجته ، وأذن في مراجعته والرد عليه فيما يوسوس به لكان الأمر على كل موحد سهلاً في قمعه وإبطال قوله ، فإنه لو يقدر أن يكون السائل عن مثل هذا واحداً من البشر لكان جوابه والنقض عليه متلقًى من سؤاله ، ومأخوذاً من فحوى كلامه ، وذلك أنه إذا قال : هذا الله خلق فمن خلقه ؟ فقد نقض بأول كلامه آخره ، وأعطى أن لا شيء يتوهم دخوله تحت هذه الصفة من ملك ، وإنس ، وجن ، ونوع من أنواع الحيوان الذي يتأتى منه فعل ؛ لأن جميع ذلك واقع تحت اسم الخلق ، فلم يبق للمطالبة مع هذا محل ولا قرار .

وأيضاً فلو جاز على هذه المقدمة أن يسأل فيقال : من خلق الله ؟ فيسمى شيء من الأشياء يدعى له هذا الوصف للزم أن يقال : ومن خلق ذلك الشيء ؟ ولا متد القول في ذلك إلا ما لا يتناهى ، والقول بما لا يتناهى فاسد ، فسقط السؤال من أصله .

ومما كان يقال : لمن يسأل هذا السؤال إنما وجب إثبات الصانع الواحد لما اقتضاه أوصاف الخليفة من سمات الحدث الموجبة أن لها محدثاً فقلنا : إن لها خالقاً ، ونحن لم نشاهد الخالق عياناً فنحيط بكنهه ، ولم يصح لنا أن نصفه بصفات الخلق فيلزمنا أن نقول : إن له خالقاً ، والشاهد لا يدل على مثله في الغائب ، إنما يدل على فعله ، والاستدلال إنما يكون بين المختلفات دون المشتبهات ، والمفعول لا يشبه فاعله في شيء من نعوته الخاصة ، فبطل ما يقع في الوهم لدخلنا في نوع ما نهينا عنه فيما روينا من الحديث فإذا ننتهى إلى ما أمرنا به من حسم هذا الباب في مناظرة الشيطان لجهله وقلة إنصافه وكثرة شغبه .

وقد تواصى الحكماء فيما دونوه ورسموه من حدود الجدل وآداب النظر بترك مناظرة من هذا صفتة ، وأمروا بالسكوت والإعراض عنه^(١) .

قال الحافظ معلقاً على كلام الخطابي : «والذي نحا إليه من التفرقة بين وسوسة الشيطان ومخاطبة البشر فيه نظر ؛ لأنه ثبت في مسلم من طريق هشام بن عروة عن

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٥١١-١٥١٤) .

أبيه في هذا الحديث : « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا : خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً ، فليقل : آمنت بالله » ، فسوى في الكف عن الخوض في ذلك بين كل سائل عن ذلك من بشر وغيره . . أو الكف عن ذلك نظير الأمر بالكف عن الخوض في الصفات والذات »^(١) .

وقوله : « فليستعذ بالله ولينته » قال القرطبي : « لما كانت هذه الوسوس من إلقاء الشيطان ، ولا قوة لأحد بدفعه إلا بمعونة الله وكفايته أمر بالالتجاء إليه ، والتعويل في دفع ضرره عليه ، وذلك معنى الاستعاذة على ما يأتي ، ثم عقب ذلك بالأمر بالانتهاء عن تلك الوسوس والخواطر ، أي : عن الالتفات إليها والإصغاء نحوها ، بل يعرض عنها ولا يبالي بها ، وليس ذلك نهياً عن إيقاع ما وقع منها ، ولا عن ألا يقع منه ؛ لأن ذلك ليس داخلياً تحت الاختيار ولا الكسب ، فلا يكلف بها ، والله أعلم »^(٢) .

قال الطيبي : « وإنما أمر بالاستعاذة والانتهاء عنه ، والإعراض عن مقابلته ، لا بالتأمل والاحتجاج بوجهين :

الأول : أن العلم باستغناؤه تعالى عن المؤثر والموجد أمر ضروري لا يقبل الاحتجاج والمناظرة له وعليه ، فإن وقع من ذلك شيء كان من وسوسة الشيطان ؛ لأنه مسلط في باب الوسوسة ، ووسوسه غير متناهية ، فمهما عارضته فيما يوسوس بحجة يجد مسلماً آخر إلى ما ينفيه من المغالطة والتشكيك ، وأدنى ما يفيد من الاسترسال في ذلك إضاعة الوقت ، فلا تدبير في دفع ذلك أقوى وأحسن من الاستعاذة بالله تعالى قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾^(٣) .

وثانيهما : أن السبب في اعتوار أمثال ذلك احتباس المرء في عالم الحس ، وما دام هو كذلك لا يزيد فكره إلا انهماكاً في الباطل وزيفاً عن الحق ، ومن كان هذا حاله فلا علاج له إلا الالتجاء إلى الله تعالى للاعتصام بحوله وقوته »^(٤) .

* * *

(١) فتح الباري (٦/ ٤٢٠) .

(٢) المفهم (١/ ٣٤٥) .

(٣) الأعراف : الآية (٢٠٠) .

(٤) الكاشف (٢/ ٥١٨-٥١٩) .

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ ﴿٤٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: خلق في عباده الضحك والبكاء، وسببهما، وهما مختلفان»^(١).

قال البغوي: «هذا يدل على أن كل ما يعمله الإنسان فبقضائه وخلقه حتى الضحك والبكاء»^(٢).

قال ابن عطية: «ذكر الضحك والبكاء لأنهما صفتان تجمعان أصنافاً كثيرة من الناس؛ إذ الواحدة دليل السرور، والأخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة، فنبه تعالى على هاتين الخاصتين اللتين هما للإنسان وحده»^(٣).

وقال الرازي: «اختار هذين الوصفين للذكر والأنثى؛ لأنهما أمران لا يعلنان، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدي في اختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجهًا وسببًا، وإذا لم يعلن بأمر ولا بدله من موجد فهو الله تعالى، بخلاف الصحة والسقم فإنهم يقولون: سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال، ويدلك على هذا أنهم إذا ذكروا في الضحك أمرًا له الضحك قالوا: قوة التعجب، وهو في غاية البطلان؛ لأن الإنسان ربما يبهت عند رؤية الأمور العجيبة ولا يضحك، وقيل: قوة الفرح، وليس كذلك؛ لأن الإنسان يفرح كثيرًا ولا يضحك، والحزين الذي عند غاية الحزن يضحكه المضحك، وكذلك الأمر في البكاء، وإن قيل لأكثرهم علمًا بالأمور التي يدعيها الطبيعيون: إن خروج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا؟ لا يقدر على تعليل صحيح، وعند الخواص كالتى في المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعي، كما أن عند أوضاع الكواكب ينقطع هو والمهندس الذي لا يفوض

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٤٢).

(٢) معالم التنزيل (٤/٢٣٢).

(٣) المحرر الوجيز (٥/٢٠٧).

أمره إلى قدرة الله تعالى وإرادته»^(١).

قال الألوسي: «وتقديم الضمير وتكرير الإسناد للحصر، أي: أنه تعالى فعل ذلك لا غيره سبحانه»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن أفعال العباد

خلق لله وكسب من العباد

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ أن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال: إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، وقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾»^(٣)، قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك: «والله ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾». قال ابن أبي مليكة: والله ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئاً^(٤).

★ فوائد الحديث:

تقدم شرح الحديث، وبيان فوائده، وذكر الخلاف الواقع في معنى تعذيب الميت ببكاء أهله عليه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ من سورة (الأنعام)، وفي سورة فاطر عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾»^(٥) والغرض من الحديث هنا قول ابن عباس رضي الله عنهما: «والله ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾».

قال الحافظ: «قوله: «قال ابن عباس عند ذلك» أي: عند انتهاء حديثه عن عائشة: «والله ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾» أي: أن العبرة لا يملكها ابن آدم، ولا تسبب له فيها، فكيف يعاقب عليها فضلاً عن الميت، وقال الداودي: معناه أن الله تعالى أذن في الجميل من البكاء، فلا يعذب على ما أذن فيه»^(٦).

قال الطيبي: «قوله: «والله أضحك وأبكى» تقرير لنفي ما ذهب إليه ابن عمر من

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/٢٠).

(٣) الأنعام: الآية (١٦٤).

(٤) أخرجه: البخاري (٣/١٩٥)، ومسلم (٢/٦٤٢)، والنسائي (٤/٣١٧)، وابن ماجه

(١/٥٠٨-٥٠٩/١٥٩٥).

(٥) فاطر: الآية (١٨).

(٦) فتح الباري (٣/٢٠٥).

(٢) روح المعاني (٢٧/٦٨).

أن الميت يعذب ببكاء أهله ، وذلك بكاء الإنسان وضحكته وحزنه وسروره من الله يظهرها فيه فلا أثر له في ذلك»^(١).

قال القاري : «فيه أن الكل من عند الله خلقاً ، ومن العبد كسباً كما هو مقرر ، والشرع قد اعتبر ما يترتب عليه من الأثر كسائر أفعال البشر . ألا ترى أن الضحك والتبسم في وجه المؤمن من الحسنات ، وعلى المؤمن على وجه السخرية من السيئات ، وكذلك الحزن والسرور تارة يكونان من الأحوال السنية يثاب الشخص بهما ، وتارة من الأفعال الدنية يعاقب عليهما ، كما هو مقرر في علم الأخلاق»^(٢).

قال الحافظ : «ما قال ابن عمر شيئاً» قال الطيبي وغيره : ظهرت لابن عمر الحجة فسكت مذعناً . وقال الزين بن المنير : سكوته لا يدل على الإذعان ، فلعله كره المجادلة في ذلك المقام ، وقال القرطبي : ليس سكوته لشك طرأ له بعدما صرح برفع الحديث ، ولكن احتمل عنده أن يكون الحديث قابلاً للتأويل ولم يتعين له محمل يحمله عليه إذ ذاك ، أو كان المجلس لا يقبل الممارسة ولم تتعين الحاجة إلى ذلك حينئذ»^(٣).

* * *

(١) الكاشف (٤/١٤٢٥).

(٢) المرقاة (٤/٢٢٨).

(٣) فتح الباري (٣/٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ﴿٤٤﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال القرطبي: «أي: قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خلق الموت والحياة، كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾^(١)، قاله ابن بحر. وقيل: أَمَاتَ الكافر بالكفر وأَحْيَا المؤمن بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾^(٢) الآية، وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾^(٣) على ما تقدم، وإليه يرجع قول عطاء: أَمَاتَ بعدله وأَحْيَا بفضله. وقول من قال: أَمَاتَ بالمنع والبخل، وأَحْيَا بالجود والبذل. وقيل: أَمَاتَ النطفة، وأَحْيَا النسمة. وقيل: أَمَاتَ الآباء، وأَحْيَا الأبناء. وقيل: يريد بالحياة الخصب، وبالموت الجدب. وقيل: أَمَاتَ وأَيَقِظَ. وقيل: أَمَاتَ في الدنيا وأَحْيَى للبعث»^(٤).

قال السمعاني: «والأصح أنه أَمَاتَ الخلق وأَحْيَاهُمْ»^(٥).

* * *

(١) الملك: الآية (٢).

(٢) الأنعام: الآية (١٢٢).

(٣) الأنعام: الآية (٣٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١٧/١٧).

(٥) تفسير القرآن (٣٠١/٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۚ﴾ ﴿٤١﴾

★ غريب الآية:

تُمْنَى: أي: تصبّ في الرحم وتراق؛ يقال: مَنَى الرجل وأمنى، من المنى؛ وسمّيت مَنَى بهذا الاسم لما يُمنى فيها من الدماء، أي: يراق. وقيل: تمنى: تقدّر؛ يقال: منيت الشيء: إذا قدرته، ومُنِيَ له، أي: قُدِّر له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه خلق الزوجين، أي: النوعين الذكر والأنثى، من نطفة، وهي نطفة المنى ﴿إِذَا تُمْنَى﴾ أي: تصبّ وتراق في الرحم، على أصح القولين. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُّطْفَةً مِن مَّنِيِّ يَمْنَىٰ﴾ ﴿٦٧﴾^(٢). والعرب تقول: أمنى الرجل ومنى: إذا أراق المنى وصبه.

وقال بعض العلماء: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ ﴿٤١﴾ أي: تقدّر بأن يكون الله قدر أن ينشأ منها حمل، من قول العرب: منى الماني: إذا قدر. ومن هذا المعنى قول أبي قلابة الهذلي -وقيل: سويد بن عامر المصطلق-:

لا تأمن الموت في حل وفي حرم واسلك سبيلك فيها غير محتشم
إن المنايا توافي كل إنسان حتى تلاقي ما يمني لك الماني
. . وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين، أعني: الذكر والأنثى، من النطفة جاء موضحاً في غير هذا الموضع، وأنه يستدل به على أمرين: هما قدرة الله على البعث، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه، وقد جمع الأمرين قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَكُ نُّطْفَةً مِن مَّنِيِّ يَمْنَىٰ﴾ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ كَانَ

(١) الواقعة: الآيتان (٥٨ و ٥٩).

(٢) القيامة: الآية (٣٧).

عَلَقَهُ فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٤٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَنَ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ (١)، فذكر دلالة ذلك على البعث في قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَنَ﴾ (٢)، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء، منكرًا على من ظن ذلك بقوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿٥١﴾ أي: مهملاً من التكليف والجزاء.

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة (الفرقان) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ (٢) ﴿٥٣﴾ (٣).

قال السعدي: «وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته، وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم نماها وكمّلها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين» (٤).

* * *

(١) القيامة: الآيات (٣٦-٤٠).

(٢) الفرقان: الآية (٥٤).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧١١-٧١٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَىٰ﴾ ﴿٤٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَىٰ﴾ ﴿٤٧﴾ وهي في قول أكثر المفسرين إشارة إلى الحشر، والذي ظهر لي بعد طول التفكير والسؤال من فضل الله تعالى الهداية فيه إلى الحق، أنه يحتمل أن يكون المراد نفخ الروح الإنسانية فيه، وذلك لأن النفس الشريفة لا الأمانة تخالط الأجسام الكثيفة المظلمة، وبها كرم الله بني آدم، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْوَعظَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْتُهُ خَلْقًا آخَرَ﴾^(١) غير خلق النطفة علقه، والعلقة مضغة، والمضغة عظامًا، وبهذا الخلق الآخر تميز الإنسان عن أنواع الحيوانات، وشارك الملك في الإدراكات فكما قال هنالك: ﴿أُنشَأْتُهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ بعد خلق النطفة قال هاهنا: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَىٰ﴾ ﴿٤٧﴾، فجعل نفخ الروح نشأة أخرى كما جعله هنالك إنشاء آخر، والذي أوجب القول بهذا هو أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿٥١﴾^(٢) عند أكثرين لبيان الإعادة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ ﴿٥١﴾^(٣)، كذلك؛ فيكون ذكر النشأة الأخرى إعادة، ولأنه تعالى قال بعد هذا: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ ﴿٥١﴾^(٤)، وهذا من أحوال الدنيا، وعلى ما ذكرنا يكون الترتيب في غاية الحسن؛ فإنه تعالى يقول: خلق الذكر والأنثى، ونفخ فيهما الروح الإنسانية الشريفة، ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره، ثم أقناه بالكسب بعد كبره. فإن قيل: فقد وردت النشأة الأخرى للحشر في قوله تعالى: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ ﴿٥٠﴾، نقول: الآخرة من الآخر، لا من الآخر؛ لأن الآخر (أفعل)، وقد تقدم على أن

(١) المؤمنون: الآية (١٤).

(٢) النجم: الآية (٤٢).

(٣) النجم: الآية (٤١).

(٤) النجم: الآية (٤٨).

(٥) العنكبوت: الآية (٢٠).

هناك لما ذكر البدء حمل على الإعادة وهاهنا ذكر خلقه من نقطة، كما في قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عَلَقَةً﴾ ثم قال: ﴿أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾^(١) ﴿٢﴾.

قال الزمخشري: «قال: ﴿عَلَيْتُ﴾ لأنها واجبة عليه في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة»^(٣).

قال ابن المنير تعليقا على قول الزمخشري: «هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذي يسمونه مراعاة الصلاح والحكمة، وأي فساد أعظم مما يؤدي إلى اعتقاد الإيجاب على رب الأرباب تعالى الله عن ذلك. ومثل هذه القاعدة التي عفت البراهين القاطعة رسمها، وأبطلت حكمها، لا يكفي فيها كلمة محتملة هي لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع، والذي حملت عليه لفظة (عليه) غير هذا المعنى، وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته، كما يقال: دارت قضية فلان على يدي، وقول المحدثين: على يدي دار الحديث، أي: الأصل فيه والسند، والله أعلم»^(٤).

* * *

(١) المؤمنون: الآية (١٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/٢٢).

(٣) الكشف (٤/٣٤).

(٤) الإنصاف (حاشية الكشف ٤/٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ ﴿١٨﴾

★ غريب الآية:

أَقْنَى: أي: أعطاه من المال ما فيه كفايته ورضاه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «أي: مَلَّكَ عباده المال، وجعله لهم قُنْيَةً مقيماً عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: ﴿أَغْنَى﴾: مَوْلٌ، ﴿وَأَقْنَى﴾: أخدم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً: ﴿أَغْنَى﴾: أعطى، ﴿وَأَقْنَى﴾: رَضَى. وقيل: معناه: أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق. وقيل: ﴿أَغْنَى﴾ من شاء من خلقه و﴿وَأَقْنَى﴾: أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير، وهما بعيدان من حيث اللفظ»^(١).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ ﴿٤٩﴾

★ غريب الآية:

الشعرى: كوكب معروف كانت تعبده العرب في الجاهلية.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: «وأن ربك -يا محمد- هو رب الشعرى، يعني بالشعرى: النجم الذي يسمى هذا الاسم، وهو نجم كان بعض أهل الجاهلية يعبدونه من دون الله»^(١).

قال القرطبي: «وإنما ذكر أنه رب الشعرى وإن كان رباً لغيره؛ لأن العرب كانت تعبده، فأعلمهم الله جل وعز أن الشعرى مربوب وليس برب. واختلف فيمن كان يعبدونه، فقال السدي: كانت تعبده حمير وخزاعة. وقال غيره: أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبي ﷺ ابن أبي كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهم، وقالوا: ما لقينا من ابن أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله ﷺ تمرّ عليه: (لقد أُمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة)^(٢). وقد كان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضى أيلولُ وارتفع الحُرورُ وأخبت نازها الشعرى العبورُ^(٣).

(١) جامع البيان (٧٦/٢٧).

(٢) هذا جزء من حديث هرقل الطويل أخرجه: أحمد (٢٦٢/١)، والبخاري (٨/٢٧٠-٢٧٢/٤٥٥٣)، ومسلم (٣/٣٩٣/١٧٧٣)، وأبو داود (٥/٣٤٨/٥١٣٦)، والترمذي (٥/٦٥/٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/١١٠٦٤/٣٠٩).

تنبيه: وهذا الكلام إنما قاله أبو سفيان لأصحابه لما خرجوا من عند هرقل عظيم الروم، وليس كما قال القرطبي أنه قاله عنه عند مرور العساكر عليه يوم الفتح.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/١١٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ ﴿٥٠﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ ﴿٥٠﴾ وهم قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴿١١﴾، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿يَرْيَجُ صَرَصِرَ عَاتِيَةٍ﴾ ﴿١٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنِعَ لَيَالٍ وَتَمَنِينَةً أَيَّامٍ خُسُوفًا ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾.

قال ابن عطية: «واختلف في معنى وصفها بـ﴿الْأُولَى﴾»، فقال ابن زيد والجمهور: ذلك لأنها في وجه الدهر وقديمه، فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة، وقال الطبري: سميت (أولى)؛ لأن ثم عادًا أخيرة، وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق، وهم بنو لقيم بن هزال.

قال القاضي أبو محمد: والقول الأول أبين؛ لأن هذا الأخير لم يصح. وقال المبرد: عادًا الأخيرة هي ثمود؛ والدليل قول زهير:

كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم^(٤).

* * *

(١) الفجر: الآيات (٦-٨).

(٢) الحاقة: الآيتان (٦ و٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٦٧).

(٤) المحرر الوجيز (٥/٢٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَتُؤَدُّنَهَا أَتَقْنَى﴾ ﴿٥١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولم يبق الله ثمود فيتركها على طغيانها وتمردها على ربها مقيمة، ولكنه عاقبها بكفرها وعتوها فأهلكها»^(١).

قال الرازي: «وقوله: ﴿فَمَا أَتَقْنَى﴾ عائد إلى عاد وثمود أي: فما أبقى عليهم، ومن المفسرين من قال: فما أبقاهم، أي: فما أبقى منهم أحداً، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَهَلْ رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَاقِيَةِ﴾ ﴿٨﴾^(٢) وتمسك الحجاج على من قال: إن ثقيفاً من ثمود، بقوله تعالى: ﴿فَمَا أَتَقْنَى﴾^(٣).

* * *

(٢) الحاقة: الآية (٨).

(١) جامع البيان (٧٨/٢٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ ﴿٥٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى - ذكره -: وأنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، إنهم كانوا هم أشد ظلماً لأنفسهم، وأعظم كفراً بربهم، وأشد طغياناً وتمرداً على الله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان طغيانهم الذي وصفهم الله به، وأنهم كانوا بذلك أكثر طغياناً من غيرهم من الأمم»^(١).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (٢) أي: وأهلك قوم نوح، ولم يبين هنا كيفية إهلاكهم، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ (٣) الآية، وقوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٤)، وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَرْغِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ (٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (٧)، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون قوم نوح أظلم وأطغى، أي: أشد ظلماً وطغياناً من غيرهم، قد بيّنه تعالى في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٨) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا (٩) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِيءَ إِذْ أَنَّهُمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (١٠)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ

(١) جامع البيان (٧٨/٢٧).

(٢) الفرقان: الآية (٣٧).

(٣) الأنبياء: الآية (٧٧).

(٤) هود: الآية (٣٧)، المؤمنون: الآية (٢٧).

(٥) نوح: الآيات (٥-٧).

(٦) النجم: الآية (٥٠).

(٧) العنكبوت: الآية (١٤).

(٨) نوح: الآية (٢٥).

إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدَّهُ مَالُهُ وَّوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٧﴾ وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٣٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَقَدْ أَصْلَوْا كَثِيرًا﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٢) ، وقوله : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُوكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قُوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾^(٣) . ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى : ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^(٤) ؛ لأن قومًا لم يتأثروا بدعوة نبي كريم ناصح في هذا الزمن الطويل ، لا شك أنهم أظلم الناس وأظلمهم^(٥) .

قال الرازي : «وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ أَظْلَمَ وَأَطْعَى﴾ أما الظلم فلأنهم هم البادئون به المتقدمون فيه «ومن سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها» والبادئ أظلم ، وأما (أطعى) فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم ، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم ، والظالم واضع الشيء في غير موضعه ، والطاغي المجاوز الحد . فالطاغي أدخل في الظلم فهو كالمغاير والمخالف ؛ فإن المخالف مغاير مع وصف آخر زائد ، وكذا المغاير والمضاد ، وكل ضد غير ، وليس كل غير ضداً ، وعليه سؤال وهو أن قوله : ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ﴾ المقصود منه تخويف الظالم بالهلاك ، فإذا قال : هم كانوا في غاية الظلم والطغيان فأهلكوا يقول الظالم هم كانوا أظلم فأهلكوا لمبالغتهم في الظلم ، ونحن ما بالغنا فلا نهلك ، وأما لو قال : أهلكوا لأنهم ظلمة ، لخاف كل ظالم ، فما الفائدة في قوله : ﴿أَظْلَمَ﴾ ؟ نقول : المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم ؛ فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتمادهم وطول أعمارهم ، ومع ذلك ما نجا أحد منهم ، فما حال من هو دونهم من العمر والقوة ، فهو كقوله تعالى : ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾^(٦) (٧) .

* * *

(١) نوح : الآيات (٢١-٢٤) .

(٣) هود : الآية (٣٨) .

(٥) أضواء البيان (٧/ ٧١٣) .

(٦) الزخرف : الآية (٨) .

(٧) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٤-٢٥) .

(٢) نوح : الآية (٢٧) .

(٤) العنكبوت : الآية (١٤) .

قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْنِفَةَ أَهْوَى﴾ (٥٣)

★ غريب الآية:

المؤنفكة : يعني مدائن قوم لوط عليهم السلام ، ائتفكت بهم ، أي : انقلبت وصار عاليها سافلها ؛ يقال : أفكته ، أي : قلبته وصرفته .
أهوى : خسف بهم بعد رفعها إلى السماء .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي : «المؤنفكة . . المراد بها قرى قوم لوط ؛ بدليل قوله في غير هذا الموضع : ﴿وَالْمُؤْنِفَةَ﴾^(١) بالجمع . فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كما أوضحناه مراراً ، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وفي كلام العرب وأحلنا عليه مراراً ، وإنما قيل لها : مؤنفكة ؛ لأن جبريل أفكها فائتفكت ، ومعنى (أفكها) : أنه رفعها نحو السماء ثم قلبها جاعلاً أعلاها أسفلها ، وجعل عاليها أسفلها هو ائتفакها وأفكها .

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة (هود) في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً﴾^(٢) الآية ، وقوله تعالى في سورة (الحجر) : ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾^(٣) فجعلنا عليها سافلها وأمطرنا عليهم حِجَابَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾^(٣) .

وقد بينا قصة قوم لوط في (هود) و(الحجر) ، وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿أَهْوَى﴾ تقول العرب : هوى الشيء ؛ إذا انحدر من عال إلى أسفل . وأهواه غيره : إذا ألقاه من العلو إلى السفلى ؛ لأن الملك رفع قراهم ثم أهواها ، أي : ألقاها تهوي

(١) التوبة : الآية (٧٠) ، الحاقة : الآية (٩) .

(٢) هود : الآية (٨٢) .

(٣) الحجر : الآيتان (٧٣ و٧٤) .

إلى الأرض، منقلبة أعلاها أسفلها»^(١).

قال الرازي: «ما الحكمة في اختصاص المؤتفكة باسم الموضع في الذكر، وقال في عاد وثمود، وقوم نوح اسم القوم؟

نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن ثمود اسم الموضع فذكر عادًا باسم القوم، وثمود باسم الموضع، وقوم نوح باسم القوم، والمؤتفكة باسم الموضع؛ ليعلم أن القوم لا يمكنهم صون أماكنهم عن عذاب الله تعالى، ولا الموضع يحصن القوم عنه، فإن في العادة تارة يقوي الساكن فيذب عن مسكنه، وأخرى يقوي المسكن فيرد عن ساكنه، وعذاب الله لا يمنعه مانع، وهذا المعنى حصل للمؤمنين في آيتين: أحدهما قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدَى النَّاسِ عَنْكُمْ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾^(٣)، ففي الأول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه، وفي الثاني لم يقو الحصن على حفظ الساكن.

والوجه الثاني: هو أن عادًا وثمود وقوم نوح كان أمرهم متقدمًا، وأماكنهم كانت قد دثرت، ولكن أمرهم كان مشهورًا متواترًا، وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة، فذكر الأظهر من الأمرين في كل قوم»^(٤).

* * *

(١) أضواء البيان (٧/ ٧١٤).

(٢) الفتح: الآية (٢٠).

(٣) الحشر: الآية (٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٥).

قوله تعالى: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ ﴿٥٤﴾

★ غريب الآية:

فغشاها ما غشى: أي: ألبسها من الحجارة ما ألبسها.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشوكاني: «أي: ألبسها ما ألبسها من الحجارة التي وقعت عليها، كما في قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ ﴿٧٤﴾^(١)، وفي هذه العبارة تهويل للأمر الذي غشاها به، وتعظيم له»^(٢).

* * *

(١) الحجر: الآية (٧٤).

(٢) فتح القدير (١٦٧/٥).

قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ ﴿٥٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشوكاني : «هذا خطاب للإنسان المكذب، أي : فبأي نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمتري، وقيل : الخطاب لرسول الله ﷺ تعريضاً لغيره، وقيل : لكل من يصلح له»^(١).

قال الرازي : «والعموم هو الصحيح، كأنه يقول : بأي آلاء ربك تتمازي أيها الإنسان، كما قال : ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيرِ﴾ ﴿١﴾»^(٢)، وقال تعالى : ﴿وَكَانَ الْإِنْسَنُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿٣﴾»^(٤).

قال الشوكاني : «وإسناد فعل التمازي إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه، وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء، أي : نعمًا، مع كون بعضها نقمًا لا نعمًا؛ لأنها مشتملة على العبر والمواعظ، ولكون فيها انتقام من العصاة، وفي ذلك نصرة للأنبياء والصالحين»^(٥).

* * *

(١) فتح القدير (١٦٧/٥).

(٢) الانفطار : الآية (٦).

(٣) الكهف : الآية (٥٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/٢٦).

(٥) فتح القدير (١٦٧/٥).

قوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٥١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعني: محمدا ﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ أي: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢﴾.

قال السعدي: «أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلا شيء تنكر رسالته؟ وبأي حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام؟ أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟ ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين؟» ﴿٣﴾.

* * *

(١) الأحقاف: الآية (٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٤٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢٢٢).

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ ﴿٥٧﴾

★ غريب الآية:

أزفت: قربت ودنت. قال كعب بن زهير:
بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ولا أرى لشبابٍ بائنٍ خلفا
الآزفة: القيامة؛ سميت بذلك لقربها ودنوها.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال القرطبي: «أي: قربت الساعة ودنت القيامة. وسماها أزفة لقرب قيامها عنده، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ ﴿٥٧﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٥٨﴾». وقيل: سماها أزفة لدنوها من الناس، وقربها منهم ليستعدوا لها؛ لأن كل ما هو آتٍ قريب. قال:
أَزِفَ التَّرحَلُ غَيْرَ أَنْ رِكَابَنَا لَمَّا تَزَلْ بِرَحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِي^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قرب الساعة ودنو القيامة

* قال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ: «قال أبو حمزة: لا أعلمه إلا عن سهل ابن سعد قال: «مثلي ومثل الساعة كهاتين - وفرق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام - ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثلي فرسي رهان». . ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثلي رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه: أتيتم»، ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا ذلك»^(٣).

★ فوائد الحديث:

أورد الحافظ ابن كثير هذا الحديث في تفسيره بهذا السياق والتمام تحت قوله

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٢٢).

(١) المعارج: الآيتان (٧ و٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣٣١/ ٥) بهذا السياق، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٧/ ٦٧١).

تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ۖ أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ ۖ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿مُبِينًا وَجْهَ مَنَاسِبَتِهِ لِلآيَتَيْنِ بقوله: «إن النذير هو الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾﴾^(١). وفي الحديث: «أنا النذير العريان»^(٢) أي: الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عرباناً مسرعاً، مناسب لقوله: ﴿أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ ۖ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿أَيُّ: اقتربت القربة، يعني يوم القيامة، كما قال في أول السورة التي بعدها: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾﴾^(٣)﴾^(٤).

* * *

(١) سبأ: الآية (٤٦).

(٢) أخرجه: البخاري (١٣/٣١١/٧٢٨٣)، ومسلم (٤/١٧٨٨-١٧٨٩/٢٢٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) القمر: الآية (١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٦٩).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ﴿٥٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ﴿٥٨﴾ فيه وجوه: أحدها: لا مظهر لها إلا الله، فمن يعلمها لا يعلم إلا بإعلام الله تعالى إياه وإظهاره إياها له، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوفُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

ثانيها: لا يأتي بها إلا الله، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْكَ فَلَاحُ كَاشِفٌ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾^{(٣) (٤)}.

قال البغوي: «الهاء فيه للمبالغة، أو على تقدير: نفس كاشفة. ويجوز أن تكون الكاشفة مصدرًا كالخافية والعافية، والمعنى: ليس لها من دون الله كاشف، أي: لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره.

وقيل: معناه: ليس لها رادّ، يعني: إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردّها عنهم أحد، وهذا قول عطاء وقتادة والضحاك»^(٥).

* * *

(١) لقمان: الآية (٣٤).

(٢) الأعراف: الآية (١٨٧).

(٣) الأنعام: الآية (١٧)، يونس: الآية (١٠٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/٢٩).

(٥) معالم التنزيل (٧/٤٢٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبُونَ ٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

★ غريب الآية:

سامدون: لاهون لاعبون. والسمود: اللهو. قال الشاعر:
رمى الحدثان نسوة آل حرب فرد شعورهن السود بيضا
بمقدار سَمَدْنٍ له سمودا وردَّ وجوههن البيض سودا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبُونَ ٥٩﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً، وتسديداً وثباتاً، وإيماناً و يقيناً، والذي ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ٦٠﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي: أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة.

﴿وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ٦١﴾ أي: غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتهم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ٦٢﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله وأنه سر العباداة ولبها، فإن لبها

الخشوع لله والخضوع له ، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد ، فإنه يخضع قلبه وبدنه ، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام .
ثم أمر بالعبادة عموماً ، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن سجود القرآن ليس منه شيء واجباً وإن القارئ بالخيار إن شاء سجد وإن شاء لم يسجد

* عن عبد الله رضي الله عنه قال : «قرأ النبي ﷺ (النجم) بمكة فسجد فيها وسجد من معه ، غير شيخ أخذ كفاً من حصي أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال : يكفيني هذا .
فرايته بعد ذلك قتل كافراً^(٢) .

* عن ابن عباس : «أن رسول الله ﷺ سجد في (النجم) وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس^(٣) .

* عن زيد بن ثابت قال : «قرأت على النبي ﷺ : ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ، فلم يسجد فيها^(٤) .

*** فوائد الأحاديث:**

قال ابن بطال : «اختلف العلماء في سجود (النجم) لاختلافهم في سجود (المفصل) ، فروي عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عمر وأبي هريرة أنهم كانوا يسجدون في (النجم) و(المفصل) ، وهو قول الثوري وأبي حنيفة والليث والشافعي وأحمد وإسحاق وابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك ، واحتجوا بهذا الحديث . وقالت طائفة : لا سجود في (النجم) ولا في (المفصل) روي ذلك

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢٢٣-٢٢٤) .

(٢) أخرجه : أحمد (١/٤٠١ و٤٣٧ و٤٤٣ و٤٦٢) ، البخاري (٢/٧٠١ و١٠٦٧) ، ومسلم (١/٤٠٥ و٥٧٦) ، وأبو داود (٢/١٢٢ و١٤٠٦) ، والنسائي (٢/٤٩٨-٤٩٩ و٩٥٨) .

(٣) أخرجه : البخاري (٢/٧٠٤ و١٠٧١) ، والترمذي (٢/٤٦٤ و٥٧٥) وقال : «حديث حسن صحيح» .

(٤) أخرجه : أحمد (٥/١٨٦) ، البخاري (٢/٧٠٦ و١٠٧٣) ، ومسلم (١/٤٠٦ و٥٧٧) ، وأبو داود (٢/١٢١ و١٤٠٤) ، والترمذي (٢/٤٦٦ و٥٧٦) ، والنسائي (٢/٤٩٩ و٩٥٩) .

عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب وابن عباس وأنس وعن سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطاوس ومجاهد وقال يحيى بن سعيد: أدركت القراء لا يسجدون في شيء من (المفصل). وهو قول مالك واحتج من لم ير السجود في (النجم) بما ذكره البخاري عن زيد بن ثابت أنه قرأ على الرسول ﷺ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فلم يسجد فيها، وبما رواه قتادة عن عكرمة قال: سجد رسول الله ﷺ بمكة في (المفصل) فلما هاجر ترك.

واحتج الطبري لأهل المقالة الأولى فقال: يمكن أن يكون ﷺ لم يسجد فيها؛ لأن زيدًا لم يسجد فيها وإنما القارئ هو الذي يسجد فيسجد السامع، ويمكن أن يكون ترك السجود فيها ليدل أن سجود القرآن ليس منه شيء واجبًا. قال الطحاوي: ويمكن أن يكون قرأها في وقت لا يحل فيه السجود أو لأنه كان على غير وضوء.

واحتج ابن القصار لمذهب مالك فقال: إذا اعتبرنا سجود (النجم) و(المفصل) وجدناه يخرج من طريق سائر السجودات؛ لأن قوله في (النجم): ﴿فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَأَعْبُدُوا﴾ (٦٦) إنما هو أمر بالسجود، فوجب أن يتوجه إلى سجود الصلوات، فقوله: (اسجد) أي: صلّ فلم يلزم ما ذكروه.

قال الطحاوي أيضًا: والنظر على هذا أن يكون كل موضع اختلف فيه هل هو سجود أم لا، أن ينظر فيه، فإن كان موضع أمر فإنما هو تعليم فلا سجود فيه، وكل موضع فيه خبر عن السجود فهو موضع سجود التلاوة.

قال المهلب: يمكن أن يكون اختيار من اختار من العلماء ترك السجود في ﴿وَالنَّجْمِ﴾ والمفصل خشية أن يخلط على الناس صلاتهم؛ لأن المفصل هو أكثر ما يقرأ في الصلوات، وقد أشار مالك إلى هذا^(١).

قال الشافعي بعد ذكره حديث سجوده ﷺ في (النجم) وحديث تركه للسجود لما قرأ عليه زيد قال: «وفي هذين الحديثين دليل على أن سجود القرآن ليس بحتم، ولكننا نحب أن لا يترك؛ لأن النبي ﷺ سجد في (النجم) وترك..»

وفي (النجم) سجدة ولا أحب أن يدع شيئًا من سجود القرآن، وإن تركه كرهته له، وليس عليه قضاؤه؛ لأنه ليس بفرض، فإن قال قائل: ما الدليل على أنه ليس

(١) النجم: الآية (٦٦).

(٢) شرح ابن بطال (٣/٥٣-٥٤).

بفرض؟ قيل: السجود صلاة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(١)، فكان الموقوت يحتمل موقوتًا بالعدد وموقوتًا بالوقت، فأبان رسول الله أن الله جل ثناؤه فرض خمس صلوات، فقال رجل: يا رسول الله! هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»^(٢)، فلما كان سجود القرآن خارجًا من الصلوات المكتوبات كان سنة اختيار، وأحب إلينا أن لا يدعه، ومن تركه ترك فضلًا لا فرضًا، وإنما سجد رسول الله ﷺ في (النجم) لأن فيها سجودًا في حديث أبي هريرة وفي سجود النبي ﷺ في (النجم) دليل على ما وصفت..

وأما حديث زيد «أنه قرأ عند النبي ﷺ (النجم) فلم يسجد» فهو والله أعلم أن زيدًا لم يسجد وهو القارئ، فلم يسجد النبي ﷺ، ولم يكن عليه فرضًا فإمره النبي به.. فإن قال قائل: ففعل أحد هذين الحديثين نسخ الآخر، قيل: فلا يدعي أحد أن السجود في (النجم) منسوخ إلا جاز لغيره أن يدعي أن ترك السجود منسوخ والسجود ناسخ، ثم يكون أولى؛ لأن السنة السجود؛ لقول الله: ﴿فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا﴾^(٣)، ولا يقال لواحد من هذين ناسخ ولا منسوخ، ولكن يقال: اختلاف من جهة المباح»^(٤).

قال ابن بطال: «هذا الحديث [أي: حديث زيد] حجة لمالك والشافعي أن سجود القرآن سنة، ولو كان واجبًا كما زعم الكوفيون لم يترك زيد السجود فيها، ولا تركه النبي ﷺ؛ لأنه بعث معلمًا. وحديث زيد هذا يبين حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ حين سجد في ﴿وَالنَّجْمِ﴾ بمكة أن ذلك كان إعلامًا منه لأمره أن قارئ السجدة بالخيار، إن شاء سجد فيها وإن شاء لم يسجد، وكذلك فعل عمر في (النحل) سجد فيها مرة ولم يسجد فيها أخرى، ليري أن ذلك غير واجب، وقال: إن الله لم يفرض السجود إلا أن نشاء، وسيأتي زيادة في هذا المعنى في باب إن شاء الله»^(٤).

وقول ابن عباس: «وسجد معه المسلمون والمشركون والعجن والإنس»: قال

(١) النساء: الآية (١٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١٦٢/١)، والبخاري (٤٦/١٤٢)، مسلم (٤٠/١-٤١/١)، وأبو داود (٢٧٢/١).

(٣) ٢٧٣/٣٩١، والنسائي (٤٥٧/٢٤٧-٢٤٦/١).

(٤) شرح ابن بطال (٥٨/٣).

(٣) اختلاف الحديث (ص: ٧٣-٧٤).

الحافظ: «كان ابن عباس استند في ذلك إلى إخبار النبي ﷺ إما مشافهة له، وإما بواسطة؛ لأنه لم يحضر القصة لصغره، وأيضاً فهو من الأمور التي لا يطلع الإنسان عليها إلا بتوقيف، وتجوز أنه كشف له عن ذلك بعيد؛ لأنه لم يحضرها قطعاً»^(١).

قال ابن بطال: «وأما الذي أخذ كفا من حصي وترك السجود مع الرسول ففيه أنه من خالف النبي ﷺ استهزاء به، كافر يعاقب في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢) فكذلك أصاب هذا الشيخ فتنة وكفر، ويصيبه في الآخرة عذاب أليم، وقيل: إنه الوليد بن المغيرة»^(٣).

وقال القاضي عياض: «هذا الشيخ هو أمية بن خلف، قتل يوم بدر ولم يكن أسلم، وإنما سجد لأنه روى أنه سجد حينئذ مع النبي ﷺ المسلمون والمشركون والجن والإنس، قاله ابن عباس، حتى شاع أن أهل مكة أسلموا، وانصرف من كان هاجر إلى الحبشة لذلك، وكان سبب سجودهم - فيما قاله ابن مسعود - أنها كانت أول سورة نزلت فيها سجدة، وروى أصحاب الأخبار والمفسرون أن سبب ذلك ما جاء على لسان النبي ﷺ من ذكر الثناء على آلهة المشركين في سورة (النجم)^(٤) ولا يصح هذا في شيء من طريق النقل، ولا من طريق العقل؛ لأن مدح آلهة غير الله كفر، ولا يصح أن ينزل على النبي ﷺ كفر، ولا أن يقول النبي ﷺ ذلك من قبل نفسه مداراة لهم، ولا أن تقوله الشيطان على لسانه، إذ لا يصح أن يقول ﷺ شيئاً خلافاً ما هويه، فكيف في طريق القرآن وما هو كفر، ولا يسلط الشيطان على ذلك؛ لأنه داعية إلى الشك في المعجزة وصدق النبي ﷺ، وكل هذا لا يصح. وقد أشبعنا الكلام في هذا الفصل في القسم الثالث من كتاب «الشفاء» بما لا مزيد عليه، وذكرنا تخريج التأويلات في القصة لو صح نقلها، وهو لم يصح، ولا نقل فيه من طريق صحيح، ولا مسند متصل، فليطلب بسطه هناك»^(٥).

(٢) النور: الآية (٦٣).

(١) فتح الباري (٢/ ٧٠٥).

(٣) شرح ابن بطال (٣/ ٥٤).

(٤) وهذا السبب هو المعروف عند العلماء بـ «قصة الغرائق».

(٥) الإكمال (٢/ ٥٢٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة رسول الله ﷺ بسورة (القمر)
في الأضحى والفطر وغيرهما من المحافل الكبار

* عن عبيد الله بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: «ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ و﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ﴾»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير رحمه الله: «إن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ﴿قَ﴾ و﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار؛ لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة»^(٢).

قال ابن عبد البر: «يحتمل سؤال عمر رحمه الله على جلالته لأبي واقد عن قراءة رسول الله ﷺ في العيدين، ليعلم إن كان عنده من ذلك علم وإلا أنباه به، ويحتمل أن يكون على مذهب من قال: إن القراءة في العيدين تكون سرًا، وهو قول شاذ روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: من السنة أن لا يسمع الإمام قراءته من يليه، ولا يرفع صوته، ويحتمل أن يكون عمر نسي ذلك، أو أراد عامًا بعينه، والله أعلم بما كان من ذلك. وموضع عمر من رسول الله ﷺ معروف، وأنه كان من أولي الأحلام والنهي الذين

(١) أخرجه: أحمد (٢١٧/٥)، ومسلم (٦٠٧/٢)، وأبو داود (٦٨٣/١)، والترمذي (٢/

٥٣٤/٤١٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (١٥٦٦/٣)، وابن ماجه (٤٠٨/١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٤٥/٧).

كانوا يلونه، واللّه أعلم»^(١).

وقال **رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ** : «واختلفت الآثار أيضًا في هذا الباب، وكذلك اختلف الفقهاء أيضًا فيه، فقال مالك : يقرأ في صلاة العيدين بـ ﴿وَالْتَمِيسْ وَصَحْنَهَا﴾ و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ونحوها . وقال الشافعي بحديث أبي واقد الليثي هذا في ﴿قَدْ﴾ و﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ﴾ . وقال أبو حنيفة : يقرأ فيهما بـ : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَةِ﴾ . وما قرأ من شيء أجزأه . وقال أبو ثور : يقرأ في العيدين بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَةِ﴾ ، وقد روي عن عمر بن الخطاب مثل ذلك .

وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ فيهما بأم القرآن وسورة من (المفصل) . وكان أبان ابن عثمان يقرأ فيهما بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ، وليس في هذا الباب أثر مرفوع إلا حديث أبي واقد الليثي المذكور في هذا الباب، وحديث سمرة ابن جندب أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَةِ﴾ وحديث حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ مثله و . . . عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ . وفي الثانية بـ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَةِ﴾ وهذا أولى ما قيل به في هذا الباب من طريق الاستحباب، وفي اختلاف الآثار في هذا الباب، دليل على أن لا توقيف فيه، واللّه أعلم . وما قرأ به الإمام في صلاة العيدين أجزأه إذا قرأ فاتحة الكتاب»^(٢).

قال القاضي عياض : «قال بعض أصحاب المعاني : واختصاص النبي ﷺ - بقراءة هاتين السورتين في العيد لما فيهما من ذكر النشور والحشر وتشبيهه ببرز الناس وحشرهم للعيد كذلك وتذكره به : قال الله تعالى في ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَمَرُ﴾ : ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾»^(٣). وفي السورة الأخرى : ﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾»^(٤)»^(٥).

وقال **رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ** : «قال بعضهم : مثابة النبي ﷺ فيهما بـ ﴿قَدْ﴾ و﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ﴾

(٢) فتح البر (٥/٣٥٩-٣٦٠).

(٤) ق: الآية (٤٤).

(١) فتح البر (٥/٣٥٨).

(٣) القمر: الآية (٧).

(٥) الإكمال (٣/٣٠٤).

لما فيهما من ذكر النشور وشبهه بخروج الناس للعيد كما قال : ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾^(١) وقوله : ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾^(٢) ، والصدر عن المصلى لرجاء الغفران والسرور بالعيد كالصدر من المحشر إلى الجنة مغفور لهم^(٣).

* * *

(١) القمر : الآية (٧) .

(٢) ق : الآية (٤٢) .

(٣) الإكمال (٣/٣٠٥) .

قوله تعالى: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّجْزَ﴾ ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني - تعالى ذكره - بقوله: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾: دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة، وقوله: ﴿أَقْرَبَ﴾: (افتعلت) من القرب، وهذا من الله - تعالى ذكره - إنذار لعباده بدنو القيامة، وقرب فناء الدنيا، وأمر لهم بالاستعداد لأحوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون»^(١).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها؛ كما قال تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾»^(٢)، وقال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾»^(٣)،^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على اقتراب الساعة

وفراغ الدنيا وانقضائها

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثلي رجل استعمل عملاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً، قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا، قال: فذاك فضلي أوتيته من شئت»^(٥).

(٢) النحل: الآية (١).

(١) جامع البيان (٢٧/ ٨٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٠).

(٣) الأنبياء: الآية (١).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١١١)، والبخاري (٩/ ٨١/ ٥٠٢١) واللفظ له، والترمذي (٥/ ١٤١/ ٢٨٧١) وقال:

«حسن صحيح».

* غريب الحديث:

قيراط: جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشره في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين، والياء فيه بدل من الراء فإن أصله: قرّاط.

قال الحافظ: «كرر «قيراطاً» ليدل على تقسيم القراريط على العمال؛ لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته»^(١).

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٢).

* عن خالد بن عمير العدوي قال: «خطبنا عتبة بن غزوان فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صباغة كصباغة الإناء، يتصا بها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقي من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا، والله لتملأن، أفعجبتكم؟ ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام، ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشقتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا وعند الله صغيرًا، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت، حتى يكون آخر عاقبتها ملكًا، فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا»^(٣).

* غريب الحديث:

آذنت بصرم: آذنت بهمة ممدودة وفتح الذال أي: أعلمت. والصرم: بالضم،

(١) فتح الباري (٢/٤٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/١٢٤-١٢٣)، والبخاري (١١/٤٢٢/٦٥٠٤)، ومسلم (٤/٢٢٦٨/٢٩٥١)، والترمذي (٤/٤٣٠/٢٢١٤) وقال: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه: أحمد (٤/١٧٤)، ومسلم (٤/٢٢٧٨/٢٩٦٧) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (١٠/٣٨٤-٣٨٥/١١٧٩٠) طبعة الرسالة. وأخرجه مختصرًا: أحمد (٥/٦١)، والترمذي (٤/٦٠٣/٢٥٧٥)، وابن ماجه (٢/٤١٥٦/١٣٩٢).

أي : الانقطاع والذهاب .

حذاء : بحاء مهملة مفتوحة ثم ذال معجمة مشددة وألف ممدودة أي : مسرعة الانقطاع .

صباية : الصباية بضم الصاد البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء .

يتصاها : أي : يشربها .

كظيظ : أي : ممتلئ .

قرحت أشداقنا : أي : صار فيها قروح وجراح من خشونة الورق الذي نأكله وحرارته .

بردة : البردة : ثوب ، وهو كساء مخطط ، وقيل : هي الشملة والنمرة أيضًا ، وجمعها بُرْدٌ ، وقيل : كساء مربع أسود فيه صفر ، والعرب تسمي الكساء الذي يلتحف به : بردة ، والبرد ، بغير التاء : نوع من ثياب اليمن الموشية .

وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت : يعني أن زمان النبوة يكون الناس فيه يعملون بالشرع ، ويقومون بالحق ، ويزهدون في الدنيا ، ويرغبون في الآخرة ، ثم إنه بعد انقراضهم وانقراض خلفائهم يتغير الحال ، وينعكس الأمر ، ثم لا يزال الأمر في تناقص وإدبار إلى أن لا يبقى على الأرض من يقول : الله الله ، فيرتفع ما كان الصدر الأول عليه ، وهذا هو المعبر عنه هنا : بالتناسخ ؛ فإن النسخ هو الرفع والإزالة^(١) .

★ فوائد الأحاديث :

في هذه الأحاديث من الفوائد ما يدل على اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها ، وأن بعثته وأمة ﷺ من أدلة ذلك .

قال ابن رجب : «وقوله ﷺ : «إنما بقاؤكم فيما سلف من الأمم قبلكم» إنما أراد به -والله أعلم- أتباع موسى وعيسى عليهما السلام ، وقد سمى الله بني إسرائيل بانفرادهم أممًا ، فقال : ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾^(٢) ؛ ولهذا فسر النبي ﷺ ذلك

(١) المفهم (٧/ ١٢٤-١٢٥) .

(٢) الأعراف : الآية (١٦٨) .

بعمل أهل التوراة بها إلى انتصاف النهار، وعمل أهل الإنجيل إلى العصر، وعمل المسلمين بالقرآن إلى غروب الشمس.

ويدل على ذلك -أيضاً- حديث أبي موسى الذي خرجه البخاري^(١) بعد هذا، ولفظه: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له إلى الليل» وذكر الحديث، . . وإنما قلنا: إن هذا هو المراد من الحديث؛ لأن مدة هذه الأمة بالنسبة إلى مدة الدنيا من أولها إلى آخرها لا يبلغ قدر ما بين العصر إلى غروب الشمس بالنسبة إلى ما مضى من النهار، بل هو أقل من ذلك بكثير.

ويدل عليه صريحاً ما خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد، أن النبي ﷺ صلى بهم صلاة العصر يوماً بنهار، ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به - فذكر الحديث بطوله^(٢)، وقال في آخره: قال: وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه». وقال الترمذي: حديث حسن.

وخرج الإمام أحمد من حديث ابن عمر، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قيعقان بعد العصر، فقال: «ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى منه»^(٣).

ومن حديث ابن عمر، أنه كان واقفاً بعرفات ينظر إلى الشمس حين تدلّت مثل الترس للغروب، فبكى، وقال: ذكرت رسول الله ﷺ وهو واقف بمكاني هذا، فقال: «أيها الناس! لم يبق من دنياكم فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»^(٤).

(١) (٥٥٨/٤٨/٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١٩/٣)، والترمذي (٤١٩/٤-٢١٢١/٤٢٠)، وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (٥٠٥/٤-٥٠٦)، وقال: «تفرد بهذه السياقة علي بن زيد بن جدعان القرشي عن أبي نضرة، والشيخان لم يحتجا بعلي بن يزيد»، وتعقبه الذهبي بقوله: «ابن جدعان صالح الحديث».

(٣) أخرجه: أحمد (١١٥-١١٦/٢)، والطبراني في الكبير (١٣٥١٩/٤١٢/١٢).

(٤) أخرجه: أحمد (١١٣/٢)، والحاكم (٤٤٣/٢)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي بقوله: «كثير ضعفه النسائي ومشاه غيرة».

ويشهد لذلك من الأحاديث الصحيحة: قول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^(١)، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى. خرّجاه في الصحيحين من حديث أنس، وخرّجاه -أيضاً- بمعناه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد. وخرجه مسلم بمعناه من حديث جابر.

وخرّج الترمذي^(٢) من حديث المستورد بن شداد، عن النبي ﷺ قال: «بعثت في نفس الساعة، فسبقتها كما سبقت هذه هذه» - لأصبعيه: السبابة والوسطى. وفي مسند الإمام أحمد عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لتسبقني». وروى الإمام أحمد -أيضاً: ثنا أبو حمزة، حدثني أبو حازم، لا أعلمه إلا عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرق كذا بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثلي فرسي رهان»، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثلي رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه: أتيتم أتيتم». ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا ذاك»^(٣).

وكل هذه النصوص تدل على شدة اقتراب الساعة، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْنَقَ الْقَمَرُ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾^(٥). وقد فسر قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين السبابة والوسطى، فقرب زمانه من الساعة، كقرب السبابة من الوسطى، وكأن زمن بعثته تعقبه الساعة من غير تخلل نبي آخر بينه وبين الساعة، كما قال في الحديث الصحيح: «أنا الحاشر، يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»^(٦). فالحاشر: الذي يحشر الناس لبعثهم يوم القيامة على قدمه - يعني أن بعثهم وحشرهم يكون عقيب رسالته، فهو مبعوث بالرسالة، وعقبه يجمع الناس لحشرهم. والعاقب: الذي جاء عقيب الأنبياء

(١) هو من أحاديث الباب تقدم.

(٢) (٤/٤٢٩-٤٣٠/٢٢١٣)، وقال: «غريب من حديث المستورد لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٣) أخرجه: أحمد (٥/٣٣١) وصححه الشيخ الألباني -رحمه الله- في السلسلة الصحيحة (٧/٦٧١/٣٢٢٠).

(٤) القمر: الآية (١).

(٥) الأنبياء: الآية (١).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/٨٠) واللفظ له، البخاري (٦/٦٨٨/٣٥٣٢) و(٨/٨٢٦/٤٨٩٦)، مسلم (٤/١٨٢٨).

٢٣٥٤/١٢٥، الترمذي (٥/١٢٤/٢٨٤٠)، النسائي في الكبرى (٦/٤٨٩/١١٥٩٠).

كلهم ، وليس بعده نبي ، فكان إرساله من علامات الساعة»^(١).

وقوله في حديث خالد بن عمير : «فإن الدنيا قد آذنت بصرم ، وولت بحذاء» : قال ابن علان : «هذا مثل فكأنه قال : إن الدنيا قد انقطعت مسرعة ، «ولم يبق إلا صباية» لأنه ﷺ قال : «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بأصبعه الوسطى والمسبحة ، «كصباية الإناء يتصا بها صاحبها ، وإنكم منتقلون عنها» إذ هي دار ارتحال وانتقال «إلى دار لا زوال لها» ولا ارتحال عنها ، «فانتقلوا» أي : من الدنيا «بخير ما يحضر تكم» أي : بكسب صالح الأعمال وادخار الحسنات عند المولى سبحانه : جعل الخير المتمكن منه في الحياة كالحاضر المحتاج إليه في المآل ، فصاحب الحزم يدخر منه حاجته لينتفع به عند احتياجه إليه ، وهذا كما قال ابن عمر رضي الله عنهما : «وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك»^(٢).

* * *

(١) فتح الباري (٤/ ٣٣٣-٣٣٦).

(٢) دليل الفالحين (٢/ ٤٥٣-٤٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾

★ غريب الآية:

مستمر: أي: ذاهب؛ من قولهم: مرّ الشيء واستمرّ: إذا ذهب. وقيل: محكم قويّ شديد؛ من المِرّة، وهي القوّة؛ مأخوذ من إمرار الحبل، وهو شدة فتله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ يقول جل ثناؤه: وانفلق القمر، وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم ﷺ انشقاق القمر آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوته؛ فلما أراهم أعرضوا وكذبوا، وقالوا: هذا سحر مستمرّ، سحرنا محمد، فقال الله جل ثناؤه: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾»^(١).

قال ابن كثير: «قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات»^(٢).

قال الواحدي: «وجميع المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: معناه: سينشق القمر. والعلماء كلهم على خلافه، وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ﷺ، ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة؛ قال الزجاج: زعم قوم عندنا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة، والأمر بيّن في اللفظ وإجماع أهل العلم؛ لأن قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يدل على أن هذا كان في

(١) جامع البيان (٢٧/٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٤٧).

الدنيا، لا في القيامة»^(١).

قال الألوسي: «وأنكر الفلاسفة أصل الانشقاق بناءً على زعمهم استحالة الخرق والالتئام على الأجرام العلوية، ودليلهم على ذلك أو هن من بيت العنكبوت، وقد خرق بأدنى نسمة من نسمات أفكار أهل الحق العلويين خرقاً لا يقبل الالتئام كما بين في موضعه، وقال بعض الملاحدة: لو وقع لنقل متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في معرفته ولم يختص بها أهل مكة؛ لأنه أمر محسوس مشاهد، والناس فيه شركاء، والطباع حريصة على رواية الغريب ونقل ما لم يعهده، ولا أغرب من انشقاق هذا الجرم العظيم، ولم يعهده أصلاً في الزمن القديم، ولو كان له أصل لخلد أيضاً في كتب التفسير والتنجيم، ولذكره أهل الأرصاد، فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير، وإطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره مما لا تجوزه العادة، وأيضاً لا يعقل سبب لخرق هذا الجرم العظيم، وأيضاً خرقه يوجب صوتاً هائلاً أشد من أصوات الصواعق المهلكة بأضعاف مضاعفة لا يبعد هلاك أكثر أهل الأرض منه، وأيضاً متى خرق وصار قطعتين ذهبت منه قوة التجاذب كالجبل إذا انشق، فيلزم بقاؤه منشقاً، ولا أقل من أن يبقى كذلك سنين كثيرة؛ والجواب عن ذلك أنه وقع في الليل وزمان الغفلة، وكان في زمان قليل، ورؤية القمر في بلد لا تستلزم رؤيته في جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع، فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين، ومكسوفاً عند قوم غير مكسوف عند آخرين، والاعتناء بأمر الأرصاد لم يكن بمثابته اليوم، وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد، والانشقاق لا تختلف به منازل ولا يتغير به سيره، غاية ما في الباب أن يحدث في القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية، وأي مانع من أن يخلق الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه في ضوء الشمس، فقد قال أهل الحكمة الجديدة: إن بين الأرض والشمس ثلاثمائة ألف فرسخ وأربعون ألف فرسخ، وأن ضوءها ليصل إلى الأرض في مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية، فيقطع الضوء في كل ثانية سبعين ألف فرسخ، ولا يلزم أن يعلم سبب كل حادث، بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على أسبابها، كروية الكواكب

(١) الوسيط (٤/٢٠٧).

قريبة مع بعدها المفرط، فقد ذكروا أنهم لم يقفوا على سببه، ويكفي في ذلك عدم وقوفهم على سبب الإبصار بالعين على الحقيقة، ولو أخبرهم مخبر بفرض إن لم يكن لهم أبصار بخواص البصر مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح، لأنكروا عليه غاية الإنكار، وكذبوه غاية التكذيب، ونسبوه إلى الجنون.

ومن سلم تأثير النفوس إلى حدّ أن يصرع الشخص آخر بمجرد النظر إليه وتوجيه نفسه نحوه، لم يستبعد أن يكون هناك سبب نحو ذلك، وقد صح في إصابة العين أن بعض الأعراب ممن له عين صائبة يفلق سنام الناقة فلقتين، وربما تصور له من رمل فينظر إليه ويفلقه فينفلق سنامها مع عدم رؤيته لها نفسها، وهذا كله من باب المماشاة، وإلا لإرادة الله تعالى كافية في الانشقاق، وكذا في كل المعجزات وخوارق العادات، ولو كان لكل حادث سبب لزم التسلسل، وقد قامت الأدلة على بطلانه، وكون الخرق يوجب صوتاً هائلاً ممنوع فيما نحن فيه، ومثله ذهاب التجاذب، والأجسام مختلفة من حيث الخواص، فلا يلزم اتحاد جرم القمر والأرض فيها، ويمكن أن يكون إحدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الأرض: إذا ارتفع عنها بقاسر مثلاً جذبته إليه إذا لم يخرج عن حدّ جذبها على ما زعموه، ويلتزم في تلك القطعة عدم الخروج عن حدّ الجذب، على أنّا في غنى عن كل ذلك أيضاً بعد إثبات الإمكان؛ لشمول قدرته ﷻ، وأنه سبحانه فعال لما يريد.

والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد، ولا يستطيع أن يأتي بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق، والاستبعاد في مثل هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سليم، وروي عن الحسن أنه قال: هذا الانشقاق بعد النفخة الثانية، والتعبير بالماضي لتحقيق الوقوع، وروي ذلك عن عطاء أيضاً، ويؤيد ما تقدم الذي عليه الأكثرون قراءة حذيفة وقد انشق القمر فإن الجملة عليها حالية فتقتضي المقارنة لا اقتراب الساعة ووقوع الانشقاق قبل يوم القيامة، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُونَ﴾؛ فإنه يقتضي أن الانشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها، وزعم بعضهم أن انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه، وهذا كما يسمى الصبح فلما عند انفلاق الظلمة عنه، وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق، كما في قول النابغة:

فلما أدبروا ولهم دوي دعانا عند شق الصبح داعي

وزعم آخر أن معنى ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾: وضح الأمر وظهر. وكلا الزعمين مما لا يعول عليه ولا يلتفت إليه، ولا أظن الداعي إليهما عند من يقرّ بالساعة التي هي أعظم من الانشقاق ويعترف بالعقائد الإسلامية التي وقع عليها الاتفاق سوى عدم ثبوت الأخبار في وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده؛ ومنشأ ذلك القصور التام، والتمسك بشبهه هي على طرف الثمام، ومع هذا لا يكفر المنكر بناءً على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون الآية نصاً فيه، والإخراج من الدين أمر عظيم فيحتاج فيه ما لا يحتاط في غيره، والله تعالى الموفق»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في انشقاق القمر

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنه حدثهم أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر». وفي لفظ الترمذي: «فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَأَنشَقَّ الْقَمَرَ﴾» إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يقول: ذاهب»^(٢).

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «انشق القمر على عهد النبي ﷺ شقتين، فقال النبي ﷺ: اشهدوا»^(٣).

* عن ابن عباس رضي الله عنه: «أن القمر انشق في زمان النبي ﷺ»^(٤).

* عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «انفلق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا»^(٥).

* عن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد النبي ﷺ حتى صار فرقتين:

(١) روح المعاني (٢٧/٧٦-٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/١٦٥)، والبخاري (٦/٧٨٣/٣٦٣٧)، ومسلم (٤/٢١٥٩/٢٨٠٢)، والترمذي (٥/٣٧١/٣٢٨٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٦/١١٥٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (١/٣٧٧)، والبخاري (٦/٧٨٣/٣٦٣٦)، والسياق له، ومسلم (٤/٢١٥٨/٢٨٠٠)، والترمذي (٥/٣٧٠/٣٧١ و ٣٢٨٥ و ٣٢٨٧) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٦/١١٥٥٣).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/٧٨٣/٣٦٣٨)، والسياق له، ومسلم (٤/٢١٥٩/٢٨٠٣).

(٥) أخرجه: مسلم (٤/٢١٥٩/٢٨٠١)، والترمذي (٥/٣٧١/٣٢٨٨) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

على هذا الجبل وعلى هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقال بعضهم : لئن كان سحرنا ، ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم^(١) .

* عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً : «مضى خمس : الدخان ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام»^(٢) .

★ فوائد الأحاديث:

قال الخطابي : «انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ وذلك أنه أمر ظهر في ملكوت السماء ، خارج عن جملة طباع ما في العالم المركب من الطبائع الأربع ، فيطمع في نياله بحيلة وعلاج وتأليف وتركيب ونحوها من الأمور التي يتعاطاها المحتالون ، ويتصنع لها المتكلفون ، فلذلك صار الخطب فيه أعظم ، والبرهان به أظهر وأبهر .

وقد أنكر هذا الخبر منكرون وقالوا : لو كان له حقيقة لم يَجْز أن يخفى أمره على عوام الناس ، ولتواترت به الأخبار من قرن إلى قرن ؛ لأنه أمر مصدره عن حس ومشاهدة ، فالناس فيه شركاء ، وهم مطالبون بفطر العقول ، ومن جهة دواعي النفوس بذكر كل أمر عجيب ونقل كل خبر غريب ، فلو كان لما رُوي من ذلك أصل لكان قد جُلِّد ذكره في الكتب ودُوِّن في الصحف ، ولكان أهل السير وأهل التنجيم والحفظة على الأزمان وأهل العناية بالتاريخ يعرفونه ، ولا ينكرونه ؛ إذ كان لا يجوز الإطباق منهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه وجلاء أمره .

والجواب : أن الأمر في هذا خارج عما ذهبوا إليه من قياس الأمور النادرة الغريبة إذا ظهرت لعامة الناس واستفاض العلم بها عندهم ، وذلك أن هذا شيء طلبه قوم خاص من أهل مكة على ما رواه أنس بن مالك ، فأراهم النبي ﷺ ذلك ليلاً ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا سلطان له بالنهار ، وأكثر الناس في الليل تنام ومستكنون بأبنية وحُجُب ، والأيقاظ البارزون منهم في البوادي والصحارى قد يتفق أن يكونوا

(١) أخرجه : أحمد (٨١-٨٢/٤) ، والترمذي (٣٧٢/٥) واللفظ له ، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/٤٢٢) ، والحاكم (٤٧٢/٢) على شرط الشيخين .

(٢) أخرجه : البخاري (٧٣٤/٨) والسياق له ، ومسلم (٢١٥٧/٤) ، والنسائي في الكبرى (١١٣٨٨/٤٢٦/٦) .

في ذلك الوقت مشاغل بما يلهيهم من سمر وحديث ، وبما يهتهم من شغل ومهنة ، ولا يجوز أن يكونوا لا يزالون مقنعي رؤوسهم ، رافعين لها إلى السماء ، مترصدين مركز القمر من الفلك لا يغفلون عنه ، حتى إذا حدث بجرم القمر حدث من الانشقاق أبصروه في وقت انشقاقه قبل التثامه واتساقه ، وكثيراً ما يقع للقمر الكسوف فلا يشعر به الناس حتى يخبرهم الآحاد منهم والأفراد من جماعتهم ، وإنما كان ذلك في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر ، ولو أحب الله أن تكون معجزات نبيه ﷺ أموراً واقعة تحت الحس قائمة للعيان حتى يشترك في معاينته الخاصة والعامة لفعل ذلك ؛ ولكنه سبحانه قد جرت سنته بالهلاك والاستتصال في كل أمة أتاه نبيها بآية عامة يدركها الحس فلم يؤمنوا بها ، وخص هذه الأمة بالرحمة ، فجعل آية نبيها التي دعاهم إليها وتحذاهم بها عقلية ، وذلك لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الأفهام ، ولثلا يهلكوا فيكون سبيلهم سبيل من هلك من سائر الأمم المسخوط عليهم المقطوع دابرهم ، فلم يبق لهم عين ولا أثر ، والحمد لله على لطفه بنا وحسن نظره لنا ، وصلى الله على نبيه المصطفى وعلى آله وسلم كثيراً^(١).

قال القاضي عياض : «آية انشقاق القمر من أمهات آيات نبينا ﷺ ومعجزاته وقد رواها عدة من الصحابة ، وظاهر الآية أيضاً وسياقها ، وما بعدها من تمادي قریش على التكذيب ، يشهد بصحتها لقوله : ﴿ أَفَرَبَّتِ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ۖ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج : وقد أنكر بعض أهل البدع وضاهى في ذلك مخالف الملة ، وذلك لما أعمى الله قلبه ، ولا إنكار للقلب في جهتها ، إذ هو خلق من خلق الله يفعل به ما يشاء كما يفنيه ويكوره آخر أمره . وإنما أنكرها مخالفو الملة لوجهين : أما المنجمون وأصحاب التدبير والفضاء فضلالهم : أن الدراري مدبرة العالم والفاعلة فيه ، وأن تغييرها في هيئتها عندهم لا يصح إلا بفناء العالم على خلاف بينهم : هل يمكن في العقل إيجاد هيئة أخرى خلاف هذه الهيئة لتدبير العالم ، أو لا يصح وجود سواها ؟ مما طال خطبهم به وضلالهم فيه ؛ لنفي أكثرهم الصانع القديم ، ومن أثبتهم بالصنع عندهم لغيره ، ولا حاجة بنا

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٦١٨-١٦٢٠).

(١) الإكمال (٨/٣٣٣-٣٣٥).

فذكر اقتراب الساعة وانشقاق القمر، وجعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب؛ لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك، إذ هو الجسم المستنير الذي يظهر فيه الانشقاق لكل من يراه ظهوراً لا يتمارى فيه، وأنه نفسه إذا قبل الانشقاق، فقبول محله أولى بذلك، وقد عاينه الناس وشاهدوه. وكان النبي ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار مثل صلاة الجمعة والعيدين ليرى الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار بما فيها، وكل الناس يقر بذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوماً عند الناس عامة^(١).

* * *

(١) الجواب الصحيح (٦/١٥٩-١٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۝﴾

★ غريب الآية:

أهواءهم: أي: ضلالتهم. والأهواء: ما تميل إليه النفس على خلاف الحق.
مستقر: أي: لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وكذب هؤلاء المشركون من قريش بآيات الله بعدما أتتهم حقيقتها، وعاینوا الدلالة على صحتها برؤيتهم القمر منفلقاً فلقتين، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾» يقول: وآثروا اتباع ما دعتهم إليه أهواء أنفسهم من تكذيب ذلك على التصديق بما قد أيقنوا صحته من نبوة محمد ﷺ، وحقيقة ما جاءهم به من ربهم»^(١).

قال السعدي: «﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾»^(٢)؛ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ؛ لأنه أراهم الله على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية»^(٣).

قال الألوسي: «وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ استئناف مسوق للرد على الكفار في تكذيبهم ببيان أنه لا فائدة لهم فيه، ولا يمنع علو شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لإفناطهم عما علقوا به أمانيتهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ ببيان ثبوته ورسوخه، أي: وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة، ومن جملتها أمر النبي ﷺ فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيقته وعلو شأنه، وللإشارة إلى ظهور هذه الغاية

(١) جامع البيان (٢٧/٨٨).

(٢) القصص: الآية (٥٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢٢٦-٢٢٧).

لأمره عليه الصلاة والسلام لم يصرح بالمستقر عليه ، وفي «الكشاف» أي : كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها ، وأن أمره صلى الله عليه وآله وسلم سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل ، وسيظهر له عاقبتهم ، أو وكل أمر من أمره عليه الصلاة والسلام ، وأمرهم مستقر ، أي : سيثبت ويستقر على حالة نصره أو خذلان في الدنيا ، أو سعادة وشقاوة في الآخرة ، قال في «الكشاف» : والكلام على الأول تذييل جارٍ مجرى المثل ، وعلى الثاني تذييل غير مستقل^(١).

* * *

(١) روح المعاني (٢٧/٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝١﴾

★ غريب الآية:

مزدجر: أي: ما يزرهم عن الكفر؛ مأخوذ من الزجر، وهو الانتهاء؛ يقال: زجره وازدجره، فانزجر وازدجر، وزجرته أنا فانزجر، أي: كفته فكف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد جاء هؤلاء المشركين من قريش الذين كذبوا بآيات الله، واتبعوا أهواءهم من الأخبار عن الأمم السالفة، الذين كانوا من تكذيب رسل الله على مثل الذي هم عليه، وأحلّ الله بهم من عقوباته ما قصّ في هذا القرآن ما فيه لهم مزدجر، يعني: ما يردعهم، ويزجرهم عما هم عليه مقيمون من التكذيب بآيات الله، وهو (مفتعل) من الزجر»^(١).

قال الرازي: «﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝١﴾ إشارة إلى أن كل ما هو لطف بالعباد قد وجد، فأخبرهم الرسول باقتراب الساعة، وأقام الدليل على صدقه، وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذي هو آية؛ لأن من يكذب بها لا يصدق بشيء من الآيات، فكذبوا بها، واتبعوا الأباطيل الذاهبة، وذكروا الأقاويل الكاذبة، فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفاً لهم، وهذا هو الترتيب الحكمي، ولهذا قال بعد الآيات: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾^(٢) أي: هذه حكمة بالغة، والأنباء هي الأخبار العظام، ويدلّك على صدقه أن في القرآن لم يرد النبأ والأنباء إلا لما له وقع قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾^(٣)؛ لأنه كان خبراً عظيماً. وقال: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾^(٤) أي: محاربة أو مسالمة، وما يشبهه من الأمور العرفية، وإنما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذوبال،

(١) جامع البيان (٨٩/٢٧).

(٢) النمل: الآية (٢٢).

(٣) القمر: الآية (٥).

(٤) الحجرات: الآية (٦).

وكذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾^(١) فكذلك الأنباء هاهنا، وقال تعالى عن موسى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَاكُمْ مِنْهَا نَبَأً أَوْ كَذُوبًا﴾^(٢) حيث لم يكن يعلم أنه يظهر له شيء عظيم يصلح أن يقال له: نبأ، ولم يقصده، والظاهر أن المراد أنباء المهلكين بسبب التكذيب، وقال بعضهم: المراد القرآن، وتقديره: جاء فيه الأنباء^(٣).

* * *

(١) آل عمران: الآية (٤٤).

(٢) القصص: الآية (٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/٣٢-٣٣).

قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ ﴿٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بالحكمة البالغة: هذا القرآن، ورُفعت (الحكمة) ردًا على (ما) التي في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾. وتأويل الكلام: ولقد جاءهم من الأنباء النبأ الذي فيه مُزْدَجَرٌ، حكمة بالغة. ولو رُفعت (الحكمة) على الاستئناف كان جائزًا، فيكون معنى الكلام حيثئذ: ولقد جاءهم من الأنباء النبأ الذي فيه مُزْدَجَرٌ، ذلك حكمة بالغة، أو هو حكمة بالغة، فتكون الحكمة كالتفسير لها.

وقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ وفي (ما) التي في قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ وجهان: أحدهما: أن تكون بمعنى الجحد، فيكون إذا وجهت إلى ذلك معنى الكلام، فليست تغني عنهم النذر ولا ينتفعون بها، لإعراضهم عنها وتكذيبهم بها. والآخر: أن تكون بمعنى: أنى، فيكون معنى الكلام إذا وجهت إلى ذلك: فأى شيء تُغني عنهم النُّذُرُ^(١).

قال ابن كثير: «وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْكَبِيرَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢)، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣)»^(٤).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/٨٩).

(٢) الأنعام: الآية (١٤٩).

(٣) يونس: الآية (١٠١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٥١).

قوله تعالى: ﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۖ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۖ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾

★ غريب الآية:

نُكْر: أي: تاباه النفس وتنفر منه.

الأجداث: القبور، جمع جَدَث.

مهطعين: أي: مسرعين. وقيل: عامدين. وقيل: ناظرين. وقيل: فاتحين أذانهم إلى الصوت. قال القرطبي: «والمعنى متقارب؛ يقال: هَطَعَ الرجلُ يَهْطَعُ هُطُوعًا: إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه؛ وأهطع: إذا مدَّ عنقه وصَوَّبَ رأسه. قال الشاعر:

تعبدني نِمْرُ بَنُ سعد وقد رأى ونمِرُ بن سعد لي مطيعٌ ومُهْطِعٌ
وبعير مُهْطِع: في عنقه تصويب خِلقة. وأهطع في عَدْوِه أي: أسرع»^(١).

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ﴾: فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين من قومك، الذين إن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر مستمر؛ فلأنهم يوم يدعوا داعي الله إلى موقف القيامة، وذلك هو الشيء النُّكْر ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ يقول: ذليلة أبصارهم خاشعة، لا ضرر بها ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي جمع جَدَث، وهي القبور، وإنما وصف جل ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر أجسامهم، والمراد به جميع أجسامهم؛ لأن أثر ذلّة كل ذليل، وعزّة كل عزيز، تتبين في ناظره دون سائر جسده، فلذلك خصّ الأبصار بوصفها بالخشوع»^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٣٠).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٨٩-٩٠).

قال القرطبي: «أضاف الخشوع إلى الأبصار؛ لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان؛ قال الله تعالى: ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ (٢)». (٣).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ يقول -تعالى- ذكره-: يخرجون من قبورهم كأنهم في انتشارهم وسعيهم إلى موقف الحساب جراد منتشر» (٤).

قال القرطبي: «وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (٥) فهما صفتان في وقتين مختلفين: أحدهما: عند الخروج من القبور، يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض؛ فهم حينئذ كالفراس المبعوث بعضه في بعض لا جهة يقصدها» (٦).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ يقول: مسرعين بنظرهم قبل داعيهم إلى ذلك الموقف» (٧).

قال ابن كثير: «﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ أي: يوم شديد الهول عبوس قمطير ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (٨) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (٩)» (١٠).

قال الرازي في قوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾: «فيه فائدتان: إحداهما: تنبيه المؤمن أن ذلك اليوم على الكافر عسير فحسب، كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ (١١) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (١٢)، يعني: له عسر لا يسر معه.

ثانيتها: هي أن الأمرين متفقان مشتركان بين المؤمن والكافر؛ فإن الخروج من الأجداث كأنهم جراد، والانقطاع إلى الداعي يكون للمؤمن؛ فإنه يخاف ولا يأمن العذاب إلا بإيمان الله تعالى إياه، فيؤتيه الله الثواب، فيبقى الكافر فيقول: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾» (١٣).

* * *

- | | |
|------------------------------------|------------------------------------|
| (١) النازعات: الآية (٩). | (٢) الشورى: الآية (٤٥). |
| (٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٢٩). | (٤) جامع البيان (٢٧/٩٠). |
| (٥) القارعة: الآية (٤). | (٦) الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٣٠). |
| (٧) جامع البيان (٢٧/٩٠). | (٨) المدثر: الآيتان (٩ و ١٠). |
| (٩) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٥١). | (١٠) مفاتيح الغيب (٢٩/٣٥). |

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ۚ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۖ﴾ (٩)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا وعيد من الله - تعالى ذكره -، وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمداً ﷺ على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه، أنه مُجَلَّبٌ بهم ما أحل بالأمم الذين قصَّ قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومنجَّ نبيه محمداً والمؤمنين به، كما نجَّى من قبله الرسل وأتباعهم من نقمه التي أحلها بأممهم، فقال جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: كَذَّبَتْ يَا مُحَمَّد - قبل هؤلاء الذين كَذَّبوك من قومك، الذين إذا رأوا آيةً أعرضوا وقالوا: سحر مستمر - قومُ نوح، فكذبوا عبدنا نوحاً إذ أرسلناه إليهم، كما كَذَّبْتَكَ قريش إذ أتيتهم بالحق من عندنا وقالوا: هو مجنون وازدجر..»

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي زجروه، فقال بعضهم: كان زجرهم إياه أن قالوا: استُطِير جنوناً.. وقال آخرون: بل كان زجرهم إياه وعيدهم له بالشتم والرجم بالقول القبيح..

وقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۖ﴾ (٩) يقول - تعالى ذكره -: فدعا نوح ربه: إن قومي قد غلبوني، تمرّداً وعتواً، ولا طاقة لي بهم، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك»^(١).

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه - جل وعلا - أن ينتصر له من قومه فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له منهم، فأهلكهم جميعاً بالغرق في هذا الماء الملتقي من السماء والأرض، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله، كقوله تعالى في (الأنبياء): ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ﴾

وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴿١﴾، وقوله تعالى في (الصفات): ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَنعَمْ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨١﴾﴾ ﴿٢﴾.

وقد بين -جل وعلا- أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكاً مستأصلاً، وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: ﴿فَانصِرْ﴾، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٧٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصْلُوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٧٧﴾﴾. وما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحِ إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴿٤﴾﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٥﴾﴾ ﴿٦﴾.

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْنُونا وَازْدُجِرْ ﴿١﴾﴾ قال: فيها تهوين وتسلية لقلب محمد ﷺ؛ فإن حاله كحال من تقدمه ﴿٧﴾.

وقال في قوله: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾: «كثيراً ما يخص الله الصالحين بالإضافة إلى نفسه كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ عِبَادِي﴾ ﴿٨﴾، ﴿يَعْبَادِي﴾ ﴿٩﴾، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ ﴿١٠﴾، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ ﴿١١﴾، وكل واحد عبده، فما السر فيه؟ نقول: الجواب عنه من وجوه:

الأول: ما قيل في المشهور أن الإضافة إليه تشريف منه، فمن خصصه بكونه عبده شرف، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرْنَا بَيْتِي﴾ ﴿١٢﴾، وقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ﴿١٣﴾.

الثاني: المراد من (عبدنا)، أي: الذي عبدنا، فالكل عباد؛ لأنهم مخلوقون

(٢) الصفات: الآيات (٧٥-٨٢).

(٤) هود: الآية (٣٦).

(٦) أضواء البيان (٧/٧١٨-٧١٩).

(٨) الحجر: الآية (٤٢).

(١٠) ص: الآية (١٧).

(١٢) البقرة: الآية (١٢٥).

(١) الأنبياء: الآيات (٧٦ و٧٧).

(٣) نوح: الآيات (٢٦ و٢٧).

(٥) هود: الآية (٤٠).

(٧) مغايب الغيب (٢٩/٣٥).

(٩) العنكبوت: الآية (٥٦).

(١١) يوسف: الآية (٢٤).

(١٣) الأعراف: الآية (٧٣).

للعبادة؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١)؛ لكن منهم من عبد فحقق المقصود فصار عبده، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي﴾ (٢) أي: حققوا المقصود.

الثالث: الإضافة تفيد الحصر، فمعنى (عبدنا) هو الذي لم يقل بمعبود سوانا، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهاً، فالعبد المضاف هو الذي بكليته في كل وقت لله، فأكله وشربه وجميع أموره لوجه الله تعالى، وقليل ما هم^(٣).

* * *

(١) الذاريات: الآية (٥٦).

(٢) آل عمران: الآية (٧٩).

(٣) المصدر السابق (٣٦/٢٩).

قوله تعالى: ﴿فَفَتْحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴿١٢﴾ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

منهمر: أي: كثير. وانهمر الماء: نزل بقوة وغزارة. والانهمار: الانصباب.
قال امرؤ القيس:

راح تمويه الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منهمر
فَجَرْنَا: شققنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: « ﴿فَفَتْحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ أي: كثير جدًا متتابع، ﴿وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلًا عن كونه منبعًا للماء؛ لأنه موضع النار. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ من الله له بذلك، ﴿قَدَرٍ﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه؛ عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين»^(١).

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿فَفَتْحْنَا﴾ بيان أن الله انتصر منهم، وانتقم بماء، لا بجند أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٢٩﴾﴾؛ بيانًا لكمال القدرة»^(٢).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٣٠).

(٢) يس: الآيتان (٢٨ و ٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ ﴿١٣﴾

★ غريب الآية:

دُسُر: الدسر: المسامير التي تشد بها ألواح السفينة. واحدها: دِسَار.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا ذات الألواح والدسر، ولكنه بين في مواضع آخر أن المراد: وحملناه على سفينة ذات ألواح، أي: من الخشب، ودسر: أي: مسامير تربط بعض الخشب ببعض، وواحد الدُسُر: دِسَار، ككتاب وكتب، وعلى هذا القول أكثر المفسرين. وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة: الدسور الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة. وقال بعض العلماء: الدسور جَوْجُو السفينة، أي: صدرها ومقدمها الذي تدسر به الماء، أي: تدفعه وتمخره به، قالوا: هو من الدسر، وهو الدفع.

فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا طَعَا أَلْمَاءُ حَمَلَكُمُ فِي الْبَارِيَةِ﴾ ﴿١١﴾ أي: السفينة، كما أوضحناه في سورة (الشورى) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ﴿٢٢﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ ﴿٣٠﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٤١﴾ إلى غير ذلك من الآيات»^(٥).

قال الرازي: «حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، إشارة إلى أنها كانت من ألواح مركبة موثقة بدسر، وكان انفكاكها في غاية السهولة، ولم يقع، فهو بفضل الله»^(٦).

(١) الحاقة: الآية (١١).

(٣) العنكبوت: الآية (١٥).

(٥) أضواء البيان (٧/٧١٩-٧٢٠).

(٢) الشورى: الآية (٣٢).

(٤) يس: الآية (٤١).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٩/٣٩).

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾ ﴿١٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول جل ثناؤه: تجري السفينة التي حملنا نوحًا فيها بمرأى منا ومنظر. وذكر عن سفيان في تأويل ذلك ما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول: بأمرنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾.

اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: تأويله فعلنا ذلك ثوابًا لمن كان كُفر فيه، بمعنى: كفر بالله فيه. . . ووجه آخرون معنى (من) إلى معنى (ما) في هذا الموضع، وقالوا: معنى الكلام: جزاء لما كان كُفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أهلكهم وغرقهم من قوم نوح. .

والصواب من القول في ذلك عندي ما قاله مجاهد، وهو أن معناه: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيونًا، فغرقنا قوم نوح، ونجينا نوحًا عقابًا من الله وثوابًا للذي جحد وكُفر؛ لأن معنى الكفر: الجحود، والذي جحد ألوهته ووحدانيته قوم نوح، فقال بعضهم لبعض: ﴿لَا نَذَرَنَّ إِلَهَتَكَ وَلَا نَذَرَنَّ وَدًّا وَلَا سِوَاءًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(١)، ومن ذهب به إلى هذا التأويل، كانت من الله كأنه قيل: عوقبوا لله ولكفرهم به. ولو وجَّه موجَّه إلى أنها مراد بها نوح والمؤمنون به كان مذهبًا، فيكون معنى الكلام حينئذ، فعلنا ذلك جزاء لنوح ولمن كان معه في الفلك، كأنه قيل: غرقناهم لنوح ولصنيعهم بنوح ما صنعوا من كفرهم به^(٢).

(١) نوح: الآية (٢٣).

(٢) جامع البيان (٢٧/٩٤-٩٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العين لله تعالى
والرد على الجهمية وأفراخهم

* عن عبد الله قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور - وأشار بيده إلى عينه - وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنب طافية»^(١).

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب، إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر»^(٢).

★ فوائد الحديثين:

قال الغنيان: «قوله: «إن الله ليس بأعور» هذه الجملة هي المقصودة من الحديث في هذا الباب، فهذا يدل على أن لله عينين حقيقة؛ لأن العور فقد أحد العينين أو ذهاب نورها.

قال في «القاموس»: «العور ذهاب حسن إحدى العينين، والرديء من كل شيء، والضعيف الجبان البليد الذي لا يدل ولا يندل ولا خير فيه» وعلى كل العور نقص وعيب في الاتفاق، والمقصود أنه في اللغة هو ذهاب ضوء إحدى العينين، ولهذا صار هذا الحديث من الأدلة الواضحة على إثبات ثنية العين لله تعالى، ويزيد ذلك وضوحاً إشارته ﷺ إلى عينه لتحقيق الوصف، يعني أن لله عينين سالمتين من كل عيب كاملتين، بخلاف الدجال الفاقد لإحدى عينيه، وذلك من أعظم الأدلة على كذبه.

قال ابن المنير: «وجه دلالة الحديث على إثبات العين لله من حديث الدجال من قوله: «إن الله ليس بأعور» من جهة أن العور عرفاً عدم العين، وضد العور ثبوت العين، فلما نزعنا هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها، وهو وجود العين».

(١) أخرجه البخاري (١٣/٧٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٤/١٦٩/٢٢٤٧)، والترمذي (٤/٤٤٠/٢٢٣٥) وقال: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٠٣)، والبخاري (١٣/٧٤٠٨)، ومسلم (٤/٢٢٤٨/٢٩٣٣)، وأبو داود (٤/٤٣١٦/٤٩٤)، والترمذي (٤/٢٢٤٥/٤٤٧) وقال: «حسن صحيح».

قلت : الحديث فيه إثبات العينين لله تعالى ، لا عين واحدة كما قد يوهمه كلامه ، وقوله : «عرفاً» بل هو لغة قبل العرف .

وقال شهاب الدين السهروردي في «كتاب العقيدة» له : «أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله الاستواء والنزول والنفس واليد والعين ، فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل ، إذ لولا إخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى» . قال الطيبي : «هذا هو المذهب المعتمد ، وبه يقول السلف الصالح» . وقال غيره : لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ، ولا المنع من ذكره .

ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، وينزل عليه : ﴿أَلَيْوَمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(١) ثم يترك هذا الباب ، فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز ، مع حضه على التبليغ عنه بقوله : «ليبلغ الشاهد الغائب»^(٢) حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وصفاته ، وما فعل بحضرته . فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذي أراده الله منها ، ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات ، بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم . وبالله التوفيق»^(٣) .

قال الإمام أبو بكر بن خزيمة : «باب ذكر إثبات العين لله - جل وعلا - ، على ما ثبته الخالق البارئ في محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه ﷺ ، قال الله ﷻ لنبيه نوح - صلوات الله عليه - : ﴿وَأَصْنَعْ أَلْفُكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾^(٤) وقال - جل وعلا - : ﴿نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ وقال ﷻ في ذكر موسى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾^(٥) وقال : ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(٦) فوجب على كل مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبت الخالق البارئ لنفسه ، من العين ، وغير مؤمن من ينفي عن الله - تبارك وتعالى - ما قد ثبته الله في محكم تنزيله ببيان النبي ﷺ الذي جعله الله مبيناً عنه ﷻ في قوله :

(١) المائدة : الآية (٣) .

(٢) أخرجه : أحمد (٣٧/٥) ، والبخاري (١٠٥/٢٦٥) واللفظ له ، ومسلم (٣/١٣٠٥-١٣٠٦/١٦٧٩) ، وابن ماجه (١/٨٥/٢٣٣) ، والنسائي في الكبرى (٣/٤٣٢/٥٨٥٠) من حديث أبي بكره ﷺ .

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/٢٨١-٢٨٠) .

(٤) طه : الآية (٣٩) .

(٥) هود : الآية (٣٧) .

(٦) الطور : الآية (٤٨) .

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١) فبين النبي ﷺ أن لله عينين، فكان بيانه موافقاً لبيان محكم التنزيل الذي هو مسطور بين الدفتين، مقروء في المحاريب والكتائب^(٢).

قال الغنيان: «واعلم أن المتكلمين من المعتزلة والأشعرية ونحوهم، يزعمون أن من أثبت لله عينين ويدين ووجهًا ونحو ذلك مما جاءت به النصوص، من أثبت ذلك على ظاهر اللفظ، أنه يثبت جوارح تشبه جوارح الخلق على حد زعمهم، تعالى الله وتقدس عن زعمهم وظنهم السيئ في الله ورسوله، حيث ظنوا أن ظاهر وصف الله نفسه وظاهر وصف رسوله إياه يقتضي التشبيه، ولهذا تجد الذين تلقوا هذا الفكر وتأثروا به من الذين يشتغلون بالحديث إذا جاء ذكر ذلك، قالوا مثلاً: إثبات صفة اليد لا من حيث الجارحة، إثبات صفة الوجه لا من حيث الجارحة، ونحو ذلك، كما يقوله البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات»، وسائر شراح الحديث الذين لا يجروون على رد النصوص، فهم عندما يتكلمون على مثل هذه النصوص يبادرون إلى نفي الجارحة»^(٣).

قال أبو بكر بن خزيمة: «فاسمعوا -يا ذوي الحجى- ما نقول في هذا الباب ونذكر بهت الجهمية وزورهم، وكذبهم على علماء أهل الآثار ورميهم خيار الخلق بعد الأنبياء بما الله قد نزههم عنه، وبرأهم منه بتزور الجهمية على علمائنا إنهم مشبهة، فاسمعوا ما أقول وأبين من مذاهب علمائنا وتعلموا وتستيقنوا بتوفيق خالقنا أن هؤلاء المعطلة يبهتون العلماء ويرمونهم بما الله نزههم عنه، نحن نقول: لربنا الخالق عيان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى وما في السموات العلى وما بينهما من صغير وكبير، لا يخفى على خالقنا خافية في السموات السبع والأرضين السبع، ولا مما بينهم ولا فوقهم ولا أسفل منهم لا يغيب عن بصره من ذلك شيء، يرى ما في جوف البحار ولججها، كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه. وبنو آدم -وإن كانت لهم عيون يبصرون بها- فإنهم إنما

(١) النحل: الآية (٤٤).

(٢) كتاب التوحيد (٩٦/١-٩٧).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢٨٣-٢٨٤).

يرون ما قرب من أبصارهم مما لا حجاب ولا ستر بين المرئي وبين أبصارهم، وما يبعد منهم وإن كان يقع اسم القرب عليه في بعض الأحوال؛ لأن العرب التي خوطبنا بلغتها قد تقول: قرية كذا منا قرية، وبلدة كذا قريبة منا ومن بلدنا، ومنزل فلان قريب منا، وإن كان بين البلدين وبين القريتين وبين المنزلين فراسخ. والبصير من بني آدم لا يدرك ببصره شخصاً آخر من بني آدم، وبينهما فرسخان فأكثر، وكذلك لا يرى أحد من الآدميين ما تحت الأرض إذا كان فوق المرئي من الأرض والتراب قدر أنملة، أو أقل منها بقدر ما يغطى ويوارى الشيء، وكذلك لا يدرك ببصره إذا كان بينهما حجاب من حائط أو ثوب، صفيق أو غيرهما مما يستتر الشيء عن عين الناظر، فكيف يكون -يا ذوي الحجى- مشبهاً من يصف عين الله بما ذكرنا وأعين بني آدم بما وصفنا.

ونزيد شرحاً وبياناً: نقول: عين الله ﷻ قديمة لم تزل باقية، ولا يزال محكوم لها بالبقاء، منفي عنها الهلاك والفناء، وعيون بني آدم محدثة مخلوقة، كانت عدماً غير مكونة فكونها الله وخلقها بكلامه الذي هو صفة من صفات ذاته، وقد قضى الله وقدر أن عيون بني آدم تصير إلى بلاء عن قليل، والله نسأل خير ذلك المصير، وقد يعمي الله عيون كثير من الآدميين فيذهب بأبصارها قبل نزول المنايا بهم، ولعل كثيراً من أبصار الآدميين قد سلط خالقنا عليها ديدان الأرض حتى تأكلها وتفنيها بعد نزول المنية بهم، ثم ينشئها الله بعد، فيصيبها ما قد ذكرنا قبل في ذكر الوجه، فما الذي يشبه -يا ذوي الحجى- عين الله التي هي موصوفة بما ذكرنا عيون بني آدم التي وصفناها بعد؟ ولست أحسب لو قيل لبصير لا آفة ببصره، ولا علة بعينه، ولا نقص، بل هو أعين، أكحل، أسود الحدق، شديد بياض العينين، أهدب الأشفار-: عينك كعين فلان، الذي هو صغير العين، أزرق، أحمر بياض شحمها، يرى الموصوف الأول الشخص من بعيد، ولا يرى الثاني مثل ذلك الشخص من قدر عشر ما يرى الأول لعله في بصره أو نقص في عينه، إلا غضب من هذا وأنف منه، فلعله يخرج إلى القائل له ذلك إلى المكروه من الشتم والأذى. ولست أحسب عاقلاً يسمع هذا المشبه بعيني أحدهما بعيني الآخر إلا وهو يكذب هذا المشبه عين أحدهما بعين الآخر، ورميه بالعتة والخبل والجنون، ويقول له: لو كنت عاقلاً يجري عليك القلم: لم تشبه بعيني أحدهما بعيني الآخر. وإن كانا جميعاً يسميان

بصيرين ، إذ ليسا بأعميين ، ويقال لكل واحد منهما عيان يبصر بهما ، فكيف لو قيل له : عينك كعين الخنزير والقرد والدب والكلب ، أو غيرها من السباع ، أو هوام الأرض ، والبهائم ، فتدبروا يا ذوي الألباب : أبين عيني خالقنا الأزلي الدائم لم يزل ولا يزال وبين عيني الإنسان من الفرقان أكثر ، أو مما بين أعين بني آدم وبين عيون ما ذكرنا ؟ تعلموا وتستيقنوا أن من سمى علماءنا مشبهة غير عالم بلغة العرب ، ولا يفهم العلم ، وإذ لم يجز تشبيه أعين بني آدم بعيون المخلوقين ، من السباع والبهائم والهوم وكلها لها عيون يبصرون بها ، وعيون جميعهم محدثة مخلوقة ، خلقها الله بعد أن كانت عدماً ، وكلها تصير إلى الفناء والبلى ، وغير جائز إسقاط اسم العيون والأبصار عن شيء منها ، فكيف يحل لمسلم - ولو كانت الجهمية من المسلمين - أن يرموا من يثبت لله عيناً بالتشبيه ؟! فلو كان كل ما وقع عليه الاسم كان مشبهاً لما لم يقع عليه الاسم ، لم يجز قراءة كتاب الله ، ووجب محو كل آية بين الدفتين فيها ذكر نفس الله ، أو عينه ، أو يده ، ولوجب الكفر بكل ما في كتاب الله ﷻ من ذكر صفات الرب ، كما يجب الكفر بتشبيه الخالق بالمخلوق ، إلا أن القوم جهلة ، لا يفهمون العلم ، ولا يحسنون لغة العرب ، فيضلون ويضلون ، والله نسأل العصمة والتوفيق والرشاد في كل ما نقول وندعو إليه^(١) .

* * *

(١) كتاب التوحيد (١/ ١١٤-١١٧) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿١٥﴾

★ غريب الآية:

مدّكر: متعظ ومعتبر.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «الضمير في قوله تعالى: ﴿تَرَكْنَهَا﴾، قال بعض العلماء: إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التي فعل بقوم نوح. والمعنى: ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم؛ لينزجروا ويكفوا عن تكذيب الرسل؛ لثلاً نفعل بهم مثل ما فعلنا بقوم نوح. وكون هذه الفعلة آية نص عليه تعالى بقوله: ﴿وَقَوْمٌ نُوِجَ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١٢٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾»^(٢).

وقال بعض العلماء: الضمير في ﴿تَرَكْنَهَا﴾ عائد إلى السفينة، وكون سفينة نوح آية بينه الله تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السِّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٥﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١٦﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٧﴾»^(٤)،^(٥).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ يقول: فهل من ذي تذكر يتذكر ما قد فعلنا بهذه الأمة التي كفرت بربها، وعصت رسوله نوحاً، وكذّبت فيما أتاهم به عن ربهم من النصيحة، فيعتبر بهم، ويحذر أن يحلّ به من عذاب الله بكفره بربه،

(١) الفرقان: الآية (٣٧).

(٢) الشعراء: الآيات (١١٩-١٢١).

(٣) النكبات: الآية (١٥).

(٤) يس: الآيات (٤١ و٤٢).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٧٢٠).

وتكذيبه رسوله محمداً ﷺ، مثل الذي حلّ بهم، فينيب إلى التوبة، ويراجع الطاعة^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في قراءة النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ بدال مهملة

* عن أبي إسحاق قال: «رأيت رجلاً سأل الأسود بن يزيد وهو يعلم القرآن في المسجد فقال: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾، أداً أم ذالاً؟ قال: بل ذالاً؛ سمعت عبد الله بن مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿مُدْكِرٍ﴾ ذالاً»^(٢).

* فوائد الحديث:

قوله: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿مُدْكِرٍ﴾ ذالاً»: قال الحافظ: «أي: بالدال المهملة، وسبب ذكر ذلك أن بعض السلف قرأها بالمعجمة، وهو منقول أيضاً عن قتادة.. وقد تكرر في هذه السورة قوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ بحسب تكرر القصص من أخبار الأمم؛ استدعاءً لأفهام السامعين ليعتبروا»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/٩٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/٣٩٥)، والبخاري (٨/٧٩٥/٤٨٦٩)، ومسلم (١/٥٦٥/٨٢٣]٢٨٠[، واللفظ له، وأبو داود (٤/٢٩١/٣٩٩٤)، والترمذي (٥/١٧٤/٢٩٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٦/١١٥٥٥).

(٣) فتح الباري (٨/٧٩٦).

قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾

★ غريب الآية:

نُذْرٌ : جمع نذير ، وهو الرسول . وقيل : المراد الآيات المخوفة .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : فكيف كان عذابي لهؤلاء الذين كفروا بربهم من قوم نوح ، وكذبوا رسوله نوحًا ، إذ تمادوا في غيهم وضلالهم ، وكيف كان إنذارى بما فعلت بهم من العقوبة التي أحللت بهم بكفرهم بربهم ، وتكذيبهم رسوله نوحًا ، صلوات الله عليه ، وهو إنذار لمن كفر من قومه من قريش ، وتحذير منه لهم ، أن يحلّ بهم على تماديهم في غيهم ، مثل الذي حلّ بقوم نوح من العذاب»^(١) .

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/٩٦) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: سهّلنا لفظه، ويسّرنا معناه لمن أراد، ليتذكر الناس؛ كما قال: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ لِذِكْرٍ مُبْرَكٍ يُذَكِّرُ بِهِ لِمَنِ الْعَذَابُ وَلَسْتَ تَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ ﴿١٧﴾^(٢)،^(٣).

قال السعدي: «والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواظ والعبء، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعِين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾»^(٤).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ يقول: فهل من معتبر متعظ يتذكر فيعتبر بما فيه من العبر والذكر. وقد قال بعضهم في تأويل ذلك: هل من طالب علم أو خيار فيعان عليه، وذلك قريب المعنى مما قلناه، ولكننا اخترنا العبارة التي عبرنا بها في تأويله؛ لأن ذلك هو الأغلب من معانيه على ظاهره»^(٥).

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ استدعاء وحض على ذكره وحفظه؛ لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس. قال مطرف في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾: هل من طالب علم فيعان عليه؟

قال القاضي أبو محمد: الآية تعيد نعمة في أن الله يسر الهدى ولا بخل من قبله، فلله در من قبل وهدي»^(٦).

(١) ص: الآية (٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٧٨).

(٣) جامع البيان (٢٧/٩٦).

(٤) مريم: الآية (٩٧).

(٥) تفسير الكرمي الرحمن (٧/٢٣٢).

(٦) المحرر الوجيز (٥/٢١٥).

قال الشوكاني: «وفي الآية الحث على درس القرآن، والاستكثار من تلاوته، والمسارة في تعلمه»^(١).

قال القرطبي في قوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾: «كرر في هذه السورة للتنبيه والإفهام. وقيل: إن الله تعالى اقتص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين، وما عاملتهم به الأمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين؛ فكان في كل قصة ونبا ذكر للمستمع أن لو اذكر، وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ لأن (هل) كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم وجعلها حجة عليهم؛ فاللام (من) (هل) للاستعراض، و(الهاء) للاستخراج»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن العبد فاعل على الحقيقة والله خالق فعله

* عن عمران قال: قلت يا رسول الله: فيما يعمل العاملون؟ قال: «كل ميسر لما خلق له»^(٣).

* عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه كان في جنازة فأخذ عودًا، فجعل ينكت في الأرض، فقال: ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار، قالوا: ألا نتكل؟ قال: اعملوا، فكل ميسر ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾^(٤) الآية»^(٥).

★ غريب الحديث:

ينكت: أي: يضرب الأرض بطرفه.

(١) فتح القدير (١٧٦/٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣٤/١٧).
(٣) أخرجه: أحمد (٤٣١/٤)، والبخاري (٦٣٧/١٣)، واللفظ له، ومسلم (٢٠٤١/٤)، وأبو داود (٤٧٠٩/٨٣)، والنسائي في الكبرى (٥١٧/٦).
(٤) الليل: الآية (٥).
(٥) أخرجه: البخاري (٢٥٥٧/١٣)، ومسلم (٧٤٦٢/٩٣٠٢)، وأبو داود (٤٦٩٤/٦٩)، والترمذي (٢١٣٦/٣٨٨)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٧٨/٣٠)، والنسائي في الكبرى (١١٦٧٨/٥١٦).

* فوائد الحديثين:

ترجم البخاري لهذين الحديثين بقوله: «باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾»^(١).

قال الغنيمة: «قال ابن المنير: ما ذكره البخاري في هذا الباب راجع إلى ما تقدم من وصف القراءة باليسير وهذا يدل على أنها فعل العبد، ويشهد له قوله: «كل ميسر لما خلق له» ومما خلق له التلاوة، والله أعلم. قوله: ومما خلق له التلاوة، يعني أنها عمل الإنسان الذي يترتب عليه مصيره الذي كتب له»^(٢).

وقال: «وجه الاستدلال من الحديث أن قوله: «كل ميسر لما خلق له» يدل على أن العبد له عمل يسره فيعمله، فيستحق عليه الجزاء، وذلك الجزاء هو الذي خلق العبد له، إما الجنة وإما النار، فالعبد فاعل على الحقيقة، فهو المؤمن، والمصلي، والعامل حقيقة، وهو الكافر، والمنافق، والعاصي، والسارق، والزاني حقيقة، ولذلك استحق العذاب أو الثواب، وكذلك هو القارئ إذا قرأ كتاب الله تعالى، فالقراءة فعله وكسبه وعمله، والمقروء كتاب الله وصفته التي تكلم به وقاله، وأنزله على رسوله ﷺ، وقد يسر الله القرآن للذكر، فإذا تذكره العبد وقرأه وعمل به، فذلك عمله يضاف إليه، ويجزى عليه.

قال الإمام البخاري رحمه الله: ويقال لمن زعم أنني لا أقول القرآن مكتوب في المصحف ولكن القرآن بعينه في المصحف: يلزمك أن تقول: إن ما ذكره الله في القرآن من الجن والإنس والملائكة والمداثر ومكة والمدينة وغيرها وإبليس وفرعون وجنودهما والجنة والنار عاينتهم بأعيانهم في المصحف؛ لأن فرعون مكتوب فيه كما أن القرآن مكتوب فيه، ويلزمك أكثر من ذلك حين تقول: الله في المصحف، وهذا أمر بين؛ لأنك تضع يدك على هذه الآية وتراها بعينك: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٣)، فلا يشك عاقل بأن الله هو المعبود، وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هو قرآن، فالقرآن قول الله ﷻ، والقراءة والكتابة والحفظ

(١) فتح الباري (١٣/٦٣٧).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/٥٣٠).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

للقرآن هو فعل المخلوق؛ لقوله: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ وقوله: ﴿فَأَقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ﴾^(١) والقراءة فعل الخلق، وهي طاعة الله، والقرآن ليس هو بطاعة الله، إنما هو الأمر بالطاعة، ودليله قوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ الْفُرْقَانَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةٍ﴾^(٢) وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٤).

وقال عليه السلام: ﴿بَلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٥)، فذلك كله مما أمر به، ولذلك قال: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٦) والصلاة بجملتها طاعة لله، والأمر بالصلاة قرآن، وهو مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، مقروء على اللسان، والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق، وما قرئ وحفظ وكتب ليس بمخلوق، ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون «الله» ويحفظونه ويدعونه، فالدعاء والحفظ والكتابة من الناس مخلوق، ولا شك فيه، والخالق الله بصفته^(٧).

قال الوزير ابن هبيرة: «وفيه من الفقه أن هذا الخبر لا ينبغي أن يؤثر في ترك العمل، بل في زيادته، ويؤثر في ترك الإدلال بالطاعة، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له». وقد روي عن أحمد بن حنبل رحمته الله أنه لما روى الحديث الذي فيه: «يعمل أحدكم بعمل أهل الجنة..» قال: هذا أشد الحديث أو أشد الأحاديث بعثاً على العمل، أو كما قال. والغرض أن هذا الحديث ليس يقتضي تقدير العمل، بل يقتضي الحذر من الإعجاب، كما أنه لا يقتضي التتابع في المعاصي، بل يقتضي أن لا يقنط فاعلمها من رحمة الله إن كثرت ذنوبه»^(٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في تسهيل حفظ القرآن وتيسيره على الأمة

* عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل على حرف

(١) المزمل: الآية (٢٠).

(٢) الإسراء: الآية (١٠٦).

(٣) فاطر: الآية (٢٩).

(٤) المائدة: الآية (٦٧).

(٥) البقرة: الآية (٤٣).

(٦) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/٥٢٦-٥٢٨).

(٧) الإنصاح (١/٢٥٧).

فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال المحقق الحافظ ابن الجزري: «وقد تكلم الناس على هذا الحديث بأنواع الكلام، وصنف الإمام الحافظ أبو شامة رحمته الله فيه كتابًا حافلًا، وتكلم بعده قوم، وجنح آخرون إلى شيء آخر، والذي ظهر لي أن الكلام عليه ينحصر في عشرة أوجه: الأول: في سبب وروده، الثاني: في معنى الأحرف، الثالث: في المقصود بها هنا، الرابع: ما وجه كونها سبعة؟ الخامس: على أي شيء يتوجه اختلاف هذه السبعة؟ السادس: على كم معنى تشتمل هذه السبعة؟ السابع: هل هذه السبعة متفرقة في القرآن؟ الثامن: هل المصاحف العثمانية مشتملة عليها؟ التاسع: هل القراءات التي بين أيدي الناس اليوم هي السبعة أم بعضها؟ العاشر: ما حقيقة هذا الاختلاف وفائدته؟

فأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها؛ شرفًا لها، وتوسعة، ورحمة، وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال له: «إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف». فقال عليه السلام: أسأل الله معافاته ومعونته، وإن أمتي لا تطيق ذلك»، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف، وفي الصحيح أيضًا: «إن ربي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتي، ولم يزل يردد حتى بلغ سبعة أحرف»، وكما ثبت صحيحًا: «إن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف، وإن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد»، وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين بهم، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث إلى جميع الخلق أحمرها وأسودها، عريبها وعجميها، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك، ولا بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ

(١) أخرجه: أحمد (١/٢٦٣-٢٦٤ و٢٩٩ و٣١٣)، والبخاري (٩/٢٧-٢٨/٤٩٩١) واللفظ له، ومسلم (١/

كتابًا، كما أشار إليه صلى الله عليه وآله وسلم. فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم، لكان من التكليف بما لا استطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع، ولذلك اختلف العلماء في جواز القراءة بلغة أخرى غير العربي على أقوال: ثالثها إن عجز عن العربي جاز وإلا فلا. وليس هذا موضع الترجيح، فقد ذكر في موضعه، قال الإمام أبو محمد عبد الله بن قتيبة في كتاب «المشكل»: «فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه ﷺ بأن يقرئ كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عادتهم، فلهذلي يقرأ: (عنتي حين) يريد (حتى) هكذا يلفظ بها ويستعملها، والأسدي يقرأ: (تعلمون) و(تعلم) و(تسود وجوه) و(ألم إعهد إليكم)، والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز، والآخر يقرأ: (قيل لهم) و(غيض الماء) بإشمام الضم مع الكسر و(بضاعتنا ردت) بإشمام الكسر مع الضم و(مالك لا تأمنا) بإشمام الضم مع الإدغام. قلت: وهذا يقرأ: (عليهم) و(فيهم) بالضم، والآخر يقرأ: (عليهمو) و(منهمو) بالصلة، وهذا يقرأ: (قد أفلح) و(قل أوحى) و(خلوا إلى) بالنقل، والآخر يقرأ: (موسى) و(عيسى) و(دنيا) بالإمالة، وغيره يلطف، وهذا يقرأ: (خبيرًا) و(بصيرًا) بالترقيق، والآخر يقرأ: (الصلاة) و(الطلاق) بالتفخيم. . إلى غير ذلك. قال ابن قتيبة: ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلًا وناشيًا وكهلاً لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعًا في اللغات، ومتصرفًا في الحركات، كتيسيره عليهم في الدين»^(١).

ثم ذكر ﷺ مباحث نفيسة متعلقة بالأوجه التي أشار إليها ليس هذا محل ذكرها، وقد تقدم ذكر بعضها في سورة (الفرقان) وغيرها. قال: «وأما فائدة اختلاف القراءات وتووعها فإن في ذلك فوائد غير ما قدمنا من سبب التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة.

ومنها: ما في ذلك من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز وغاية الاختصار، وجمال الإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة الآية، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢١-٢٣).

آيات، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدثها لم يخف ما كان في ذلك من التطويل .
ومنها : ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد، وما ذلك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من جاء به ﷺ .

ومنها : سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة، إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإنه من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه وأقرب إلى فهمه، وأدعى لقبوله من حفظه جملاً من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات المختلفة، لا سيما فيما كان خطه واحدًا، فإن ذلك أسهل حفظًا، وأيسر لفظًا .

ومنها : إعظام أجور هذه الأمة من حيث إنهم يفرغون جهدهم ليلبغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك، واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسرارته وخفي إشاراته، وإنعامهم النظر وإمعانهم الكشف عن التوجيه والتعليل والترجيح والتفصيل بقدر ما يبلغ غاية علمهم، ويصل إليه نهاية فهمهم ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ﴾^(١) والأجر على قدر المشقة .

ومنها : بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي، وإقبالهم عليه هذا الإقبال، والبحث عن لفظة لفظة، والكشف عن صيغة صيغة، وبيان صوابه، وبيان تصحيحه، وإتقان تجويده، حتى حموه من خلل التحريف، وحفظوه من الطغيان والتطيف، فلم يهملوا تحريكًا ولا تسكينًا، ولا تفخيماً ولا ترقيقًا، حتى ضبطوا مقادير المدات، وتفاوت الإمالات، وميزوا بين الحروف بالصفات، مما لم يهتد إليه فكر أمة من الأمم، ولا يوصل إليه إلا بالهام باري النسم .

ومنها : ما ادخره الله من المنقبة العظيمة، والنعمة الجليلة الجسيمة لهذه الأمة الشريفة، من إسنادها كتاب ربها، واتصال هذا السبب الإلهي بسببها خصيصة الله تعالى هذه الأمة المحمدية، وإعظامًا لقدر أهل هذه الملة الحنيفية، وكل قارئ

(١) آل عمران : الآية (١٩٥) .

يوصل حروفه بالنقل إلى أصله، ويرفع ارتياب الملحد قطعاً بوصله، فلو لم يكن من الفوائد إلا هذه الفائدة الجليلة لكفت، ولو لم يكن من الخصائص إلا هذه الخصيصة النبيلة لوفت.

ومنها: ظهور سر الله في توليه حفظ كتابه العزيز، وصيانة كلامه المنزل، بأوفى البيان والتميز، فإن الله تعالى لم يخل عصرًا من الأعصار، ولو في قطر من الأقطار، من إمام حجة قائم بنقل كتاب الله تعالى، وإتقان حروفه ورواياته، وتصحيح وجوهه وقرآته، يكون وجوده سببًا لوجود هذا السبب القويم على ممر الدهور، وبقاؤه دليلًا على بقاء القرآن العظيم في المصاحف والصدور^(١).

* * *

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٥٢-٥٤).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ﴿١٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كَذَّبَتْ أَيْضًا عَادُ نَبِيِّهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا أَنَاهُمْ بِهِ عَنِ اللَّهِ، كَالَّذِي كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ، وَكَالَّذِي كَذَّبْتُمْ مَعَشَرَ قَرِيشٍ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَى جَمِيعِ رُسُلِهِ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ﴿١٨﴾» يقول: فانظروا معشر كفرة قريش بالله كيف كان عذابي إياهم، وعقابي لهم على كفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله هودًا، وإنذارني بفعلي بهم ما فعلت من سلك طرائقهم، وكانوا على مثل ما كانوا عليه من التماذي في الغي والضلالة»^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾

★ غريب الآية:

صَرْصَرًا: الصرصر: الريح الشديدة الهبوب والبرد؛ مأخوذ من الصر، وهو البرد الشديد.

نحس: شؤم. والنحس ضد السعد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: إنا بعثنا على عاد إذ تمادوا في طغيانهم وكفرهم بالله ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾»، وهي الشديدة العصف في برد، التي لصوتها صرير، وهي مأخوذة من شدة صوت هبوبها إذا سمع فيها كهيئة قول القائل: صرّ، فقليل منه: صرصر، كما قيل: فكبكبوا فيها، من (فكبوا)، ونَهْنَهْتُ من (نَهْهْتُ) ..

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ يقول: في يوم شر وشؤم لهم .. وقوله: ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ يقول: في يوم شر وشؤم استمر بهم البلاء والعذاب فيه إلى أن وافى بهم جهنم^(١).

قال الرازي: «قال تعالى ها هنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وقال في (الطور): ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾^(٢)»، فعرف الريح هناك ونكرها هنا؛ لأن العقم في الريح أظهر من البرد الذي يضر النبات أو الشدة التي تعصف الأشجار؛ لأن الريح العقيم هي التي لا تنشئ سحابًا، ولا تلقح شجرًا، وهي كثيرة الوقوع، وأما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد، فقال: الريح العقيم، أي: هذا الجنس المعروف، ثم زاده بيانًا بقوله: ﴿مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْزَمِيرِ﴾^(٣)، فتميزت عن الرياح العقم، وأما الصرصر فقليلة الوقوع، فلا تكون مشهورة

(١) جامع البيان (٢٧/٩٧-٩٨).

(٢) الذاريات: الآية (٤١).

(٣) الذاريات: الآية (٤٢).

فنكرها»^(١).

وقال: «قال هنا: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسُ مُسْتَمِرًّا﴾، وقال في (السجدة): ﴿فِي أَيَّامٍ مَّجْسَاتٍ﴾^(٢)، وقال في (الحاقة): ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾^(٣)، والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٤)، وقوله: ﴿مُسْتَمِرًّا﴾ يفيد ما يفيد (الأيام)؛ لأن الاستمرار ينبئ عن إمرار الزمان كما ينبئ عنه (الأيام)، وإنما اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى؛ لأن الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار، فذكر الزمان ولم يذكر مقداره، ولذلك لم يصفها»^(٥).

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/٤٦-٤٧).

(٢) فصلت: الآية (١٦).

(٣) الحاقة: الآية (٧).

(٤) مريم: الآية (٣٣).

(٥) المصدر السابق (٢٩/٤٧).

قوله تعالى: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ﴾ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٢٢﴾

★ غريب الآية:

تنزع الناس: أي: تقلعهم من مواضعهم.
أعجاز: الأعجاز: جمع عجز، وهو مؤخر الشيء.
منقعر: منقلع من أصله؛ لأن قَعَرَ الشيء: قَرَّأَهُ؛ يقال: قعرت الشجرة: إذا قلعتها من الأصل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ معناه: تنقلهم من مواضعهم نزعاً فتطرحهم. وروي عن مجاهد: أنها كانت تلقي الرجل على رأسه فيتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه، فلذلك حسن التشبيه بـ(أعجاز النخل)؛ وذلك أن المنقعر هو الذي ينقلب من قعره. فلذلك التشعث والشعب التي لأعجاز النخل، كان يشبهها ما تقطع وتشعث من شخص الإنسان، وقال قوم: إنما شبههم بـ(أعجاز النخل) لأنهم كانوا يحفرون حفراً ليمتنعوا فيها من الريح، فكأنه شبه تلك الحفر بعد النزاع بحفر أعجاز النخل، والنخل يذكر ويؤنث، فلذلك قال هنا: ﴿مُنْقَعِرٍ﴾ وفي غير هذه السورة: ﴿خَاوِيَةً﴾^(١)، و(الكاف) في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ في موضع الحال، قاله الزجاج، وما روي من خبر الخلجان وغيره وقوتهم ضعيف كله»^(٢).

قال ابن جرير في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ﴾ (٢١): يقول -تعالى- ذكره:- فانظروا معشر كفار قريش، كيف كان عذابى قوم عاد، إذ كفروا بربهم، وكذبوا رسوله، فإن ذلك سنة الله في أمثالهم، وكيف كان إنذارى بهم من أنذرت»^(٣).

(٢) المحرر الوجيز (٥/٢١٦).

(١) الحاقة: الآية (٧).

(٣) جامع البيان (٢٧/١٠٠).

قال ابن عطية: «وفائدة تكرار قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٢١): التخويف وهزّ الأنفس، قال الرماني: لما كان الإنذار أنواعاً، كرر التذكير والتنبيه، وفائدة التكرار قوله: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٢٢): التأكيد والتحريض وتنبيه الأنفس. وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبي ﷺ: «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت»^(١). ومثل قوله: «ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور»^(٢). وكان ﷺ إذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثاً^(٣)، فهذا كله نحو واحد وإن تنوع»^(٤).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤٢٣/٥). البخاري (٧١٧٤/٢٠٤/١٣). مسلم (١٨٣٢/١٤٦٣/٣). أبو داود (٣/٣٥٦/٣).

(٢٩٤٨)، من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٣٦-٣٧/٥)، والبخاري (٦٩١٩/٢٦٤/١٢) واللفظ له، ومسلم (٨٧/٩١/١)، والترمذي

(٤/٢٧٥/١٩٠١) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) أخرجه: البخاري (٩٤/٢٥٠/١)، والترمذي (٢٧٢٣/٦٨/٥).

(٤) المحرر الوجيز (٢١٦-٢١٧/٥).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنْآ إِذَا
لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

سُعُر: جنون؛ من قولك: ناقة مسعورة، أي: مجنونة، لشدة نشاطها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كَذَّبَتْ ثَمُودُ قوم صالح بنذر الله التي أتتهم من عنده، فقالوا تكذيباً منهم لصالح رسول ربهم: أَبَشْرًا مِثَّا نَتَّبِعُهُ نحن الجماعة الكبيرة، وهو واحد؟!»

وقوله: ﴿إِنْآ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يقول: قالوا: ﴿إِنْآ إِذَا﴾ باتباعنا صالحاً إن اتبعناه وهو بشر مثنا واحد ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾، يعنون: لفي ذهاب عن الصواب وأخذ على غير استقامة، ﴿وَسُعُرٍ﴾ يعنون بالسُّعُر: جمع سَعِير. وكان قتادة يقول: عني بالسُّعُر: العناء^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ۝ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ۝﴾

★ غريب الآية:

أشر: الأشر: البطر، وهو الفرح المتكبر.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «هذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به، ويصولون ويجولون ويردّون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(١)، فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لعاجل الله المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

والمقصود بهذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح، تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ أي: كثير الكذب والشر، فقبحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للمصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع، لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم^(٢).

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - مخبراً عن قيل مكذّبي رسوله صالح عليه السلام من قومه ثمود: أَلْقَى عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا، يعنون بذلك: أنزل الوحي وخصّ بالنبوة من بيننا وهو واحد منا، إنكاراً منهم أن يكون الله يرسل رسولاً من بني آدم. وقوله: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ يقول: قالوا: ما ذلك كذلك، بل هو كذاب أشر،

(١) إبراهيم: الآية (١١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٣٥-٢٣٦).

يعنون بالأشر: المَرَحُ ذا التجبّر والكبرياء، والمَرَحُ من النشاط..

وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْآثِرِ﴾ ﴿١١﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال الله لهم: ستعلمون غداً في القيامة من الكذاب الأشر منكم معشر ثمود، ومن رسولنا صالح حين تردون على ربكم، وهذا التأويل تأويل من قرأه: (سَتَعْلَمُونَ) بـ(التاء)، وهي قراءة عامة أهل الكوفة سوى عاصم والكسائي. أما تأويل ذلك على قراءة من قرأه بـ(الياء)، وهي قراءة عامة قراء أهل المدينة والبصرة وعاصم والكسائي، فإنه قال الله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْآثِرِ﴾ ﴿١١﴾ وترك من الكلام ذكر (قال الله)؛ استغناءً بدلالة الكلام عليه.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، لتقارب معنيهما، وصحتهما في الإعراب والتأويل^(١).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٠-١٠١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِئْتَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ (٢٧)

★ غريب الآية:

فارتقبهم: أي: انتظر ما يصنعون.

واصطبر: أي: اصبر على أذاهم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن عطية: «أخبر الله تعالى صالحًا على جهة التأنيس أنه يخرج لهم الناقة ابتلاءً واختبارًا، ثم أمره بارتقاب الفرج وبالصبر»^(١).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا باعثو الناقة التي سألتها ثمود صالحًا. حجة لصالح على حقيقة نبوته وصدق قوله.

وقوله: ﴿فِئْتَةً لَهُمْ﴾ يقول: ابتلاءً لهم واختبارًا، هل يؤمنون بالله ويتبعون صالحًا ويصدقونه بما دعاهم إليه من توحيد الله إذا أرسل الناقة، أم يكذبونه ويكفرون بالله؟

وقوله: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره- لصالح: إنا مرسلو الناقة فتنه لهم، فانتظرهم، وتبصر ما هم صانعوه بها، ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ يقول له: واصطبر على ارتقابهم ولا تعجل، وانتظر ما يصنعون بناقة الله»^(٢).

(١) المحرر الوجيز (٢١٨/٥).

(٢) جامع البيان (١٠١/٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ ﴿٢٨﴾

★ غريب الآية:

شرب: الشرب، بالكسر: الخط من الماء.

محتضر: أي: يحضره من هو له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَنَبِّئُهُمْ﴾: أخبرهم أن الماء قسمة بينهم، يوم غب الناقة، وذلك أنها كانت ترد الماء يومًا، وتغب يومًا، فقال جل ثناؤه لصالح: أخبر قومك من ثمود أن الماء يوم غب الناقة قسمة بينهم، فكانوا يقتسمون ذلك يوم غبها، فيشربون منه ذلك اليوم، ويتزودون فيه منه ليوم ورودها.

وقد وجه تأويل ذلك قوم إلى أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة يومًا لهم ويومًا لها، وأنه إنما قيل بينهم، والمعنى: ما ذكرت عندهم؛ لأن العرب إذا أرادت الخبر عن فعل جماعة بني آدم مختلطًا بهم البهائم، جعلوا الفعل خارجًا مخرج فعل جماعة بني آدم، لتغليبهم فعل بني آدم على فعل البهائم^(١).

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضعًا في آية أخرى، وهي قوله تعالى في (الشعراء): ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لِّمَا شِئْتُمْ وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾^(٢) وشرب الناقة هو الذي حذرهم منه صالح لثلاث يتعرضوا له في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾^(٣)»^(٤).

قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، يدل على جواز المهايأة^(٥) على الماء؛ لأنهم جعلوا شرب الماء يومًا للناقة، ويومًا لهم، ويدل أيضًا

(١) جامع البيان (٢٧/١٠١).

(٢) الشعراء: الآية (١٥٥).

(٣) الشمس: الآية (١٣).

(٤) أضواء البيان (٧/٧٢٢-٧٢٣).

(٥) المهايأة: الأمر المهايأ عليه، أي: أمر ينهاى عليه القوم فيتراضون به، وهي في اصطلاح الفقهاء قسمة المنافع على التعاقب والتناوب.

على أن المهايأة قسمة المنافع؛ لأن الله تعالى قد سمي ذلك قسمة، وإنما هي مهايأة على الماء، لا قسمة الأصل. واحتج محمد بن الحسن بذلك على جواز المهايأة على الماء على هذا الوجه، وهذا يدل من قوله على أنه كان يرى شرائع من كان قبلنا من الأنبياء ثابتة ما لم يثبت نسخها^(١).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كُلُّ شَرِبٍ تُحْضَرُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: كل شرب من ماء يوم غب الناقة، ومن لبن يوم ورودها محتضر يحتضرونه»^(٢).

* * *

(١) أحكام القرآن (٣/٤١٤).

(٢) جامع البيان (٢٧/١٠٢).

قوله تعالى: ﴿فَادَا صَاحِبُمُ فَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ ﴿٢٩﴾

★ غريب الآية:

تعاطى: تعاطى الشيء: تناوله وقصد فعله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: فنادت ثمود صاحبهم عاقر الناقة (قدار بن سالف) ليعقر الناقة حضا منهم له على ذلك. وقوله: ﴿فَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ يقول: فتناول الناقة بيده فعقرها»^(١).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿فَعَاطَى﴾: قال أبو حيان في «البحر»: (فتعاطى) هو مطاوع (عاطى)، وكان هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضا، فتعاطاها (قدار) وتناول العقر بيده. انتهى محل الغرض منه.

والعرب تقول: تعاطى كذا: إذا فعله أو تناوله، وعاطاه: إذا تناوله، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

كلتاها حلب العصير فعاطني بزجاجة أرخاهما للمفصل
وقوله: ﴿فَعَقَرَ﴾ أي: تعاطى عقر الناقة فعقرها، فمفعولا الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه صاحبهم، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاهم وذلك في قوله: ﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقَّهَا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿٢﴾.

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة؛ لأنه قال: ﴿فَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ بالافراد، مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخر إلى ثمود كلهم كقوله في سورة (الأعراف): ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَسَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾^(٣) الآية، وقوله تعالى في (هود): ﴿فَعَقَرُوهَا﴾

(٢) الشمس: الآية (١٢).

(١) جامع البيان (١٠٢/٢٧).

(٣) الأعراف: الآية (٧٧).

فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ^(١)، وقوله في (الشعراء): ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا تَلَدِينَ^(٢)﴾، وقوله في (الشمس): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا^(٣)﴾.

وجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى^(٤)﴾ يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة، فنادوا واحداً منهم لينفذ ما اتفقوا عليه، أصالة عن نفسه ونياية عن غيره. ومعلوم أن المتماثلين على العقر كلهم عاقرون، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر، وصحت نسبته أيضاً إلى الجميع؛ لأنهم متماثلون كما دل عليه ترتيب تعاطي العقر بـ(الفاء) في قوله: ﴿فَتَعَاطَى^(٤)﴾ على نداءهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ^(٤)﴾ أي: نادوه ليعقرها.

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مراداً به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن في كلام العرب^(٤).

* * *

(١) هود: الآية (٦٥).

(٢) الشعراء: الآية (١٥٧).

(٣) الشمس: الآية (١٤).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٢٣-٧٢٤).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لقريش: فكيف كان عذابي إياهم معشر قريش حين عذبتهم؟ ألم أهلكهم بالرجفة؟ ﴿وَنُذُرِ﴾: يقول: فكيف كان إنذاري من أنذرت من الأمم بعدهم بما فعلت بهم وأحللت بهم من العقوبة؟»^(١).

قال الرازي: «إن هذه الآية ذكرها في ثلاثة مواضع: ذكرها في حكاية نوح بعد بيان العذاب، وذكرها ها هنا قبل بيان العذاب، وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه، فحيث ذكرها قبل بيان العذاب ذكرها للبيان كما تقول: ضربت فلاناً، أي: ضرب وأيما ضرب، وتقول: ضربته وكيف ضربته، أي: قوياً، وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام، وقد ذكرنا السبب فيه، ففي حكاية نوح ذكر الذي للتعظيم، وفي حكاية ثمود ذكر الذي للبيان؛ لأن عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عم العالم، ولا كذلك عذاب قوم هود؛ فإنه كان مختصاً بهم»^(٢).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/٥٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَبِيحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْظَرِ﴾ ﴿٣١﴾

★ غريب الآية:

هشيم: أي: حطام النبات الذي يتخذه الراعي حظيرة لغنمه.
المحظَر: الذي يعمل الحظيرة لغنمه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «قد بينا فيما مضى أمر الصبيحة، وكيف أتتهم، وذكرنا ما روي في ذلك من الآثار، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْظَرِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فكانوا بهلاكهم بالصبيحة بعد نضارتهم أحياء وحسنهم قبل بوارهم كيبس الشجر الذي حظرت به حظيرته بعد حُسن نباته، وخضرة ورقه قبل يُبسه.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿كَهَشِيرِ الْمُحْظَرِ﴾، فقال بعضهم: عني بذلك: العظام المحترقة، وكأنهم وجَّهوا معناه إلى أنه مَثَل هؤلاء القوم بعد هلاكهم وبلائهم بالشيء الذي أحرقه محرق في حظيرته.. وقال آخرون: بل عني بذلك التراب الذي يتناثر من الحائط.. وقال آخرون: بل هو حظيرة الراعي للغنم.. وقال آخرون: بل عني به هشيم الخيمة، وهو ما تكسر من خشبها.. وقال آخرون: بل هو الورق الذي يتناثر من خشب الحطب»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿٣٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولقد هَوَّنا القرآنَ بَيِّناته ﴿لِلذِّكْرِ﴾ : يقول : لمن أراد أن يتذكر به فيتعظ ، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ يقول : فهل من متَّعظ به ومعتبر فيعتبر به ، فیرتدع عما يكرهه الله منه»^(١).

قال صديق حسن خان: «فائدة تكرير هذه الآية أن يجددوا عند استماع كل نبي من أنباء الأولين اذكارًا واتعاظًا وأن يستأنفوا تيقظًا وانتباهًا إذا سمعوا ، والحث على ذلك والبعث إليه ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها ، لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان»^(٢).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٠٤).

(٢) فتح البيان (١٣/٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي إِذًا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۚ نِعْمَةٌ مِنَّا بِكُنُوزِهِمْ ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۚ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي ۚ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرَ ۚ﴾

★ غريب الآية:

حاصباً: أي: ريحاً شديدة تثير الحصباء، وهي الحصى. قال القطامي:
تَمُرُّ كَمَرُ الرِّيحِ فِي كُلِّ عَمْرَةٍ وَيَكْتَحِلُ الثَّالِي بِمَوْرِ وَحَاصِبٍ
بَسَحَرٍ: السَّحَرُ: هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو اختلاط سواد الليل
ببياض أول النهار؛ لأن في هذا الوقت يكون مخايل الليل ومخايل النهار.
بطشتنا: أي: عقوبتنا وأخذنا إيّاهم بالعذاب.
فتماروا: أي: شكوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدّقوه، وهو تفاعل من
المرية.

ولقد راودوه: أي: أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة
الأضياف طلباً للفاحشة، يقال: راودته على كذا مراودة ورواداً، أي: أردته. وراد
الكلاء يروده رواداً ورياداً، وارتاده ارتياداً بمعنى، أي: طلبه.
طمسنا أعينهم: أعميناهاهم وأزلنا أثرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه،
وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من
العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل
عليه السلام، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها،

وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهي الحجارة، ﴿إِلَّا آءَالُ لُوطٍ بِجَنَّتِهِمْ يَسْرَحُ﴾ أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالمًا لم يمسه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۖ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ أي: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾، وذلك ليلة ورد عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل في صورة شباب مرد حسان محنة من الله بهم، فأضافهم لوط ﷺ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط ﷺ يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني: نساءهم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ﴾^(١)، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ليس لنا فيهن أرب، ﴿وَإِنَّكَ لَنُكَرُّ مَا نُرِيدُ﴾^(٢) ﴿٣﴾.

قال ابن جرير: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ يقول: فطمسنا على أعينهم حتى صيرناها كسائر الوجه لا يرى لها شق، فلم يبصروا ضيفه. والعرب تقول: قد طمست الريح الأعلام: إذا دفتتها بما تسفي عليها من التراب، كما قال كعب بن زهير:

من كل نضّاحة الذفرى إذا اعترقت عرضتها طامسُ الأعلام مجهول

يعني بقوله: طامس الأعلام: مندفن الأعلام^(٤).

وقال: «وقوله: ﴿فَذُوُّوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فذوقوا معشر قوم لوط من سدوم، عذابي الذي حلّ بكم، وإنذارى الذي أنذرت به غيركم من الأمم من النكال والمثلات»^(٥).

(١) الحجر: الآية (٧١).

(٢) هود: الآية (٧٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٨٠).

(٤) جامع البيان (٢٧/١٠٥).

(٥) المصدر السابق (٢٧/١٠٦).

قال الرازي في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (٣٣) قال: فيه تبرئة لوط عليه السلام، وبيان أنه أتى بما عليه؛ فإنه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب، وكان من الرحمة أن يؤخره ويقدم عليه الإنذارات البالغة بين ذلك، فقال: أهلكناهم، وكان قد أنذرهم من قبل^(١).

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ۖ﴾ ﴿٣٨﴾

★ غريب الآية:

بُكْرَة: البُكْرَة: أول النهار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولقد صُبَّح قوم لوط ﴿بُكْرَةً﴾ ذكر أن ذلك كان عند طلوع الفجر . .

وقوله: ﴿عَذَابٌ﴾ وذلك قلب الأرض بهم، وتصيير أعلاها أسفلها بهم، ثم إتياعهم بحجارة من سجيل منضود . .

وقوله: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ يقول: استقر ذلك العذاب فيهم إلى يوم القيامة حتى يوافوا عذاب الله الأكبر في جهنم»^(١).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٠٦).

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِيَ وَنَذِيرِ﴾ ﴿٣٩﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لهم: فذوقوا معشر قوم لوط عذابي الذي أحللتهم بكم، بكفركم بالله وتكذيبكم رسوله، وإنذارى بكم الأمم سواكم، بما أنزلته بكم من العقاب»^(١).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولقد سهّلنا القرآن للذكر لمن أراد التذكر به ، فهل من متعظ ومعتبر به فينجز به عما نهاه الله عنه إلى ما أمره به وأذن له فيه»^(١) .

قال صديق حسن خان: «لعل وجه تكرير تيسير القرآن بالذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها ؛ ولأن في كل قصة إشهاراً بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب ، واستماع كل قصة مستدع للادّكار والاتعاظ ، وهذا حكم التكرير في قوله : ﴿فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبُّكُمْ أَنْ تُكَذِّبُوا﴾»^(٢) عند كل آية أوردها ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان»^(٣) .

* * *

(١) جامع البيان (١٠٧/٢٧) .

(٢) سورة (الرحمن) .

(٣) فتح البيان (٣٠٤/١٣) .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ (٤١) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَلَاخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْدِرٌ﴾ (٤٢)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد جاء أتباع فرعون وقومه إنذارنا بالعقوبة بكفرهم بنا وبرسولنا موسى ﷺ، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يقول جل ثناؤه: كذب آل فرعون بأدلتنا التي جاءتهم من عندنا، وحججنا التي أتتهم بأنه لا إله إلا الله وحده كلها، ﴿فَلَاخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْدِرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فعاقبناهم بكفرهم بالله عقوبة شديدة لا يغلب، مقتدر على ما يشاء، غير عاجز ولا ضعيف»^(١).

قال الألوسي: «صدرت قصتهم بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب، وقوة إيجابها للاتعاظ. والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك؛ فإنه رأس الطغيان ومدعي الألوهية، والقول بأنه إشارة إلى إسلامه مما لا يلتفت إليه»^(٢).

قال الشنقيطي: «تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور: الأول: أن آل فرعون جاءتهم النذر. الثاني: أنهم كذبوا بآيات الله. الثالث: أن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة في آيات آخر من كتاب الله، أما الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر، فقد أوضحه تعالى في آيات كثيرة من كتابه. اعلم أولاً أن قوله: ﴿جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾، قيل: هو جمع نذير وهو الرسول. وقيل: هو مصدر بمعنى الإنذار.

فعلى أنه مصدر، فقد بينت الآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار

(١) جامع البيان (٢٧/١٠٧).

(٢) روح المعاني (٢٧/٩١).

هو موسى وهارون، وعلى أنه جمع (نذير)، أي: منذر، فالمراد به موسى وهارون، وقد جاء في آيات كثيرة إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله تعالى في (طه): ﴿فَأَنبِأَهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ﴾^(١). ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾^(٢) ونحوها من الآيات.

وفي هذه الآية سؤال معروف: وهو أن الله تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما موسى وهارون، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وهنا جمع النذر في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾^(٤).

وللعلماء عن هذا أجوبة: أحدها: أن أقل الجمع اثنان، كما هو المقرر في أصول مالك بن أنس رحمته الله، وعقده صاحب «مراقي السعود» بقوله:

أقل معنى الجمع في المشتبه لاثنان في رأي الإمام الحمير قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾^(٥) ولهما قلبان فقط، وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِإِخْوَةِ السُّدُسِ﴾^(٦)، والمراد بالإخوة اثنان فصاعدًا كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافاً لابن عباس، وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾^(٧) وله طرفان. ومنها ما ذكره الزمخشري وغيره من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء؛ لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. ومنها أن النذر مصدر بمعنى الإنذار.

قال مقيدة عفا الله عنه وغفر له: التحقيق في الجواب: أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيراً واحداً فقد كذب جميع النذر؛ لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة، وهي مضمون (لا إله إلا الله) كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٨).

(١) طه: الآية (٤٨).

(٢) التحريم: الآية (٤).

(٣) طه: الآية (٤٧).

(٤) الشعراء: الآية (١٦).

(٥) النساء: الآية (١١).

(٦) طه: الآية (١٣٠).

(٧) النحل: الآية (٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١٥) ﴿١٦﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ﴾ (١٧).

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميعهم في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ وَنَكْفُرُ بِبَعْضِ مَا يُرْسَلُ وَأَنَّا نَسْتَحْذِرُ مِنْ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥) ﴿١٦﴾، وأشار إلى ذلك في قوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (٤)، وقوله: ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ (٦) الآية.

وقد أوضح تعالى في سورة (الشعراء) أن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، وذلك في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٥) ﴿١٦﴾، ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحاً وحده، حيث فرد ذلك بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِئُكُمْ مِنَ الْكُفْرِ﴾ (١٥) ﴿١٦﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِي كَذِبُونَ﴾ (١٧) ﴿١٨﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧) ﴿١٨﴾، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده، حيث فرد به بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِئُكُمْ مِنَ الْكُفْرِ﴾ (١٧) ﴿١٨﴾، ونحو ذلك في قوله تعالى في قصة صالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وأصحاب الأيكة، كما هو معلوم، وهو واضح لا خفاء فيه، ويزيده إيضاحاً قوله ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» (١١) يعني أنهم كلهم متفقون في الأصول وإن اختلفت شرائعهم في بعض الفروع.

وأما الأمر الثاني: وهو كون فرعون وقومه كذبوا بآيات الله، فقد جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ

(١) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٣) النساء: الآيات (١٥٠ و ١٥١).

(٥) البقرة: الآية (١٣٦).

(٧) الشعراء: الآية (١٠٥).

(٨) الشعراء: الآيات (١١٧-١٠٦).

(٩) الشعراء: الآية (١٢٣).

(٢) الزخرف: الآية (٤٥).

(٤) البقرة: الآية (٢٨٥).

(٦) النساء: الآية (١٥٢).

(١٠) الشعراء: الآية (١٢٤).

(١١) أخرجه: أحمد (٣٩١/٢)، والبخاري (٥٩٠-٥٩١/٣٤٤٣)، ومسلم (٤/١٨٣٧/٢٣٦٥)، وأبو داود

(٥/٤٦٧٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

يُؤْمِنِينَ ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنْ ﴿٥١﴾﴾ ﴿٢﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا آيَةَ الْكُبْرَى ﴿٥٢﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٥٣﴾﴾ ﴿٣﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوَرٍ فِي نِسْعٍ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَافِرًا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ﴿٤﴾، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿٥﴾، ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ﴿٤﴾.

وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى: ﴿فَلَاخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٧﴾﴾، فقد جاء موضحة في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٥٨﴾﴾ ﴿٥﴾ إلى قوله: ﴿فَلَاخَذْنَاهُ وَخُودُهُ فَنَذَرْتُهُمْ فِي النَّارِ هُوَ مُلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ ﴿٦﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَعَثْهُمْ فِرْعَوْنُ بِمُجْرِمِينَ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي النَّارِ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْتَدَوْا ﴿٦٠﴾﴾ ﴿٧﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرَفْنَاهُ نَارَ فِرْعَوْنَ وَآتَيْنَاهُ نَظْرُونَ ﴿٦١﴾﴾ ﴿٨﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فَلَاخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٧﴾﴾ يوضحه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٢﴾﴾ ﴿٩﴾. وقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ﴾ الآية» (١٠) (١١).

قال الألوسي: «زعم بعض غلاة الشيعة - وهم المسمون بـ (الكشفية) في زماننا - أن المراد بالآيات كلها علي رضي الله عنه؛ فإنه الإمام المبين المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾، وأنه ﷺ ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا. وهذا من الهذيان بمكان، نسأل الله تعالى العفو والعافية» (١٣).

(٢) طه: الآية (٥٦).

(١) الأعراف: الآية (١٣٢).

(٤) النمل: الآيات (١٢-١٤).

(٣) النازعات: الآيتان (٢٠ و ٢١).

(٦) الذاريات: الآية (٤٠).

(٥) الذاريات: الآية (٣٨).

(٨) البقرة: الآية (٥٠).

(٧) طه: الآية (٧٨).

(٩) هود: الآية (١٠٢).

(١٠) أخرجه: البخاري (٨/٤٥١/٤٦٨٦)، ومسلم (٤/١٩٩٧-١٩٩٨/٢٥٨٣)، والترمذي (٥/٢٦٩/٣١١٠)،

والنسائي في الكبرى (٦/٣٦٥/١١٢٤٥)، وابن ماجه (٢/١٣٣٢/٤٠١٨).

(١٢) يس: الآية (١٢).

(١١) أضواء البيان (٧/٧٢٥-٧٢٩).

(١٣) روح المعاني (٢٧/٩١).

قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَنْ لَكُمْ بِرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٤٣﴾

★ غريب الآية:

الزُّبُر: الكتب. واحدها: زبور.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لكفار قريش الذين أخبر الله عنهم أنهم ﴿وَلِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِزٌّ﴾»^(١): «أكفاركم معشر قريش خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، فهم يأملون أن ينجوا من عذابي، ونقمي على كفرهم بي، وتكذيبهم رسولي. يقول: إنما أنتم في كفركم بالله وتكذيبهم رسوله، كبعض هذه الأمم التي وصفت لكم أمرهم، وعقوبة الله بكم نازلة على كفركم به، كالذي نزل بهم إن لم تتوبوا وتنبوا»^(٢).

وقال: وقوله: ﴿أَنْ لَكُمْ بِرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ يقول - جل ثناؤه -: «أم لكم براءة من عقاب الله معشر قريش، أن يصيبكم بكفركم بما جاءكم به الوحي من الله في الزبر، وهي الكتب»^(٣).

* * *

(١) القمر: الآية (٢).

(٢) جامع البيان (١٠٧/٢٧).

(٣) المصدر السابق (١٠٨/٢٧).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ ﴿٤٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أيقول هؤلاء الكفار من قريش: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ مَن قَصَدْنَا بسوء ومكروه، وأراد حربنا وتفريق جمعنا، فقال الله جل ثناؤه: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ﴾ يعني جمع كفار قريش، ﴿وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾ يقول: ويولون أدبارهم المؤمنين بالله عند انهزامهم عنه. وقيل: ﴿الدُّبْرُ﴾ فوَحْد والمراد به الجمع، كما يقال: ضربنا منهم الرأس، أي: ضربنا منهم الرؤوس؛ إذ كان الواحد يؤدي عن معنى جمعه، ثم إن الله - تعالى ذكره - صدق وعده المؤمنين به، فهزم المشركين به من قريش يوم بدر، وولّوهم الدبر»^(١).

قال الرازي: «﴿جَمِيعٌ﴾ فيه فائدتان: إحداهما الكثرة والأخرى الاتفاق، كأنه قال: نحن كثير متفقون فلنا الانتصار، ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة، إنما قلنا: إن فيه فائدتين؛ لأن الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من ج م ع، وبوزنه وهو (فَعِيل) بمعنى (مفعول) على أنهم جمعوا جمعيتهم العصبية، ويحتمل أن يقال: معناه: نحن الكل لا خارج عنا؛ إشارة إلى أن من اتبع النبي ﷺ لا اعتداد به. قال تعالى في نوح: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَزْوَاجٌ﴾^(٣)، وعلى هذا ﴿جَمِيعٌ﴾ يكون التنوين فيه لقطع الإضافة، كأنهم قالوا: نحن جمع الناس»^(٤).

وقال: «لم يقل: يولون الأدبار، وقال في موضع آخر: ﴿يُولُوكُمُ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا

(١) جامع البيان (٢٧/١٠٨).

(٢) الشعراء: الآية (١١١).

(٣) هود: الآية (٢٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/٦٨).

يُصْرَوْنَ^(١)، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾^(٢)، وقال في موضع آخر: ﴿فَلَا تُؤَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾^(٣)، فكيف تصحيح الأفراد، وما الفرق بين المواضع؟

نقول: أما التصحيح فظاهر؛ لأن قول القائل: فعلوا، كقوله: فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر. قالوا: وفي الجمع تنوب مناب الواوات التي في العطف، وقوله: ﴿يُؤَلُّونَ﴾ بمثابة يول هذا الدبر ويول ذاك ويول الآخر، أي: كل واحد يولي دبره.

وأما الفرق فنقول: اقتضاء أو آخر الآيات حسن الأفراد، فقوله: ﴿يُؤَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ إفراده إشارة إلى أنهم في التولية كنفس واحدة، فلا يتخلف أحد عن الجمع، ولا يثبت أحد للزحف، فهم كانوا في التولية كدبر واحد، وأما في قوله: ﴿فَلَا تُؤَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أي: كل واحد يوجد به ينبغي أن يثبت ولا يولي دبره، فليس المنهي هناك توليتهم بآجمعهم؛ بل المنهي أن يولي واحد منهم دبره، فكل أحد منهي عن تولية دبره، فجعل كل واحد برأسه في الخطاب ثم جمع الفعل بقوله: ﴿فَلَا تُؤَلُّوهُمْ﴾، ولا يتم إلا بقوله: ﴿الْأَدْبَارَ﴾، وكذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ﴾^(٤) أي: كل واحد قال: أنا أثبت ولا أولي دبري، وأما في قوله: ﴿لِيُؤَلِّبَ الْأَدْبَارَ﴾^(٥) فإن المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود وهم متفرقون؛ بدليل قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾^(٦)، وأما في هذا الموضع فهم كانوا يداً واحدة على من سواهم^(٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في تحقيق ما وعد الله به رسوله في هذه الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: اللهم إني

(١) آل عمران: الآية (١١١).

(٢) الأحزاب: الآية (١٥).

(٣) الأنفال: الآية (١٥).

(٤) الأحزاب: الآية (١٥).

(٥) الحشر: الآية (١٢).

(٦) الحشر: الآية (١٤).

(٧) المصدر السابق (٢٩/٦٨-٦٩).

أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، وهو يشب في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (١٠) ﴿١﴾.

★ غريب الحديث:

قبة: المراد بها العريش الذي اتخذته الصحابة لجلوس النبي ﷺ فيه.
أنشدك: «بفتح الهمزة وسكون النون والمعجمة وضم الدال أي: أطلب منك وأسألك».

يشب في الدرع: وَثَبَ وَثَبًا مِنْ بَابِ وَعَدَ: قَفَزَ، وَوُثِبًا وَوُثِيًّا، فهو وثاب، ويتعدى بالهمزة فيقال: أوثبته ووثبته، بمعنى: ساورته، من الوثوب، والعامية تستعمله بمعنى المبارزة والمصارعة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وهذه الآية مكية وقد جاء تصديقها يوم بدر كما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد عن أيوب عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (١٠) قال عمر: أي جمع يهزم وأي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (١٠) بِلِ السَّاعَةِ مَوَّعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ (١١) ﴿٢﴾ فعرفت تأويلها يومئذ» (٢).

قال ابن عطية: «الجمهور على أن الآية مكية». [و] إنما كان رسول الله ﷺ في بدر مستشهدًا بالآية» (٣).

قلت: وفي تلاوته ﷺ هذه الآية يوم بدر قبل قتال المشركين إيماء إلى تحقيق وعد الله بهذا بهم في الدنيا» (٤).

(١) أخرجه: أحمد (٣٢٩/١)، والبخاري (٤٨٧٥/٧٩٦/٨) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٤٧٧/٦/١١٥٥٧).

(٢) المحرر الوجيز (٢٢٠/٥).

(٣) السيرة النبوية (٤٢٠/٢).

(٤) كلام ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢١٣/٢٧).

قال القرطبي: «وهذا من معجزات النبي ﷺ، لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر»^(١).

وقوله: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك» في رواية: «اللهم أنجز لي ما وعدتني»: قال ابن جرير الطبري: «معناه أنه وعده بوعد غير محين في وقت معلوم، فطلب من الله تعالى أن ينجز له الوعد في هذا المقام».

قال ابن هبيرة الوزير: «ولا أرى الجواب ما ذكره؛ لأن رسول الله ﷺ سبق الوحي إليه بأنه المنصور في غزوة بدر بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾^(٢) وإذ هي اسم معلق بالماضي من الزمان، وقول الله تعالى لرسوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾^(٣) بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ^(٤) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٥)»، وهذا كله بصريح نطقه يدل على أنه كان نزوله قبل وقعة بدر، فكيف يظن برسول الله ﷺ أنه يرتاب أو يشك فيما وعده الله به من النصر يوم بدر بعد نزول هذه الآيات؟، وقد بعث معه نجدة هي خمسة آلاف ملك، وواحد منهم بأمر الله يكفي جيوش الأرض كلها، فلم يدع رسول الله ﷺ بما دعا إلا وهو على يقين من أنه هو المنصور في ذلك اليوم، وإنما كان دعاؤه -عليه الصلاة والسلام- لفائدة سندها فيما بعد إن شاء الله تعالى^(٦).

وقال أيضًا: «وأما ما دعا به رسول الله ﷺ من قوله في رواية أخرى: «أنجز لي ما وعدتني» ففي الحديث أنه كان يهتف بربه، ومعنى يهتف: يدعو دعاء رافعًا به صوته، وذلك أنه ﷺ أراد أن يجدد ذكر أن وعده الله بحيث يسمع المسلمين فيكونون شهودًا له بأنه قال لله ﷻ: «أنجز لي ما وعدتني»، فيكون تصديقًا لما أخبرهم به من وعد الله ﷻ بالنصر، حتى إذا نصره الله ﷻ ثبت عند الكل أنه هو

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٤٦).

(٢) الأنفال: الآية (٧).

(٣) آل عمران: الآيات (١٢٤-١٢٦).

(٤) الإنصاح (١/٢٠٤-٢٠٥).

الذي وعده أولاً، وهو الذي أنجز له الموعد الأول ثانيًا، فيكون على شبيه الكتاب إذا ثبت من ديوان الحكم ثم سجل به»^(١).

قلت: وذكر الخطابي حكمة أخرى فقال: «قد بينا أن ابتهاج النبي ﷺ في الدعاء يوم بدر ومناشدته ربه إنما كان من أصحابه لتسكن إلى ذاك نفوسهم وتطمئن قلوبهم؛ إذ كان بدر أول يوم لقوا فيه العدو، وكان المسلمون في قلة من العدد، ورثاة من الحال، وأعداؤهم في وفور من العدد والعدة، وكانوا يثقون بأنه إذا دعا الله وابتهل أجيب، فكان مناشدته ربه وإلحاحه في الدعاء لذلك، فلما رأى ﷺ أبا بكر قد سكن إلى ذلك وقد قال له: حسبك، أقصر عن الدعاء وأقبل يبشرهم بالنصر، وتلا قوله: ﴿سَيَرْزُقُكَ لَئِمٌّ وَيَوْلُوهُ الْدُبْرُ﴾^(٢)، ولولا أن الأمر على ما تأولناه لكان أبو بكر أصح يقينًا منه وأقوى عزيمة، وهذا ما لا يجوز لمسلم أن يتوهمه بوجه»^(٣).

قال الإمام السهيلي: «وأما شدة اجتهاد النبي ﷺ ونصبه في الدعاء، فإنه رأى الملائكة تنصب في القتال، وجبريل على ثناياه الغبار، وأنصار الله يخوضون غمار الموت، والجهاد على ضريين: جهاد بالسيف وجهاد بالدعاء، ومن سنة الإمام أن يكون من وراء الجند لا يقاتل معهم، فكان الكل في اجتهاد وجد، ولم يكن ليريح نفسه من أحد الجدين والجهادين، وأنصار الله وملائكته يجتهدون، ولا ليؤثر الدعة، وحزب الله مع أعدائه يجتلدون»^(٣).

* عن ابن مسعود رضي الله عنه حدث «عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلني أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد أويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك

(١) الإنصاح (١/٢٠٥-٢٠٦).

(٢) أعلام الحديث (٣/١٧٠٢-١٧٠٣).

(٣) الروض الأنف (٣/٤٧).

سالمًا ، فقال له سعد -ورفع صوته عليه- : أما واللّه لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه : طريقك على المدينة ، فقال له أمية : لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي ، فقال سعد : دعنا عنك يا أمية ، فواللّه لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنهم قاتلوك ، قال : بمكة؟ قال : لا أدري ، ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا ، فلما رجع أمية إلى أهله قال : يا أم صفوان! ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت : وما قال لك؟ قال : زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتلي ، فقلت له : بمكة؟ قال : لا أدري ، فقال أمية : واللّه لا أخرج من مكة ، فلما كان يوم بدر ، استنفر أبو جهل الناس ، قال : أدركوا عيركم ، فكره أمية أن يخرج ، فاتاه أبو جهل فقال : يا أبا صفوان! إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت -وأنت سيد أهل الوادي- تخلفوا معك ، فلم يزل به أبو جهل حتى قال : أما إذ غلبتني فواللّه لأشتري أجود بغير بمكة ، ثم قال أمية : يا أم صفوان! جهزني ، فقالت له : يا أبا صفوان! وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال : لا ، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا ، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلًا إلا عقل بغيره ، فلم يزل بذلك حتى قتله الله ﷻ ببدر^(١).

★ غريب الحديث:

استنفر : أي : طلب الخروج مع الناس .

★ فوائد الحديث:

ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله : «باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر»^(٢).

قال العيني : «مطابقته للترجمة ظاهرة ؛ لأنه ﷺ أخبر بمن يقتل ببدر ، فهذا أمية قتل ببدر ، وهذا من أبلغ معجزاته ﷺ»^(٣).

قال ابن الجوزي : «وأمية قتل يوم بدر بلا شك ، وهو من جملة من سحب إلى القليب»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧/٧-٣٥٨).

(٢) عمدة القاري (٦/١٢).

(٣) فتح الباري (٣٥٧/٧).

(٤) كشف المشكل (١٥٩/٤).

قلت : «وقد روى البخاري في صحيحه صفة مقتل أمية من حديث عبدالرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال : «كاتب أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة ، فلما ذكرت (الرحمن) قال : لا أعرف (الرحمن) ، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو ، فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس ، فأبصره بلال فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار فقال : أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا أمية . فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا ، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ، ثم أبوا حتى يتبعونا - وكان رجلاً ثقيلاً - فلما أدركونا قلت له : ابرك ، فبرك ، فألقيت عليه نفسي لأمنعه ، فتجللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه ، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه . وكان عبدالرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه»^(١) .

قال ابن بطال : «فيه المجازاة على سوء الفعل بمثله والانتقام من الظالم ، وإنما سعى بلال في قتل أمية بن خلف ، واستصرخ الأنصار عليه وأغراهم به في ندائه : أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا أمية ؛ لأنه كان عذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام ، وكان يخرج به إلى الرمضاء بمكة إذا حميت فيضجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ويقول : لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد أحد»^(٢) .

قلت : وقد ثبت إخباره رضي الله عنه بمصارع رؤوس المشركين يوم بدر في الصحيح من حديث أنس وعمر وغيرهما رضي الله عن الجميع . وقد تقدم ذكر ذلك في سورة (آل عمران) و(الأنفال) وغيرهما ، فلتراجع ، وبالله التوفيق .

* * *

(١) فتح الباري (٤/٦٠٤/٢٣٠١) .

(٢) شرح البخاري (٦/٤٣٤) .

قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾

★ غريب الآية:

أدهى: أعظم داهية وأفظع. والداهية: الأمر العظيم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يبعثون بعد مماتهم، ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾ للبعث والعقاب، ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ عليهم من الهزيمة التي يهزمونها عند التقائهم مع المؤمنين ببدر»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة المبينة لتاريخ نزول الآية

★ عن يوسف بن ماهك قال: «إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين! أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أي قرأت قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من (المفصل) فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية العب: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾^(٢) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده. قال: فأخرجت له المصحف، فأملت عليه آي السور»^(٣).

★ غريب الحديث:

ويحك: ويح: كلمة ترحم وتوجع، يقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها، وقد

(١) جامع البيان (١٠٩/٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦-٤٧/٩)، والنسائي في الكبرى (٤٧٧/٦)، (١١٥٥٨).

يقال: بمعنى المدح والتعجب، وهي منصوبة على المصدر، وقد ترفع وتضاف، ولا تضاف. يقال: ويحّ زيد، ويحّا له، ويحّ له^(١).

ثاب: بالمثلثة ثم الموحدة، أي: رجع.

* فوائد الحديث:

الغرض من الحديث بيان أن هذه الآية من سورة (القمر) من أوائل ما نزل بمكة، ومع تقدمها في النزول فهي مؤخرة في ترتيب المصاحف. وفي ذلك -يقول الحافظ-: «حجة لمن يقول: إن ترتيب السور اجتهاد وليس بتوقيف من النبي ﷺ، وهو قول جمهور العلماء، واختاره القاضي الباقلاني، قال: وترتيب السور ليس بواجب في التلاوة، ولا في الصلاة، ولا في المدارس، ولا في التعليم، فلذلك اختلفت المصاحف، فلما كتب مصحف عثمان رتبوه على ما هو عليه الآن، فلذلك اختلف ترتيب مصاحف الصحابة، ثم ذكر نحو كلام ابن بطلال، ثم قال: ولا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبينا ﷺ»^(٢).

قال الحافظ: «قوله: «نزل الحلال والحرام» أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللکافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «لو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف»^(٣).

وقال: «قوله: «لقد أنزل بمكة..» إلخ، أشارت بذلك إلى تقوية ما ظهر لها من الحكمة المذكورة، وقد تقدم نزول سورة (القمر) -وليس فيها شيء من الأحكام- على نزول سورة (البقرة) و(النساء) مع كثرة ما اشتملتا عليه من الأحكام»^(٤).

* * *

(١) النهاية (٢٣٥/٥).

(٢) فتح الباري (٤٨/٩).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) فتح الباري (٤٩/٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾

★ غريب الآية:

سُعُر: أي: نيران مشتعلة، أو جنون وتخبط.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق»^(١).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٥٧).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾ ﴿٤٨﴾

★ غريب الآية:

سقر: اسم من أسماء جهنم؛ لا ينصرف؛ لأنه اسم مؤنث معرفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: كما كانوا في سُعر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلّالاً، سُحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً: ﴿ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾»^(١).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يقال لهم: ﴿ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾، وترك ذكر (يقال لهم) استغناءً بدلالة الكلام عليه من ذكره.

فإن قال قائل: وكيف يُذاق مس سقر، أو له طعم فيُذاق؟ فإن ذلك مختلف فيه؛ فقال بعضهم: قيل: ذلك كذلك على مجاز الكلام، كما يقال: كيف وجدت طعم الضرب؟ وهو مجاز. وقال آخر: ذلك كما يقال: وجدت مس الحمى، يُراد به أول ما نالني منها، وكذلك وجدت طعم عفوك»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن ممن يسحب في النار أيضاً

من أهل التوحيد من لم يرد بعمله وجه الله تعالى

* عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء،

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٥٧).

(٢) جامع البيان (٢٧/١١٠).

فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتني به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتني به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»^(١) .

★ غريب الحديث:

جريء : بفتح الجيم وكسر الراء وبالمدة ، أي : شجاع حازم .

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر : «وهذا الحديث فيمن لم يرد بعلمه وعمله وجه الله تعالى . وقد قيل في الرياء : إنه الشرك الأصغر ، ولا يزكو معه عمل ، عصمنا الله برحمته»^(٢) .
قوله : «ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار» : قال ابن علان : «ثم أمر» بالوجهين «به فسحب على وجهه» معاملة بنقيض قصده ؛ فإنه قصد حصول الوجاهة بما اكتسبه من الفضائل ، فسحب عليه زيادة في إهانته «حتى ألقي في النار» ، ويستمر فيها بقدر ما سبق له في العلم الأزلي ، ثم يخرج إلى الجنة ؛ لأن الرياء من الكبائر ، ودل الكتاب والسنة على أنها لا تخرج صاحبها من الإيمان ، وأن لا بد لصاحبها من الجنة»^(٣) .

قال الشوكاني : «وهذا الحديث فيه دليل على أن فعل الطاعات العظيمة مع سوء

(١) أخرجه : أحمد (٣٢٢-٣٢١/٢) ، ومسلم (١٥١٣-١٥١٤/١٥١٤) ، والنسائي (٣٣١/٦) ، ولفظ أطول : الترمذي (٥١٠-٥١٢/٢٣٨٢) وقال : «حسن غريب» ، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣٥-١٣٧/٤٠٨) .

(٢) جامع بيان العلم (١/٦٨) .

(٣) دليل الفالحين (٤/٤٨٠) .

النية من أعظم الوبال على فاعله ؛ فإن الذي أوجب سحبه في النار على وجهه هو فعل تلك الطاعة المصحوبة بتلك النية الفاسدة ، وكفى بهذا رادعاً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، اللهم إنا نسألك صلاح النية وخلوص الطوية . وقد أخرج مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري ، تركته وشركه»^(١) . وأخرج الترمذي عن كعب بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من طلب العلم ليجاري به العلماء ، ويماري به السفهاء ، ويصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار»^(٢) . . وأخرج الشيخان عن أبي وائل قال : سمعت أسامة يقول : قال النبي ﷺ : «يؤنى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فتجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟! فيقول : بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتبه ، وأنهى عن المنكر وآتبه»^(٣) . . وأخرج ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وصححه من حديث عائشة مرفوعاً : «الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل»^(٤) ، وفي الباب عن أبي سعيد ، رواه أحمد . وعن أبي موسى وأبي بكر وحذيفة ومعدل بن يسار رواها الهيثمي . وأخرج أحمد من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : «من سمع بعلمه ، سمع الله به سامع خلقه وصغره وحقره»^(٥)»^(٦) .

قال النووي : «قوله ﷺ في الغازي والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النار ، دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته ، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال ، كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ

(١) أخرجه : أحمد (٣٠١/٢) . ومسلم (٢٢٨٩/٤) . وابن ماجه (١٤٠٥/٢) (٤٢٠٢) .

(٢) أخرجه : الترمذي (٢٦٥٤/٣٢/٥) ، وقال : «لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسحاق بن يحيى ليس ذلك القوي عندهم تكلم فيه من قبل حفظه» ، وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٠٦/١٥٣/١) : «صحيح لغيره» .

(٣) أخرجه : أحمد (٢٠٥/٥) . والبخاري (٣٢٦٧/٤٠٧/٦) . ومسلم (٢٩٨٩/٢٢٩٠/٤) .

(٤) أخرجه : الحاكم (٢٩١/٢) وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، وتعقبه الذهبي بقوله : «عبد الأعلى قال الدارقطني ليس بثقة» ، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (١٧٨٧/٢٦٩/٢) وقال : «لكن جملة الشرك منه لها شواهد خرجتها مع الحديث في الضعيفة» .

(٥) أخرجه : أحمد (٢١٢/٢) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٢٢/١٠) ، وقال : «رواه الطبراني في الكبير . . والأوسط . . ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني في الكبير رجال الصحيح» .

(٦) نيل الأوطار (٢١٧/٧) .

مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴿١﴾ . وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً، وكذلك الشناء على العلماء، وعلى المنفقين في وجوه الخيرات، كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً ﴿٢﴾ .

* * *

(١) البينة : الآية (٥) .

(٢) شرح صحيح مسلم (١٣/٤٤-٤٥) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿٤٩﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: ﴿﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها، لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير^(١).

قال صديق حسن خان: «قال الخطابي: وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر: إجبار الله العبد وقهره على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه؛ وإنما معناه: الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أكساب العباد، وصدورها عن تقدير منه، وخلق لها خيرها وشرها؛ والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر؛ يقال: قدرْتُ الشيءَ وقَدَرْتُهُ، بالتخفيف والتثقيل، بمعنى واحد، والقضاء في هذا معناه: الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(٢) أي: خلقهنّ.

قال النووي: إن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه: أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه على صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها الله، وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه سبحانه لم يقدرها، ولم يتقدم علمه بها، وأنها مستأنفة العلم، أي: إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها، وكذبوا على الله ﷻ عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً، انتهى.

وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، وأهل العقد

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٤١).

(٢) فصلت: الآية (١٢).

والحل من السلف والخلف، على إثبات قدر الله ﷻ، وقد قرر ذلك أئمة السنة أحسن تقرير، بدلائله القطعية، السمعية والعقلية، ليس هذا موضع بسطه، والله تعالى أعلم^(١).

قال القرطبي: «الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشياء، أي: علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجد على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه سبحانه لا إله إلا هو، ولا خالق غيره؛ كما نص عليه القرآن والسنة، لا كما قالت القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا»^(٢).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^(٣)، وكقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٤) الذي خلق فسوَّى^(٥) والذي قدر فهدى^(٦)، أي: قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقهم، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة»^(٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القدر

* عن أبي هريرة قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾^(٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ^(٩)»^(١٠).

(١) فتح البيان (٣٠٨/١٣) وانظر شرح مسلم للنووي (١٣٨/١-١٣٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤٨/١٧). الفرقان: الآية (٢).

(٣) الأعراس: الآيات (٣-١). تفسير ابن كثير (٤٨٢/٧) دار طيبة.

(٤) القمر: الآيات (٤٨ و ٤٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٤٤٤/٢)، ومسلم (٢٠٤٦/٢)، والترمذي (٢١٥٧/٤) وقال: «حديث صحيح»، وابن ماجه (٣٢٠/١).

(٦) أخرجه: أحمد (٤٤٤/٢)، ومسلم (٢٠٤٦/٢)، والترمذي (٢١٥٧/٤) وقال: «حديث صحيح»، وابن ماجه (٣٢٠/١).

* عن طاوس أنه قال: «أدرکت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس -أو: الكيس والعجز-»^(١).

* غريب الحديث:

العجز: التثاقل عن المصالح حتى لا تحصل، أو تحصل لكن على غير الوجه المرضي.

الكيس: نقيض ذلك، وهو الجد والتشمير في تحصيل المصالح على وجوهها.

* عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»^(٢).

* عن ابن الديلمي قال: «أتيت أبي بن كعب فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي، قال: لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار، قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل قوله ذلك، قال: ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، قال: ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك»^(٣).

* عن نافع، قال: «كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إلي،

(١) أخرجه: أحمد (١١٠/٢)، ومسلم (٢٠٤٥/٤). (٢٦٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١٣٣ و ٩٧/١)، والترمذي (٢١٤٥/٣٩٣/٤) واللفظ له، وابن ماجه (١/٣٢/٨١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/٤٠٤/١٧٨)، والحاكم (٣٣ و ٣٢/١) صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (١٨٥/٥)، وأبو داود (٤٦٩٩/٧٥/٥) واللفظ له، وابن ماجه (١/٢٩-٣٠/٧٧)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/٥٠٥-٥٠٦/٧٢٧).

فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر»^(١).

* عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: يا غلام! إنني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(٢).

* عن عبادة بن الصامت قال لابنه: «يا بني! إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب! وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. يا بني! إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني»^(٣).

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد:

التصريح بأن هذه الآية نزلت في كفار قريش الذين جاؤوا يخاصمون النبي ﷺ في القدر. قال ابن جرير: «وفي هذه الآية بيان أن الله -جل ثناؤه- توعده هؤلاء المجرمين على تكذيبهم في القدر مع كفرهم به»^(٤).

قال ابن القيم: «والمخاصمون في القدر نوعان: أحدهما: من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره، كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾»^(٥).

(١) أخرجه: أحمد (٢/٩٠)، وأبو داود (٥/٢٠/٤٦١٣)، والترمذي (٤/٣٩٧/٢١٥٢) وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه (٢/١٣٥٠/٤٠٦١)، والحاكم (١/٨٤) وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (١/٢٩٣ و٣٠٧)، والترمذي (٤/٥٧٥-٥٧٦/٢٥١٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، واللفظ له.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/٣١٧)، وأبو داود (٥/٧٦/٤٧٠٠)، والترمذي (٥/٣٩٤-٣٩٥/٣٣١٩) وقال: «حديث حسن غريب». وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه: الحاكم (٢/٤٩٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(٤) الأنعام: الآية (١٤٨).

(٥) جامع البيان (٢٧/١١٠).

والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق. والطائفتان خصماء الله؛ قال عوف: «من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام، إن الله -تبارك وتعالى- قدر أقدارًا، وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى»^(١).

وفيها: «دليل على أن الإيمان بالقدر واجب، ولا يتم الإيمان إلا به»^(٢).

وقد تقدم بيان هذا المعنى مستقصى فيما تقدم من مباحث القدر، فلتراجع.

وفيها: «بيان كيفية الإيمان بالقدر: أن يعلم المرء أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»^(٣).

وقد تقدم بيان هذا المعنى أيضًا فيما تقدم من كتابنا هذا عند قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ الآية (٥١) من سورة التوبة، فلتراجع.

وفيها من العلم: «بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان ويكون في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيُعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٢﴾»^(٤)،^(٥).

قال القرطبي في حديث طاووس: «ومعنى هذا الحديث أن ما من شيء يقع في هذا الوجود كائنًا كان إلا وقد سبق به علم الله تعالى ومشيتته، سواء كان من أفعالنا أو صفاتنا، أو من غيرها، ولذلك أتى بـ(كل) التي هي للاستغراق والإحاطة، وعقبها بـ(حتى) التي هي للغاية، حتى لا يخرج عن تلك المقدمة الكلية من الممكنات شيء، ولا يتوهم فيها تخصيص، وإنما جعل العجز والكيس غاية لذلك ليبين أن أفعالنا وإن كانت معلومة ومرادة لنا، فلا تقع منا إلا بمشيئة الله تعالى، وإرادته وقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾»^(٦) وصار هذا من

(١) شفاء العليل (١/ ٨٧-٨٨).

(٢) أفاده في «تيسير العزيز الحميد» (ص: ٧١٤).

(٣) الطلاق: الآية (١٢).

(٤) فتح المجيد (٥٧٨).

(٥) الإنسان: الآية (٣٠)، التكوير: الآية (٢٩).

(٦) القول المفيد (٣/ ١٨٨).

نحو قول العرب : قدم الحاج حتى المشاة ، فيكون معناه : أن كل ما يقع في الوجود بقدر الله ومشيتته ، حتى ما يقع منكم بمشيئكم»^(١) .

«وهذا أحد مراتب الإيمان بالقدر التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقدر ؛ وهي المرتبة الأولى من مراتبه وأركانه التي عليها مدار الإيمان به وهي العلم السابق ، فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم ، واتفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة ، وخالفهم مجوس الأمة»^(٢) .

قال الحافظ ابن رجب : «والإيمان بالقدر على درجتين : إحداهما : الإيمان بأن الله تعالى سبق في علمه ما يعمل العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجادهم ، ومن هو منهم من أهل الجنة ، ومن أهل النار ، وأعد لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم ، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه ، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه . . وهذه الدرجة أثبتها كثير من القدرية ، ونفاها غلاتهم ، كمعبد الجهني الذي سئل ابن عمر عن مقالته ، وكعمرو ابن عبيد وغيره . وقد قال كثير من أئمة السلف : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه فقد كفروا . يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد ، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ ، فقد كذب بالقرآن ، فيكفر بذلك . وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال عباده وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية ، فقد خصموا ؛ لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه ، وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور بين العلماء»^(٣) .

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ : «وكل هذه الأحاديث وما في معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر ، وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم ، ومن مذهبهم : تخليد أهل المعاصي في النار ، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم المعاصي ، وفي الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر ، فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار

(١) المفهم (٦/٦٧١) .

(٢) أفاده ابن القيم في «شفاء العليل» (١/٩١) .

(٣) جامع العلوم والحكم (١/١٠٣) .

إن لم يتوبوا، وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحددين في النار^(١).

وفيها: «أن للإيمان طعمًا، وهو كذلك، فإن له حلاوة وطعمًا من ذاقه تسلى به عن الدنيا وما عليها، وقد قال النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان..»^(٢) الحديث. وإنما يكون العبد كذلك إذا كان مؤمنًا بالقدر، إذ يمتنع أن توجد الثلاث فيه، وهو لا يؤمن بالقدر، بل يكذب ربه، ويرد على الله كلامه، وعلى الرسول ﷺ مقالته، فإن المحبة التامة تقتضي المتابعة التامة، فمن لم يؤمن بالقدر لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يجد حلاوة الإيمان ولا طعمه، بل إن كان منكراً للعلم القديم، فهو كافر كما تقدم، ولهذا روى عن بعض الأئمة القدريّة الكبار بإسناد صحيح أنه قال -لما ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «حدثني الصادق المصدوق..» الحديث-: لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبت، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا لأجبت، ولو سمعت عبد الله بن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، وذكر كلمة بعدها. فهذا كفر صريح نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه^(٣).

وفيها: «برأته ﷺ ممن لم يؤمن بالقدر لقوله ﷺ: «من مات على غير هذا فليس مني»، وهذه البراءة مطلقة؛ لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفرًا مخرجًا من الملة^(٤).

قوله ﷺ: «إنه سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر» وفي رواية: «يكون في أمتي خسف ومسح، وذلك في المكذبين بالقدر»: قال القاري: «بهذا الحديث تبين أن القدريّة المذمومة إنما هم المكذبة بالقدر، لا المؤمنة به كما زعمت المعتزلة ونسبوا أهل السنة والجماعة إلى القدريّة لما هو مقتضى المقابلة بالجبرية، وإنما عاقبهم الله بهما -أي: بالخسف والمسح- لإضافتهما الكوائن إلى غير الله،

(١) فتح المجيد (ص: ٥٨٠).

(٢) أخرجه: أحمد (١٠٣/٣). والبخاري (١٦/٨٢). ومسلم (٤٣/٦٦/١). والترمذي (٢٦٢٤/١٦/٥). والنسائي (٥٠٠٤/٤٧٢/٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ٧١٤).

(٤) قاله ابن عثيمين في «القول المفيد» (٣/١٩٥-١٩٦).

محقوا خلق الله، ومسحوا صورة خلقه»^(١).

وحديث ابن الديلمى الوارد في هذا الباب حديث عظيم الشأن، جليل القدر، فيه الدواء والشفاء في باب القدر وما اتصل به من أبواب.

قال ابن القيم: «وهذا الحديث حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه، وله شأن عظيم، وهو دال على أن من تكلم به أعرف الخلق بالله، وأعظمهم له توحيداً، وأكثرهم له تعظيماً، وفيه الشفاء التام في باب العدل والتوحيد، فإنه لا يزال يجول في نفوس كثير من الناس كيف يجتمع القضاء والقدر والأمر والنهي، وكيف يجتمع العدل والعقاب على المقضي المقدر الذي لا بد للعبد من فعله، ثم سلك كل طائفة في هذا المقام وادياً وطريقاً، فسلك الجبرية وادي الجبر وطريق المشيئة المحضة الذي يرجح مثلاً على مثل من غير اعتبار علة ولا غاية ولا حكمة، قالوا: وكل ممكن عدل، والظلم هو الممتنع لذاته، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لكان متصرفاً في ملكه، والظلم تصرف القادر في غير ملكه، وذلك مستحيل عليه سبحانه، قالوا: ولما كان الأمر راجعاً إلى محض المشيئة، لم تكن الأعمال سبباً للنجاة، فكانت رحمته للعباد هي المستقلة بنجاتهم، فكانت رحمته خيراً من أعمالهم، وهؤلاء راعوا جانب الملك، وعطلوا جانب الحمد، والله سبحانه له الملك وله الحمد، وسلكت القدرية وادي العدل والحكمة، ولم يوفوه حقه، وعطلوا جانب التوحيد، وثاروا في هذا الحديث ولم يدروا ما وجهه، وربما قابله كثير منهم بالتكذيب والرد له، وأن الرسول لم يقل ذلك، قالوا: وأي ظلم يكون أعظم من تعذيب من استنفذ أوقات عمره كلها، واستفرغ قواه في طاعته، وفعل ما يحبه، ولم يعصه طرفة عين، وكان يعمل بأمره دائماً؟ فكيف يقول الرسول ﷺ: إن تعذيب هذا يكون عدلاً لا ظلماً؟! قالوا: ولا يقال: إن حقه عليهم وما ينبغي له أعظم من طاعاتهم، فلا تقع تلك الطاعات في مقابلة نعمه وحقوقه، فلو عذبهم لعذبهم بحقه عليهم؛ لأنهم إذا فعلوا مقدورهم من طاعته لم يكلفوه بغيره، فكيف يعذبون على ترك ما لا قدرة لهم عليه؟! وهل ذلك إلا بمنزلة تعذيبهم على كونهم لم يخلقوا السموات والأرض، ونحو ذلك مما لا يدخل تحت مقدورهم؟ قالوا:

(١) المرقاة (١/٣٠٧).

فلا وجه لهذا الحديث إلا رده، أو تأويله وحمله على معنى يصح، وهو أنه لو أراد تعذيبهم جعلهم أمة واحدة على الكفر، فلو عذبهم في هذه الحال لكان غير ظالم لهم، وهو لم يقل: لو عذبهم مع كونهم مطيعين له عابدين له لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ثم أخبر أنه لو عمهم بالرحمة لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم، ثم أخبر أنه لا يقبل من العبد عمل حتى يؤمن بالقدر، والقدر هو علم الله بالكائنات وحكمه فيها. ووقفت طائفة أخرى في وادي الحيرة بين القدر والأمر والثواب والعقاب، فتارة يغلب عليهم شهود القدر فيغيبون به عن الأمر، وتارة يغلب عليهم شهود الأمر فيغيبون عن القدر، وتارة يقعون في حيرة وعمى، وهذا كله إنما سببه الأصول الفاسدة والقواعد الباطلة التي بنوا عليها، ولو جمعوا بين الملك والحمد، والربوبية والإلهية، والحكمة والقدرة، وأثبتوا له الكمال المطلق، ووصفوه بالقدرة التامة الشاملة، والمشیئة العامة النافذة التي لا يوجد كائن إلا بعد وجودها، والحكمة البالغة التي ظهرت في كل موجود، لعلموا حقيقة الأمر، وزالت عنهم الحيرة، ودخلوا إلى الله سبحانه من باب أوسع من السموات السبع، وعرفوا أنه لا يليق بكماله المقدس إلا ما أخبر به عن نفسه على السنة رسله، وأن ما خالفه ظنون كاذبة، وأوهام باطلة، تولدت بين أفكار باطلة وآراء مظلمة، فنقول -وبالله التوفيق وهو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله-: الرب تبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره هو المنعم على الحقيقة بصنوف النعم التي لا يحصيها أهل سماواته وأرضه، فيجادهم نعمة منه، وجعلهم أحياء ناطقين نعمة منه، وإعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول نعمة منه، وإدراك الأرزاق عليهم على اختلاف أنواعها وأصنافها نعمة منه، وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه، وإجراء ذكره على ألسنتهم ومحبة معرفته على قلوبهم نعمة منه، وحفظهم بعد إيجادهم نعمة منه، وقيامه بمصالحهم دقيقها وجليلها نعمة منه، وهدايتهم إلى أسباب مصالحهم ومعاشهم نعمة منه، وذكر نعمه على سبيل التفصيل لا سبيل إليه ولا قدرة للبشر عليه، ويكفي أن النفس من أدنى نعمه التي لا يكادون يعدونها، وهو أربعة وعشرون ألف نفس في كل يوم وليلة، فليعلم على العبد في النفس خاصة أربعة وعشرون ألف نعمة كل يوم وليلة! دع ما عدا ذلك من أصناف نعمه على العبد، ولكل نعمة من هذه النعم حق من الشكر يستدعيه ويقتضيه، فإذا وزعت طاعات

العبد كلها على هذه النعم ، لم يخرج قسط كل نعمة منها إلا جزءاً يسيراً جداً لا نسبة [له] إلى قدر تلك النعمة بوجه من الوجوه . .

وهذا كله لو لم يحصل للعبد من الغفلة والإعراض والذنوب ما يكون في قبالة طاعاته ، فكيف إذا حصل له من ذلك ما يوازي طاعاته أو يزيد عليها ، فإن من حق الله على عبده أن يعبد لا يشرك به شيئاً ، وأن يذكره ولا ينساه ، وأن يشكره ولا يكفره ، وأن يرضى به رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، وليس الرضا بذلك مجرد إطلاق هذا اللفظ وحاله وإرادته تكذبه وتخالفه ، فكيف يرضى به رباً من يسخط ما يقضيه له إذا لم يكن موافقاً لإرادته وهواه ، فيظل ساخطاً به متبرماً يرضى وربّه غضبان ، ويغضب وربّه راض ، فهذا إنما رضي من ربه حظاً لم يرض به رباً ، وكيف يدعي الرضا بالإسلام ديناً من ينبذ أصوله خلف ظهره إذا خالفت بدعته وهواه وفروعه وراءه إذا لم توافق غرضه وشهوته ، وكيف يصح الرضا بمحمد رسولاً ممن لم يحكمه على ظاهره وباطنه ، ويتلقى أصول دينه وفروعه من مشكاته وحده ، وكيف يرضى به رسولاً من يترك ما جاء به لقول غيره ، ولا يترك قول غيره لقوله ، ولا يحكمه ويحتج بقوله إلا إذا وافق تقليده ومذهبه ، فإذا خالفه لم يلتفت إلى قوله . والمقصود أن من حقه سبحانه على كل أحد من عبده أن يرضى به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، وأن يكون حبه كله لله ، وبغضه في الله ، وقوله لله ، وتركه لله ، وأن يذكره ولا ينساه ، ويطيعه ولا يعصيه ، ويشكره ولا يكفره ، وإذا قام بذلك كله كانت نعم الله عليه أكثر من عمله ، بل ذلك نفسه من نعم الله عليه ، حيث وفقه له ويسره وأعان عليه ، وجعله من أهله ، واختصه به على غيره ، فهو يستدعي شكرًا آخر عليه ، ولا سبيل له إلى القيام بما يجب لله من الشكر أبدًا ، فنعم الله تطالبه بالشكر ، وأعماله لا تقابلها ، وذنوبه وغفلته وتقصيره قد تستنفد عمله ، فديوان النعم وديوان الذنوب يستنفدان طاعاته كلها .

هذا وأعمال العبد مستحقة عليه بمقتضى كونه عبداً مملوكاً مستعملاً فيما يأمره به سيده ، فنفسه مملوكة ، وأعماله مستحقة بموجب العبودية ، فليس له شيء من أعماله ، كما أنه ليس له ذرة من نفسه ، فلا هو مالك لنفسه ، ولا صفاته ، ولا أعماله ، ولا لما بيده من المال في الحقيقة ، بل كل ذلك مملوك عليه ، مستحق عليه لمالكة أعظم استحقاقاً من سيد اشترى عبداً بخالص ماله ، ثم قال : اعمل وأد

إلي؛ فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء، فلو عمل هذا العبد من الأعمال ما عمل فإن ذلك كله مستحق عليه لسيدته، وحق من حقوقه عليه، فكيف بالمنعم المالك على الحقيقة الذي لا تعد نعمه وحقوقه على عبده، ولا يمكن أن تقابلها طاعاته بوجه، فلو عذبه سبحانه لعذبه وهو غير ظالم له، وإذا رحمه فرحمته خير له من أعماله، ولا تكون أعماله ثمنًا لرحمته البتة، فلولوا فضل الله ورحمته ومغفرته ما هنا أحدًا عيش البتة، ولا عرف أحد خالقه، ولا ذكره، ولا آمن به، ولا أطاعه، فكما أن وجود العبد -محض وجوده- من جوده وفضله ومنته عليه، وهو المحمود على إيجاده، فتوابع وجوده كلها كذلك، ليس للعبد منها شيء، كما ليس له في وجوده شيء، فالحمد كله لله، والفضل كله له، والإنعام كله له، والحق له على جميع خلقه، ومن لم ينظر في حقه عليه وتقصيره وعجزه عن القيام به فهو من أجهل الخلق بربه وبنفسه، ولا تنفعه طاعاته، ولا يسمع دعاؤه. . والعبد يسير إلى الله سبحانه بين مشاهدة منته عليه ونعمه وحقوقه، وبين رؤية عيب نفسه وعمله وتفريطه وإضاعته، فهو يعلم أن ربه لو عذبه أشد العذاب لكان قد عدل فيه، وأن أقصيته كلها عدل فيه، وأن ما فيه من الخير فمجرد فضله ومنته وصدقته عليه، ولهذا كان في حديث سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي»^(١) فلا يرى نفسه إلا مقصرًا مذنبًا، ولا يرى ربه إلا محسنًا متفضلًا. وقد قسم الله خلقه إلى قسمين لا ثالث لهما: تائبين وظالمين، فقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)، وكذلك جعلهم قسمين: معذبين وتائبين، فمن لم يتب فهو معذب ولا بد، قال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٣)، وأمر جميع المؤمنين من أولهم إلى آخرهم بالتوبة، ولا يستثنى من ذلك أحد، وعلق فلاحهم بها، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٤)، وعدد سبحانه من جملة نعمه على خير خلقه وأكرمهم عليه

(١) أخرجه: أحمد (٤/١٢٢). والبخاري (١١/١١٧/٦٣٠٦). والترمذي (٥/٤٣٦/٣٣٩٣). والنسائي (٨/

٦٧٤-٦٧٥/٥٥٣٧) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) الحجرات: الآية (١١).

(٣) الأحزاب: الآية (٧٣).

(٤) النور: الآية (٣١).

وأطوعهم له وأخشاهم له أن تاب عليه وعلى خواص أتباعه، فقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ ثم كرر توبته عليهم فقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَهْمُ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، وقدم توبته عليهم على توبة الثلاثة الذين خلفوا، وأخبر سبحانه أن الجنة التي وعدا أهلها في التوراة والإنجيل يدخلها التائبون، فذكر عموم التائبين أولاً، ثم خص النبي والمهاجرين والأنصار بها، ثم خص الثلاثة الذين خلفوا، فعلم بذلك احتياج جميع الخلق إلى توبته عليهم ومغفرته لهم وعفوه عنهم... وحقيقة الأمر أن العبد فقير إلى الله من كل وجه، وبكل اعتبار، فهو فقير إليه من جهة ربوبيته له، وإحسانه إليه، وقيامه بمصالحه، وتدبيره له، وفقير إليه من جهة إلهيته، وكونه معبوده وإلهه، ومحبوبه الأعظم الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون أحب شيء إليه، فيكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله ووالده وولده ومن الخلق كلهم، وفقير إليه من جهة معافاته له من أنواع البلاء، فإنه إن لم يعافيه منها هلك ببعضها، وفقير إليه من جهة عفوه عنه ومغفرته له، فإنه إن لم يعف عن العبد ويغفر له فلا سبيل إلى النجاة، فما نجي أحد إلا بعفو الله، ولا دخل الجنة إلا برحمة الله، وكثير من الناس ينظر إلى نفس ما يتاب منه فيراه نقصاً، ولا ينظر إلى كمال الغاية الحاصلة بالتوبة، وأن العبد بعد التوبة النصوح خير منه قبل الذنب، ولا ينظر إلى كمال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال وحده، وأن لوازم البشرية لا ينفك منها البشر، وأن التوبة غاية كل أحد من ولد آدم وكماله، كما كانت هي غايته وكماله، فليس للعبد كمال بدون التوبة البتة، كما أنه ليس له انفكاك عن سببها، فإنه سبحانه هو المتفرد المستأثر بالغنى والحمد من كل وجه وبكل اعتبار، والعبد هو الفقير المحتاج إليه المضطر إليه بكل وجه وبكل اعتبار، فرحمته للعبد خير له من عمله، فإن عمله لا يستقل بنجاته ولا سعادته، ولو وكل إلى عمله لم ينج به البتة، فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ».

ومما يوضحه أن شكره سبحانه مستحق عليهم بجهة ربوبيته لهم وكونهم عبيده

ومماليكه، وذلك يوجب عليهم أن يعرفوه، ويعظموه، ويوحدوه، ويتقربوا إليه تقرب العبد المحب الذي يتقلب في نعمه، ولا غناء به عنه طرفة عين، فهو يدأب في التقرب إليه بجهد، ويستفرغ في ذلك وسعه وطاقته، ولا يعدل به سواه في شيء من الأشياء، ويؤثر رضا سيده على إرادته وهواه، بل لا هوى له ولا إرادة إلا فيما يريد سيده ويحبه، وهذا يستلزم علوماً وأعمالاً وإرادات وعزائم لا يعارضها غيرها، ولا يبقى له معها التفات إلى غيره بوجه، ومعلوم أن ما يطبع عليه البشر لا يفي بذلك وما يستحقه الرب تعالى لذاته وأنه أهل أن يعبد أعظم مما يستحقه لإحسانه، فهو المستحق لنهاية العبادة والخضوع والذل لذاته وإحسانه وإنعامه . . وهو سبحانه أعلم بعباده منهم بأنفسهم، فلو عذبهم لعذبهم بما يعلمه منهم وإن لم يحيطوا به علماً، ولو عذبهم قبل أن يرسل رسله إليهم على أعمالهم لم يكن ظالماً لهم، كما أنه سبحانه لم يظلمهم بمقتته لهم قبل إرسال رسوله على كفرهم وشركهم وقبائحهم، فإنه سبحانه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، ولكن أوجب على نفسه إذ كتب عليها الرحمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه برسالته . وسر المسألة أنه لما كان شكر المنعم على قدره وعلى قدر نعمه، ولا يقوم بذلك أحد، كان حقه سبحانه على كل أحد، وله المطالبة به، وإن لم يغفر له ويرحمه وإلا عذبه، فحاجتهم إلى مغفرته ورحمته وعفوه كحاجتهم إلى حفظه وكلاءته ورزقه، فإن لم يحفظهم هلكوا، وإن لم يرزقهم هلكوا، وإن لم يغفر لهم ويرحمهم هلكوا وخسروا، ولهذا قال أبوهم آدم وأمهم حواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّارْتَقِفَر لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، وهذا شأن ولده من بعده، وقد قال موسى كليمة سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾^(٢) . . وقال صديق الأمة وخيرها وأبرها وأتقاها لله بعد رسوله: يا رسول الله! علمني دعاء أدعوه به في صلاتي، فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كبيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(٣)،

(١) الأعراف: الآية (٢٣).

(٢) القصص: الآية (١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/٤٧)، والبخاري (٢/٤٠٤/٨٣٤)، ومسلم (٤/٢٠٧٨/٢٧٠٥)، والترمذي (٥/٥٠٧/٥).

(٣٥٣١)، والنسائي (٣/٦٠-٦١/١٣٠١).

فاستفتح الخبر عن نفسه بأداة التوكيد التي تقتضي تقرير ما بعدها ، ثم ثنى بالإخبار عن ظلمه لنفسه ، ثم وصف ذلك الظلم بكونه ظلماً كبيراً ، ثم طلب من ربه أن يغفر له مغفرة من عنده ، أي : لا يبلغها علمه ولا سعيه ، بل هي محض منته وإحسانه ، وأكبر من عمله ، فإذا كان هذا شأن من وزن بالأمة فرجح بهم ، فكيف بمن دونه»^(١) .

* عن زهدم قال : «كان بين هذا الحي من جرم وبين الأشعرين ود وإخاء ، فكنا عند أبي موسى الأشعري فقرب إليه الطعام فيه لحم دجاج وعنده رجل من بني تيم الله كأنه من الموالي ، فدعاه إليه فقال الرجل : إني رأيتك يأكل شيئاً فقذرتك فحلفت لا أكله ، فقال : هلم فلاحدثك عن ذاك ، إني أتيت النبي ﷺ في نفر من الأشعرين نستحملة ، قال : والله لا أحملكم وما عندي ما أحملكم ، فأني النبي ﷺ بنهب إبل ، فسأل عنا فقال : أين النفر الأشعريون؟ فأمر لنا بخمس ذود غر الذرى ثم انطلقنا ، قلنا : ما صنعنا ! حلف رسول الله ﷺ لا يحملنا ، وما عنده ما يحملنا ، ثم حملنا ، تغفلنا رسول الله ﷺ يمينه ، والله لا نفلح أبداً ، فرجعنا إليه فقلنا له ، فقال : لست أنا أحملكم ، ولكن الله حملكم ، إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير منه وتحللتها»^(٢) .

* عن ابن عباس قال : «قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقالوا : إن بيننا وبينك المشركين من مضر ، وإننا لا نصل إليك إلا في أشهر حرم ، فمرنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة وندعوا إليها من وراءنا ، قال : آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله ، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وتعطوا من المغنم الخمس ، وأنهاكم عن أربع : لا تشربوا في الدباء ، والنقير ، والظروف المزفة ، والحتمة»^(٣) .

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم

(١) شفاء العليل (١/ ٢٩٠-٣٠٨) .

(٢) أخرجه : أحمد (٤/ ٤٠١) ، والبخاري (١٣/ ٦٤٥/ ٧٥٥٥) ، ومسلم (٣/ ١٢٦٨-١٢٦٩/ ١٢٤٩) ، والترمذي (٤/ ٢٣٩/ ١٨٢٦) وقال : «حديث حسن» ، والنسائي (٧/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٤٣٥٧) .

(٣) أخرجه : أحمد (٦/ ٧٠) ، والبخاري (١٣/ ٦٤٥/ ٧٥٥٦) ، ومسلم (١/ ٤٦/ ١٧) ، وأبو داود (٤/ ٩٤/ ٩٤٣٦٢) ، والترمذي (٤/ ١٣٠/ ١٥٩٩) وقال : «حسن صحيح» ، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٣٧/ ١١٧٦٢) .

القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتكم^(١).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتكم»^(٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «قال الله ﻋﻠﻴﻚ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة»^(٣).

★ فوائد الأحاديث:

«ترجم البخاري لهذه الأحاديث بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤) ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾^(٥).

قال المهلب: «غرضه في هذا الباب إثبات أفعال العباد وأقوالهم خلقاً لله تعالى كسائر الأبواب المتقدمة»^(٦).

قال ابن القيم: «وهذا أمر متفق عليه بين الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار، وخالف في ذلك مجوس الأمة فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين -وهي أشرف ما في العالم- عن ربوبيته وتكوينه ومشيتته، بل جعلوهم هم الخالقون لها، ولا تعلق لها بمشيئته، ولا تدخل تحت قدرته

وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية. فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالاً ولا يضل مهتدياً، ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلماً، والكافر كافراً، والمصلي مصلياً، وإنما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك لا يجعله تعالى وقد نادى القرآن؛ بل الكتب السماوية كلها، والسنة، وأدلة التوحيد والعقول

(١) أخرجه: أحمد (١٠١/٢)، والبخاري (٦٤٥/١٣)، ومسلم (٣/١٦٦٩/٢١٠٧/٩٦)، والنسائي (٨/٦٠٦/٥٣٧٧)، وابن ماجه (٢/٧٢٧/٢١٥١).

(٢) أخرجه: أحمد (١٠١/٢)، والبخاري (٦٤٦/١٣)، ومسلم (٣/١٦٧٠-١٦٦٩/٢١٠٨)، والنسائي (٨/٦٠٦/٥٣٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٢٣٢)، والبخاري (٦٤٦/١٣)، ومسلم (٣/١٦٧١/٢١١١).

(٤) الصافات: الآية (٩٦). (٥) فتح الباري (١٣/٦٤٤).

(٦) شرح ابن بطلال (١٠/٥٥٣).

على بطلان قولهم، وصاح بهم أهل العلم والإيمان من أقطار الأرض، وصنف حزب الإسلام وعصابة الرسول وعسكره التصانيف في الرد عليهم، وهي أكثر من أن يحصوها إلا الله، ولم تزل أيدي السلف وأئمة السنة في أقفيتهم، ونواصيهم تحت أرجلهم إذ كانوا يردون باطلهم بالحق المحض، وبدعتهم بالسنة، والسنة لا يقوم لها شيء

فكانوا معهم كالذمة مع المسلمين، إلى أن نبغت نابغة ردوا بدعتهم ببدعة تقابلها، وقابلوا باطلهم بباطل من جنسه، وقالوا العبد مجبور على أفعاله مقهور عليها لا تأثير له في وجودها البتة، وهي واقعة بإرادته وإختياره. وغلا غلاتهم فقالوا بل هي عين أفعال الله، ولا تنسب إلى العبد لا على المجاز، والله سبحانه يلوم العبد ويعاقبه ويخلده في النار على ما لم يكن للعبد فيه صنع ولا هو فعله، بل هو محض فعل الله، وهذا قول الجبرية، وهو أن لم يكن شرًا من القدرية فليس هو بدونه في البطلان.

ولإجماع الرسل واتفاق الكتب الإلهية وأدلة العقول والفطر والعيان يكذب هذا القول ويرده. والطائفتان في عمى عن الحق القويم والصراط المستقيم^(١).

قلت: وقد تقدم بيان غريب هذه الأحاديث ووجه دلالة كل حديث منها على أن أفعال العباد وأقوالهم خلق لله وكسب من العباد، على مذهب أهل الحق سلف الأمة، أهل السنة والجماعة، خلافاً لأهل الأهواء والبدع من معتزلة وجبرية عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) الآية (٩٦) من سورة (الصافات)، فليراجع، وبالله التوفيق.

* * *

(١) شفاء العليل (١/١٤٥-١٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿٥٠﴾

★ غريب الآية:

كلمح بالبصر: أي: قضائي أسرع من لمح البصر. واللمح: النظر بالعجلة؛ يقال: لمح البرق ببصره وألمحه: إذا أبصره بنظر خفيف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾ أي: إنما نأمر بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثنائية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما يقول له كن قوله فيكون»^(١).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿٥١﴾

★ غريب الآية:

أشباعكم: أي: أشباهكم في الكفر من الأمم الخالية. وقيل: أتباعكم وأعوانكم.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذّبين بالرسل، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢﴾.

* * *

(١) سبأ: الآية (٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ٥٣ ﴿﴾

★ غريب الآية؛

مُسْتَطَرٌّ: أي: مكتوب على عامله؛ يقال: سطر يسطر سطرًا: كتب، واستطر مثله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وهذا حقيقة القضاء والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»^(١).

قال الشنقيطي: «الصحيح في معنى الآية أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر، التي هي صحف الأعمال، وكل صغير وكبير مستطر، أي: مكتوب عليهم لا يترك منه شيء.

وهذا المعنى جاء موضحًا في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوَلِّكُنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(٣)»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في التحذير من محقرات الذنوب

★ عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة! إياك ومحقرات الذنوب؛ فإن

(٢) الكهف: الآية (٤٩).

(٤) الأضواء (٧/٧٢٩-٧٣٠).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/٢٤٢).

(٣) آل عمران: الآية (٣٠).

لها من الله ﷻ طالباً»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال الطحاوي: «تأملنا هذا الحديث، فوجدنا فيه تحذير رسول الله ﷺ أهل الإيمان من محقرات الذنوب، فدل ذلك أنهم مأخوذون بها مع إيمانهم، معاقبون عليها إلا أن يعفو الله ﷻ عنهم، وفي ذلك ما قد دل على أن الإيمان لا يرفع عقوبات صغار الذنوب، وإذا كان لا يرفع عقوبات صغارها، كان بأن لا يرفع عقوبات كبارها أولى، . . وقد وجدنا في كتاب الله ﷻ ما يدل على هذا المعنى، وهو قوله ﷻ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَلَّنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغْدِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٢)، وفي ذلك ما قد دل على أن أهل الوعد المذكورين في حديثي أبي الدرداء وأبي هريرة عند تلاوة رسول الله ﷺ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(٣)، وعند جوابه كل واحد من أبي الدرداء ومن أبي هريرة لما قاله له: وإن زنى وإن سرق، بما أجابه به منهما، وإنهم زالوا بعد الزنى وبعد السرقة اللذين كانا منهم عن الزنى والسرقة اللذين كانا منهم إلى ضدهما، فخرجوا من أهل الوعيد لأهل المعنى الأول، ودخلوا في أهل الوعد الذي أعقبه، فبان بحمد الله ونعمته بما ذكرنا من معاني أحاديث رسول الله ﷺ ما ذكرنا مما بان به منهما، والله ﷻ نسأله التوفيق»^(٤).

قال القاري: «فإن لها» أي: للمحقرات من الذنوب «من الله» أي: من عنده سبحانه «طالباً» أي: نوعاً من العذاب يعقبه، فكأنه يطلبه طلباً لا مردّ له، فالتنوين للتعظيم، أي: طالباً عظيماً، فلا ينبغي أن يغفل عنه، بل ينبغي أن يخشى منه»^(٥).

قال المناوي: «قال الغزالي: وتواتر الصغائر عظيم التأثير في سواد القلب،

(١) أخرجه: أحمد (٧٠/٦)، وابن ماجه (٢/١٤١٧/٤٢٤٣) وقال البوصيري: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»،

وصححه ابن حبان (الإحسان ١٢/٣٧٩/٥٥٦٨).

(٢) الكهف: الآية (٤٩).

(٣) الرحمن: الآية (٤٦).

(٤) شرح مشكل الآثار (١٠/١٧٢-١٧٣).

(٥) المرقاة (٩/٢١٨-٢١٩).

وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر؛ فإنه يحدث فيه حفرة لا محالة مع لين الماء وصلابة الحجر، قال العلائي: أخذ من كلام حجة الإسلام أن مقصود الحديث: الحث على عدم التهاون بالصغائر ومحاسبة النفس عليها وعدم الغفلة عنها؛ فإن في إهمالها هلاكه، بل ربما تغلب الغفلة على الإنسان فيفرح بالصغيرة، ويتحجج بها ويعد التمكن منها نعمة، غافلاً عن كونها وإن صغرت سبب للشقاوة، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه لشدة فرحه بمقارفته، فيقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ ويقول المناظر: أما رأيتني كيف فضحته وذكرت مساوئه حتى أخجلته، وكيف خدعته وغبته؟ وذلك وأمثاله من المهلكات»^(١).

* * *

(١) فيض القدير (٣/١٢٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ لله، بفعل أو امره وترك نواهي، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ﴾ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار الياضعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب للذيذة، والحدود الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾ أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون»^(٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: في جنات وأنهار، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾^(٤).

وقد ذكرنا كثيراً من أمثلة إطلاق المفرد وإرادة الجمع كما هنا في القرآن العظيم، مع تنكير المفرد وتعريفه وإضافته، وأكثرنا أيضاً من الشواهد العربية على ذلك في سورة (الحج) في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾^(٥)، وفي غير ذلك

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٨٧).

(٣) البقرة: الآية (٢٥).

(٤) الحج: الآية (٥).

(٥) محمد: الآية (١٥).

من المواضع . والعلم عند الله تعالى»^(١) .

قال القاسمي : «قال الشهاب : في تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدري الأفهام كنهها ، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجلب عن البيان ، وتكلّف دونه الأذهان»^(٢) .

قال ابن القيم : «سمى جنته (مقعد صدق) لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها ، كما يقال : مودة صادقة : إذا كانت ثابتة تامة ، وحلاوة صادقة ، وحملة صادقة ، ومنه الكلام الصدق ؛ لحصول مقصوده منه ، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال ، ومنه الصدق في الحديث ، والصدق في العمل ، والصديق الذي يصدق قوله بالعمل ، والصدق بالفتح : الصلب من الرماح ، ويقال للرجل الشجاع : إنه ل ذو مَصْدَق ، أي : صادق الحملة ، وهذا مصداق هذا ، أي : ما يصدقه ، ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالّة ، ومنه : صدقني القتال وصدقني المودة ، ومنه قدم صدق ، ولسان صدق ، ومدخل صدق ، ومخرج صدق ، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه ، بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته ، وهو لا يتضمن أمراً ثابتاً قط . وفسر قوم (قدم صدق) بالجنة ، وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة ، وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله ، وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك ، والتحقيق أن الجميع حق ؛ فإنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة ، أي : بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله ، وادّخر لهم جزاءها يوم القيامة ، ولسان الصدق ، وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق ، وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع ، وأنه ثناء بحق ، لا بباطل ، ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامناً على الله ، وهو دخوله وخروجه بالله ولله ، وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبيد ؛ فإنه لا يزال داخلياً في أمر وخارجاً من أمر ، فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك ، كان قد أدخل مدخل صدق ، وأخرج مخرج صدق ، والله المستعان»^(٣) .

(١) أضواء البيان (٧/ ٧٣٠) .

(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٢٧٧) .

(٣) حادي الأرواح (ص : ٧٠) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في ثواب أهل الجنة عند الله ﷻ

* عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله تعالى على منابر من نور على يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»^(١).

★ غريب الحديث:

المقسطون: هم العادلون، وقد فسر في آخر الحديث، والإقساط والقسط بكسر القاف العدل يقال: أقسط إقساطا فهو مقسط إذا عدل.

على يمين الرحمن: وزاد في لفظ مسلم: «وكلنا يديه يمين»، وهذا هو الراجح إن شاء الله تأدبًا وتعظيمًا له ﷻ، إذ الشمال من صفات النقص والضعف.

ثم نقول: إن صفات الله توقيفية، وما لم يأت دليل صحيح صريح في وصف إحدى يدي الله ﷻ بالشمال أو اليسار، فإننا لا نتعدى قول النبي ﷺ: «كلنا يديه يمين»، والله أعلم^(٢).

ما ولوا: بفتح الواو وضم اللام المخففة، أي: كانت لهم عليه ولاية.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «أما المنابر فجمع منبر، سمي به لارتفاعه، قال القاضي: يحتمل أن يكونوا على منابر حقيقة على ظاهر الحديث، ويحتمل أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة، قلت: الظاهر الأول، ويكون متضمنًا للمنازل الرفيعة، فهم على منابر حقيقة، ومنازلهم رفيعة»^(٣).

قال الطيبي: «ويؤيده -أي: الجمع الذي ذكره النووي- قوله: «عن يمين الرحمن». قال التوربشتي: المراد منه كرامتهم على الله، وقرب محلهم، وعلو منزلتهم، وذلك لأن من شأن من عظم قدره في الناس، أن ييوا عن يمين الملك، ثم

(١) أخرجه: أحمد (٢/١٦٠)، ومسلم (٣/١٤٥٨/١٨٢٧)، والنسائي (٨/٦١٢/٥٣٩٤).

(٢) ولمزيد من الاطلاع انظر «صفات الله ﷻ» للسقاف (ص: ٢٨٣).

(٣) شرح مسلم (١٢/١٧٨).

إنه نزه ربه سبحانه عما سبق إلى فهم من لم يقدر الله حق قدره من مقابلة اليمين باليسار، وكشف عن حقيقة المراد بقوله: «وكلتا يديه يمين».

قال الخطابي: ليس فيما يضاف إلى الله تعالى من صفة اليدين شمال؛ لأن الشمال تدل على النقص والضعف، وقوله: «وكلتا يديه يمين» هي صفة جاء بها التوفيق، فنحن نطلقها على ما جاءت، ولا نكيفها، وننتهي حيث انتهى بنا الكتاب والأخبار الصحيحة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة^(١).

قال أبو يعلى الفراء: «اعلم أن هذا الخبر يتضمن اليدين وإثبات اليمين، وقد تقدم ذكر ذلك، وبيننا أنه ليس في إطلاق ذلك ما يحيل صفاته؛ لأن إطلاق اليمين كإطلاق اليد^(٢)».

وقد تقدم الكلام على هذا المعنى مستوفى فيما تقدم، وبالله التوفيق.

* * *

(١) الكاشف (٢٥٧١/٨).

(٢) إبطال التأويلات (١٧١/١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «ابتدئت بالتنويه بالقرآن؛ قال في الكشف: أراد الله أن يقدم في عداد آلائه أول شيء ما هو أسبق قدمًا من ضروب آلائه وأصناف نعمائه، وهي نعمة الدين، فقدم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها، وأقصى مراقبها، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، وآخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان. اهـ.

وتبع ذلك من التنويه بالنبي ﷺ بأن الله هو الذي علمه القرآن ردًا على مزاعم المشركين الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾^(١)، وردًا على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين، أو أنه سحر، أو كلام كاهن، أو شعر.

ثم التذكير بدلائل قدرة الله تعالى في ما أتقن صنعه مدمجًا في ذلك التذكير بما في ذلك كله من نعم على الناس.

وخلق الجن وإثبات جزائهم.

والموعظة بالفناء، وتخلص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء. وختمت بتعظيم الله والثناء عليه.

وتخلل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل، والأمر بتوفية أصحاب الحقوق حقوقهم، وحاجة الناس إلى رحمة الله فيما خلق لهم، ومن أهمها نعمة العلم ونعمة البيان وما أعد من الجزاء للمجرمين ومن الثواب والكرامة للمتقين ووصف نعيم المتقين.

(١) النحل: الآية (١٠٣).

ومن بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه (الرحمن) وهي السورة الوحيدة المفتحة باسم من أسماء الله لم يتقدمه غيره.

ومنه التعداد في مقام الامتنان والتعظيم بقوله: ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إذ تكرر فيها إحدى وثلاثين مرة، وذلك أسلوب عربي جليل^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة سورة (الرحمن)

* عن جابر رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودًا منكم؛ كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»^(٢).

★ غريب الحديث:

مردودًا: أي ردًا.

★ فوائد الحديث:

مما يبين فضيلة هذه السورة ويجليها، اختيار النبي ﷺ لها وقراءتها على الجن؛ لما فيها من الأمور التي تستدعي الإيمان والتصديق لما جاء به النبي ﷺ.

قال ابن ناصر السعدي: «وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مرّ بقوله: ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد. فهذا الذي ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه أن يُقرّ بها ويشكر، ويحمد الله عليها»^(٣).

قال ابن القيم: «وقد دلت سورة (الرحمن) على تكليفهم بالشرائع كما كُلف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل آية (الرحمن): ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فدل

(١) التحرير والتنوير (٢٧/٢٢٩).

(٢) أخرجه: الترمذي (٣٧٢-٣٧٣/٥)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير»، والحاكم (٤٧٣/٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وأبو الشيخ في «العظمة»، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٥٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩).

ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معاً، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءة تبليغ وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن رداً منهم؛ فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا، فلك الحمد^(١).

وقال أيضاً: «ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة (الرحمن)؛ فإنه سبحانه وتعالى ذكر خلق النوعين في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ❶ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ❷»، ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده وتخويفهم من وعيده وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ ❸ وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم، وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون، وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على آية: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»، وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به^(٤).

* عن عبد الله بن مسعود قال: أقراني رسول الله ﷺ سورة (الرحمن)، فخرجت إلى المسجد عشية فجلس إلي رهط، فقلت لرجل: اقرأ علي، فإذا هو يقرأ أحرقاً لا أقرؤها، فقلت: من أقرأك؟ فقال: أقراني رسول الله ﷺ، فانطلقنا حتى وقفنا على النبي ﷺ فقلت: اختلفنا في قراءتنا، فإذا وجه رسول الله ﷺ فيه تغير، ووجد في نفسه حين ذكرت الاختلاف، فقال: إنما هلك من قبلكم بالاختلاف.

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤١٧).

(٢) الرحمن: الآيتان (١٤ و ١٥).

(٣) الرحمن: الآية (٣١).

(٤) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٢).

فأمر عليًا فقال: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما علم؛ وإنما أهلك من قبلكم الاختلاف. قال: فانطلقنا وكل رجل منا يقرأ حرفًا لا يقرأ صاحبه^(١).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤١٢/١) بنحوه، وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/٢٢/٧٤٧) واللفظ له، وأخرجه الحاكم (٢/٢٢٣-٢٢٤) وسكت عنه وصححه الذهبي. وأخرجه مختصرًا: أحمد (١/٣٩٣ و٤١١-٤١٢)، والبخاري (٥/٨٩/٢٤١٠)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٣/٨٠٩٤).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
 الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآيات

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الرحمن أيها الناس برحمته إياكم علمكم القرآن، فأنعم بذلك عليكم، إذ بصركم به ما فيه رضا ربكم، وعرفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم، وعملكم بما أمركم به، وبتجنبكم ما يسخطه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه..»

قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾: يقول -تعالى ذكره-: علم الإنسان البيان. ثم اختلف أهل التأويل في المعنى بالبيان في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني به بيان الحلال والحرام.. وقال آخرون: عني به الكلام، أي: أن الله ﷻ علم الإنسان البيان.. والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: أن الله علم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام، والمعاش والمنطق، وغير ذلك مما به الحاجة إليه؛ لأن الله -جل ثناؤه- لم يخصص بخبره ذلك، أنه علمه من البيان بعضاً دون بعض، بل علمه فقال: علمه البيان، فهو كما علم -جل ثناؤه-^(١).

قال أبو السعود: «الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ لأنه أعظم النعم شأنًا، وأرفعها مكانًا. كيف لا وهو مدار للسعادة الدنية والدنيوية، عيار على سائر الكتب السماوية، ما من مرصد يدنو إليه أحداق الأمم إلا وهو منشؤه ومناطه، ولا مقصد يمتد إليه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه»^(٢).

قال ابن القيم: «وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها، فقولُه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني...»

(١) جامع البيان (٢٧/١١٤-١١٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/١٧٦).

وقوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني؛ وإنما تعلّم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه صار إنساناً بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه. ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة، كل منها يسمى بياناً:

أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات.

الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات، ويترجم عنها فيه غيره.

الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين للناظر معانيها كما يبين للسامع معاني الألفاظ، فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب.

وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١)، وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢)، ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿صُمُّ بِكُمْ عُمًى﴾^(٣)، وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾^(٤).

تنبيه: تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده، ومنع عنه علم ما لا حاجة له به، فجهله به لا يضر، وعلمه لا ينتفع به انتفاعاً طائلاً.

ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتمّ تيسير، وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتمّ.

فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه، والإقرار به، ويسر عليه طرق هذه المعرفة، فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة، وليس في طرق العلوم التي تُنال بها أكثر من طرقها، ولا أدل ولا أبين ولا أوضح، فكل ما

(١) الإسراء: الآية (٣٦).

(٢) النحل: الآية (٧٨).

(٣) البقرة: الآية (١٨).

(٤) البقرة: الآية (٧).

تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك، وكل ما يخطر ببالك وكل ما نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب -تبارك وتعالى-.

فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية، ليس في العلوم أجلّ منها، وكل ما استدلّ به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)؟ فخاطبواهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك ما في وجود الله سبحانه.

ونصب من الأدلة الدالة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله على اختلاف أنواعها، ولا يطبق حصرها إلا الله، ثم ركز ذلك في الفطرة، ووضعه في العقل جملة، ثم بعث الرسل مذكّرين به^(٢).

وقال أيضًا: «وقد جمع سبحانه بين الأمرين -أعني القرآن ونطق اللسان- وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾، فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان، وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة، وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل، فأياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان. ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب. فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه، وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان، وأطرافه، وبين الشنايا، وفي الشفتين، والخيشوم، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف.

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض، فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها.

(١) إبراهيم: الآية (١٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤١-٢٤٣).

ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني أمراً، ونهيًا، وخبرًا، واستخبارًا، ونفيًا، وإثباتًا، وإقرارًا، وإنكارًا، وتصديقًا، وتكذيبًا، وإيجابًا، واستحبابًا، وسؤالًا، وجوابًا، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، ووجيزه، ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذلك صنعه -تبارك وتعالى- في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين، فهذا شأن الحرف المخلوق^(١).

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تتضمن ردَّ الله على الكفار في قولهم: إنه تعلم هذا القرآن من بشر، كما تقدم في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْرُكَ﴾^(٣) أي: يرويه محمد عن غيره. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾^(٤) وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا^(٥)»^(٤).

فقوله تعالى هنا: ﴿الرَّحْمَنُ﴾^(١) عَلمُ الْقُرْآنِ^(٢) أي: ليس الأمر كما ذكرتم من أنه تعلم القرآن من بشر، بل الرحمن -جل وعلا- هو الذي علمه إياه، والآيات الدالة على هذا كثيرة جدًا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿الرَّ كَتَبَ أَهْكَمْتُ ءَايَتُهُمْ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٥) كَتَبَ فَصَّلْتُ ءَايَتُهُمْ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^(٦) بَشِيرًا وَنَذِيرًا^(٧)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِ هُدًى وَبَحَّةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٨)، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾^(٩)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَلَحْسَنَ نَفْسِيرًا﴾^(١٠)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٢٢-١٢٣).

(٢) المدثر: الآية (٢٤).

(٣) الفرقان: الآية (٦).

(٤) الفرقان: الآية (١-٤).

(٥) طه: الآية (١١٣).

(٦) النحل: الآية (١٠٣).

(٧) الفرقان: الآية (١٢٣).

(٨) الفرقان: الآية (١٠٣).

(٩) الفرقان: الآية (١٠٣).

(١٠) الفرقان: الآية (١٠٣).

وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْمِعْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(٤)، ومن أعظم ذلك هذا القرآن العظيم، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾^(٥).

وتعليمه -جل وعلا- هذا القرآن العظيم قد بين في مواضع أخر أنه من أعظم نعمه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(٦).

وقد علم الله تعالى الناس أن يحمده على هذه النعمة العظمى التي هي إنزال القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّمُ عِوَجًا﴾^(٧)، وبين أن إنزاله رحمة منه لخلقه -جل وعلا- في آيات من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾^(٨)، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾^(٩) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ^(١٠).

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾^(١١) حذف فيه أحد المفعولين، والتحقيق أن المحذوف هو الأول لا الثاني، كما ظنه الفخر الرازي، وقد رده عليه أبو حيان، والصواب هو ما ذكره، من أن المحذوف الأول، وتقديره: علم النبي القرآن، وقيل: جبريل، وقيل: الإنسان.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾:

اعلم أولاً أن خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات الله الباهرة، كما أشار تعالى لذلك بقوله في أول (النحل): ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

(١) القيامة: الآيات (١٧-١٩).

(٢) الشورى: الآية (٥٢).

(٣) يوسف: الآية (٣).

(٤) النساء: الآية (١١٣).

(٥) البقرة: الآية (١٨٥).

(٦) فاطر: الآية (٣٢).

(٧) الكهف: الآية (١).

(٨) القصص: الآية (٨٦).

(٩) الدخان: الآيتان (٦٥ و٦٦).

مُيِّنٌ ﴿١﴾، وقوله في آخر (يس): ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢﴾.

فالإنسان بالأمس نطفة، واليوم هو في غاية البيان وشدة الخصام، يجادل في ربه، وينكر قدرته على البعث، فالمنافاة العظيمة التي بين النطفة وبين الإبانة في الخصام - مع أن الله خلقه من نطفة وجعله خصيمًا مبينًا - آية من آياته - جل وعلا - دالة على أنه المعبود وحده، وأن البعث من القبور حق.

وقوله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَنَ﴾ لم يبين هنا أطوار خلقه للإنسان، ولكنه بينها في آيات أخر كقوله تعالى في (الفلاح): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي وَرَاقٍ مَّكِينٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٣﴾﴾.

والآيات المبينة أطوار خلق الإنسان كثيرة معلومة ﴿٤﴾.

* * *

(١) النحل : الآية (٤).

(٢) يس : الآية (٧٧).

(٣) المؤمنون : الآيات (١٢-١٤).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٣٣-٧٣٥).

قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾^(١)

★ غريب الآية:

بحسبان: أي: بحساب وتقدير لا يعلمه إلا الله. تقول: حَسَبْتُهُ أَحْسَبُهُ، بالضم، حَسَبًا وَحِسَابًا وَحُسْبَانًا وَحِسَابَةً: إذا عَدَدْتُهُ. قال الأخفش: الحُسْبَانُ: جماعة الحِسَابِ، مثل شهابٍ وشهبانٍ.

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال أبو السعود: «أي: يجريان بحساب مقدر في بروجهما ومنازلهما، بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول والأوقات، وتعلم السنين والحساب»^(٢).

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٣)»^(٤).

قال ابن كثير: «أي: يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٥)»، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٦)»^(٧).

قال ابن القيم: «ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون

(١) الرحمن: الآية (٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (١٧٦/٨).

(٣) يونس: الآية (٥).

(٤) أضواء البيان (٧٣٦/٧).

(٥) يس: الآية (٤٠).

(٦) الأنعام: الآية (٩٦).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٤٦٤/٧).

في معاشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم؟! وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور؟! ثم تأمل الحكمة في غروبها؛ فإنه لولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات، وجموم الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء.

ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج يُرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤوا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا - مع تضادهما - متعاونين متظاهرين، بهما تمام مصالح العالم.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى، ونبه عباده عليه بقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) . . (١)

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول، وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلًا واحدًا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه؛ فلو كان صيفًا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء، ولو كان شتاءً لفاتت منافع الصيف، وكذلك لو كان ربيعًا كله، أو خريفًا كله.

ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها، وتبرد الظواهر ويستكثف الهواء فيه، فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها، وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حلله حرارة الصيف من الأبدان.

وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيظهر النبات، ويتنور الشجر بالزهر، ويتحرك الحيوان للتناسل.

وفي الصيف يحدّ الهواء ويسخن جدًّا، فتنضج الثمار وتنحلّ فضلات الأبدان والأخلاط التي انعقدت في الشتاء، وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف، ولهذا تبرد العيون والآبار، ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة؛ لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون، فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد، وغارت البرودة فيه.

فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد، فانكسر ذلك السّموم، وجعله الله بحكمته برزخًا بين سموم الصيف وبرد الشتاء؛ لئلاّ ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحرّ الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره، فإذا انتقل إليه بتدرّج وترتيب لم يصعب عليه، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه، حتى تأتي جمهرة البرد بعد استعداد وقبول.

حكمة بالغة وآية باهرة.

وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدرّج وترتيب.

فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين . .

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم، كيف قدّره العزيز العليم سبحانه، فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، فكان يكون الليل دائمًا سرمدًا على من لم تطلع عليهم، والنهار دائمًا سرمدًا على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء.

فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدّر طلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فيختلف عندهم الليل والنهار، فتتظّم مصالحهم^(١).

وقال أيضًا: «ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة،

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٠-٥٥).

وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة، وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يُعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإيجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك، فلولاً حلول الشمس والقمر في تلك المنازل، وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يُعلم شيء من ذلك.

وقد نبّه الله تعالى على هذا في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَحَوْنًا آيَةً اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾^(٢)،^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الشمس والقمر

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: أتدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٤)»^(٥).

* فوائد الحديث:

قال العيني: «قوله: «أتدري؟» الغرض من هذا الاستفهام إعلامه بذلك. قوله: «حتى تسجد تحت العرش». فإن قلت: ما المراد بالسجود إذ لا جهة لها، والانقياد حاصل دائماً؟ قلت: الغرض تشبيهها بالساجد عند الغروب. فإن قلت: يرى أنها تغيب في الأرض، وقد أخبر الله تعالى أنها تغرب في عين حمئة، فأين هي من العرش؟

(١) الإسراء: الآية (١٢).

(٢) يس: الآية (٣٨).

(٣) أخرجه: أحمد (١٥٢/٥)، والبخاري (٣١٩٩/٦) واللفظ له، ومسلم (٩٥١/٨٣١)، والترمذي

(٤/٤١٦/٢١٨٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤٣٩/٦/١١٤٣٠).

(١) يونس: الآية (٥).

(٣) مفتاح دار السعادة (٥٤/٢).

قلت: الأرضون السبع في ضرب المثال كقطب الرchy، والعرش لعظم ذاته كالrchy، فأينما سجدت الشمس سجدت تحت العرش، وذلك مستقرها. فإن قلت: أصحاب الهيئة قالوا: الشمس مرصعة في الفلك، فإنه يقتضي أن الذي يسير هو الفلك، وظاهر الحديث أنها هي التي تسير وتجري؟

قلت: أما أولاً، فلا اعتبار لقول أهل الهيئة عند مصادمة كلام الرسول ﷺ، وكلام الرسول ﷺ هو الحق لا مرية فيه، وكلامهم حدس وتخمين، ولا مانع في قدرة الله تعالى أن تخرج الشمس من مجراها وتذهب إلى تحت العرش فتسجد ثم ترجع. فإن قلت: قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١) أي: يدورون.

قلت: دوران الشمس في فلكها لا يستلزم منع سجودها في أي موضع أراده الله تعالى، وقال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد بالسجود من هو موكل بها من الملائكة.

قلت: هذا الاحتمال غير ناشئ عن دليل فلا يعتبر به، وهو أيضاً مخالف لظاهر الحديث، وعدول عن حقيقته، وقيل: المراد من قوله: «تحت العرش» أي: تحت القهر والسلطان.

قلت: لماذا هذا الهروب من ظاهر الكلام وحقيقته؟ على أننا نقول: السموات والأرضون وغيرهما من جميع العالم تحت العرش، فإذا سجدت الشمس في أي موضع قدره الله تعالى يصح أن يقال: سجدت تحت العرش، وقال ابن العربي: وقد أنكروا قوم سجود الشمس وهو صحيح ممكن.

قلت: هؤلاء قوم من الملاحدة؛ لأنهم أنكروا ما أخبر به النبي ﷺ وثبت عنه بوجه صحيح، ولا مانع من قدرة الله تعالى أن يمكّن كل شيء من الحيوان والجمادات أن يسجد له.

قوله: «فتستأذن» يدل على أنها تعقل^(٢).

قال الكرمانى: «فإن قلت: فيم تستأذن؟ قلت: الظاهر أنه في الطلوع من المشرق، والله أعلم بحقيقة الحال»^(٣).

(٢) عمدة القاري (١٠/٥٥٦-٥٥٧).

(١) يس: الآية (٤٠).

(٣) شرح صحيح البخاري (١٢/١٥٩).

قال العيني بعد حكايته قول الكرمانى: «لا حاجة إلى القيد بقوله: الظاهر؛ لأنه لا شك أن استئذانها هذا لأجل الطلوع من المشرق على عاداتها فيؤذن لها، ثم إذا قرب يوم القيامة تستأذن في ذلك فلا يؤذن لها كما في الحديث المذكور»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة»^(٢).

* غريب الحديث:

«مكوران»: قال الخطابي: «ومعنى التكوير في الشيء البسيط: لَفَّ بعضه على بعض، كالثوب ونحوه، وهكذا قال أهل التفسير في قوله ﷻ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾^(٣) قالوا: جُمع ضوؤها، ولَفَّت كما تلف العمامة. يقال: كُرْتُ العمامة على رأسي أَكُوْرها كَوْرًا، وكُوِّرَتْها تَكْوِيرًا: إذا لَفَفْتُها»^(٤).

قال التوربشتي: «يَحْتَمَلُ أَنَّهُ مِنَ التَّكْوِيرِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى اللَّفِّ وَالْجَمْعِ، أَي: يَلْفُ صَوْرَهُمَا لَفًّا يُذْهَبُ انْبِسَاطُهَا فِي الْآفَاقِ.

وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرَادَ بِهِ رَفْعُهَا؛ لِأَنَّ الثَّوبَ إِذَا طَوِيَ رَفَعَ.

ويحتمل أن يكون من قوله: طعنه فكوره: إذا ألقاه، أي لقيان فلَكهما، وهذا التفسير أشبه بنسق الحديث لما في بعض طرقه: «مكوران في النار»^(٥)»^(٦).

قال ابن الأثير: «ومنه حديث أبي هريرة: «يُجَاءُ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ثَوْرَيْنِ يُكْوَرَانِ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٧) أَي يُلْقَانِ وَيُجْمَعَانِ وَيُلْقَيَانِ فِيهَا، وَالرَّوَايَةُ: «ثَوْرَيْنِ» بِالثَاءِ، كَأَنَّهُمَا يُمَسَّخَانِ. وَقَدْ رُوِيَ بِالنُّونِ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ»^(٨).

(١) العملة (١٠/٥٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦/٣٦٥/٣٢٠٠).

(٣) التكوير: الآية (١).

(٤) أعلام الحديث (٢/١٤٧٥).

(٥) يشير إلى قوله ﷻ: «الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة»، أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١١/١٧٠/١٨٣)، وتمام في الفوائد (٢/٢٠٤/١٥٣٤). قال الشيخ الألباني: «وهذا إسناده صحيح على

شرط البخاري وقد أخرجه في صحيحه مختصراً».

(٦) سبق تخريجه.

(٧) الكاشف (١١/٣٤٩٠).

(٨) النهاية (٤/٢٠٨).

* فوائد الحديث:

قال العيني: «مطابقته للترجمة ظاهرة؛ لأن تكور الشمس والقمر من صفاتهما»^(١).

قال الخطابي: «وقد روي في هذا الحديث زيادة لم يذكرها أبو عبد الله، أخبرنا ابن الأعرابي، قال: حدثنا عباس الدوري قال: حدثنا يونس بن محمد قال: حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن عبد الله الداناج، قال: شهدت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف في جامع البصرة، وجاءه الحسن، فجلس إليه، قال: فحدث. قال: حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة»^(٢)، قال: فقال الحسن كلامًا، فقال: إنني أحدث عن رسول الله ﷺ، قال: فسكت الحسن.

وقد سألوا فقالوا: ما ذنب الشمس والقمر؟

والجواب: أنه ليس كونهما في النار عقوبة لهما، ولكنه تعبير وتبكيك لعبدهما الذين عبدوهما في الدنيا؛ ليعلموا أن عبادتهم إياها كانت باطلاً، ورأيهم في ذلك رأياً فائلاً»^(٣).

قال الإسماعيلي: «لا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما؛ فإن لله في النار ملائكة وحجارة وغيرها لتكون لأهل النار عذاباً، وآلة من آلات العذاب، وما شاء الله من ذلك، فلا تكون هي معذبة. وقال أبو موسى المديني في 'غريب الحديث': لما وصفا بأنهما يسبحان في قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٤)، وأن كل من عبد من دون الله إلا من سبقت له الحسنى يكون في النار، وكانا في النار يعذب بهما أهلهما، بحيث لا يبرحان منهما»^(٥)، فصارا كأنهما ثوران عقيران»^(٦).

قال التوربشتي: «فيكون تكويرهما فيها ليعذب بهما أهل النار لا سيما عبّاد الأنوار، ولا يعذبان في النار فإنهما بمعزل عن التكليف، بل سيبلهما في النار سبيل

(٢) سبق تخريجه.

(٤) يس: الآية (٤٠).

(١) العمدة (١٠/٥٥٧).

(٣) أعلام الحديث (٢/١٤٧٥-١٤٧٧).

(٥) هكذا في الأصل، وفي النهاية: لا يبرحانها.

(٦) فتح الباري (٦/٣٦٩).

نفسها ، وسبيل الملائكة الوكيلين بها»^(١) .

قال الألباني : «وليس المراد من الحديث ما تبادر إلى ذهن الحسن البصري : أن الشمس والقمر في النار يعذبان فيها عقوبة لهما ؛ كلا ؛ فإن الله ﷻ لا يعذب من أطاعه من خلقه ، ومن ذلك الشمس والقمر ، كما يشير إليه قول الله -تبارك وتعالى- : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾^(٢) ، فأخبر تعالى أن عذابه إنما يحق على غير من كان يسجد له تعالى في الدنيا»^(٣) .

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان يخبر عن النبي ﷺ قال : «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آية من آيات الله ، فإذا رأيتموه فصلوا»^(٤) .

* عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله»^(٥) .

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ يوم خسفت الشمس قام فكبر وقرأ قراءة طويلة ، ثم ركع ركوعاً طويلاً ، ثم رفع رأسه فقال : سمع الله لمن حمده ، وقام كما هو فقرأ قراءة طويلة وهي أدنى من القراءة الأولى ، ثم ركع طويلاً وهي أدنى من الركعة الأولى ، ثم سجد سجوداً طويلاً ، ثم فعل في الركعة الآخرة مثل ذلك ، ثم سلم وقد تجلت الشمس ، فخطب الناس فقال في كسوف الشمس والقمر : «إنهما آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة»^(٦) .

(٢) الحج : الآية (١٨) .

(١) الكاشف (١١/ ٣٤٩٠) .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٤٤-٢٤٥) .

(٤) أخرجه : أحمد (٢/ ١٠٩) ، والبخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣٢٠١) واللفظ له ، ومسلم (٢/ ٦٣٠/ ٩١٤) ، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٤٢-١٤٣/ ١٤٦٠) .

(٥) أخرجه : أحمد (١/ ٢٩٨) ، والبخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣٢٠٢) واللفظ له ، ومسلم (٢/ ٦٢٦/ ٧٠٩) ، وأبو داود (١/ ٧٠٢/ ١١٨٩) ، والنسائي (٣/ ١٦٢-١٦٤/ ١٤٩٢) .

(٦) أخرجه : أحمد (٦/ ٧٦) ، والبخاري (٦/ ٣٦٥-٣٦٦/ ٣٢٠٣) واللفظ له ، ومسلم (٢/ ٨١٦/ ١٠٩) ، وأبو داود (١/ ٦٩٨-٦٩٧/ ١١٨٠) ، والنسائي (٣/ ١٤٨-١٥٠/ ١٤٧١) ، وابن ماجه (١/ ٤٠١/ ١٢٦٣) ، والترمذي (٢/ ٤٥٢/ ٦٦٣) مختصراً .

* عن أبي مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا»^(١).

★ غريب الأحاديث:

لا ينكسفان: قال ابن الأثير: «يقال: خَسَفَ القمرُ، بوزن ضرب: إذا كان الفعل له، وخُسِفَ القمرُ، على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقد وَرَدَ الخسوف في الحديث كثيراً للشمس، والمعروف لها في اللغة الكُسُوف، لا الخسوف، فأما إطلاقه في مثل هذا الحديث فتغليباً للقمر لتذكيره على تأنيث الشمس، فجمع بينهما فيما يُخْصُ القمر، وللمعاوضة أيضاً؛ فإنه قد جاء في رواية أخرى: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان...»، وأما إطلاق الخسوف على الشمس منفردة فلا شراك الخسوف والكسوف في معنى ذهاب نورهما وإظلامهما»^(٢).

ويقال بهما في كلّ منهما، وبه جاءت الأحاديث.

★ فوائد الأحاديث:

قال الخطابي: «معنى هذا الكلام وتأويله؛ أنهم كانوا في الجاهلية يزعمون أن كسوف الشمس والقمر يوجب حدوث تغييرات في العالم من موت، وضرر، ونقص، ونحو ذلك من الأمور على ما يذهب إليه أهل التنجيم من إعطائها الأحكام، وزعمهم أن هذه الأجسام السفلية مزبوجة بالنجوم، وأن لها فعلاً وتأثيراً فيها، فأعلمهم النبي ﷺ أن الذي كانوا يتوهمونه من ذلك باطل، وأن خسوف الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى يريهما خلقه؛ ليعلموا أنهما خلقان مسخران لله ﷻ، ليس لهما سلطان في غيرهما، ولا قدرة على الدفع عن أنفسهما، وأنهما لا يستحقان أن يعبدوا فيتخذوا إلهين، وهو معنى قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْتَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٣)، وأمر عند كسوفهما أن يفزع إلى

(١) أخرجه: أحمد (١٢٢/٤)، والبخاري (٣٢٦٦/٦) واللفظ له، ومسلم (٢/٦٢٨/٩١١)، والنسائي

(٣/١٤٣/١٤٦١)، وابن ماجه (١/٤٠٠/١٢٦١).

(٢) النهاية (٢/٣١).

(٣) فصلت: الآية (٣٧).

الصلاة والسجود لله الذي يستحق العبادة والسجود دونهما؛ إبطالا لقول الجاهل الذين يعبدونهما، وإفسادا لمذاهبهم في عبادتهما، والله أعلم.

وقد يحتمل أن يكون المعنى في الأمر بالصلاة عند الكسوف الفزع إلى الله ﷻ، والتضرع له في دفع الضرر والآفات التي تتوهمها الأنفس، وتحدث بها الخواطر تحقيقا لإضافة الحوادث كلها إلى الله تعالى، ونفيا لها عن الشمس والقمر وإبطالا لأحكامها، والله أعلم.

وقد قيل فيه وجه ثالث: وهو أنهما آيتان من آيات الله الدالة على قرب زمان الساعة، وأمارتان من أماراتها وأشراتها المتقدمة لها؛ كما قد قال مخبرا عن خسوفهما في القيامة: ﴿إِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۗ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۗ﴾ (١)، وقد يكون ذلك أيضا أنه يخوف بهما الناس ليفزعوا إلى التوبة والاستغفار من الزلل والخطايا، ودليل ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٢) ويؤكد ذلك حديث أبي بكرة (٣) (٤).

قال القاضي عياض: «فلما كان الكثير من الكفرة يعتقد فيهما من التعظيم؛ لأنهما أعظم الأنوار الظاهرة، حتى ارتقى الحال ببعضهم إلى عبادتهما، وقال جماعة من الضلال بتأثيرهما في العالم، فأعلم النبي ﷺ أنهما آيتان على حدوثهما وتفصيها عن هذه المرتبة؛ لطروء التغير والنقص عليهما، وإزالة نورهما الذي به عظمًا في النفوس عنهما، وأيضا، فلما جاء أن القيامة تكون وهما مكسوفان، ولهذا -والله أعلم- جاء في الحديث الآخر: «فقام فزعًا يخشى أن تكون الساعة» (٥) فقل: في هذا آيتان على قيام الساعة، وأيضا فإن الآيات غيرها من طلوعهما وإشراقهما، وجري البحار، وتفجر الأنهار، ونمو الثمار، وغير ذلك مألوف، وليس فيها تغير حال، وهذه غير مألوفة في سائر الأيام والليالي، وإلى هذا

(١) القيامة (٧-٩).

(٢) الإسراء: الآية (٥٩).

(٣) أخرجه: البخاري (٢/٦٨١/١٠٤٨)، والنسائي (٣/١٦٨/١٥٠١).

(٤) أعلام الحديث (١/٦١٠-٦١٢).

(٥) أخرجه: البخاري (٢/٦٩٤/١٠٥٩)، ومسلم (٢/٦٢٨-٦٢٩/٩١٢)، والنسائي (٣/١٦٩-١٧٠/١٥٠٢).

من طريق بريد عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري ؓ.

أشار بقوله في الرواية الأخرى: «يخوف الله بهما عباده»^(١). وفيه أنه ليس في قولهم: كسفت لموت إبراهيم، ما يوجب تكفير قائله؛ لأنه لم يجعل الفعل في ذلك لغير الله، وإنما قال ذلك القائل إنهما كالدليل والعلامة، فكذب ذلك النبي ﷺ، وأن كسوفهما ليس إلا لما ذكره»^(٢).

قال القرطبي: «ثم أخبر بالمعنى الذي لأجله يكسفان، وهو: أن الله تعالى يخوف بهما عباده. فإن قيل: فأى تخويف في ذلك؟ والكسوف أمر عادي بحسب تقابل هذه النيرات وحجب بعضها لبعض، وذلك يجري مجرى حجب الجسم الكثيف نور الشمس عما يقابله من الأرض، وذلك لا يحصل به تخويف؟ قلنا: لا نسلم أن سبب الكسوف ما ادّعوه، ومن أين عرفوا ذلك؟ بالعقل أم بالنقل، وكل واحد منهما إما بواسطة نظر، أو بغير واسطة، ودعوى شيء من ذلك ممنوعة، وغايتهم أن يقولوا: ذلك مبني على أمور هندسية ورصدية تفضي بسالكها إلى القطع، ونحن نمنع أيضاً ما ذكروه إلى القطع، وهو أول المسألة، ولئن سلمنا ذلك جدلاً؛ لكننا نقول: يحصل بهما تخويف العقلاء من وجوه متعددة: أوضحها أن ذلك مذكر بالكسوفات التي تكون بين يدي الساعة، ويمكن أن يكون ذلك الكسوف منها، ولذلك قام النبي ﷺ فرعاً يخشى أن تقوم الساعة، وكيف لا؟ وقد قال الله ﷻ: ﴿كَانَ بَرَقَ أَبْصَرٌ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۖ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ﴾^(٣)، قال أهل التفسير: جمع بينهما في إذهاب نورهما، وقيل غير ذلك. وأيضاً؛ فإن كل ما في هذا العالم علويه وسفليه دليل على نفوذ قدرة الله، وتمام قهره واستغنائه، وعدم مبالاته، وذلك كله يوجب عند العلماء بالله خوفه وخشيته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٤)، وخصّ هنا خسوفهما بالتخويف؛ لأنهما أمران علويان نادران طارئان عظيمان، والنادر العظيم مخوف موجه بخلاف ما يكثر وقوعه؛ فإنه لا يحصل منه ذلك غالباً، وأيضاً فلما وقع فيهما من الغلط الكثير للأمم التي كانت تعبدهما، ولما وقع للجهال من اعتقاد تأثيرهما»^(٥).

(٢) الإكمال (٣/ ٣٣٣).

(١) انظر حديث أبي بكر المتقدم.

(٣) القيامة: الآيات (٧-٩).

(٤) فاطر: الآية (٢٨).

(٥) المفهم (٢/ ٥٥٢-٥٥٣).

قال العيني: «فيه -أي في الحديث- رد على أهل الهيئة حيث يزعمون أن الكسوف أمرٌ عادي لا يتأخر ولا يتقدم، فلو كان كذلك لم يكن فيه تخويف، فيصير بمنزلة الجزر والمد في البحر، وقد جاء في حديث أبي موسى، على ما يأتي: «فقام فزعًا يخشى أن تكون الساعة» فلو كان الكسوف بالحساب لم يقع الفزع، ولم يكن للأمر بالعتق والصدقة والصلاة والذكر معنى»^(١).

من الأسئلة التي قد تتبادر: «ما الحكمة في الكسوف؟ والجواب ما قاله أبو الفرج: فيه سبع فوائد:

الأول: ظهور التصرف في الشمس والقمر.

الثاني: تبين قبح شأن من يعبدهما.

الثالث: إزعاج القلوب الساكنة بالغفلة عن مسكن الذهول.

الرابع: ليرى الناس نموذج ما سيجري في القيامة من قوله: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾^(٢).

الخامس: أنهما يوجدان على حال التمام فيركسان، ثم يلطف بهما فيعادان إلى ما كانا عليه، فيشار بذلك إلى خوف المكر ورجاء العفو.

السادس: أن يفعل بهما صورة عقاب لمن لا ذنب له.

السابع: أن الصلوات المفروضات عند كثير من الخلق عادة لا انزعاج لهم فيها ولا وجود هيبة، فأتى بهذه الآية، وسنت لهما الصلاة ليفعلوا صلاة على انزعاج وهيبة»^(٣).

* * *

(١) عمدة القاري (٥/٣١٧).

(٢) عمدة القاري (٥/٣٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾

★ غريب الآية:

النجم: نَجَم الشيء، يَنْجُمُ، بالضم، نُجُومًا: ظهر وطلع. يقال: نَجَمَ السِّنُّ، والقرنُ، والنَّبْتُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى (النجم) في هذا الموضع مع إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فقال بعضهم: عني بالنجم في هذا الموضع من النبات: ما نجم من الأرض، مما ينبسط عليها، ولم يكن على ساق مثل البقل ونحوه..

وقال آخرون: عني بالنجم في هذا الموضع: نجم السماء..

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عني بالنجم: ما نجم من الأرض من نبت لعطف الشجر عليه، فكان بأن يكون معناه لذلك: ما قام على ساق وما لا يقوم على ساق يسجدان لله، بمعنى أنه تسجد له الأشياء كلها المختلفة الهيئات من خلقه أشبه وأولى بمعنى الكلام من غيره. وأما قوله: ﴿وَالشَّجَرُ﴾ فإن الشجر ما قد وصفت صفته قبل..

وأما قوله: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ فإنه عني به سجود ظلهما، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا ۖ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَسْجُدَنَّهُمْ وَأَلْأَصَالِ﴾ (١٥) ﴿١٦﴾ (١٧).

قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ فالنجم ما ليس له ساق من النبات، والشجر ما له ساق، وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلشَّيْءِ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٣).

(٢) جامع البيان (٢٧/١١٦-١١٧).

(١) الرعد: الآية (١٥).

(٣) الإسراء: الآية (٤٤).

ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابہ فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط ! فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر .

وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحًا وسجودًا وصلاة وتأويًا وهبوطًا من خشيته كما ذكر تعالى في كتابه؟! فتارة يخبر عنها بالتسبيح ، وتارة بالسجود ، وتارة بالصلاة ، كقوله تعالى : ﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمَ صَلَاتِهِمْ وَسَبِّحُهُمْ﴾^(١) .

أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية : قد علم الله دلالته عليه ، وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحًا ، وفرق بينهما وعطف أحدهما على الآخر؟! وتارة يخبر عنها بالتأوي كقوله : ﴿يَجِئَالُ أَوْيَ مَعَهُمْ﴾^(٢) .

وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت - كالعشي والإشراق - أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين؟ وبالجمله ؛ فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلًا على بطلانه ، والحمد لله^(٣) .

* * *

(١) النور : الآية (٤١) .

(٢) سبأ : الآية (١٠) .

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٥-١٠٦) .

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَظْفَرُوا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال أبو السعود: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي: خلقها مرفوعة محلاً ورتبة حيث جعلها منشأ أحكامه وقضاياه، ومنتزل أوامره، ومحل ملائكته. وفيه من التنبيه على كبرياء شأنه وعظم ملكه وسلطانه ما لا يخفى^(١).

قال ابن ناصر السعدي: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: العدل بين العباد في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَظْفَرُوا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ أي: أنزل الله الميزان؛ لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم، لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السموات والأرض.

﴿وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان^(٢).

قال الرازي: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ إشارة إلى العدل. وفيه لطيفة، وهي أنه تعالى بدأ أولاً بالعلم، ثم ذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن، ثم ذكر العدل وذكر أخص الأمور له، وهو الميزان، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾^(٣) ليعمل^(٤) الناس بالكتاب ويفعلوا بالميزان ما يأمرهم به الكتاب،

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩).

(٣) الحديد: الآية (٢٥).

(٤) هكذا في الأصل، ولعلها: «ليعلم».

فقوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ و﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ مثل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾، فإن قيل: العلم لا شك في كونه نعمة عظيمة، وأما الميزان فما الذي فيه من النعم العظيمة التي بسببها يعد في الآلاء؟ نقول: النفوس تأبى الغبن، ولا يرضى أحد بأن يغلبه الآخر ولو في الشيء اليسير، ويرى أن ذلك استهانة به فلا يتركه لخصمه لغلبة، فلا أحد يذهب إلى أن خصمه يغلبه، فلولا التبيين ثم التساوي لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء كما وقع عند الجهل وزوال العقل والسكر، فكما أن العقل والعلم صارا سبباً لبقاء عمارة العالم، فكذلك العدل في الحكمة سبب، وأخص الأسباب الميزان، فهو نعمة كاملة، ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمته لكثرتة وسهولة الوصول إليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلها إلا عند فقدهما^(١).

قال أبو السعود: «وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتأكيذاً للأمر باستعماله والحث عليه»^(٢).

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٩٠-٩١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۚ﴾ (١٠) ﴿فِيهَا فَكَّهَةٌ ۖ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۚ﴾ (١١) ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۚ﴾ (١٢)

★ غريب الآية:

الأنام: الخلق، أو الجن والإنس، أو جميع ما على وجه الأرض.
 الأكماء: جمع كَم، بالكسر: وعاء الطَّلْع، وغطاء النَّوْرِ، كالكمامة، بالكسر
 فيهما، جمعه: أِكَمَّةٌ وأَكْمَامٌ وكمَامٌ. وكُمَّتِ النَّخْلَةُ، فهي مَكْموم.
 العصف: العصف: بَقْلُ الزَّرْعِ، وقد أَغْصَفَ الزَّرْعُ. ﴿وَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
 مَّأْكُولٍ﴾ (٥)، أي: كزَرْع أُكِلَ حَبُّهُ وَبَقِيَ تَبْنُهُ، أو كوزَقٍ أُخِذَ مَا كَانَ فِيهِ وَبَقِيَ
 هُوَ لَا حَبَّ فِيهِ، أو كوزَقٍ أَكَلْتُهُ الْبَهَائِمُ. وعَصْفُهُ: جَزْءُهُ قَبْلَ أَنْ يُذْرَكَ. والعصافة،
 ككناسة: مَا سَقَطَ مِنَ السُّنْبُلِ مِنَ التَّيْنِ. وككنيسة: الْوَرَقُ الْمُجْتَمِعُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ
 السُّنْبُلُ.
 الريحان: نَبْتُ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، أو كُلُّ نَبْتٍ كَذَلِكَ، أو أَطْرَافُهُ، أو وَرْقُهُ،
 والوَلْدُ، والرُّزْقُ.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (١٠) أي: كما رفع السماء وضع
 الأرض ومهدّها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات؛ لتستقر لما على وجهها
 من الأنام، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألستهم في سائر
 أقطارها وأرجائها» (٢).

قال السعدي: «ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال: ﴿فِيهَا فَكَّهَةٌ﴾
 وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين

(١) الفيل: الآية (٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٥).

والرمان والتفاح، وغير ذلك، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتاً يؤكل ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيدة من أحسن الفواكه.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ أي: ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة والأرز والدخن، وغير ذلك، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها آدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتنّ على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأن الله امتنّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التي تسرّ الأرواح، وتنشرح لها النفوس^(١).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية أنه وضع الأرض للأنام، وهو الخلق؛ لأن وضع الأرض لهم على هذا الشكل العظيم، القابل لجميع أنواع الانتفاع، من إجراء الأنهار، وحفر الآبار، وزرع الحبوب والثمار، ودفن الأموات، وغير ذلك من أنواع المنافع، من أعظم الآيات وأكبر الآلاء التي هي النعم، ولذا قال تعالى بعده: ﴿فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٢).

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه -جل وعلا- على خلقه بوضع الأرض لهم بما فيها من المنافع، وجعلها آية لهم، دالة على كمال قدرة ربهم واستحقاقه للعبادة وحده، جاء موضعاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(٣) الآية، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا﴾^(٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٥) أخرج منها ماءها وزرعها^(٦) وألْبَالَ أَرْسَهَا^(٧) مَنَّا لَكُمْ وَلَاقْتِمِكُمْ^(٨) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾^(٩) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾^(١٠) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾^(١١) الآية.

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩).

(٢) الرعد: الآية (٣).

(٣) الرحمن: الآية (١٣).

(٤) النازعات: الآيات (٣٠-٣٣).

(٥) الملك: الآية (١٥).

(٦) البقرة: الآية (٢٢).

(٧) الذاريات: الآية (٤٨).

لِكُلِّ عَبْدٍ مُّتَبِعٍ ﴿١٠﴾ وَزَلَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴿١١﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢)، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِيهَا فَكِّهَةٌ﴾ ما ذكره تعالى فيه من الامتنان بالفاكهة التي هي أنواع، جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة (الفلاح): ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوْكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَفَكِّهَةٌ وَابْنَا﴾^(٤) إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره هنا من الامتنان بالحبّ جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٦﴾ وَنَبَاتًا وَغَنًّا ﴿٧﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾^(٨)، وقوله تعالى: ﴿تُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾^(٩) الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى﴾^(١٠) إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره تعالى هنا من الامتنان بالنخل، جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَبْذِيدٌ ﴿١١﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾^(١٢)، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾^(١٣) الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما ذكره هنا من الامتنان بالريحان، على أنه الرزق كما في قراءة حمزة والكسائي^(١٤)، جاء موضحًا في آيات كثيرة أيضًا كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾^(١٥)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١٦) الآية، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾^(١٧)، وقوله

(١) ق: الآيات (٧-٩).

(٣) المؤمنون: الآية (١٩).

(٥) ق: الآية (٩).

(٧) يس: الآية (٣٣).

(٩) الأنعام: الآية (٩٥).

(١١) المؤمنون: الآية (١٩).

(١٢) قرأ حمزة والكسائي: (والحب ذو العصف والريحان) بالخفض.

(١٣) غافر: الآية (١٣).

(١٤) يونس: الآية (٣١).

(١٥) الملك: الآية (٢١).

(٢) البقرة: الآية (٢٩).

(٤) عبس: الآية (٣١).

(٦) عبس: الآيتان (٢٧ و٢٨).

(٨) الأنعام: الآية (٩٩).

(١٠) ق: الآيتان (١٠ و١١).

تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَاَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(١) الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

مسألة:

أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢) أن الأصل فيما على الأرض الإباحة، حتى يرد دليل خاص بالمنع؛ لأن الله امتنّ على الأنام بأنه وضع لهم الأرض، وجعل لهم فيها أرزاقهم من القوت والتفكه في آية (الرحمن) هذه، وامتنّ عليهم بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

ومعلوم أنه -جل وعلا- لا يمتن بحرام؛ إذ لا منة في شيء محرم، واستدلوا لذلك أيضًا بحصر المحرمات في أشياء معينة في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا آِٰدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْسَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾^(٣) الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾^(٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾^(٥) الآية.

وفي هذه المسألة قولان آخران:

أحدهما: أن الأصل فيما على الأرض التحريم حتى يدل دليل على الإباحة، واحتجوا لهذا بأن جميع الأشياء مملوكة لله -جل وعلا-، والأصل في ملك الغير منع التصرف فيه إلا بإذنه، وفي هذا مناقشات معروفة في الأصول، ليس هذا محل بسطها.

القول الثاني: هو الوقف وعدم الحكم فيها بمنع ولا إباحة حتى يقوم الدليل، فتحصل أن في المسألة ثلاثة مذاهب: المنع، والإباحة، والوقف.

قال مقبده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي صوابه في هذه المسألة هو

(٢) البقرة: الآية (٢٩).

(١) غافر: الآية (٦٤).

(٣) الأنعام: الآية (١٤٥).

(٤) الأعراف: الآية (٣٣).

(٥) الأنعام: الآية (١٥١).

التفصيل ؛ لأن الأعيان التي خلقها الله في الأرض للناس بها ثلاث حالات :
الأولى : أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها .

الثانية : أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة القاتلة .

الثالثة : أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى ، فإن كان فيها نفع لا يشوبه ضرر ، فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم دليل على خلاف ذلك لعموم قوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ، وقوله : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ الآية .

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهي على التحريم لقوله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار »^(١) .

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى ، فلها ثلاث حالات :

الأولى : أن يكون النفع أرجح من الضرر .

والثانية : عكس هذا .

والثالثة : أن يتساوى الأمران .

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساوياً له فالمنع لحديث : « لا ضرر ولا ضرار » ، ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . وإن كان النفع أرجح ، فالأظهر الجواز ؛ لأن المقرر في الأصول أن المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة »^(٢) .

* * *

(١) أخرجه من حديث ابن عباس ؓ : أحمد (٣١٣/١) ، وابن ماجه (٢/٧٨٤/٢٣٤١) ، وصححه الشيخ الألباني

(انظر السلسلة الصحيحة ، برقم : ٢٥٠) .

(٢) أضواء البيان (٧/٧٣٨-٧٤٤) .

قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي إِلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٣﴾

★ غريب الآية:

ءالاء: الالاء: النعم، واحدها: إلئي وألؤ وألئي وألئى وإلئى.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال القنوجي: ﴿فَإِنِّي إِلَآءِ﴾ أي: فبأي فرد من أفراد نعم ربكما تكذبان؟ أبتلك النعم المذكورة هنا؟ أم غيرها؟ والمراد بالتكذيب الإنكار، والخطاب للجن والإنس؛ لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل، وبهذا قال الجمهور من المفسرين، ويدل عليه قوله فيما سيأتي: ﴿سَنَفْرُجُ لَكُمُ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿١٣﴾^(١)، ويدل على هذا ما قدمناه أن النبي ﷺ قرأها على الجن والإنس، وقيل: الخطاب للإنس، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ الثنية..

وكرر سبحانه هذه الآية في هذه السورة في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة، وتأكيذاً للتذكير بها، على عادة العرب في الاتساع، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها، بعدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الالاء عقبها؛ لأن من جملة الالاء رفع البلاء، وتأخير العقاب، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنيتين وأهلها بعدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها في الجنيتين اللتين هما دون الجنيتين الأوليين، أخذاً من قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ﴿١٣﴾^(٢)، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها؛ استحق هاتين الثمانيتين من الله ووقاه السبعة السابقة، أفاده شيخ الإسلام في «متشابه القرآن».

قال القتيبي: إن الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لينبههم على النعم،

(١) الرحمن: الآية (٣١).

(٢) الرحمن: الآية (٦٢).

ويقررهم بها ، كما تقول لمن تتابع له إحسانك وهو يكفره : ألم تكن فقيرًا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملاً فعززتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلاً فحملتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك؟ أفتنكر هذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا ، ومنه قول الشاعر:

لا تقتلي رجلاً إن كنت مسلمة إياك من دمه إياك إياك
ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب؛ وذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته من خلق الإنسان ، وتعليمه البيان ، وخلق الشمس والقمر ، والسماء والأرض ، إلى غير ذلك مما أنعم به على خلقه ، وخاطب الجن والإنس بالأشياء المذكورة؛ لأنها كلها منعم بها عليهم ، قال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة ، وتأکید للحجة .

وذهب جماعة منهم ابن قتيبة إلى أن التكرير لا اختلاف النعم ، فلذلك كرر التوقيف مع كل واحدة^(١) .

* * *

(١) فتح البيان (١٣/٣١٨-٣١٩) .

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ
الْجَانَ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾^(١)

★ غريب الآية،

صلصال: الطَّيْنُ الحُرُّ خُلِطَ بالرَّمْلِ، أو الطَّيْنُ ما لم يُجْعَلْ خَزَفًا .
الفخار: الطين المشوي بالنار، وهو الخزف .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير، وهو السماء والأرض وما
فيهما، ذكر خلق العالم الصغير، وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾، وهذا تمهيد للتوبيخ
على إخلالهم بواجب شكر النعم المتعلقة بذات كل واحد من الثقيلين، والمراد
بالإنسان هنا: آدم»^(٢).

قال الطبري: «يقول -تعالى- ذكره-: خلق الله الإنسان، وهو آدم، من
صلصال، وهو الطين اليابس الذي لم يطبخ؛ فإنه من يبسه له صلصلة إذا حرَّك ونقر
كالفخار؛ يعني أنه من يبسه وإن لم يكن مطبوخًا، كالذي قد طُبِّخَ بالنار، فهو
يصلصل كما يصلصل الفخار»^(٣).

قال ابن ناصر السعدي: «﴿وَخَلَقَ الْجَانَ﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين،
﴿مِّن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان، وهذا
يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة
والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجان وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش
والشر والفساد.

(١) الرحمن: الآيتان (١٤ و ١٥).

(٢) فتح البيان (١٣/ ٣٢٠).

(٣) جامع البيان (٢٧/ ١٢٤).

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك، وكان ذلك منه تعالى على عباده، قال: ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١).

قال الشنقيطي: «وهذه الآية بين الله فيها طوراً من أطوار التراب الذي خلق منه آدم، فبين في آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى: ﴿لَوْ مِثْلَ عِصَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمِثْلٍ ٱدَّمَ خَلَقْنَا مِنْ تُرَابٍ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِۦٓ أَن خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنفِرُونَ﴾ (٤)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ (٦).

وقد بينا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها؛ لأنه أصلهم وهم فروعهم، ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً، ولذا قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَن خَلَقْتَ طِينًا﴾ (٧)، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَنَ مِنْ سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (٨)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخْلَقَ ٱلْإِنسَنَ مِنْ طِينٍ﴾ (٩)، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (١٠)، وقال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (١١)، ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنوناً، أي: طيناً أسود متغير الريح، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَنَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ (١٢)، وقال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ (١٣)، وقال عن إبليس: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ (١٤)، والمسنون: قيل: المتغير، وقيل: المصور، وقيل: الأملس، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالاً، كما قال هنا: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَنَ مِنْ صَلْصَلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ (١٥)، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَنَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ (١٦).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩-٨٣٠).

(٢) آل عمران: الآية (٥٩).

(٣) الحج: الآية (٥).

(٤) الروم: الآية (٢٠).

(٥) غافر: الآية (٦٧).

(٦) طه: الآية (٥٥).

(٧) الإسراء: الآية (٦١).

(٨) المؤمنون: الآية (١٢).

(٩) السجدة: الآية (٧).

(١٠) الصافات: الآية (١١).

(١١) ص: الآية (٧١).

(١٢) الحجر: الآية (٢٦).

(١٣) الحجر: الآية (٢٨).

(١٤) الحجر: الآية (٣٣).

فالأيات يصدق بعضها بعضًا، ويتبين فيها أطوار ذلك التراب كما لا يخفى^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أصل الإنسان والجن

* عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(٢).

★ غريب الحديث:

مارج: اللهب المختلط بسواد النار.

★ فوائد الحديث:

قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي: «وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم من آثار قدرته وبديع صنعته، أن خلق أبا الإنسان، وهو آدم ﷺ، من صلصال كالفخار، أي: من طين مبلول، قد أحكم به، وأتقن، حتى جفت، فصار له صلصلة وصوت، يشبه صوت الفخار، وهو الطين المشوي»^(٣).

قال القرطبي: «قوله: «خلق الجن من مارج من نار» أي: من شواظ ذي لهب واثقاد ودخان، فكانوا شرًا محضًا، والخير فيهم قليل.

وقوله: «وخلق آدم مما تعلمون» أي مما أعلمكم به، أي: من تراب صير طينًا، ثم فخارًا، كما أخبرنا به تعالى في غير موضع من كتابه. والفخار: الطين اليابس»^(٤).

قال البنا: ««من مارج من نار» أي: من نار مختلطة بهواء مشتعل، والمرج الاختلاط، فهو من عنصرين من هواء وماء، كما أن آدم من عنصرين: تراب وماء وعجن محدث له اسم الطين. «مما وصف لكم» بالبناء على المفعول، أي: وصفه الله لكم في مواضع من كتابه»^(٥).

قال ابن القيم: «ذكر الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في كتابه في مواضع

(١) أضواء البيان (٧/٧٤٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/١٥٣ و١٦٨)، ومسلم (٤/٢٢٩٤ و٢٩٩٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩). (٤) المفهم (٧/٣١٥).

(٥) الفتح الرباني (١٧/٢٠).

متعددة يخبر في بعضها أنه خلقه من ماء، وفي بعضها أنه خلقه من تراب، وفي بعضها أنه خلقه من المركب منهما وهو الطين، وفي بعضها أنه خلقه من صلصال كالفخار، وهو الطين الذي ضربته الشمس والريح حتى صار صلصالاً كالفخار، ولم يخبر في موضع واحد أنه خلقه من نار؛ بل جعل ذلك خاصة إبليس؛ وثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»، وهذا صريح في أنه خلق مما وصفه الله في كتابه فقط، ولم يصف لنا سبحانه أنه خلقه من نار ولا أن في مادته شيئاً من النار^(١).

قال شيخ الإسلام: «والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم خلق مما يخلق منه البشر، ولم يخلق أحد من البشر من نور، بل قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «إن الله خلق الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» وليس تفضيل بعض المخلوقات على بعض باعتبار ما خلقت منه فقط، بل قد يخلق المؤمن من كافر والكافر من مؤمن كابن نوح منه وكإبراهيم من آزر، وآدم خلقه الله من طين، فلما سواه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء، وبأن خلقه بيديه، وبغير ذلك، فهو وصالحو ذريته أفضل من الملائكة، وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين، وهؤلاء من نور. وهذه مسألة كبيرة مبسطة في غير هذا الموضع. فإن فضل بني آدم هو بأسباب يطول شرحها هنا، وإنما يظهر فضلهم إذا دخلوا دار القرار ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَيَعْمُ غُفَى الدَّارِ﴾^(٢)، والآدمي خلق من نطفة، ثم من مضغة، ثم من علقه، ثم انتقل من صغر إلى كبر، ثم من دار إلى دار، فلا يظهر فضله وهو في ابتداء أحواله، وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله، بخلاف الملك الذي تشابه أول أمره وآخره، ومن هنا غلط من فضل الملائكة على الأنبياء، حيث نظر إلى أحوال الأنبياء وهم في أثناء الأحوال قبل أن يصلوا إلى ما وعدوا به في الدار الآخرة من نهايات الكمال^(٣).

* * *

(١) زاد المعاد (٤/٢١-٢٢).

(٢) الرعد: (٢٣) والآيات (٢٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٩٤-٩٥).

قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءِ رَبُّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ ﴿١٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال أبو السعود: «مما أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم»^(١).

وقال القنوجي: «فإنه أنعم عليكما في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى، فهلاً اعتبرتم بهذه الأصول فصدقتم بالآخرة، لعلكم تنجون من عذاب الله تعالى»^(٢).

* * *

(١) إرشاد العقل السليم (١٧٩/٨).

(٢) فتح البيان (٣٢١/١٣).

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: ذلكم -أيها الثقلان- ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يعني بالمشرقين: مشرق الشمس في الشتاء، ومشرقها في الصيف. وقوله: ﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني: ربّ مغرب الشمس في الشتاء، ومغربها في الصيف»^(١).

قال ابن كثير: «وقال في الآية الأخرى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾»^(٢)، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾^(٣)، وهذا هو المراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»^(٤).

قال القنوجي: «فإن في ذلك من النعم ما لا يحصى، كاعتدال الهواء واختلاف الفصول، وحدوث ما يناسب كل فصل فيه، أو بغير ذلك، ولا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراد»^(٥).

* * *

(١) جامع البيان (١٢٧/٢٧).

(٢) المعارج: الآية (٤٠).

(٣) المزمّل: الآية (٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤٦٧/٧).

(٥) فتح البيان (٣٢٢/١٣).

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٨﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴿١٩﴾ لَا يَبْتَغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبَأَيِّ
ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾

★ غريب الآية:

مرج: المَرَجُ: الخَلْطُ. وَمَرَجَ اللّهُ الْبَحْرَيْنِ الْعَذْبَ وَالْمِلْحَ: خَلَطَهُمَا حَتَّى
التَقِيَا.

بَرْزَخٌ: البرزخ: ما بين كل شيئين من حاجز.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٨﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: مرج رب
المشرقين ورب المغربين البحرين يلتقيان، يعني بقوله: ﴿مَرَجَ﴾ أرسل وأرعى..
واختلف أهل العلم في البحرين اللذين ذكرهما الله -جل ثناؤه- في هذه الآية،
أي البحرين هما؟ فقال بعضهم: هما بحران: أحدهما في السماء والآخر في
الأرض..

وقال آخرون: عني بذلك فارس والروم.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: «عني به بحر السماء،
وبحر الأرض، وذلك أن الله قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢١﴾﴾، واللؤلؤ
والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء، فمعلوم أن ذلك
بحر الأرض وبحر السماء»^(١).

قال ابن كثير بعد حكايته قول الطبري: «لكن ليس المراد بذلك ما ذهب إليه؛
فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴿١٩﴾ لَا يَبْتَغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: وجعل
بينهما برزخاً، وهو الحاجز من الأرض؛ لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا،

(١) جامع البيان (٢٧/١٢٨).

فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه، وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخًا وحجرًا محجورًا^(١).

قال ابن ناصر السعدي: «المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخًا من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسماك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقرًا مستخرًا للسفن والمراكب»^(٢).

قال الطبري: «اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿لَا يَتَنَبَّاهُ﴾، فقال بعضهم: معنى ذلك: لا يبغي أحدهما على صاحبه..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهما لا يختلطان..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يبغيان على اليبس..

وقال آخرون: بل معناه: لا يبغيان أن يلتقيا..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله وصف البحرين اللذين ذكرهما في هذه الآية أنهما لا يبغيان، ولم يخصص وصفهما في شيء دون شيء، بل عم الخبر عنهما بذلك، فالصواب أن يُعمَّ كما عم -جل ثناؤه-، فيقال: إنهما لا يبغيان على شيء، ولا يبغي أحدهما على صاحبه، ولا يتجاوزان حدَّ الله الذي حدَّه لهما.

وقوله: ﴿فَيَأْتِيَهُمَا رَيْكٌ تَكَذِّبَانٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأي نعم الله ربكما معشر الجن والإنس تكذبان من هذه النعم التي أنعم عليكم من مرجه البحرين، حتى جعل لكم بذلك حلية تلبسونها كذلك»^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قال الرافضي: (قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾) ① يَنْهَمَا بَرَزَخٌ لَا يَتَبَيَّنُ ②، من تفسير الثعلبي وطريق أبي نعيم عن ابن عباس في

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).

(٣) جامع البيان (٢٧/١٢٩-١٣٠).

قوله: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْقَاَنِ﴾ قال: علي وفاطمة، ﴿يَنْتَهَا بَرْحٌ لَا يَبْقَانِ﴾: النبي صلى الله عليه وآله، ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الزُّلُومُ وَالْمَرْجَاتُ﴾: الحسن والحسين، ولم يحصل لغيره من الصحابة هذه الفضيلة، فيكون أولى بالإمامة).

والجواب: أن هذا وأمثاله إنما يقوله من لا يعقل ما يقول. وهذا بالهذيان أشبه منه بتفسير القرآن، وهو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة الباطنية للقرآن، بل هو شر من كثير منه. والتفسير بمثل هذا طريق للملاحدة على القرآن والطعن فيه، بل تفسير القرآن بمثل هذا من أعظم القدح فيه والطعن فيه.

ولجَهال المنتسبين إلى السنة تفاسير في الأربعة، وهي إن كانت باطلة فهي أمثل من هذا، كقولهم: ﴿الصَّابِرِينَ﴾^(١): محمد، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾: أبو بكر، ﴿وَالْقَانِطِينَ﴾: عمر، ﴿وَالْمُسْتَفِينَ﴾: عثمان، ﴿وَالْمُسْتَفِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾: علي.

وكقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(٢): أبو بكر، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾: عمر، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾: عثمان، ﴿تَرْتَبُهُمْ رُكْعًا سَجْدًا﴾: علي.

وكقولهم: ﴿وَالنِّينِ﴾: أبو بكر، ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾: عمر، ﴿وَلَطُورِ سَبِينِ﴾: عثمان، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾: علي.

وكقولهم: ﴿وَالْعَصْرِ﴾^(٣) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أبو بكر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: عمر، ﴿وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ﴾: عثمان، ﴿وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ﴾: علي.

فهذه التفاسير من جنس تلك التفاسير، وهي أمثل من إلحادات الرافضة، كقولهم: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(٤): علي، وكقولهم: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أبو بكر، ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾^(٥): بنو أمية، وأمثال هذا الكلام الذي لا يقوله من يرجو لله وقاراً، ولا يقوله من يؤمن بالله وكتابه.

وكذلك قول القائل: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْقَاَنِ﴾: علي وفاطمة، ﴿يَنْتَهَا بَرْحٌ لَا يَبْقَانِ﴾: النبي ﷺ، ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الزُّلُومُ وَالْمَرْجَاتُ﴾: الحسن والحسين.

(١) الفتح: الآية (٢٩).

(٢) الزخرف: الآية (٤).

(٣) آل عمران: الآية (١٧).

(٤) يس: الآية (١٢).

(٥) الإسراء: الآية (٦٠).

وكل من له أدنى علم وعقل يعلم بالاضطرار بطلان هذا التفسير، وأن ابن عباس لم يقل هذا.

وهذا من التفسير الذي في تفسير الثعلبي، وذكره بإسناد رواه مجهولون لا يُعرفون، عن سفيان الثوري. وهو كذب على سفيان. قال الثعلبي: أخبرني الحسن بن محمد الدينوري، حدثنا موسى بن محمد بن علي بن عبد الله، قال: قرأ أبي علي أبي محمد بن الحسن بن علوية القطان من كتابه وأنا أسمع، حدثنا بعض أصحابنا، حدثنا رجل من أهل مصر يقال له: طسم، حدثنا أبو حذيفة، عن أبيه، عن سفيان الثوري في قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۚ يَلْتَقِيَانِ ۚ لَا يَبْغِيَانِ ۚ﴾ قال: فاطمة وعلي، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَاتُ ۚ﴾: الحسن والحسين.

وهذا الإسناد ظلّمات بعضها فوق بعض، لا يثبت بمثله شيء. ومما يبيّن كذب ذلك وجوه:

أحدها: أن هذا في سورة (الرحمن)، وهي مكية بإجماع المسلمين، والحسن والحسين إنما ولدا بالمدينة.

الثاني: أن تسمية هذين بحرين، وهذا لؤلؤا، وهذا مرجانا، وجعل النكاح مرجا، أمر لا تحتمله لغة العرب بوجه، لا حقيقة ولا مجازا، بل كما أنه كذب على الله وعلى القرآن، فهو كذب على اللغة.

الثالث: أنه ليس في هذا شيء زائد على ما يوجد في سائر بني آدم، فإن كل من تزوج امرأة وولد لهما ولدان فهما من هذا الجنس، فليس في ذكر هذا ما يستعظم من قدرة الله وآياته، إلا ما في نظائره من خلق الآدميين. فلا موجب للتخصيص، وإن كان ذلك لفضيلة الزوجين والولدين، فإبراهيم وإسحق ويعقوب أفضل من علي..

الرابع: أن الله ذكر أنه مرج البحرين في آية أخرى، فقال في (الفرقان): ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾^(١)، فلو أريد بذلك علي وفاطمة لكان ذلك ذمّا لأحدهما، وهذا باطل بإجماع أهل السنة والشيعة.

الخامس: أنه قال: ﴿يَلْتَقِيَانِ ۚ لَا يَبْغِيَانِ ۚ﴾ فلو أريد بذلك علي وفاطمة،

(١) الفرقان: الآية (٥٣).

لكان البرزخ الذي هو النبي ﷺ - بزعمهم - أو غيره هو المانع لأحدهما أن يبغى على الآخر. وهذا بالذم أشبه منه بالمدح.

السادس: أن أئمة التفسير متفقون على خلاف هذا، كما ذكره ابن جرير وغيره^(١).

* * *

(١) منهاج السنة النبوية (٧/٢٤٤-٢٤٩).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿فِي آيَةِ الْآءِ رَيِّكُمَا﴾
 ﴿تَكَذَّبَانِ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: يخرج من هذين البحرين -الذين مرجهما الله، وجعل بينهما برزخًا- اللؤلؤ والمرجان.

واختلف أهل التأويل في صفة اللؤلؤ والمرجان، فقال بعضهم: اللؤلؤ: ما عظم من الدر، والمرجان: ما صغر منه..

وقال آخرون: المرجان من اللؤلؤ: الكبار، واللؤلؤ منها: الصغار..

وقال آخرون: المرجان: جيد اللؤلؤ..

وقال آخرون: المرجان: حجر..

والصواب من القول في اللؤلؤ أنه هو الذي عرفه الناس مما يخرج من أصداف البحر من الحب؛ وأما المرجان، فإني رأيت أهل المعرفة بكلام العرب لا يتدافعون أنه جمع مرجانة، وأنه الصغار من اللؤلؤ، قد ذكرنا ما فيه من الاختلاف بين متقدمي أهل العلم، والله أعلم بصواب ذلك»^(١).

قال السمرقندي: ﴿فِي آيَةِ الْآءِ رَيِّكُمَا تَكَذَّبَانِ﴾ يعني خلق في البحر اللؤلؤ لمنفعة الخلق، ولصلاحهم، ولكي تعتبروا به، فكيف تنكرون هذه النعمة؟!»^(٢).

قال الشنقيطي: «اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من مجموعها الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح وحده دون العذب.

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٣٠-١٣٢).

(٢) بحر العلوم (٣/ ٣٠٧).

وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شك في بطلانه؛ لأن الله صرح بنقيضه في سورة (فاطر)، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾^(١)، فالتنوين في قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ تنوين عوض، أي: من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحمًا طريًّا وتستخرجون حلية تلبسونها، وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا مما لا نزاع فيه^(٢).

* * *

(١) فاطر: الآية (١٢).

(٢) أضواء البيان (٧/٧٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ﴿٢٤﴾ فَإِنَّ آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

★ غريب الآية:

الجوار: جمع جارية، وهي السفينة.

الأعلام: الجبال، واحدها: عَلَم. قالت الخنساء:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجواري، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السموات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال: ﴿فَإِنَّ آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»^(١).

وقال ابن كثير: «﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»^(٢).

وقال أبو السعود: «﴿فَإِنَّ آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق مواد السفن، والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها، وجرائها^(٣) في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه»^(٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٩).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).

(٣) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: وإجرائها.

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٨٠).

تنبيه:

قال القنوجي: «المراد بالجوار: السفن الجارية في البحر، وسميت السفينة جارية؛ لأن شأنها ذلك وإن كانت واقفة في الساحل؛ كما سماها في موضع آخر بالجارية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ﴾^(١)، وسماها بالفلك قبل أن لم تكن كذلك، فقال تعالى لنوح: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ﴾^(٢)، ثم بعدما عملها سماها سفينة، فقال تعالى: ﴿فَأَبْجَسَتْ فِي الْفَافِجِيَّةِ﴾^(٣)»^(٤).

* * *

(١) الحاقة: الآية (١١).

(٢) هود: الآية (٣٧).

(٣) العنكبوت: الآية (١٥).

(٤) فتح البيان (١٣/٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌ بِرَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كل من على ظهر الأرض من جن وإنس فإنه هالك، ويبقى وجه ربك -يا محمد- ذو الجلال والإكرام. ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ من نعت الوجه، فلذلك رفع ﴿ذُو﴾»^(١).

قال ابن كثير: «وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾»^(٢)، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي: هو أهل أن يُجَلَّ فلا يعصى، وأن يُطاع فلا يخالف، كقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾»^(٣)، وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾»^(٤).

ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل؛ قال: ﴿فَإِنِّي ءَالِئٌ بِرَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ﴾»^(٥).

قال السمرقندي: «﴿فَإِنِّي ءَالِئٌ بِرَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ﴾ ومعناه: أن الله تعالى يعينكم، فتوكلوا عليه، ولا تعتمدوا على الناس؛ لأنهم لا يقدرُونَ على دفع الهلاك عن أنفسهم، والله هو الباقي بعد فناء الخلق، وهو الذي يتجاوز عنكم، ويعينكم، فكيف تنكرون ربكم الذي خلقكم وأحسن إليكم؟!»^(٦).

قال الشنقيطي: «والوجه صفة من صفات الله العلي، وصف بها نفسه، فعلينا

(٢) القصص: الآية (٨٨).

(٤) الإنسان: الآية (٩).

(١) جامع البيان (٢٧/١٣٤).

(٣) الكهف: الآية (٢٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٦٩).

(٦) بحر العلوم (٣/٣٠٧).

أن نصدق ربنا ، ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق»^(١).

وانظر ما تقدّم من الكلام على هذه الصفة في تفسير سورة (القصص) عند قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ الآية (٨٨).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿٢٩﴾ فَبَايَ
ءَآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

★ غريب الآية:

شأن: الشَّأْنُ: الحَظُّبُ والأَمْرُ، جمعه: شُؤُونٌ وشِئِنٌ.

أهوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: ﴿يَسْأَلُهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إليه يفزع
بمسألة الحاجات كل من في السموات والأرض، من مَلَك وإنس وجن وغيرهم،
لا غنى بأحد منهم عنه^(١).

وقال ابن كثير: «هذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع
الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن»^(٢).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَبَايَءَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فَبَايَ
نعم ربكما -معشر الجن والإنس التي أنعم عليكم من صرفة إياكم في مصالحكم، وما
هو أعلم به منكم من تقليبه إياكم فيما هو أنفع لكم -تكذبان»^(٣).

تنبيه:

قال القنوجي: «ولا وجه لتخصيص شأن دون شأن، بل الآية تدل على أنه
سبحانه كل يوم في شأن من الشؤون له، أي شأن كان من غير تعيين، وشؤونه
سبحانه لا تحصى، ولا يعلمها إلا هو، فالعموم أولى وأنسب بمقام القدرة
وكمالها»^(٤).

(١) جامع البيان (٢٧/١٣٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٧٠).

(٣) جامع البيان (٢٧/١٣٥).

(٤) فتح البيان (١٣/٣٢٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

* عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: «يغفر ذنبًا، ويكشف كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين»^(١).

* فوائد الحديث:

هذا الحديث يدخل في التفسير المسند لقول الله ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، فيبين النبي ﷺ بعض ما يقدره الله ﷻ ويقضيه كل يوم.

قال ابن القيم وهو يتحدث عن تدبير الله لهذا الكون: «يعلم السر وأخفى من السر، فالسرّ ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه ما لم يخطر بعدد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا، له الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شيء، ووسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته إلى كل حي، ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(٢)، يغفر ذنبًا، ويفرج همًا، ويكشف كربًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويُعلم جاهلًا، ويهدي ضالًا، ويرشد حيرانًا، ويغيث لهفانًا، ويفك عانيًا، ويُشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتليًا، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبارًا، ويقلل عثرة، ويستر عورة، ويؤمن روعة، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل»^(٣).

وقال الشيخ ابن ناصر السعدي: «يغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويعطي قومًا، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع، لا يشغله شأن عن شأن،

(١) أخرجه: ابن ماجه (١/٧٣/٢٠٢)، وقال البوصيري: «إسناده حسن»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/

٦٨٩/٤٦٤). وذكره البخاري تعليقًا (٨/٧٩٨) موقوفًا عن أبي الدرداء، وانظر تعليق التعليق (٤/٣٣٢).

(٢) الوايل الصيب (ص: ١٣٥-١٣٦).

ولا تغلظه المسائل، ولا يُبرمه^(١) إلحاح الملحّين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسموات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به ويكرمه. وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن؛ هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها، التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار. حتى إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم الله تعالى، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريه من عدله وفضله، وكثرة إحسانه ما به يعرفونه ويوحدونه؛ نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان^(٢).

* * *

(١) أي: لا يضجره ولا يمله ولا يشمه.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٧١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٧٢﴾﴾

★ غريب الآية:

الثقلان: الجن والإنس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وعيد من الله لعباده وتهدد، كقول القائل الذي يتهدد غيره ويتوعده، ولا شغل له يشغله عن عقابه: لأتفرغن لك، وسأتفرغ لك، بمعنى: سأجد في أمرك وأعاقبك، وقد يقول القائل للذي لا شغل له: قد فرغت لي، وقد فرغت لستمي، أي: أخذت فيه وأقبلت عليه، وكذلك قوله -جل ثناؤه-: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ سنحاسبكم، ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجن، فنعاقب أهل المعاصي، ونثيب أهل الطاعة»^(١).

قال ابن عطية: «قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٧١﴾﴾ عبارة عن إتيان الوقت الذي قدر فيه وقضى أن ينظر في أمور عباده، وذلك يوم القيامة، وليس المعنى: أن ثم شغلاً يتفرغ منه، وإنما هي إشارة وعيد»^(٢).

قال البخاري: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾: سنحاسبكم، ولا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب»^(٣).

قال القنوجي: «﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ ومن جملتها ما في هذا التهديد من النعم، فمن ذلك أنه ينزجر به المسيء عن إساءته، ويزداد به المحسن إحساناً، فيكون ذلك سبباً للفوز بنعيم الدار الآخرة، الذي هو النعيم في الحقيقة»^(٤).

(١) جامع البيان (١٣٦/٢٧).

(٢) المحرر الوجيز (٢٢٩/٥).

(٣) فتح الباري (٧٩٩/٨).

(٤) فتح البيان (٣٢٩/١٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المراد بالثقلين

* عن أنس بن مالك أن نبي الله ﷺ قال: «العبد إذا وضع في قبره، وتُوْلِي وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم... فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»^(١).

* فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّفْلَانِ﴾ ؛ الثَّقْلَانِ: الإنس والجن كما جاء في الصحيح: «يسمعه كلُّ شيء إلا الثقلين»، وفي رواية: «إلا الإنس والجن»^(٢).
قال القرطبي: «سميًا بذلك لعظيم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف. وقيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾^(٣)، ومنه قولهم: أعطه ثقله، أي: وزنه. وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل، ومنه قيل لبيض النعام: ثقل؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به، وقال جعفر الصادق: سميا ثقلين؛ لأنهما مثقلان بالذنوب»^(٤).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١٢٦/٣)، والبخاري (١٣٣٨/٢٦٤/٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٠٠/٤/٢٨٧٠)، وأبو داود

(٣/٥٥٦/٣٢٣١)، والنسائي (٤٠٢/٤٠٣-٢٠٤٩)، وابن حبان (الإحسان ٧/٣٩٠/٣١٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٧١/٧).

(٣) الزلزلة: الآية (٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦٩/١٧).

قوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

تنفذوا: النفوذ: الخروج من الشيء. يقال: نفذ السهم في الرمية: خرقتها
وخرج منها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فيها قولان: أحدهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات
والأرض علماً - أي: أن تعلموا ما فيهما - فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي:
إلا ببينة من الله. وعلى هذا، فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض.
الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من
أقطار السموات والأرض، وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا،
ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم؛ فإنكم تحت سلطاني، وفي محل ملكي وقدرتي
أين كنتم. وقال الضحاك: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا؛
فإنه مدرككم. وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا. وفي
الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار
الأرض، وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهرباً
ولا منفذاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَقُومُ إِلَيْهِ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تُؤْلَوْنَ
مُدْبِرِينَ﴾^(١) قال مجاهد: فارّين غير معجزين، وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار
ندّوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً، فيرجعون إلى
المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهِمْ﴾^(٢)، وقوله تعالى:

(١) غافر: الآيات (٣٢ و٣٣).

(٢) الحاقة: الآية (١٧).

﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾، وهذا القول أظهر، والله أعلم. فإذا بده الخلائق ولّوا مدبرين، يقال لهم: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ أي: إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا. وكان ما قبل هذه الآية وما بعدها على هذا القول؛ فإن قبلها: ﴿سَنُرْئِيكَ﴾ الآية، وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (١)، وهذا في الآخرة. وأيضا فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم، وهي قوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه. وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقال تعالى: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يقل: إن استطعتم؛ لإرادة الجماعة، كما في آية أخرى: ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ (٢) (٣).

قال السعدي: «أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزا لهم: ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: تجدون منفذاً ومسلكا تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسלט منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؟! ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء» (٤).

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ آيَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعمت عليكم، من التسوية بين جميعكم، لا يقدر على خلاف أمر أراده بكم تكذبان» (٥).

قال ابن كثير: ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(١) الرحمن: الآية (٣٧).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٣-٤٢٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).

(٥) جامع البيان (١٣٨/٢٧).

(٢) الأنعام: الآية (١٣٠).

فَأَنْقُذُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، بل هو محيط بكم، لا تقدرُونَ على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم. وهذا في مقام الحشر. ﴿إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ﴾، أي: إلا بأمر الله، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْآفَرَّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَيَّ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَفَرُّ ﴿١٢﴾﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مِمَّا لَّهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾^(٢)، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾^(٣)،^(٤).

* * *

(١) القيامة: الآيات (١٠-١٢).

(٢) يونس: الآية (٢٧).

(٣) الرحمن: الآية (٣٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧١-٤٧٢).

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ (٣٥) ﴿فَيَأْتِي
ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٦)

★ غريب الآية:

شواظ: الشَّوَاظُ والشَّوَاظُ: اللَّهَبُ الذي لَا دُخَانَ فيه، وقيل: الشَّوَاظُ قِطْعَةٌ من نار ليس فيها نُحَاسٌ، وقيل: الشَّوَاظُ لهب النار، ولا يكون إِلَّا من نار وشيء آخر يَخْلُطُهُ، ويقال للدُّخَانِ النار: شَوْاظٌ وشِوَاظٌ، ولَحَرَّهَا: شَوْاظٌ وشِوَاظٌ.
نحاس: النُّحَاسُ: مَا سَقَطَ مِنْ شَرَارِ الصُّفْرِ أَوْ مِنْ شَرَارِ الْحَدِيدِ إِذَا طُرِقَ، أي: ضُرِبَ بِالْمِطْرَقَةِ، والنُّحَاسُ -بالكسر- لُغَةٌ فيه، قال أبو عُيَيْدَةَ: النُّحَاسُ -ههنا-: الدُّخَانُ الذي لَا لَهَبَ فيه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: يرسل عليكما لهب صاف من النار. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ وهو اللهب الذي قد خالطه الدخان. والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتنَّ عليهم، فقال: ﴿فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»^(١).

قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾»^(٢)، ولم يقل: يرسل عليكم؛ لإرادة الصنفين، أي: لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً. وهذا وإن كان مراداً بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي: من استطاع منكم، وحسن الخطاب بالثنية في قوله تعالى:

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣١).

(٢) الرحمن: الآية (٣٥).

﴿عَلَيْكَ﴾ أمر آخر، وهو موافقة رؤوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ لإرادة أحدهما، والله أعلم^(١).

* * *

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَيَأْتِي
ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقت صارت وردة كالدهان، وقوله: ﴿وَرْدَةً﴾: أي حمراء كلون الورد، وقوله: ﴿كَالدِّهَانِ﴾: فيه قولان معروفان للعلماء.

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه.

والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به، وعليه فالدهان قيل: هو جمع دهن، وقيل: هو مفرد؛ لأن العرب تسمي ما يدهن به دهاناً، وهو مفرد، ومنه قول امرئ القيس:

كأنهما مزادتا متعجل فريان لما تدهني بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين؛ أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة، فشبهها بحمرة الورد، وحمرة الأديم الأحمر.

قال بعض أهل العلم: إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة. وقال بعض أهل العلم: أصل السماء حمراء، إلا أنها لشدة بعدها وما دونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها.

وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به، فإن الله قد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها، والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن.

أما على القول الأول، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر.

وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة، فقد أوضحه الله في غير هذا الموضع، وذلك في قوله تعالى في (المعارج): ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ۖ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ۖ﴾^(١)، والمهل شيء ذائب على كلا القولين، سواء قلنا: إنه دردي الزيت، وهو عكره، أو قلنا: إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما.

وقد أوضح تعالى في (الكهف) أن المهل شيء ذائب يشبه الماء، شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأِنْ يَسْتَفِثُوا يَفْثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِسْكَ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۖ﴾^(٢).

والقول بأن الوردة تشبيه بالفرس الكमित وهو الأحمر؛ لأن حمرة تتلون باختلاف الفصول، فتشتد حمرتها في فصل، وتميل إلى الصفرة في فصل، وإلى الغبرة في فصل، وأن المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية.

وقول من قال: إنها تذهب وتجيء، معناه له شاهد في كتاب الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۖ﴾^(٣) الآية، ولكنه لا يخلو عندي من بعد.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة، جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ ۖ﴾^(٦) الآية، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت ۖ﴾^(٧) الآية.

قال القنوجي: ﴿فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ فإن من جملتها ما في هذا التهديد والتخويف من حسن العقابة بالإقبال على الخير، والإعراض عن الشر^(٨).

* * *

(٢) الكهف: الآية (٢٩).

(٤) الانشقاق: الآية (١).

(٦) الفرقان: الآية (٢٥).

(١) المعارج: الآيات (٦-٨).

(٣) الطور: الآية (٩).

(٥) الحاقة: الآيتان (١٥ و ١٦).

(٧) الانفطار: الآية (١).

(٨) أضواء البيان (٧/ ٧٥٠-٧٥٢).

(٩) فتح البيان (١٣/ ٣٣٣).

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٣٩﴾ فَبَئِىَ ءَالَاةِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٣٩﴾ أضاف الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنهما سوياً في التكليف. واختلف في هذا السؤال المنفي، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذ، ولا يسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي: قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها»^(١).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه يوم القيامة لا يسأل إنسا ولا جانا عن ذنبه، وبين هذا المعنى في قوله تعالى في (القصص): ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾»^(٢).

وقد ذكر -جل وعلا- في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة، الرسل والمرسل إليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٣﴾، وقوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(٤).

وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أن بينها اختلافاً، اعلم أولاً أن السؤال المنفي في قوله هنا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٣٩﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أخص من السؤال المثبت في قوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ؛ لأن هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٤).

(٢) القصص: الآية (٧٨).

(٤) الحجر: الآيات (٩٢ و٩٣).

(٣) الأعراف: الآية (٦).

الذنوب خاصة، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء.

الأول منها: وهو الذي دل عليه القرآن، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا، هو أن السؤال نوعان: أحدهما: سؤال التوبيخ والتقريع، وهو من أنواع العذاب، والثاني: هو سؤال الاستخبار والاستعلام.

فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام؛ لأن الله أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى: ﴿أَخْصَنُ اللَّهُ وَسُوَّهُ﴾^(١).

وعليه فالمعنى: لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان سؤال استخبار واستعلام؛ لأن الله أعلم بذنبه منه.

والسؤال المثبت في الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آسَوْدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٢)، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(٣) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ أَلَيْمٌ مُّسْتَسْلِمُونَ ﴿٣١﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾^(٤) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا تَكْذِبُونَ ﴿٦﴾ أَفَسِحَرُ هَذَا﴾^(٥) الآية، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾^(٥).

أما سؤال الموءودة في قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ﴾^(٦) فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الذنب؛ لأنها سئلت عن أي ذنب قتلت، وهذا ليس من ذنبها، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه؛ لأنها هي تقول: لا ذنب لي، فيرجع اللوم على من قتلها ظلماً^(٧).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَيَأْتِي الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول - تعالى ذكره -: فبأي نعم ربكما معشر الثقلين - التي أنعم عليكم من عدله فيكم، أنه لم يعاقب منكم إلا مجرماً - تكذبان»^(٨).

(١) المجادلة: الآية (٦).

(٢) آل عمران: الآية (١٠٦).

(٣) الطور: الآيات (١٣-١٥).

(٤) التكوين: الآية (٨).

(٥) أضواء البيان (٧/٧٥٣-٧٥٤).

(٨) جامع البيان (٢٧/١٤٣).

(٣) الصافات: الآيات (٢٤-٢٦).

(٥) الأنعام: الآية (١٣٠).

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (٤١)
 ﴿فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٢)

★ غريب الآية:

النواصي: جمع ناصية، وهي شعر مقدم الرأس.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم وسيماهم التي يسومهم الله بها من اسوداد الوجوه وازرقاق العيون..»

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم فتسحبهم إلى جهنم، وتقذفهم فيها، ﴿فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأي نعم ربكما -معشر الجن والإنس، التي أنعم عليكم بها من تعريفه ملائكته أهل الإجمام من أهل الطاعة منكم؛ حتى خصوا بالإذلال والإهانة المجرمين دون غيرهم -تكذبان»^(١).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بعلامتهم المميزة لهم. وقد دل القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾^(٢) الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْفَيْصَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّهْنَهُمْ ذُلًّا مَّا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْفَعُهَا فَرَّةٌ ۖ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾^(٥)؛ لأن

(١) جامع البيان (٢٧/١٤٣).

(٢) الزمر: الآية (٦٠).

(٣) يونس: الآية (٢٧).

(٤) عبس: الآيات (٤٠-٤٢).

(٥) آل عمران: الآية (١٠٦).

معنى قوله: ﴿تَرْفَعُهَا فَنَرُّهُ﴾ (٤١) أي: يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود، وقال تعالى في زرقة عيونهم: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (١)، ولا شيء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون، ولذا لما أراد الشاعر أن يقبح علل البخيل بأسوأ الأوصاف وأقبحها، فوصفها بسواد الوجوه وزرقة العيون حيث قال:

وللبخيل على أمواله علل

زرق العيون عليها أوجه سود

ولا سيما إذا اجتمع مع سواد الوجه اغبراره، كما في قوله: ﴿وَوُجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (٤٢) ﴿تَرْفَعُهَا فَنَرُّهُ﴾ (٤١)، فإن ذلك يزيده قبحاً على قبح (٣).

* * *

(١) طه: الآية (١٠٢).

(٢) عبس: الآيتان (٤٠-٤١).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٥٤-٧٥٥).

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

★ غريب الآية:

حميم: الحميم: الماء الحار.
أنى: أنى الحميم: انتهى حره.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : يقال لهؤلاء المجرمين الذين أخبر - جل ثناؤه - أنهم يُعرفون يوم القيامة بسيماهم حين يؤخذ بالنواصي والأقدام: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ، فترك ذكر (يقال) اكتفاءً بدلالة الكلام عليه منه . .

وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ ، يقول - تعالى ذكره - : يطوف هؤلاء المجرمون الذين وصف صفتهم في جهنم بين أطباقها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ يقول: وبين ماء قد أسخن وأغلي حتى انتهى حره وأنى طبخه؛ وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أنى؛ ومنه قوله: ﴿غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾^(١) يعني: إدراكه وبلوغه^(٢).

قال ابن كثير: «ولما كان معاقبة العصاة المجرمين، وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال ممتناً بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»^(٣).

وقال: «وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذْ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧﴾﴾ في الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨﴾﴾»^(٤)^(٥).

(٢) جامع البيان (٢٧/١٤٣-١٤٤).

(٤) غافر: الآيتان (٧١ و٧٢).

(١) الأحزاب: الآية (٥٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٧٥-٤٧٦).

(٥) المصدر السابق (٧/٤٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فَإِنَّ إِلَىٰ آلَاءِ رَبِّكَمَا تُكَذَّبَانِ﴾ ﴿٤٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين، ذكر نعمه الآخروية التي أنعم بها عليهم فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ﴾ أي: لكل فرد من أفراد الخائفين أو لمجموعهم، والأول هو المعتمد، ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ مقامه سبحانه هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب؛ كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾، وقيل: المعنى: خاف قيام ربه عليه، وهو إشرافه على أحواله، وإطلاعه على أفعاله وأقواله؛ كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿٢﴾، أو قيام الخائف عند ربه للحساب. ومحصله احتمالات ثلاثة في تفسير المقام، أولها: أنه اسم مكان، والثاني: أنه مصدر تحته احتمالان: إما بمعنى قيام الله على الخلائق، أو بمعنى قيام الخلائق بين يديه؛ قال مجاهد والنخعي: هو الرجل الذي يهمل بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه. وفيه إشارة إلى سبب استحقاق الجنتين في نفس الأمر، وهو أنه ليس مجرد الخوف، بل الخوف الناشئ عنه ترك المعاصي» ﴿٣﴾.

وقال الطبري: «يقول -تعالى- ذكره-: ولمن اتقى الله من عباده فخاف مقامه بين يديه، فأطاعه بأداء الفرائض واجتناب معاصيه جنتان، يعني بستانين» ﴿٤﴾.

قال ابن القيم رحمه الله بعد تقريره بأن الجن مكلف، وأن محسنهم في الجنة، ومسيئهم في النار، قال: «وأيضاً فقد قال تعالى في سورة (الرحمن): ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فَإِنَّ إِلَىٰ آلَاءِ رَبِّكَمَا تُكَذَّبَانِ﴾ وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَهُنَّ فَبَلَّهِنَّ وَلَا جَأْنَ﴾ ﴿٥﴾، وهذا يدل على أن ثواب محسنهم

(١) المطففين: الآية (٦).

(٢) الرعد: الآية (٣٣).

(٣) فتح البيان (١٣/٣٣٥-٣٣٦).

(٤) جامع البيان (٢٧/١٤٥).

(٥) الرحمن: الآية (٥٦).

الجنة من وجوه:

أحدها: أن (مَنْ) من صيغ العموم، فتتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به. وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب، هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله؟ على قولين: أحدهما: أن المعنى: ولمن خاف مقامه بين يدي ربه، فعلى هذا هو من إضافة المصدر إلى المفعول. والثاني: أن المعنى: ولمن خاف مقام ربه عليه وإطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (١)، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبِدَ﴾ (٢)، فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول، وإن المعنى: خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه، أحدها: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر، فإذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٤)، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٦)، ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته. وقد يذكر الخوف متعلقًا بعذابه كقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (٧)، وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن. الثاني: أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ (٨) فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه، والقرآن يفسر بعضه بعضًا. الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن ببلقائه وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت. وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين؛ فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسول،

(١) النازعات: الآية (٤٠).

(٢) إبراهيم: الآية (١٤).

(٣) النحل: الآية (٥٠).

(٤) البقرة: الآية (٨).

(٥) الملك: الآية (١٢).

(٦) الأنعام: الآية (٥١).

(٧) آل عمران: الآية (١٧٥).

(٨) النحل: الآية (٥٠).

(٩) الإسراء: الآية (٥٧).

وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل . وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه ، فهذا يقرّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه ، وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسول . فإن قيل : إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران ، فمن أين رجحت أحدهما؟ قيل : التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد ، ولهذا خوفنا تعالى في قوله : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمُ الْآخِرِينَ ۝﴾^(١) ، ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى الله وذلك في يوم القيامة ، بخلاف مقام الله على العبد فإنه كل وقت . وأيضاً فإنه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به : مقام الله ، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب . وأيضاً فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَخْمُودًا﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾^(٤) ، والمقصود أن قوله تعالى : ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۝﴾ يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان . الثالث : قوله عقيب هذا الوعد : ﴿فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رِيكًا ثُمَّ كَذِبَانِ ۝﴾^(٥) .

قال ابن عطية : «وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف ، وتحريض على الخوف الذي هو أسرع المطايا إلى الله ﷻ»^(٦) .

قال ابن كثير : «هذه الآية عامة في الإنس والجن ، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتنّ الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال : ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۝﴾ فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رِيكًا ثُمَّ كَذِبَانِ ۝﴾^(٧) .

(١) المطففين : الآية (٦) .

(٢) الدخان : الآيتان (٢٥ و ٢٦) .

(٣) مريم : الآية (٧٣) .

(٤) طريق الهجرتين (ص : ٤٢٤ - ٤٢٦) .

(٥) المحرر الوجيز (٥ / ٢٣٣) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٤٩٧) .

(٧) الإسراء : الآية (٧٩) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عاقبة منزلة الخوف من الله تعالى

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج فقد بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»^(١).

★ غريب الحديث:

أَدْلَج: يُقَال: أَدْلَجَ، بِالْتَّخْفِيفِ: إِذَا سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَادَّلَجَ، بِالتَّشْدِيدِ: إِذَا سَارَ مِنْ آخِرِهِ. وَالْأَسْمُ مِنْهُمَا: الدَّلْجَةُ والدَّلْجَةُ، بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ. . . وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ الْإِذْلَاجَ لِلَّيْلِ كُلِّهِ.

قال الطيبي: «من خاف أدلج»؛ قيل: من خاف من هجوم العدو عليه وقت السحر؛ يسير في الليل ويبلغ المأمّن»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «هذا مثل ضربه النبي ﷺ لسالك الآخرة، فإن الشيطان على طريقه؛ والنفس وأمانيه الكاذبة أعوانه. فإن تيقظ في سيره وأخلص النية في عمله أمِنَ من الشيطان وكيدِهِ، وَمِنْ قَطَعَ الطَّرِيقَ بِأَعْوَانِهِ، ثُمَّ أَرشَدَ إِلَى أَنَّ سُلُوكَ طَرِيقِ الْآخِرَةِ صَعْبٌ، وَتَحْصِيلُ الْآخِرَةِ مُتَعَسِّرٌ لَا يَحْصُلُ بِأَدْنَى سَعْيٍ، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ سُلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً» أَي: رَفِيعَةُ الْقَدْرِ، وَسُلْعَةُ اللَّهِ الْجَنَّةُ الْعَالِيَةُ الْبَاقِيَةُ، ثَمَنُهَا الْأَعْمَالُ الْخَالِصَةُ الْبَاقِيَةُ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّكَ يُوَفِّيهِمْ خَيْرَ أَمْلًا﴾^(٣)»^(٤).

وقال أيضًا: «والمراد بالخوف كَفَّ الْجَوَارِحِ عَنِ الْمَعَاصِي وَتَقْيِيدُهَا

(١) أخرجه: البخاري في التاريخ (١١١/٢)، والترمذي (٢٤٥٠/٥٤٦/٤) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر»، والحاكم (٣٠٨-٣٠٧/٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٨٨١/٥١٢/١)، وعبد بن حميد في المنتخب (١٤٦٠/٤٢٥)، والقضاعي (٤٠٦/٢٥٠/١). وانظر السلسلة الصحيحة رقم (٢٣٣٥).

(٢) الكاشف (٣٣٨٤/١١).

(٣) الكهف: الآية (٤٦).

(٤) الكاشف (٣٣٨٥-٣٣٨٤/١١).

بالطاعات، وإلا فهو حديث نفس، وحركة خاطر لا يستحق أن يسمّى خوفاً، وذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحسّ رجع القلب إلى الغفلة، قال الفضيل: (إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت، فإنك إذا قلت: لا؛ كفرت، وإذا قلت: نعم؛ كذبت) أشار به إلى الخوف الذي هو كفت الجوارح عن المعاصي^(١).

* عن أبي الدرداء: «أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقص على المنبر يقول: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۝﴾ . فقلت: وإن زنا وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ الثانية: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۝﴾ . فقلت الثانية: وإن زنا وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ في الثالثة: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۝﴾ . فقلت الثالثة: وإن زنا وإن سرق يا رسول الله؟ قال: وإن رغم أنف أبي الدرداء»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال الطحاوي: «تأملنا هذا الحديث لنقف على المراد به إن شاء الله، فوجدنا خوف مقام الرب ﷻ مرتبة جلييلة، ووجدنا ثوابها عنده ﷻ ثواباً عظيماً، ووجدناها تمنع من صغير معاصي الله ﷻ ومن كبيرها، وكما روي عن مجاهد في قول الله ﷻ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۝﴾ ، قال: إذا هم بمعصية، فذكر مقام الله ﷻ عليه في الدنيا تركها...

وكان محالاً أن يخالط ذلك الخوف من مقام الله ﷻ من يركب الزنى والسرقه، فعقلنا بذلك أن الزنى والسرقه اللذين أريدا في هذا الحديث إنما هما زنى وسرقه قد كانا في حال ممن كانا منه، ثم زال عن ذلك الحال إلى خوف مقام ربه ﷻ، الخوف الذي يمنعه من الوقوع في شيء من ذلك، ولما كانت هاتان الحالان، كلّ واحدة منهما ضد الأخرى، عقلنا بذلك أن كلّ واحدة منهما كانت في حال عدم الأخرى، فكانت الحال المذمومة في البدء، ثم تليها الحال المحموده، فصار صاحبها فيها إلى خوف مقام ربه، وردّ السرقه على من سرقها منه، وطلب وعد ربه، وخاف

(١) المصدر نفسه (١١/٣٣٨٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣٥٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٨/١١٥٦٠) واللفظ له، قال الهيثمي (٧/١١٨): «رجال أحمد رجال الصحيح».

وعيده، وكان بذلك من أهل ما ذكر في هذا الحديث، وإن كان قد زنى، وقد سرق في حال قد نزع عنها إلى حال محمودة صار إليها.

وقد وجدنا في ذلك في كتاب الله ﷻ ما قد دلّ على ذلك، وهو قوله فيه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْمَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مِنْهَا ۖ﴾ (١)، فأعلمنا ﷻ أن من كان من أهل هذه الأفعال كان من أهل هذا الوعيد، ثم أعقب ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (٢) فكان من صار إلى هذه الحال صار من أهل هذا الوعد، وخرج من أهل الوعيد، فدلّ ذلك أن أحوال الزنى والسرقة غير أحوال خوف مقام الله ﷻ، وإن كان كل واحد من الحالين كانت والحالة الأخرى منهما معدومة، وفيما ذكرنا بيان لما وصفنا، والله نسأله التوفيق» (٣).

* عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن» (٤).

* عن أبي موسى الأشعري ﷺ في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ﴾ (٥) قال: «جنتان من ذهب للسابقين، وجنتان من فضة للتابعين» (٥).

★ فوائد الحديثين:

قال ابن كثير: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ﴾ (٦) بين يدي الله ﷻ يوم القيامة، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٦) ولم يطع ولا أثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما قال

(٢) الفرقان: الآية (٧٠).

(١) الفرقان: الآيات (٦٨ و٦٩).

(٣) شرح مشكل الآثار (١٠/١٦٠-١٦٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/٤١١)، والبخاري (٨/٨٠٣/٤٨٧٨) واللفظ له، ومسلم (١/١٦٣/١٨٠)، والترمذي

(٤/٥٨١/٢٥٢٨)، والنسائي في الكبرى (٤/٤١٩-٤٢٠/٧٧٦٥)، وابن ماجه (١/١٨٦/٦٦).

(٥) أخرجه: ابن أبي شيبة (٧/١٤١/٣٤٤٨١٤)، والبيهقي في البعث (ص: ١٤٠، رقم: ٢٤٠-٢٤١)، والحاكم

(٢/٤٧٤-٤٧٥) وسكت عليه، وقال الذهبي: «صحيح على شرط مسلم».

(٦) النازعات: الآية (٤٠).

البخاري . . » ثم ساق حديث أبي موسى .

قوله : « وما بين القوم . . » الحديث ، قال الغنيمان : « هذا الشاهد من الحديث للباب ؛ إذ فيه التصريح بقرب نظرهم إلى ربهم ، فإذا أراد الله تعالى أن ينعمهم ويزيد في كرامتهم رفع رداء الكبرياء عن وجهه فنظروا إليه »^(١) .
وبؤب الإمام النووي : « باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى » .

وقال : « اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً ، وأجمعوا أيضاً على وقوعها في الآخرة ، وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين ، وزعمت طائفة من أهل البدع : المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة ؛ أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه ، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً ، وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح ، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين ، ورواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ ، وآيات القرآن فيها مشهورة ، واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبة مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة ، وكذلك باقي شبههم ، وهي مستقصاة في كتب الكلام ، وليس بنا ضرورة إلى ذكرها هنا »^(٢) .

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد (٢/ ٥٤) .

(٢) شرح صحيح مسلم (٣/ ١٤-١٥) .

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِيَهُمَا آلاءٌ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾^(١)

★ غريب الآية:

أفنان: قال ابن عطية: «(الأفنان) يحتمل أن يكون جمع فتن، وهو فتن الغصن، وهذا قول مجاهد، فكأنه مدحها بظلالها وتكاثف أغصانها، ويحتمل أن يكون جمع فن، وهو قول ابن عباس، فكأنه مدحها بكثرة أنواع فواكهها ونعيمها»^(٢).

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي: أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة»^(٣).

وقال ابن ناصر السعدي: «أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة -نعيم الظاهر والباطن- ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أن فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة»^(٤).

وقال السمرقندي: «ثم قال: ﴿فَيَأْتِيَهُمَا آلاءٌ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: قد وعدتكم الجنة والراحة، فكيف تنكرون وحدانية الله ونعمته»^(٥).

* * *

(١) الرحمن: الآيتان (٤٨ و ٤٩).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٢٣٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٧).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣١).

(٥) بحر العلوم (٣/ ٣١٠).

قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السمرقندي: «يعني في البساتين نهران من ماء غير آسن، أي: غير متغير.
ثم قال: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: جعل الأنهار نزاهة لكم زيادة في
النعمة، فكيف تنكرون قدرة الله تعالى ونعمته؟!»^(١).

* * *

(١) بحر العلوم (٣/ ٣١٠).

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ زَوْجَانِ﴾ ٥٢ ﴿فِي آيِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٥٣

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال القنوجي: «﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ زَوْجَانِ﴾ ٥٢» هذا صفة ثلاثة لـ ﴿جَنَّاتٍ﴾، والزوجان: الصنفان والنوعان، والمعنى أن في الجنتين من كل نوع يتفكه به في الدنيا ضربين، يسلتذ بكل نوع من أنواعه..

﴿فِي آيِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٥٣ فإن في مجرد تعداد هذه النعم ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير، والترهيب عن فعل الشر ما لا يخفى على من يفهم، وذلك نعمة عظمية، ومنة كبرى، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه^(١).

* * *

(١) فتح البيان (١٣/٣٣٩).

قوله تعالى: ﴿مُتَكِينٍ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَنَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٥﴾ فَإِنِّيَ إِلَآءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٦﴾﴾

★ غريب الآية:

إستبرق: الإستبرق: الدباج الغليظ.

جنى: الجنى: ما يجنى من الثمر وصلح لذلك. قال الشاعر:

هذا جنائي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه
داني: قريب.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها، أي: جلوس تمكن واستقرار وراحة، كجلوس الملوك على الأسرة. وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله ﷻ، حتى إن بطائناتها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بطواهرها التي تلي بشرتهم؟!»

﴿وَحَنَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى هو الثمر المستوي، أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع»^(١).

قال ابن كثير: «﴿وَحَنَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ثمرهما قريب إليهم، متى شاؤوا تناولوه على أي صفة كانوا؛ كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانَةٌ﴾^(٢) وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا﴾^(٣)، أي: لا تمتنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها»^(٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣١).

(٢) الحاقة: الآية (٢٣).

(٣) الإنسان: الآية (١٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤٧٩/٧).

قال الطبري: «وقوله: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ يقول - تعالى ذكره -: فبأي آلاء ربكما - معشر الثقلين، التي أنعم عليكما من أناب أهل طاعته منكم هذا الثواب، وأكرمهم هذه الكرامة - تكذبان»^(١).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٥٠).

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ فَصِيرَتُ الطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٧﴾ فَإِيَّاءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٨﴾﴾

★ غريب الآية:

قاصرات: القَصْرُ: كَفُكْ نَفْسِكَ عَنْ شَيْءٍ، وَقَصَرْتُ نَفْسِي عَلَى كَذَا أَقْصَرَهَا قَصْرًا. وَقَصَرْتُ طَرْفِي، أَي: لَمْ أَرْفَعْهُ إِلَى مَا لَا يَنْبَغِي. وَقَاصِرُ الطَّرَفِ قَرِيبٌ مِنَ الْخَاشِعِ. وَقَاصِرَاتُ الطَّرَفِ، أَي: قَصَرْنَ طَرْفَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ؛ لَا يَرْفَعْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ وَلَا يَرُدْنَ بَدَلًا.

الطَّرْفُ: الْعَيْنُ، لَا يُجْمَعُ؛ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ، أَوْ اسْمٌ جَامِعٌ لِلْبَصَرِ، لَا يُشْنَى وَلَا يُجْمَعُ، وَقِيلَ: أَطْرَافٌ.

لَمْ يَطْمِئِنَّ: الطَّمْتُ فِي الْأَصْلِ: دَمُ الْحَيْضِ وَدَمُ الْإِفْتِضَاضِ. وَمَعْنَى ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ﴾: لَمْ يَفْتَضِضْنَ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ أَحَدٌ. وَبَعِيرٌ لَمْ يَطْمُتْ: إِذَا لَمْ يَمْسِهِ حَبْلٌ وَلَا رَحْلٌ. قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

دُفِعْنَ إِلَيَّ لَمْ يَطْمِئِنَّ قَبْلِي وَهْنٌ أَصْحُ مِنْ بَيْضِ النِّعَامِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر الفرش وعظمتها، قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أَي: فِي الْفَرَشِ ﴿فَقَصِيرَتُ الطَّرَفِ﴾ أَي: غَضِيضَاتٍ عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَا يَرِينَ شَيْئًا أَحْسَنَ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَعَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ. . . ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أَي: بَلْ هُنَّ أَبْكَارٌ غُرُبُ أَتْرَابٍ، لَمْ يَطَّأَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى دُخُولِ مُؤْمِنِي الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ»^(١).

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٧٩).

قال ابن القيم: ﴿كَثُرَ يَطْمِئُنُّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ هذا - والله أعلم - معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم.

ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ﴾ ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٥٧﴾، وأمثال هذه من العمومات، وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد. ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد؛ فإن الوعد فضله والوعيد عدله، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه. وأيضاً فإن دخول عاصيهم النار إنما كان لمخالفته أمر الله، فإذا أطاع الله أدخل الجنة. وأيضاً فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه. وأيضاً فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه، وكل من غفر له دخل الجنة ولا بد، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار. وأيضاً فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم، وأنهم مكلفون باتباعه، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٢١﴾، وقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأنهم يقولون: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴿٢٣﴾، فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة. وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم، فتعين دخولهم الجنة، والله أعلم. وإذا ثبت تكليفهم بانقسامهم إلى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة على نحو طبقات الإنس المتقدمة، إلا أنهم ليس فيهم رسول، وأفضل درجاتهم درجة الصالحين، ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها، فقد دل القرآن على انقسامهم إلى ثلاثة أقسام: صالحين، ودونهم،

(١) الكهف: الآيات (٣٠ و٣١).

(٢) النساء: الآية (٦٩).

(٣) غافر: الآيات (٨ و٧).

وكفار . وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين . والله أعلم^(١) .
قال السمرقندي : « فَإِنِّي ءَالَآءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ » يعني : جعل لكم أزواجًا موافقة لطبعكم ، وهن لا يَرَيْنَ غيركم ، فكيف تنكرون الله تعالى ؟^(٢) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في صفة نساء أهل الجنة وما فيها من النعيم

* عن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا : الرجال في الجنة أكثر أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أولم يقل أبو القاسم عليه السلام : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم . وما في الجنة أعزب^(٣) .

* فوائد الحديث :

تقدم في سورة (الزمر) الآية (٧٣) ، و(مريم) تحت الآيتين (٦٢ و٦٣) .
* عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد - يعني سوطه - خير من الدنيا وما فيها . ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها^(٤) .

* فوائد الحديث :

انظر شرحه في سورة (البقرة) الآية (٢٥) .

(١) طريق الهجرتين (ص : ٤٢٦-٤٢٧) .

(٢) بحر العلوم (٣/٣١٠) .

(٣) أخرجه : أحمد (٢/٢٣٠ و٢٤٧) ، والبخاري (٦/٣٩٢ و٣٢٤٦) ، ومسلم (٤/٢١٧٨-٢١٧٩/٢٨٣٤) ، وابن ماجه (٢/١٤٩٤/٤٣٣٣) .

(٤) أخرجه : أحمد (٣/١٤١ و٢٦٣ و٢٦٤ و١٤٧) ، والبخاري (٦/١٨ و٢٧٩٦) ، ومسلم (٣/١٤٩٩/١٨٨٠) مختصرًا ، والترمذي (٤/١٥٦/١٦٥١) وقال : « حديث صحيح » ، وابن ماجه (٢/٢٧٥٧) .

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون»^(١).

انظر شرحه في سورة (التوبة) الآية (٧٢).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/٤١١)، والبخاري (٨/٨٠٤/٤٨٧٩)، ومسلم (٤/٢١٨٢/٢٨٣٨)، والترمذي (٤/٢٥٢٨/٥٨١) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/٤٧٩/١١٥٦٢).

قوله تعالى: ﴿كَانَ هَٰئِنَ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبَٰئِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : كأن هؤلاء القاصرات الطرف اللواتي هنّ في هاتين الجنتين في صفائهنّ الياقوت الذي يرى السلك الذي فيه من ورائه، فكذلك يرى مخّ سوقهنّ من وراء أجسامهنّ، وفي حسنهنّ الياقوت والمرجان»^(١).

قال الرازي: «وهذا التشبيه فيه وجهان: أحدهما: تشبيه بصفائهما، وثانيهما: بحسن بياض اللؤلؤ وحمرة الياقوت، والمرجان: صغار اللؤلؤ، وهي أشدّ بياضاً وضياءً من الكبار بكثير»^(٢).

قال السمرقندي: «﴿فَبَٰئِءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: جعلهن بحال تتلذذ أعينكم بالنظر إليهن، فكيف تنكرون وحدانية الله ونعمته؟»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٥٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/١٣١).

(٣) بحر العلوم (٣/٣١١).

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: هل ثواب خوف مقام الله ﷻ لمن خافه فأحسن في الدنيا عمله، وأطاع ربه، إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربُّه، بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا ما وصف في هذه الآيات من قوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤١﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾»^(١)»^(٢).

وقال ابن ناصر السعدي: «أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين»^(٣).

قال القنوجي: «﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملمتها الإحسان إليكم في الدنيا والآخرة، بالخلق والرزق والإرشاد إلى العمل الصالح، والزجر عن العمل الذي لا يرضاه»^(٤).

* * *

(١) الرحمن: الآيات (٤٦-٥٨).

(٢) جامع البيان (١٥٣/٢٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣١).

(٤) فتح البيان (٣٤٥/١٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿١٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هاتان جنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿١٦٦﴾﴾، وقد تقدم في الحديث: «جنتان من ذهب؛ آبيتها وما فيهما، وجنتان من فضة؛ آبيتها وما فيهما»، فالأوليان للمقربين، والآخران لأصحاب اليمين»^(١).

قال القنوجي: «﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنها كلها حق ونعم لا يمكن جحدها»^(٢).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٨١).

(٢) فتح البيان (١٣/ ٣٤٥).

قوله تعالى: ﴿مُدْهَامَتَانِ ۚ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٥﴾

★ غريب الآية:

مدهامتان: خضراوان شديدتا الخضرة، والدُّهْمَة في اللغة: السواد. والعرب تقول للشجر: السواد؛ لخضرته.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ يقول - تعالى ذكره - مسوادتان من شدة خضرتهما»^(١).

قال القنوجي: «﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر»^(٢).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٥٤).

(٢) فتح البيان (١٣/٣٤٦).

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿١٦٦﴾ فَإِنَّ آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦٧﴾﴾

★ غريب الآية:

نضَّاخَتَانِ: النضخ: فوق النضج بالحاء؛ لأن النضج بالحاء: الرش والرشح، والنضخ بالحاء: فوران الماء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿١٦٦﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: في هاتين الجنتين -اللتين من دون الجنتين اللتين هما لمن خاف مقام ربه- عينان نضَّاخَتَانِ، يعني: فوّارتان.

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي تنضخان به، فقال بعضهم: تنضخان بالماء..

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهما ممتلئتان..

وقال آخرون: تنضخان الماء والفاكهة..

وقال آخرون: نضَّاخَتَانِ بألوان الفاكهة..

وقال آخرون: نضَّاخَتَانِ بالخير..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: غني بذلك أنهما تنضخان بالماء؛ لأنه المعروف بالعيون إذ كانت عيون الماء.

وقوله: ﴿فَإِنَّ آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦٧﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأي نِعَم ربكما -التي أنعم عليكم بإثابته محسنكم هذا الثواب الجزيل - تكذبان؟^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وفي هاتين الجنتين المدهامتين فاكهة ونخل ورمان .

وقد اختلف في المعنى الذي من أجله أعيد ذكر النخل والرمان ؛ وقد ذكر قبل أن فيهما الفاكهة ، فقال بعضهم : أعيد ذلك لأن النخل والرمان ليسا من الفاكهة .

وقال آخرون : هما من الفاكهة ؛ وقالوا : قلنا : هما من الفاكهة ؛ لأن العرب تجعلهما من الفاكهة ، قالوا : فإن قيل لنا : فكيف أعيدا وقد مضى ذكرهما مع ذكر سائر الفواكه ؟ قلنا : ذلك كقوله : ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(١) ، فقد أمرهم بالمحافظة على كل صلاة ، ثم أعاد العصر تشديدا لها ، كذلك أعيد النخل والرمان ترغيبا لأهل الجنة . وقال : وذلك كقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُمَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) ، ثم قال : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ ، وقد ذكرهم في أول الكلمة في قوله : ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾^(٣) .

قال القنوجي : «والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة ، لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه ، كما حكاه الزجاج والأزهري وغيرهما . وقيل : إنما خصهما لكثرتهم في أرض العرب ؛ قال الخطيب : كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا ؛ لأن النخل عامة قوتهم ، والرمان كالشراب ، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما ، وكانت الفواكه عندهم الثمار التي يعجبون بها ، وقيل : خصهما لأن النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم ، وبه قال

(١) البقرة : الآية (٢٣٨) .

(٢) الحج : الآية (١٨) .

(٣) جامع البيان (٢٧/١٥٧) .

الشافعي، فيحنت بأكل أحدهما من حلف لا يأكل فأكهة، وحيثذ فعطفهما عليها من عطف الخاص على العام تفصيلاً، ولم يخالف في ذلك إلا أبو حنيفة رحمهُ اللهُ، وقد خالفه صاحبه أبو يوسف ومحمد، وهو قول خلاف قول أهل اللغة، ولا حجة له في الآية.

﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملها هذه النعم التي في جنات النعيم، ومجرد الحكاية لها تؤثر في نفوس السامعين، وتجذبهم إلى طاعة رب العالمين^(١).

* * *

(١) فتح البيان (٣٤٧/١٣).

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾

★ غريب الآية:

الخيرات: جمع خَيْرَةٍ، وهي المرأة الفاضلة في كل شيء. قال الشاعر:
ولقد طعنت مجامع الربلات ربلات هند خيرة الملكات

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الطبري: «قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: في هذه الجنان الأربع -اللواتي اثنتان منهن لمن يخاف مقام ربه، والأخريان منهن من دونهما المدهامتان- خيرات الأخلاق، حسان الوجوه»^(١).

قال السعدي: «فجمع بين جمال الظاهر والباطن وحسن المخلوق والمخلوق»^(٢).

قال القنوجي: «﴿فَإِنِّي ءَالَاءٌ رَّيَكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾ فإن شيئاً منها كائن ما كان لا يقبل التكذيب»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٥٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٢).

(٣) فتح البيان (١٣/٣٤٨).

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۖ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَٰهٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۖ ﴿٧٨﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن المخدرات الخفريات»^(١).

قال القنوجي: «﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رِيكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ - أي: الذي صوركم فأحسن صوركم، وجعل لكم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر - ﴿تُكَذِّبَانِ﴾؟ أبهذه النعم؟ أم بغيرها؟»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس في قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۖ ﴿٧٦﴾﴾ قال: «حور سود الحديق»^(٣).

* فوائد الأثر:

الحديث بيان لمعنى الحور، والحور: جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها. نص عليه القرطبي في التفسير^(٤)، والحدقة: السواد المستدير وسط العين، كما في 'اللسان' لابن منظور.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٢).

(٢) فتح البيان (١٣/٣٤٩).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٧٨/٢٧)، وعلقه البخاري (٤٢٦/٨) بصيغة الجزم.

(٤) (١٧٨/١٧).

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾

★ غريب الآية:

رفرف: وسائد خضر. وقيل: كل ثوب عريض عند العرب، فهو رفرف. قال ابن مقبل:

وإنا لنزالون تغشى نعالنا سواقط من أصناف ريط ورفرف
عبقري: العبقري: عتاق الزرابي والطنافس المخملية الموشاة. وهي اسم جنس واحدها: عبقرية. والعبقري عند العرب: كل شيء مستغرب فائق؛ نسبة إلى عبقر؛ قرية تزعم العرب أن الجن تسكنها وتصنع بها صنائع عجيبة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: أصحاب هاتين الجنتين، متكؤهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي تحت المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر، ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعومة الملمس. وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين، كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ﴿٧٦﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الآخرين، فقال في الأوليين: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿٧٥﴾ وفي الآخرين: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾ ﴿٧٧﴾. ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاجة.

(١) الرحمن: الآية (٦٢).

(٢) الرحمن: الآية (٥٠).

(٣) الرحمن: الآية (٦٦).

وقال في الأولين: ﴿ذَرَانَا أَفَانِ﴾ (١) ولم يقل ذلك في الآخرين.

وقال في الأولين: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فِكْهَةٍ زَوَّجَانِ﴾ (٢) وفي الآخرين: ﴿فِيهِمَا فِكْهَةٌ وَمَخْلٌ وَرَمَّانٌ﴾ (٣) وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأولين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (٤)، ولم يقل ذلك في الأخيرتين؛ بل قال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ﴾ (٥).

وقال في الأولين، في وصف نساءهم وأزواجهم: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْفَرْفَرِ لَبَّيْنَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (٦)، وقال في الآخرين: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾ (٧)، وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأولين: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (٨)، فدل ذلك أن الأولين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين. ومجرد تقديم الأولين على الآخرين، يدل على فضلهما.

فهذه الأوجه يعرف فضل الأولين على الآخرين، وأنها معدتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد الله الصالحين، وأن الآخرين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كلاً منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً منه، ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه» (٩).

قال السمرقندي: «﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: فبأي نعمة من نعماء ربكما أيها الجن والإنس تتجاهدان مع هذه الكرامات التي بين الله تعالى لكما؟ لتعلموا، فتناولوا تلك الكرامات» (١٠).

(١) الرحمن: الآية (٤٨).

(٢) الرحمن: الآية (٦٨).

(٣) الرحمن: الآية (٥٤).

(٤) الرحمن: الآية (٧٦).

(٥) الرحمن: الآية (٦٠).

(٦) الرحمن: الآية (٧٢).

(٧) الرحمن: الآية (٦٠).

(٨) تفسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٢).

(٩) بحر العلوم (٣/٣١٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير لفظ (العبقري)

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا على بئر أنزع منها جاءني أبو بكر وعمر، فأخذ أبو بكر الدلو فنزع ذنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر فاستحالت في يده غرباً، فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه، فنزع حتى ضرب الناس بعطن»^(١).

★ غريب الحديث:

أنزع: أي: أملأ الماء بالدلو.

ذنوباً: بفتح المعجمة وبالنون وآخره موحدة: الدلو الكبيرة إذا كان فيها الماء. استحالت في يده غرباً: بفتح المعجمة وسكون الراء بعدها موحدة: أي دلوا عظيمة.

عبقرياً: بفتح فسكون بعده قاف وراء مكسورة ثم تحتانية ثقيلة. وسيأتي معناه. يفري: بفتح أوله وسكون الفاء وكسر الراء وسكون التحتانية. فريته: بفتح الفاء وكسر الراء وتشديد التحتانية المفتوحة، وروي بسكون الراء وخطأه الخليل، ومعناه: يعمل عمله البالغ.

بعطن: بفتح المهملتين وآخره نون، هو مناخ الإبل إذا شربت ثم صدرت.

★ فوائد الحديث:

استدل الحافظ ابن كثير بهذا الحديث لتقوية ما ذكره الخليل بن أحمد في تفسير العبقري بأنه كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك^(٢).

وكذا قال القرطبي قبله ثم قال: «وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قول النبي ﷺ: «فلم أر عبقرياً يفري فريته»، فقال: رئيس قوم وجليلهم»^(٣).

(١) أخرجه: أحمد (٢٧/٢-٢٨، ٣٩، ٨٩)، والبخاري (٢٦/٧)، ومسلم (٤/١٨٦٠-٢٣٩٢ و٢٣٩٣)،

والترمذي (٤٦٨-٤٦٩/٤٦٩) وقال: «صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (٤/٣١٦/٨٦٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٥٠٤). (٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٩٢).

قوله تعالى: ﴿بِذِكْرِ اسْمِ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿٧٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «تعظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اسم الله الأعظم

* عن أنس بن مالك قال: «كنت مع رسول الله ﷺ جالساً، يعني ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهد دعا فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك. فقال النبي ﷺ لأصحابه: تدرون بما دعا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»^(٢).

* عن ثوبان قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام»^(٣).

* عن ربيعة بن عامر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أَلِظُوا بِذِي الْجَلَالِ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١٥٨/٣)، وأبو داود (١٦٧/٢-١٦٨/١٤٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٠٥)، والترمذي (٥١٤/٥-٣٥٤٤)، وقال: «هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس»، والنسائي (٣/٥٩-٦٠/١٢٩٩) واللفظ له، وابن ماجه (٢/١٢٦٨-٣٨٥٨)، وصححه الحاكم (١/٥٠٣-٥٠٤) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٣/١٧٥-١٧٦/٨٩٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/٢٧٥-٢٧٩/٢٨٠)، ومسلم (١/٤١٤/٥٩١) واللفظ له، وأبو داود (٢/١٧٦-١٧٧/٣١٥١)، والترمذي (٢/٩٧-٩٨/٣٠٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٣/٧٧-٧٨/٦٣٣١)، وابن ماجه (١/٣٠٠/٩٢٨).

والإكرام^(١).

★ غريب الحديث:

أَلْظُوا: يقال: أَلْظَ بالشيء يُلْظَ إلْظَاظًا: إذا لزمه وثابر عليه. أفاده في النهاية.
والإلْظاظ: الإلحاح، كما قال الجوهرى.

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن ناصر السعدي: (ذو الجلال والإكرام) أي: ذو العظمة والكبرياء
والمجد الذي يعظم ويبجل، ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل
والجود، والداعي لأن يكرم أوليائه وخوَصَّ خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه
أولياؤه ويجلّونه ويعظمونه ويحبّونه وينبئون إليه ويعبدونه^(٢).

قال القرطبي: «وقوله: «تباركت يا ذا الجلال والإكرام» تباركت: تفاعلت من
البركة، وهي الكثرة والنماء. ومعناه: تعاظمت، إذا كثرت صفات جلالك
وكمالك، وذا الجلال: ذا العظمة والسلطان، وهو على حذف حرف النداء،
تقديره: يا ذا الجلال، والإكرام: الإحسان وإفاضة النعم»^(٣).

قال ابن الأثير: «في حديث الدعاء: «أَلْظُوا بِ(يا ذا الجلال والإكرام)» أي:
الزموه واثبتوا عليه، وأكثروا من قوله والتلفظ به في دعائكم»^(٤).

قلت: هذه السورة المباركة من السور التي تميزت عن باقي السور بآياتها التي
تختم بالذكر بالنعم، وأن كل نعمة من الله حدثت للإنس والجن فإنها منه وإليه،
وبدأت السورة المباركة بأعظم نعمة وهي نعمة القرآن، وافتتحت بأعظم اسم بعد
اسم الله، وهذا الاسم المبارك منه تنطلق كل الخيرات، وأعظم خير نزل للإنس
والجن هو القرآن، فالهداية به هي الهداية، ومن لم يهتد به فلا هداية له ﴿إِنَّ هَذَا
الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٥). واسترسلت السورة في تعداد الكثير من النعم، ومن
أعظمها الخلق والإيجاد. فإخراج الإنسان من العدم إلى الوجود، وجعله بما هو

(١) أخرجه: أحمد (١٧٧/٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٣/٤٧٩/٦)، وصححه الحاكم (٤٩٨-٤٩٩)،

وافقه الذهبي. انظر 'السلسلة الصحيحة' (١٥٣٦). وفي الباب عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) المفهم (٢/٢١١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).

(٥) الإسراء: الآية (٩).

(٤) النهاية (٤/٢٥٢).

عليه من كمال في الخلق والصفات ؛ لمن أعظم النعم والآيات ، ومن أعظم الأدلة على ربوبيته ؛ فيجب أن يعلم الإنسان أنه مربوب داخل تحت ربوبية الله ﷻ ، وهذا أكبر دافع له للانقياد لأوامر الله تعالى ونواهيه . فمن كانت هذه صفته فلا ينبغي أن يعصى ويجب أن يطاع . ومن تدبيره للكون ما نراه في البحار من الآيات ، والتنسيق العجيب ، ومن المخلوقات التي تعيش فيه ما يبهر ويحير ، وينقلب البحر برًا فتجري فيه السفن كأنها مدن متحركة تحمل العدد الكبير من الناس والمتاع .

وكل هذا وغيره يتعرض للفناء والنهاية ، ويبقى -تبارك وتعالى- وحده ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يلحقه فناء ولا عدم ، وتذكر السورة أعظم صفة له -تبارك وتعالى- ، فيوصف بها بما يليق به من جلال وإكرام ، وفي هذا رد على أئمة الضلال ، المحرفين لكتاب الله بتبريراتهم الباردة الفاسدة التي لا مستند لها ، إلا التأثير بمنطق اليونان الذي أفسد على الأمة عقيدتها .

فهو -تبارك وتعالى- الذي يملك الدنيا والآخرة ، فيحاصر الجن والإنس فلا مهرب لهم ولا مفر إلا إليه -تبارك وتعالى- ، فيخلصهم من كل شدة يتعرضون لها في الدنيا ، ويسلمهم من هول المحشر والقيامة . ويذكر -تبارك وتعالى- صفة فناء هذا العالم ، وأن ما عليه من إحكام وبناء يتلاشى كالصوف المنفوش ، كما وصفه تعالى : ﴿ وَكَوْنُوا أَلْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ^(٢) ، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُفَّتْ ^(٣) ، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ ۖ يَنْزِلُ الْمَلَكُوتُ نَزِيرًا ^(٤) .

ثم يذكر تعالى صفات المشركين والمنحرفين والمجرمين ، وأن لهم علامات وسمات يعرفون بها ولا تتخلف فيهم ، وأن الله فاعل بكل مجرم معادٍ لدينه ورسله وكتبه ؛ ما يفعله بأوليائه ، فالجزاء من جنس العمل .

وفي مقابل ذلك ما يمن به تعالى ويتفضل من نعم متعددة في الآخرة التي لا تعرف إلا بالأسماء ، وأما حقائقها وأشكالها وأوصافها فلا يعرفها المنعم عليه

(١) القارعة : الآية (٥) .

(٢) طه : الآية (١٠٥) .

(٣) الانشقاق : الآيتان (١ و ٢) .

(٤) الفرقان : الآية (٢٥) .

إلا عند الوقوف عليها ، فهناك يصل إلى كنهها .

وقد أصبحت هذه الآية أصلاً وقاعدة للجزاء في الدنيا والآخرة ويضاف إليها حديث الرسول ﷺ : «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»^(١) و«من أحسن إليكم فكافئوه . .»^(٢) الحديث .

وأما اللثام - ومع الأسف هم الكثيرون - فلا يرون لله وقاراً ، فيعبدون غيره وهو يرزقهم ويطعمهم ، ويحاربون الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهم دعاة الهدى والخير ، وهم من ينبغي أن يتبعوا ويطيعوا .

* * *

(١) أخرجه : أحمد (٣٠٢/٢) ، وأبو داود (١٥٧/٥ - ٤٨١١/١٥٨) ، والترمذي (٤٩٨ - ٤٩٩/٤ - ١٩٥٤) وقال : «هذا حديث حسن صحيح» ، وصححه ابن حبان (١٩٨/٨ - ٣٤٠٧/١٩٩) الإحسان) ، كلهم من حديث أبي هريرة ؓ .

(٢) أخرجه : أحمد (٦٨/٢ و ٩٩) ، وأبو داود (٣١٠/٢ - ١٦٧٢) ، والنسائي (٢٥٦٦/٨٧/٥) ، وصححه ابن حبان (٣٤٠٨/١٩٩/٨) الإحسان) ، والحاكم (٤١٢/١) على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي . كلهم من حديث عبد الله بن عمر ؓ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الواقعة

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة الرسول ﷺ بسورة (الواقعة)

* عن جابر بن سمرة قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي نحوًا من صلاتكم؛ كان يخفف الصلاة، وكان يقرأ في صلاة الفجر بالواقعة ونحوها من السور»^(١).

* * *

(١) أخرجه: عبد الرزاق (٢/١١٥/٢٧٢٠)، وأحمد (٥/١٠٤)، والطبراني (٢/٢٢٢/١٩١٤)، والبيهقي (٣/١١٩)، وصححه الحاكم (١/٢٤٠) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٥/١٣١/١٨٢٣) واللفظ له، وابن خزيمة (١/٢٦٥/٥٣١).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
 إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْقَعِنَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني - تعالى ذكره - بقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿١﴾: إذا نزلت صيحة القيامة، وذلك حين ينفخ في الصور لقيام الساعة»^(١).

قال ابن كثير: «(الواقعة) من أسماء يوم القيامة؛ سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ﴿١٥﴾»^(٢) ﴿٣﴾.

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لَيْسَ لَوْقَعِنَا كَاذِبَةٌ﴾ ﴿١﴾ يقول تعالى: ليس لواقعة الواقعة تكذيب، ولا مردودية، ولا مثنوية»^(٤).

وقال القنوجي: «والمعنى أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب لها أصلاً، أو لا تكون هناك نفس تكذب على الله وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة ووقوع القيامة؛ لأن كل نفس تكذب حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات»^(٥).

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَوْقَعِنَا كَاذِبَةٌ﴾ ﴿١﴾، أي: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها؛ كما قال: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾^(٦)، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾»^(٧)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْغُيْبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٨) ﴿٩﴾.

(١) جامع البيان (٢٧/١٦٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٨٨).

(٥) فتح البيان (١٣/٣٥٥).

(٧) المعارج: الآيتان (٢١).

(٨) الأنعام: الآية (٧٣).

(٩) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٨٨).

(٢) الحاقة: الآية (١٥).

(٤) جامع البيان (٢٧/١٦٦).

(٦) الشورى: الآية (٤٧).

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : الواقعة حيثئذ خافضة أقوامًا كانوا في الدنيا أعزاء إلى نار الله، وقوله: ﴿رَافِعَةٌ﴾ يقول: رفعت أقوامًا كانوا في الدنيا وضعاء إلى رحمة الله وجنته. وقيل: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى»^(١).

قال أبو السعود: «وهو تقرير لعظمتها وتهويل لأمرها؛ فإن الوقائع العظام شأنها كذلك، أو بيان لما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات، ورفع السعداء إلى الدرجات، ومن زلزلة الأشياء، وإزالة الأجرام عن مقارها بنثر الكواكب، وإسقاط السماء كسفًا، وتسيير الجبال في الجو كالسحاب. وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل»^(٢).

قال الشنقيطي: «قال بعض العلماء: تقديره: هي خافضة أقوامًا في دركات النار، رافعة أقوامًا إلى الدرجات العلى إلى الجنة، وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِمْ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾^(٥)، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقال بعض العلماء: تقديره: خافضة أقوامًا كانوا مرتفعين في الدنيا، رافعة أقوامًا كانوا منخفضين في الدنيا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾^(٦) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ

(١) جامع البيان (٢٧/١٦٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/١٨٨).

(٣) النساء: الآية (١٤٥).

(٤) طه: الآيتان (٧٥ و٧٦).

(٥) الإسراء: الآية (٢١).

﴿٣٥﴾ إلى قوله: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضَعُكَُونَ ﴿٣٦﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾^(١) إلى غير ذلك من الآيات .

وقال بعض العلماء : تقديره : خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة ، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٣٧﴾﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٣٨﴾﴾^(٣) .

﴿رَافِعَةٌ﴾ : أي رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة ، كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض ، كما قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴿٤٠﴾﴾^(٤) ؛ فقلوه : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لأنها لم يبق على ظهرها شيء من الجبال ، وقال تعالى : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿٤١﴾﴾^(٥) .

وقد قدمنا أن التحقيق الذي دل عليه القرآن ، أن ذلك يوم القيامة ، وأنها تسير بين السماء والأرض كسير السحاب الذي هو المزن .

وقد صرح تعالى بأن الجبال تحمل هي والأرض أيضًا يوم القيامة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَفُتِحَتْ وَحْدَهُ ﴿٤٢﴾ وَحُلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴿٤٣﴾﴾^(٦) الآية .

وعلى هذا القول ، فالمراد تعظيم شأن يوم القيامة ، وأنه يختل فيه نظام العالم ، وعلى القولين الأولين ، فالمراد الترغيب والترهيب ؛ ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله ، ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضًا ، وقد قدمنا مرارًا أن الصواب في مثل هذا حمل الآية على شمولها للجميع^(٧) .

* * *

(١) المطففين : الآيات (٢٩-٣٥) .

(٢) الانفطار : الآية (٢) .

(٣) التكوير : الآية (٢) .

(٤) الكهف : الآية (٤٧) .

(٥) النمل : الآية (٨٨) .

(٦) الحاقة : الآيتان (١٣ و ١٤) .

(٧) أضواء البيان (٧/ ٧٦٣-٧٦٤) .

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾

★ غريب الآية:

رجت: تزلزلت وتحركت حركة شديدة. والرجُّ: تحريك الشيء وإزعاجه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : إذا زلزلت الأرض فحرّكت تحريكًا؛ من قولهم: السهم يرتج في الغرض، بمعنى: يهتز ويضطرب»^(١).

قال ابن كثير: «أي: حرّكت تحريكًا فاهتزّت واضطربت بطولها وعرضها.. وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورًا رِيبًا إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَوْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)»^(٤).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٦٧).

(٢) الزلزلة: الآية (١).

(٣) الحج: الآية (١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٨٩).

قوله تعالى: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ﴾ ﴿٦﴾

★ غريب الآية:

بست: فُتَّتْ وتحطمت حتى صارت كالْبَسِيس، وهو الدقيق.

هباء: الهباء: الغبار.

منبثا: متفرقا ومنتشرا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قال أكثر المفسرين: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ﴾ ﴿٦﴾ أي: فتت تفتتًا حتى صارت كالْبَسِيسَة، وهي دقيق ملتوت بسمن، ومنه قول لص من غطفان أراد أن يخبز دقيقًا عنده فخاف أن يعجل عنه، فأمر صاحبيه أن يلتاه ليأكلوه دقيقًا ملتوتًا، وهو البسيصة.

لَا تَخْبِزَا خَبْرًا وَبَسًا بَسًا وَلَا تَطِيلَا بِمَنَاخٍ حَبَسَا
وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيًّا مَهِيلًا ۖ﴾ ﴿١١﴾، فقلوه: ﴿كَيْبًا مَهِيلًا﴾ أي: رملاً متهايلًا، ومنه قول امرئ القيس:
ويومًا على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفة لم تحلل
ومشابهة الدقيق المبسوس بالرمل المتهايل واضحة، فقلوه: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَغِيًّا مَهِيلًا﴾ مطابق في المعنى لتفسير ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ﴾ ﴿٦﴾ بأن بَسًا هو تفتيتها وطحنها كما ترى.

وما دلت عليه هذه الآية من أنها تسلب عنها قوة الحجرية، وتتصف بعد الصلابة والقوة باللين الشديد الذي هو كلين الدقيق والرمل المتهايل، يشهد له في الجملة تشبيهها في بعض الآيات بالصفوف المنفوش الذي هو العهن؛ كقوله تعالى:

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝﴾^(٢)، وأصل العهن أخص من مطلق الصوف؛ لأنه الصوف المصبوغ خاصة. ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كأن فتاة العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم
وقال بعضهم: الجبال منها جدد بيض وحمرة ومختلف ألوانه وغرايب سود، فإذا بست وفتت يوم القيامة وطيرت في الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح في الهوى، وهذا الوجه يدل عليه ترتيب كينونتها هباءً منبثاً بـ(الفاء) على قوله: ﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝﴾؛ لأن الهباء هو ما ينزل من الكوة من شعاع الشمس إذا قابلتها، ﴿مُنْبَثًا﴾ أي متفرقاً، ووصفها بالهباء المنبث أنسب؛ لكون البس بمعنى التفتيت والطحن.

الوجه الثاني: أن معنى قوله: ﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝﴾ أي: سيرت بين السماء والأرض، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسييرها؛ من قول العرب: بسست الإبل أبسها، بضم الباء، وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنى سقتها، ومنه حديث: «يخرج أقوام من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يبسون، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»^(٣).

وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تُسَرُّ الْجِبَالُ ۝﴾^(٤) الآية، وقوله: ﴿وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ۝﴾^(٥).

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (النمل) في الكلام على قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۝﴾^(٦).

الوجه الثالث: أن معنى قوله: ﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝﴾ نزعت من أماكنها وقلعت، وقد أوضحنا أن هذا الوجه راجع للوجه الأول مع الإيضاح التام لأحوال

(١) القارة: الآية (٥).

(٢) المعارج: الآيتان (٩٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢٢٠/٥)، والبخاري (١٨٧٥/١١١/٤)، ومسلم (١٠٠٨/٢-١٠٠٩/١٣٨٨)، والنسائي في الكبرى (٤٢٦٣/٤٨٢/٢) من حديث سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه.

(٤) الكهف: الآية (٤٧).

(٥) الطور: الآية (١٠).

(٦) النمل: الآية (٨٨).

الجبـال يوم القيامة وأطوارها بالآيات القرآنية، وفي سورة (طه) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ﴾^(١)، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ﴾^(٢) كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۖ﴾^(٣)، والهباء إذا انبث، أي: تفرّق واضمحلّ صار لا شيء، والسراب قد قال الله تعالى فيه: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾^(٤).

* * *

(١) طه: الآية (١٠٥).

(٢) النبأ: الآية (٢٠).

(٣) النور: الآية (٣٩).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٦٥-٧٦٦).

قوله تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ
الْيَمِينِ ۚ وَأَصْحَابُ الشِّمَّةِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَّةِ ۚ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ
ۚ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الخازن : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي : أصنافاً ﴿ثَلَاثَةً﴾ ، ثم فسر الأزواج فقال
تعالى : ﴿فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ يعني أصحاب اليمين .

واليمين ناحية اليمين ، وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وقال ابن
عباس : «هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه ، وقال الله
تعالى : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي» ، وقيل : هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم ،
وقيل : هم الذين كانوا ميامين ، أي : مباركين على أنفسهم وكانت أعمالهم صالحة
في طاعة الله ، وهم التابعون بإحسان . ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ تعجيب من حالهم في
السعادة . والمعنى : أي شيء هم ؟!

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَّةِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَّةِ ۚ﴾ : يعني أصحاب الشمال ، وهم الذين
يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، وقال ابن عباس : «هم الذين كانوا على شمال آدم
عند إخراج الذرية ، وقال الله تعالى لهم : هؤلاء إلى النار ولا أبالي» ، وقيل : هم
الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم ، وقيل : هم المشائيم على أنفسهم ، وكانت أعمالهم
في المعاصي ؛ لأن العرب تسمي اليد اليسرى : الشؤمى .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۚ﴾ قال ابن عباس : «هم السابقون إلى الهجرة ، السابقون
في الآخرة إلى الجنة» . وقيل : هم السابقون إلى الإسلام . وقيل : هم الذين صلّوا إلى
القبليتين من المهاجرين والأنصار . وقيل : هم السابقون إلى الصلوات الخمس .
وقيل : إلى الجهاد . وقيل : هم المسارعون إلى التوبة وإلى ما دعا الله إليه من
أعمال البر والخير . وقيل : هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة .

فإن قلت : لم أذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم عن أصحاب اليمين ؟

قلت : فيه لطيفة ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر في أول السورة من الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده ، فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب ، وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب ، فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا ، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا ، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ؛ ليجتهد أصحاب اليمين في القرب من درجتهم ، ثم أثنى على السابقين فقال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١) أي : من الله في جواره وفي ظل عرشه ودار كرامته ، وهو قوله : ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

ثلة: الثلثة، بالضم: الجماعة من الناس.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : جماعة من الأمم الماضية، وقليل من أمة محمد ﷺ، وهم الآخرون، وقيل لهم: الآخرون؛ لأنهم آخر الأمم»^(١).

قال ابن كثير: «وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾، أي: من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾، أي: من هذه الأمة..»

ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»..

والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها وعظم نبيها. ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب^(٢) ﴿٣﴾.

(١) جامع البيان (١٧٢/٢٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٢١/١)، والبخاري (٦٤٧٢/٣٦٩/١١)، ومسلم (١٩٩/١-٢٠٠/٢٢٠)، والترمذي (٤/

٥٤٥-٥٤٦/٢٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٤/٣٧٨/٧٦٠٤) من حديث ابن عباس ؓ.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٩٢-٤٩٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل السلف

* عن عبد الله بن مسعود قال: سئل النبي ﷺ أي الناس خير؟ قال: «قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»^(١).

★ غريب الحديث:

قرني: القرن من الناس أهل زمان واحد، قال الشاعر:
إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخُلِفْتَ في قرن فأنت غريب
وقيل: مقدار زمانه ثمانون سنة، وقيل: ستون.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث: الصحابة، وقد سبق في صفة النبي ﷺ قوله: «وبعثت في خير قرون بني آدم»^(٢)، وفي رواية بريدة عند أحمد: «خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم»^(٣)، وقد ظهر أن الذي بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة، أو دونها أو فوقها بقليل على الاختلاف في وفاة أبي الطفيل، وإن اعتبر ذلك من بعد وفاته ﷺ فيكون مائة سنة أو تسعين أو سبعاً وتسعين، وأما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين أو ثمانين، وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها كان نحواً من خمسين، فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان، والله أعلم.

واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتنح أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن،

(١) أخرجه: أحمد (١/٤٣٤ و٤٣٨ و٤١٧)، والبخاري (١١/٦٦٦ و٦٦٥٨) واللفظ له، ومسلم (٤/١٩٦٢/٢٥٣٣)، والترمذي (٥/٦٥٢/٣٨٥٩) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٣/٤٩٤-٤٩٥/٢٣٦٢)، وابن ماجه (٢/٧٩١/٢٣٦٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣٧٣)، والبخاري (٦/٧٠١/٣٥٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/٣٥٧).

وتغيرت الأحوال تغيرًا شديدًا، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن، وظهر قوله ﷺ: «ثم يفسو الكذب»^(١) ظهورًا بيّنًا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات، واللّه المستعان»^(٢).

قال القرطبي: «ويعني أن هذه القرون الثلاثة: أفضل ممّا بعدها إلى يوم القيامة، وهذه القرون في أنفسها متفاضلة، فأفضلها: الأول، ثم الذي بعده، ثم الذي بعده. هذا ظاهر الحديث.

فأما أفضلية الصحابة؛ وهم القرن الأول على من بعدهم، فلا تخفى، وقد بيّنّا إبطال قول من زعم أنه يكون فيمن بعدهم أفضل منهم، أو مساوٍ لهم في كتاب الطهارة. وأما أفضلية من بعدهم بعضهم على بعض؛ فبحسب قربهم من القرن الأول، وبحسب ما ظهر على أيديهم من إعلاء كلمة الدين، ونشر العلم، وفتح الأمصار، وإخماد كلمة الكفر. ولا خفاء أن الذي كان من ذلك في قرن التابعين كان أكثر وأغلب مما كان في أتباعهم، وكذلك الأمر في الذين بعدهم، ثم بعد هذا غلبت الشرور، وارتكبت الأمور»^(٣).

قال القسطلاني: «هذا صريح في أن الصحابة أفضل من التابعين، وأن التابعين أفضل من تابعي التابعين، وهذا مذهب الجمهور. وذهب ابن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وأن قوله عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني» ليس على عمومته؛ بدليل ما يجمع القرآن بين الفاضل والمفضول. وقد جمع قرنه عليه الصلاة والسلام جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود»^(٤).

قال الحافظ: «لكن كلام ابن عبد البر ليس على الإطلاق في حق جميع الصحابة؛ فإنه صرح في كلامه باستثناء أهل بدر والحديبية، نعم والذي ذهب إليه

(١) أخرجه: أحمد (١/١٨)، والترمذي (٤/٤٠٤/٢١٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا

الوجه»، والنسائي في الكبرى (٥/٣٨٨-٣٨٩/٩٢٢٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/٢٣٩-٢٤٠/٢٤٥٤)، والحاكم (١/١١٤) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي؛ من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

(٣) المفهم (٦/٤٨٦).

(٢) فتح الباري (٧/٦-٧).

(٤) إرشاد الساري (٨/١٥٩).

الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ، وأما من اتفق له الذب عنه، والسبق إليه بالهجرة أو النصره، وضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه لمن بعده فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده؛ لأنه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا والذي سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده، فظهر فضلهم^(١).

قال القسطلاني: «والحق ما عليه الجمهور؛ لأن الصحبة لا يعدلها شيء، وحديث «للعامل منهم أجر خمسين منكم»^(٢) لا دلالة فيه على أفضلية غير الصحابة على الصحابة؛ لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة»^(٣).

قال الحافظ: «وأيضاً فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد، فهذه الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة»^(٤).

وقال أيضاً: «واحتج -أي ابن عبد البر- بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ، وصبرهم على أذاهم، وتمسكهم بدينهم، قال: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن، كانوا أيضاً عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك»^(٥).

* عن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ في قبة فقال: «أترضون أن تكونوا ربيع أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة، قلنا: نعم. قال: والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء

(١) فتح الباري (٨/٧).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤٣٤١/٥١٢/٤)، والترمذي (٣٠٥٨/٢٤٠/٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه (١٣٣٠-١٣٣١/١٣٣١/٤)، وصححه ابن حبان (١٠٨/٢-١٠٩/٣٨٥)، والحاكم (٣٢٢/٤)، ووافقه الذهبي؛ كلهم من حديث أبي ثعلبة الخشني ؓ.

(٣) إرشاد الساري (١٥٩/٨).

(٤) فتح الباري (٨/٧).

(٥) فتح الباري (٧/٧).

في جلد الثور الأحمر^(١).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وقوله: «إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة» هذه الطماعية قد حققت له بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾^(٢). لكن علق هذه البشرى على الطمع أدباً مع الحضرة الإلهية، ووفقاً مع أحكام العبودية^(٣).

* عن ثوبان قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(٤).

★ غريب الحديث:

لا تزال: أي دائمة ومستمرة.

طائفة: جماعة.

ظاهرين: غالبين منصورين.

خذلهم: أي ترك نصرتهم ومعاونتهم.

أمر الله: هو الساعة.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «الطائفة الجماعة، وهم العصابة في الحديث الآخر^(٥)، وهم الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(٦)»^(٧).

وقال أيضاً: «وقد اختلف في: من هذه الطائفة؟ وأين هم؟ فقال علي بن المديني: هم العرب، واستدل برواية من روى: «وهم أهل الغرب»^(٨) وفسر

(١) أخرجه: أحمد (٣٨٦/١٤٤٥)، والبخاري (١١/٤٦٠/٦٥٢٨) واللفظ له، ومسلم (١/٢٠٠/٢٢١).

(٢) (٣٧٧/٢٢١)، والترمذي (٤/٥٩٠/٢٥٤٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/١٤٣٢/٤٢٨٣).

(٣) الضحى: الآية (٥). (٤) المفهم (١/٤٧٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/٢٧٩)، ومسلم (٣/١٥٢٣/١٩٢٠)، والترمذي (٤/٤٣٧/٢٢٢٩) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/٥-١٠/٦٠).

(٥) رواه مسلم (رقم ١٩٢٤) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٦) الأعراف: الآية (١٨١). (٧) المفهم (٣/٧٦١-٧٦٢).

(٨) أخرجه مسلم (٢/١٥٢٥/١٩٢٥) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(الغرب) بالدّلّو العظيمة. وقيل: أراد بالغرب: أهل القوّة، والشّدة، والحدّ. وغرب كلّ شيء حدّه. وقيل: أراد به غرب الأرض. وهو ظاهر حديث سعد بن أبي وقاص، وقال فيه: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق في المغرب حتى تقوم الساعة»، ورواه عبد بن حميد وقال فيه: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة، أو يأتي أمر الله» ورواه بقي بن مخلد في مسنده كذلك: «لا يزال أهل المغرب كذلك».

قلت: وهذه الروايات تدلّ على بطلان التأويلات المتقدمة، وعلى أن المراد به أهل المغرب في الأرض، لكن أول المغرب بالنسبة إلى المدينة -مدينة النبي ﷺ- إنما هو الشام، وآخره: حيث تنقطع الأرض من المغرب الأقصى وما بينهما، كلّ ذلك يقال عليه: مغرب. فهل أراد المغرب كلّّه؛ أو أوله؟ كلّ ذلك محتمل لا جرم، قال معاذ في الحديث الآخر: هم أهل الشام^(١). ورواه الطبراني وقال: هم بيت المقدس^(٢). وقال أبو بكر الطرطوشي في رسالة بعث بها إلى أقصى المغرب -بعد أن أورد حديثاً في هذا المعنى- قال -والله تعالى أعلم-: هل أرادكم رسول الله ﷺ أو أراد بذلك جملة أهل المغرب؛ لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة، وطهارتهم من البدع والإحداث في الدين، والاقتفاء لآثار من مضى من السلف الصالح؟ والله تعالى أعلم^(٣).

قال المناوي: «فيه معجزة بيّنة؛ فإن أهل السنة لم يزالوا ظاهرين في كل عصر إلى الآن، فمن حين ظهرت البدع على اختلاف صنوفها من الخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم؛ لم يبق لأحد منهم دولة ولم تستمر لهم شوكة، بل كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله بنور الكتاب والسنة، فله الحمد والمنة»^(٤).

وانظر بعض فوائد هذا الحديث في سورة (الأعراف) الآية (١٣٧).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/١٠١)، والبخاري (٦/٧٨٤/٣٦٤١)، ومسلم (٣/١٥٢٤/١٠٣٧) مختصراً دون ذكر موضع الشاهد.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد وجادة عن خط أبيه (٥/٢٦٩)، والطبراني في الكبير (٨/١٤٥/٧٦٤٣)، وفي مسند الشاميين (٢/٢٧/٨٦٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٨٨): «رجاله ثقات». وانظر الصحيحة (٤/٥٩٩).

(٣) المصدر السابق (٣/٧٦٤-٧٦٣). (٤) فيض القدير (٦/٣٩٥).

قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿١٦﴾﴾

★ غريب الآية:

موضونة: منسوجة محكمة النسيج كأن بعضها أدخل في بعض . وكل شيء وضع بعضه فوق بعض فهو موضون . قال الأعشى :

ومن نسج داود موضونة تُسَاقُ من الحيِّ عيرًا فعيبرا

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: فوق سُرُرٍ منسوجة؛ قد أدخل بعضها في بعض؛ كما يوضن حلق الدرع بعضها فوق بعض مضاعفة . . وقيل: إنما قيل لها: سرر موضونة؛ لأنها مشبكة بالذهب والجوهر . . وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنها مصفوفة . .

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿١٦﴾﴾: يقول -تعالى ذكره-: متكئين على السرر الموضونة متقابلين بوجوههم، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض^(١).

قال الشنقيطي: «وما ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من كونهم على سرر متقابلين، أي: ينظر بعضهم إلى وجه بعض، كلهم يقابل الآخر بوجهه، جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى في (الحجر): ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنَقِّلِينَ ﴿١٧﴾﴾^(٢)»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٧٢-١٧٣).

(٢) الحجر: الآية (٤٧).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٧٢).

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ﴿٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : يطوف على هؤلاء السابقين - الذين قربهم الله في جنات النعيم - ولدان على سن واحدة، لا يتغيرون ولا يموتون..» وقال آخرون: عنى بذلك أنهم مقرطون مسؤرون.

والذي هو أولى بالصواب في ذلك قول من قال: معناه: إنهم لا يتغيرون، ولا يموتون؛ لأن ذلك أظهر معنييه، والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلد، وإنما هو (مُفَعَّل) من الخلد»^(١).

قال الخازن: «﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: للخدمة ﴿وِلْدَانٌ﴾ أي: غلمان ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون ولا ينتقلون من حالة إلى حالة. وقيل: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾: مقرطون، والخلد: القرط، وهو الحلقة تعلق في الأذن. واختلفوا في هؤلاء الولدان، فقيل: هم أولاد المؤمنين الذين ماتوا أطفالاً، وفيه ضعف؛ لأن الله أخبر أنه يلحقهم بأبائهم، ولأن من المؤمنين من لا ولد له، فلو خدمه ولد غيره كان منقصة بأبي الخادم. وقيل: هم صغار الكفار الذين ماتوا قبل التكليف، وهذا القول أقرب من الأول؛ لأنه قد اختلف في أولاد المشركين على ثلاثة مذاهب، فقال الأكثرون: هم في النار تبعاً لأبائهم، وتوقف فيهم طائفة، والمذهب الثالث، وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون: أنهم من أهل الجنة؛ ولكل مذهب دليل ليس هذا موضعه. وقيل: هم أطفال ماتوا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها. ومن قال بهذه الأقوال يعلل بأن الجنة ليس فيها ولادة. والقول الصحيح الذي لا معدل عنه إن شاء الله: إنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة كالحرور وإن لم يولدوا ولم يحصلوا عن ولادة أطلق عليهم اسم (الولدان)؛ لأن العرب تسمي الغلام وليداً ما لم يحتلم، والأمة وليدة وإن أسنت»^(٢).

(١) جامع البيان (٢٧/١٧٣-١٧٤).

(٢) لباب التأويل (٤/٢١٧).

قوله تعالى: ﴿يَا كُؤَابَ وَأَبَارِيْقَ وَكَاسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ۝ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ ﴿١٨﴾

★ غريب الآية:

لا يصدعون: أي: لا تسبب لهم صداً في الرأس.
لا ينزفون: أي: لا تذهب بعقولهم عند شربها.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: ﴿يَا كُؤَابَ﴾: وهي التي لا عرى لها، ﴿وَأَبَارِيْقَ﴾ الأواني التي لها عرى، ﴿وَكَّاسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر لذيق المشرب لا آفة فيها، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها. ولا هم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمير الدنيا.

والحاصل: أن جميع ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنتَهَرٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْتَهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّوْ يَنْغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْتَهَرٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْتَهَرٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾^(١)، وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا^(٢).

قال ابن القيم: «ونفى الله تعالى عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداغ والغول واللغو والإنزاف وعدم اللذة، فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا: تغتال العقل، ويكثر اللغو على شربها، بل لا يطيب لشاربها ذلك إلا باللغو، وتنزف في نفسها، وتنزف المال، وتصدع الرأس، وهي كريهة المذاق، وهي رجس من عمل الشيطان، توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصدع عن ذكر

(١) محمد: الآية (١٥).

(٢) تفسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٣).

اللَّهُ وعن الصلاة، وتدعو إلى الزنا، وربما دعت إلى الوقوع على البنت والأخت وذوات المحارم، وتذهب الغيرة، وتورث الخزي والندامة والفضيحة، وتلحق شاربها بأنقص نوع الإنسان وهم المجانين، وتسلبه أحسن الأسماء والسمات، وتكسوه أقبح الأسماء والصفات، وتسهل قتل النفس وإفشاء السر الذي في إفشائه مضرته أو هلاكه، ومؤاخاة الشياطين في تبذير المال الذي جعله الله قيامًا له ولم يلزمه مؤنته، وتهتك الأستار، وتظهر الأسرار، وتدل على العورات، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم، وتخرج من القلب تعظيم المحارم، ومدمنها كعابد وثن، وكم أهاجت من حرب، وأفقرت من غني، وأذلت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة، وفسخت مودة، ونسجت عداوة، وكم فرقت بين رجل وزوجته فذهبت بقلبه، وراحت بلبه، وكم أورثت من حسرة، وأجرت من عبرة، وكم أغلقت في وجه شاربها بابًا من الخير وفتحت له بابًا من الشر، وكم أوقعت في بلية، وعجلت من منية، وكم أورثت من خزية، وجرت على شاربها من محنة، وجرت عليه من سفلة، فهي جماع الإثم، ومفتاح الشر، وسلاية النعم، وجالبة النقم، ولو لم يكن من رذائلها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف عبد كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»^(١) لكفى. وآفات الخمر أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وكلها منتفية عن خمر الجنة»^(٢).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢٢/٢)، والبخاري (١٠/٣٧/٥٥٧٥)، ومسلم (٣/١٥٨٧/٢٠٣)، وأبو داود (٤/٨٥-

٨٦/٣٦٧٩)، والترمذي (٤/٢٥٦/١٨٦١)، والنسائي (٨/٧٢١/٥٦٨٩)، وابن ماجه (٢/١١١٩/٣٣٧٣)

من حديث ابن عمر ؓ.

(٢) حادي الأرواح (ص: ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَفَنَكِهَهُم مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ (١٥)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: ﴿وَفَنَكِهَهُم مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ (١٥): أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز أكل الطعام على صفة التخير

* عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا، فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أثني عليه معروفاً، كان أعجب لرؤياه إليه، فأتته امرأة، فقالت: يا رسول الله! رأيت كأنني أتيت، فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة، فسمعت وجبة انتحت لها الجنة، فنظرت، فإذا فلان وفلان وفلان -فسمت اثني عشر رجلاً كان رسول الله ﷺ بعث سرية قبل ذلك- فجيء بهم عليهم ثياب طلس، تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البیدخ، قال: فغمسوا فيه، قال: فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بسرة، فأكلوا من بسره ما شاؤوا، ما يقلبونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم، فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، فأصيب فلان وفلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلاً، فدعا رسول الله ﷺ بالمرأة، فقال: قصي رؤياك. فقصتها، وجعلت تقول: جيء بفلان وفلان، كما قال الرجل»^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/١٣٥ و٢٥٧)، والنسائي في الكبرى (٤/٣٨٢/٧٦٢٢)، وابن حبان (الإحسان ١٣/٤١٨-٤١٩/٦٠٥٤) واللفظ له، وأبو يعلى (٦/٤٤-٤٥/٣٢٨٩)، والبيهقي في الدلائل (٧/٢٦-٢٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/١٧٥-١٧٦) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». وذكره ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية وقال: قال الحافظ الضياء: «وهذا على شرط مسلم».

* غريب الحديث:

وجبة: الوجبة السقطة مع الهدية.

ثياب طلس: بضم الطاء وسكون اللام، يعني: ثيابًا وسخة. والطلسة: هي الغبرة إلى السواد، والأطلس: الأسود الوسخ.

تشخب: من الشخب، وهو السيلان. وأصل الشخب: ما يخرج من تحت يد الجالب عند كل غمرة وعصرة لضرع الشاة.

أوداجهم: جمع ودج، وهو ما أحاط بالعنق من العروق.

بُسرة: البُسرة بالضم: التمر قبل إرطابه، والبسرة واحدها، وتضم السين.

* فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيير لها». ثم ذكر من الأدلة على ذلك حديث أنس هذا^(١).

وفي هذا الحديث من الفوائد ردّ على من ادّعى سلوك طريق الصلاح والتّزهّد وقال: (لا يحل للأكل أن يأكل تلذذًا ولا على سبيل التّشهيّ والإعجاب، ولا يأكل إلا ما لا بدّ منه إلا لإقامة الرمق)^(٢).

وفيه كذلك ردّ على من قال منهم: (إنه ليس لأحد أن يجمع بين شيئين من الطعام، ولا بين آدمين على خوان)^(٣).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٩٦).

(٢) الفقيه والمتفقه (١/٣٤٩).

(٣) الفقيه والمتفقه (١/٣٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَخَرِ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاؤوا مشوياً، أو طيخاً أو غير ذلك»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة طير الجنة

* عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله -يعني في الجنة- أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيها طير أعناقها كأعناق الجُرُز»، قال عمر: إن هذه لناعمة؛ قال رسول الله ﷺ: «أكَلَتْهَا أَحْسَنُ مِنْهَا»^(٢).

* غريب الحديث:

الكوثر: الكثير من كل شيء.

كأعناق الجُرُز: بضم الجيم والزاي، جمع جزور، وهو البعير.

ناعمة: سمان مترفة. قال القاري: «أي لمتنعة أو لنعمة طيبة»^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٣).

(٢) أخرجه: ابن جرير في التفسير (٣٠/٣٢٤)، وأحمد (٣/٢٣٦)، والترمذي (٤/٥٨٧/٢٥٤٢) من طرق عن محمد بن عبد الله بن مسلم عن أبيه عن أنس. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب. ومحمد بن عبد الله بن مسلم هو ابن أخي ابن شهاب الزهري»، وقال الحافظ في التقریب: «محمد بن عبد الله بن مسلم ابن أخي الزهري: صدوق له أوهام». وقد تابعه ابن شهاب الزهري أخرجه: أحمد (٣/٢٣٦ و٢٣٧)، والحاكم (٢/٥٣٧)، وله تابع آخر: عبد الوهاب بن أبي بكر عن عبد الله بن مسلم بن شهاب أخرجه: ابن جرير (٣٠/٣٢٤)، وأحمد (٣/٢٢١-٢٢٠)، قال الألباني في الصحيحة (ج ٦ ف ١/٥٠): «فهذه ثلاث طرق عن عبد الله بن مسلم بن شهاب، يجعل حديثه صحيحاً، ولعل الترمذي لم يقف على هذه المتابعات، وإلا لكان حقه أن يصححه».

(٣) المرقاة (٩/٦٠٤).

أكلتها : بفتحات ، جمع آكل ، اسم فاعل كطلبة جمع طالب .

★ فوائد الحديث:

قوله : «أعناقها كأعناق الجزر» قال القاري : «المعنى أنه أعد للنحر ليأكل منه أصحاب شرب ذلك النهر ، فإنه بها يتم عيش الدهر» .

قوله : «أكلتها أنعم منها» قال القاري : «المعنى : من يأكلها أنعم منها»^(١) .

قال ابن القيم في نونيته : فصل في طعام أهل الجنة :

وطعامهم ما تشتهي نفوسهم ولحوم طير ناعم وسمان

قال هراس : «يعني أن طعام أهل الجنة هو كل ما تتطلبه نفوسهم من لحوم الطير

السمان والفواكه المتنوعة ؛ كما قال تعالى : ﴿وَفَكَهْمًا يَتَخَذَرُونَ﴾ ٢٥ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢٦ . . . فلهم فيها لحم طيب نضيج»^(٢) .

* * *

(١) المصدر السابق .

(٢) شرح القصيدة النونية (٢/ ٣٧٥) .

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوءِ ۖ أَمْكَونَ ۖ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: ولهم حور عين، والهوراء: التي في عينها كحل وملاحة وحسن بهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها»^(١).

قال الخازن: «كاللؤلؤ المكنون، أي: المخزون في الصَّدَف المصون الذي لم تمسه الأيدي، ولم تقع عليه الشمس والهواء، فيكون في نهاية الصفاء»^(٢).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ثواباً لهم من الله بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، وعوضاً من طاعتهم إياه»^(٣).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٣).

(٢) لباب التأويل (٢١٨/٤).

(٣) جامع البيان (١٧٧/٢٧).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ ﴿٣١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلامًا يلغى، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلامًا يؤثم صاحبه، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: كلامًا طيبًا، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسرّه للنفوس، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله^(١).

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ وهذا فيه نفى لسماع اللغو والتأثيم، وإثبات لضده وهو السلام المنافي لهما، فالمقصود به نفى شيء وإثبات ضده، وعلى هذا فلا حاجة إلى تكلف دخوله تحت المستثنى منه؛ لأنه يتضمن زوال هذه الفائدة من الكلام، ومن رده إلى الأول قال: لما نفى عنهم سماع اللغو والتأثيم وهما مما يقال، فكأن النفس تشوفت إلى أنه هل يسمع فيها شيء غيره؟ فقال: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾، فعاد المعنى إلى: لا يسمعون فيها شيئًا إلا قِيلًا سلامًا سلامًا. وأنت إذا تأملت هذين التقديرين رأيت الأول أصوب؛ فإنه نفى سماع شيء وأثبت ضده، وعلى الثاني نفى سماع كل شيء إلا السلام، وليس المعنى عليه؛ فإنهم يسمعون السلام وغيره، فتأمل^(٢).

قال ابن كثير: «أي: لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيًا، أي: غثًا خاليًا عن المعنى، أو مشتملًا على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ ﴿٣١﴾»، أي: كلمة لاغية، ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ولا كلامًا فيه قبح، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال: ﴿يَحْتَمِلُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾^(٤)، وكلامهم أيضًا سالم من اللغو والإثم^(٥).

(٢) بدائع الفوائد (٣/٦٩-٧٠).

(٤) إبراهيم: الآية (٢٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩١٤).

(٣) الغاشية: الآية (١١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿٢٧﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى مآل السابقين، وهم المقربون، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين، وهم الأبرار، كما قال ميمون بن مهران: أصحاب اليمين منزلة دون المقربين، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿٢٧﴾ أي: أي شيء أصحاب اليمين؟ وما حالهم؟ وكيف مآلهم؟»^(١).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٨).

قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي: لا شوك فيه، كأنه خُضِدَ شوكه، أي: قُطِعَ ونزع منه، وهذا قول ابن عباس. وقيل: هو الموقر حملاً، قيل: ثمرها أعظم من القلال، وهو النبق»^(١).

قال ابن كثير: «والظاهر أن المراد هذا وهذا؛ فإن سدر الدنيا كثير الشوك، قليل الثمر، وفي الآخرة على عكس من هذا: لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله»^(٢).

* * *

(١) لباب التأويل (٤/٢١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٣).

قوله تعالى : ﴿وَطَلَّحَ مَنُضُودٌ﴾ ﴿٢٩﴾

★ غريب الآية:

منضود: متراكب بعضه فوق بعض .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الخازن: «﴿وَطَلَّحَ﴾ هو الموز عند أكثر المفسرين . وقيل : هو شجر له ظل بارد طيب . وقيل : هو شجر أم غيلان له شوك ونور طيب الرائحة ، فخطبوا ووعدوا بمثل ما يحبون ويعرفون ؛ إلا أن فضله على شجر الدنيا كفضل الجنة على الدنيا . ﴿مَنُضُودٌ﴾ أي : متراكم قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره ، ليست له سوق بارزة ، بل من عروقه إلى أغصانه ثمر ، وليس شيء من ثمر الجنة في غلاف كثمر الدنيا ، مثل الباقلاء والجوز ونحوهما ؛ بل كلها مأكول ومشروب ومشموم ومنظور إليه»^(١).

* * *

(١) لباب التأويل (٤/٢١٨).

قوله تعالى: ﴿وَزَلَّ مَمْدُودٌ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: ﴿وَزَلَّ مَمْدُودٌ﴾ أي: دائم باقٍ، لا يزول، ولا تنسخه الشمس كظل أهل الدنيا، ممتد منبسط، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، قال أبو عبيدة: والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع: ممدود، ومنه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾^(١)، والجنة كلها ظل، لا شمس معه^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَزَلَّ مَمْدُودٌ﴾»^(٣).

★ فوائد الحديث:

انظر فوائد هذا الحديث عند الآية (٥٧) من سورة (النساء).

* * *

(١) الفرقان: الآية (٤٥).

(٢) فتح البيان (٣٦٧/١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤١٨/٢)، والبخاري (٣٢٥٢/٣٩٣/٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٦/٢١٧٥/٤)، والترمذي (٤٣٣٥/١٤٥٠/٢)، وابن ماجه (١١٥٦٤/٤٧٩/٦)، والنسائي في الكبرى (٢٥٢٣/٥٧٩/٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال أبو السعود: ﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ﴾ : يسكب لهم أينما شاؤوا، وكيفما أرادوا بلا تعب، أو مصبوب سائل يجري على الأرض في غير أخدود، كأنه مثل حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن، وقال: أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي إيدان بالتعاون بين الحالين^(١).

قال الشنقيطي: «المفسرون يقولون: إن أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأن الماء يصل إليهم أينما كانوا كيف شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^(٢)». ^(٣)

* * *

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٣).

(٢) الإنسان: الآية (٦).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَفَكَهَةً كَثِيرَةً ۖ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ ﴿٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وفيها فاكهة كثيرة، لا ينقطع عنهم شيء منها أرادوه في وقت من الأوقات، كما تنقطع فواكه الصيف في الشتاء في الدنيا، ولا يمنعهم منها، ولا يحول بينهم وبينها شوك على أشجارها، أو بعدها منهم كما تمتنع فواكه الدنيا من كثير ممن أرادها ببعدها على الشجرة منهم، أو بما على شجرها من الشوك، ولكنها إذا اشتهاها أحدهم وقعت في فيه، أو دنت منه حتى يتناولها بيده»^(١).

قال ابن كثير: «﴿وَفَكَهَةً كَثِيرَةً﴾ ﴿٣٣﴾ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴿٣٣﴾ أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿كَلِمًا زُرْقًا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾^(٢)، أي: يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم»^(٣).

قال القنوجي: «﴿وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ أي: لا تمتنع على من أرادها في أي وقت، على أي صفة شاء، بل هي معدة لمن أرادها، لا يحول بينه وبينها حائل من ثمن أو حائط أو باب أو سلم أو بعد؛ قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾^(٤)»^(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة فاكهة الجنة

* عن عبد الله بن عباس قال: «انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فصلى رسول الله ﷺ، فقام قيامًا طويلًا نحوًا من قراءة سورة (البقرة)، ثم ركع ركوعًا طويلًا، ثم رفع فقام قيامًا طويلًا، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعًا

(٢) البقرة: الآية (٢٥).

(٤) الإنسان: الآية (١٤).

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٨٤-١٨٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨).

(٥) فتح البيان (١٣/ ٣٦٧).

طويلاً، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم قام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً، وهو دون الركوع الأول، ثم قام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد ثم انصرف وقد تجلّت الشمس. فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله. لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» قالوا: يا رسول الله! رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك كعكعت. قال ﷺ: «إني رأيت الجنة، فتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريت النار فلم أر منظراً كالיום قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء»، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بكفرهن». قيل: يكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأيت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط»^(١).

★ غريب الحديث:

كعكعت: قال القسطلاني: «بالكافين المفتوحتين والمهملتين الساكنتين، وللكشميهني: «تكعكعت» بزيادة مثناة فوقية أوله، أي: تأخرت، أو تقهقرت. وقال أبو عبيدة: كعكعته فتكعكع، وهو يدل على أن (كعكع) متعد، و(تكعكع) لازم. و(كعكع) يقتضي مفعولاً، أي: رأيناك كعكعت نفسك. ولمسلم: «رأيناك كفتت نفسك» من الكفت، وهو المنع»^(٢).

عنقود: قال ابن منظور: العنقود والعنقاد من النخل والعنب والأراك والبطم، بالضم: واحد عنقيد.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «لو أصبته»: لو أخذته، واستشكل مع قوله: «فحيل بيني وبينه»^(٣).

(١) أخرجه: أحمد (٢٩٨/١)، والبخاري (٢٩/١١٣)، ومسلم (٩٠٧/٦٢٦/٢)، وأبو داود (٧٠٢/١).

(١١٨٩)، والنسائي (١٦٢/٣-١٤٩٢/١٦٤).

(٢) فتح الباري (٦٨٨/٢).

(٣) إرشاد الساري (١٠٢/٣).

قال ابن بطال : «ولم يأخذه عليه السلام ولم يأكل منه في الدنيا ؛ لأن طعام أهل الجنة باقٍ أبدًا لا يفنى ، ولا يجوز أن يكون شيء من دار البقاء في دار الفناء ، وقد قدر الله أن رزق الدنيا لا ينال إلا بالتعب فيه والنصب ، ولا يبدل القول لديه ، وأيضًا فإن طعام الجنة إنما شوق الله إليه عباده ، ووعدهم نيله جزاء لأعمالهم الصالحة ، والدنيا ليست بدار جزاء ، ولذلك لم يصلح لهم في الدنيا أخذه»^(١).

قال القسطلاني : «قال صاحب المظهر : لأنه لو تناوله ورآه الناس لكان إيمانهم بالشهادة لا بالغيب ، فيخشى أن يقع رفع التوبة ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَيْدِيكُمْ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْهَاكَ تَكُنْ ءَامَنْتَ﴾»^(٢) وقال غيره : لأن الجنة جزاء الأعمال ، والجزاء لا يقع إلا في الآخرة»^(٣).

قال الحافظ : «وحكى ابن العربي في «قانون التأويل» عن بعض شيوخه أنه قال : معنى قوله : «لأكلتم منه» إلخ ، أن يخلق في نفس الأكل مثل الذي أكل دائمًا بحيث لا يغيب عن ذوقه . وتعقب بأنه رأي فلسفي مبني على أن دار الآخرة لا حقائق لها وإنما هي أمثال ، والحق أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وإذا قطعت خلقت في الحال ، فلا مانع أن يخلق الله مثل ذلك في الدنيا إذا شاء ، والفرق بين الدارين في وجوب الدوام وجوازه»^(٤).

«لأكلتم» : «والخطاب عام في كل جماعة يتأتى منهم السماع والأكل إلى يوم القيامة ؛ لقوله : «ما بقيت الدنيا»»^(٥).

قال النووي : «وفيه أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان اليوم ، وأن في الجنة ثمارًا ، وهذا كله مذهب أصحابنا وسائر أهل السنة ، خلافاً للمعتزلة»^(٦).

* * *

(١) شرح صحيح البخاري (٤٢/٣).

(٢) الأنعام : الآية (١٥٨).

(٣) إرشاد الساري (١٠٣/٣).

(٤) فتح الباري (٦٨٩/٢).

(٥) إرشاد الساري (١٠٣/٣).

(٦) شرح صحيح مسلم (١٨٤/٦).

قوله تعالى: ﴿وَفُشِّ مَرْفُوعَةٌ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: ولهم فيها فرش مرفوعة طويلة، بعضها فوق بعض، كما يقال: بناء مرفوع»^(١).

قال ابن القيم: «وقيل: الفرش في قوله: ﴿وَفُشِّ مَرْفُوعَةٌ﴾ كناية عن النساء، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها؛ ولكن قوله: ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ يأبى هذا، إلا أن يقال: المراد: رفعة القدر. . الصواب أنها الفرش نفسها، ودلت على النساء لأنها محلهن غالباً»^(٢).

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٨٥).

(٢) حادي الأرواح (ص: ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً ۖ ﴿٢٥﴾ جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ۖ ﴿٢٦﴾ عُرْيًا أَتْرَابًا ۖ ﴿٢٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ ﴿٢٨﴾﴾

★ غريب الآية:

أترابًا: جمع يَرْب، وهو المساوي لك في السن. قال ابن أبي ربيعة:
أبرزوها مثل المهابة تهادى بين عشر كواكب أترابا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الضمير في ﴿أَنشَأْنَهُنَّ﴾ قال بعض أهل العلم: هو راجع إلى مذكور، وقال بعض العلماء: هو راجع إلى غير مذكور، إلا أنه دل عليه المقام.

فمن قال: إنه راجع إلى مذكور، قال: هو راجع إلى قوله: ﴿وَفُرشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ ﴿٢٦﴾^(١) قال: لأن المراد بالفرش النساء، والعرب تسمي المرأة لباسًا وإزارًا وفراشًا ونعلًا، وعلى هذا فالمراد بالرفع في قوله: ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ رفع المنزلة والمكانة.

ومن قال: إنه راجع إلى غير مذكور، قال: إنه راجع إلى نساء لم يذكرن، ولكن ذكر الفرش دل عليهن؛ لأنهن يتكنن عليها مع أزواجهن.

وقال بعض العلماء: المراد بهن الحور العين، واستدل من قال ذلك بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً ۖ ﴿٢٥﴾﴾؛ لأن الإنشاء هو الاختراع والابتداع.

وقالت جماعة من أهل العلم: أن المراد بهن بنات آدم التي كن في الدنيا عجائز شمسًا رمصًا^(٢).

قال ابن القيم: «أعاد الضمير إلى النساء ولم يجز لهن ذكر؛ لأن الفرش دلت عليهن؛ إذ هن محلهن. . الظاهر أن المراد: أنشأهن الله تعالى في الجنة إنشاءً؛ ويدل عليه وجوه:

(١) الواقعة: الآية (٣٤).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٧٧٤-٧٧٥).

أحدها : أنه قد قال في حق السابقين : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُّخْلَدُونَ ۖ﴾ ﴿٧٧﴾ بِأَكْوَابٍ ﴿٧٨﴾ إلى قوله : ﴿كَأَمْثَلِ الْوُلُورِ الْمَكُونِ﴾ ^(١) ، فذكر سررهم وأنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم من الحور العين ، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفرشهم ونساءهم ، والظاهر أنهم مثل نساء من قبلهم خلقن في الجنة .

الثاني : أنه سبحانه قال : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً﴾ ﴿٧٥﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول ، لا ثان ؛ لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء يقيده بذلك ، كقوله : ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ ﴿٧٦﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ ^(٣) .

الثالث : أن الخطاب بقوله : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ﴿٧٧﴾ ^(٤) إلى آخره ، للذكور والإناث ، والنشأة الثانية أيضًا عامة للنوعين ، وقوله : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً﴾ ﴿٧٥﴾ ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء ، وتأمل تأكيده بالمصدر ^(٥) .

قال السعدي : ﴿جَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ ﴿٧٨﴾ صغارهن وكبارهن .

وعموم ذلك ، يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا ، وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال ، كما أن كونهن ﴿غُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ملازم لهن في كل حال ، والعروب : هي المرأة المتحبة إلى بعلمها بحسن لفظها ، وحسن هيئتها ، ودلالها ، وجمالها ، ومحبتها ، فهي التي إن تكلمت سبت العقول ، وود السامع أن كلامها لا ينقضي ، خصوصًا عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنعيمات المطربة ، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلمها فرحًا وسرورًا ، وإن برزت من محل إلى آخر ، امتلأ ذلك الموضع منها ريحًا طيبًا ونورًا ، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع .

والأتراب اللاتي على سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة ، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب ، فنساؤهم عرب أتراب ، متفقات مؤتلفات ، راضيات

(١) الواقعة : الآيات (١٧-٢٣) .

(٢) النجم : الآية (٤٧) .

(٣) الواقعة : الآية (٦٢) .

(٤) الواقعة : الآية (٧) .

(٥) حادي الأرواح (ص : ٢٠٤-٢٠٦) .

مرضيات، لا يحزن ولا يحزن، بل هنّ أفراح النفوس، وقرّة العيون، وجلاء الأبصار»^(١).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لَا ضَحَبَ الْيَمِينِ﴾ يقول - تعالى ذكره - : أنشأنا هؤلاء اللواتي وصف صفتهنّ من الأبقار للذين يؤخذ بهم ذات اليمين من موقف الحساب إلى الجنة»^(٢).

قال ابن القيم: «فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها. وهذه غاية ما يطلب من النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهنّ»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أهل الجنة

* عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع»، قيل: يا رسول الله! أو يطبق ذلك؟ قال: «يعطى قوة مائة»^(٤).

* فوائد الحديث:

في الحديث دلالة على أن المؤمن يمنح قوة في الجماع، كلما جامعهم وجدهن أبقاراً، ويؤيده حديث أبي هريرة الذي رواه الطبراني قال: «قيل: يا رسول الله! هل نصل إلى نساتنا في الجنة؟ قال: إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء»^(٥)، قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح، والله أعلم. وقال الهيثمي في 'الزوائد' ^(٦): «ورجال هذه الرواية رجال الصحيح غير محمد بن ثواب، وهو ثقة»^(٧).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٤).

(٢) جامع البيان (١٨٩/٢٧).

(٣) حادي الأرواح (ص: ٢٠٦).

(٤) أخرجه: الطيالسي (٢٠١٢)، والترمذي (٢٥٣٦/٥٨٤/٤) وقال: «حديث صحيح غريب»، وابن حبان (الإحسان ١٦/٤١٣/٧١٠٠).

(٥) أخرجه: الطبراني في الصغير (٧٩٥/٦٨/٢)، وفي الأوسط (٧٢٢/٤٠٦/١). وانظر الصحيحة للشيخ الألباني (٣٦٧/٧٠٨/١).

(٦) (٤٢٠/١٠).

(٧) العملة (٤٣٧/٣)، وانظر كلام ابن القيم في سورة (الرعد): الآية (٣٥).

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۖ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «أي: هذا القسم - وهم أصحاب اليمين - عدد كثير من الأولين وعدد كثير من الآخرين»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أول زمرة تدخل الجنة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخضون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، الألنجوج عود الطيب، وأزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»^(٢).

★ فوائد الحديث:

انظر شرح هذا الحديث في سورة (البقرة) الآية (٢٥).

* عن عمران قال: قال النبي ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يسترقون ولا ينتطرون ولا يكتون وعلى ربهم يتوكلون»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الإمام الطحاوي وهو يتحدث عن قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۖ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٢٣٢)، والبخاري (٦/٤٤٦/٣٣٢٧) واللفظ له، ومسلم (٤/٢١٧٩/٢٨٣٤/١٥)،

والترمذي (٤/٥٨٥/٢٥٣٧) وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجه (٢/١٤٤٩/٤٣٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/٤٤٣/٤٣٦)، ومسلم (١/١٩٨/٢١٨) واللفظ له.

الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾، وقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٦٨﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٦٩﴾: «فتأملنا هاتين الآيتين فوجدنا الأولى منهما قد تقدمها قول الله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ﴿٧٠﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٧١﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَّةِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَّةِ ﴿٧٢﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿٧٣﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٧٤﴾»^(٢)، فجعل المقربين أعلاهم رتبة، وأشرفهم منزلة، ووصفهم بالسبق، ثم أخبر أنهم ثلثة من الأولين، كأنه جلّ وعزّ يعني ممن تقدّمهم من الأمم، وقليل من الآخرين.

ووجدنا الثانية منهما قد تقدّمها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنثَاءً﴾ ﴿٧٥﴾ فَعَلَّاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٧٦﴾ عُرْيًا أَزْوَاجًا ﴿٧٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٧٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٧٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٨٠﴾»^(٣)، وكان الذي في الأولى فمن قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨١﴾ على المقربين، والذي سبق في الآية الثانية فمن قوله: ﴿وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ على أصحاب اليمين، وهم غير المقربين.

ووجدناه تعالى قد بين ذلك في آخر السورة التي فيها هاتان الآيتان بقوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٤﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٨٥﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٨٦﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الصَّالِينَ ﴿٨٧﴾ فَتَزَلُّ مِنْ حِمِيمٍ ﴿٨٨﴾ وَنَصِيلَةٌ جَحِيمٍ ﴿٨٩﴾»^(٤).

فعلنا بذلك أن المقربين هم غير أصحاب اليمين، وأنهم أعلى الثلاث الفرق رتبة، وأعلاهم منزلة، وأنهم في العدد أقلّ من أصحاب اليمين، وهم المذكورون في الآية الأولى من الآيتين الأوليين، وأن المذكورين في الآية الثانية منهما هم أصحاب اليمين، وكان الزوجان جميعاً: المقربون، وأصحاب اليمين؛ هم أهل الجنة، إلا أن المقربين منهم أعلى رتبة وأشرف فيها منزلة من أصحاب اليمين.. ثم طلبنا ما روي عن رسول الله في أمته التي تدخل الجنة كم هو ممن يدخل الجنة سواها؟ - ثم ذكر حديث عكاشة بسنده - ثم قال:

وذكر لنا أن رجالاً من المؤمنين تراجعوا فيهم، فقالوا: ما ترون عمل هؤلاء

(١) الواقعة: الآيتان (١٤ و ١٣).

(٢) الواقعة: الآيات (٧-١١).

(٣) الواقعة: الآيات (٣٥-٤٠).

(٤) الواقعة: الآيات (٨٨-٩٤).

السبعون ألفاً حتى صيروا من أمرهم؟ فقالوا: هؤلاء ولدوا في الإسلام فلم يزالوا يعملون به حتى ماتوا، قال: «ليس كذلك، ولكنهم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»^(١).

* * *

(١) شرح مشكل الآثار (١/ ٣٣٠-٣٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ﴾ ﴿٤١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ﴾ ﴿٤١﴾ أي: أي شيء هم أصحاب الشمال؟»^(١).

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره- معجَّباً نبيّه محمداً من أهل النار: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ الذين يؤخذ بهم ذات الشمال من موقف الحساب إلى النار، ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾: ماذا لهم؟ وماذا أعدّ لهم؟»^(٢).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (١٥/٨).

(٢) جامع البيان (١٩١/٢٧).

قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۖ وَظِلٍّ مِّن يَحْتُمِرُ ۖ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾

★ غريب الآية:

سموم: السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن.

حميم: الحميم: الماء الحار.

يحموم: اليحموم: دخان شديد السواد.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۖ وَظِلٍّ مِّن يَحْتُمِرُ ۖ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ كسائر الظلال، فيه خير ما في الجملة، سمي ذلك ظلاً، ثم نفى عنه وصفاه البرد والكرم الذي عبر به عن دفع أذى الحر؛ لتحقيق أنه ليس بظل»^(١).

قال الرازي: «وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى دونهم في العذاب دائماً؛ لأنهم إن تعرضوا لمهب الهواء أصابهم الهواء الذي هو السموم، وإن استكنوا كما يفعله الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان في الكن يكونوا في ظل من يحموم، وإن أرادوا الرد عن أنفسهم السموم بالاستكنان في مكان من حميم فلا انفكاك لهم من عذاب الحميم، ويحتمل أن يقال فيه ترتيب، وهو أن السموم يضربه فيعطش وتلتهب نار السموم في أحشائه، فيشرب الماء فيقطع أمعاءه، ويريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل ظل اليحموم»^(٢).

قال السعدي: «والمقصود أن هناك الهم والغم والحزن والشر الذي لا خير فيه؛

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٦٩-١٧٠).

لأن نفي الضد إثبات لضده»^(١).

وقوله: ﴿وَذَلَّلْ مِنْ يَحْمُورٍ﴾ (٢١) : قال ابن كثير: «وهذه كقوله تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ﴾ (١٩) أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ذِي ظُلَيْ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٢٥) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ (٢٦) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٢٧) كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صَفْرٌ (٢٨) وَيْلٌ يَوْمَذِي الْمُكَذِّبِينَ (٣٤)﴾^(٢)، ولهذا قال ههنا: ﴿وَذَلَّلْ مِنْ يَحْمُورٍ﴾ (٢١) وهو الدخان الأسود»^(٣).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٤).

(٢) المرسلات: الآيات (٢٩-٣٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ ﴿٢٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ تعليل لا ابتلائهم بما ذكر من العذاب، أي: إنهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب في الدنيا منعمين بأنواع النعم من المآكل والمشرب، والمساكن الطيبة، والمقامات الكريمة، منهمكين في الشهوات، فلا جرم عذبوا بنقائضها»^(١).

قال ابن كثير: «أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل»^(٢).

قال الرازي: «فإن قيل: ما الحكمة في بيان سبب كونهم في العذاب مع أنه تعالى لم يذكر سبب كون أصحاب اليمين في النعيم، ولم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين؟

فنقول: قد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى عند إيصال الثواب لا يذكر أعمال العباد الصالحة، وعند إيصال العقاب يذكر أعمال المسيئين؛ لأن الثواب فضل والعقاب عدل، والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر، لا يتوهم في المتفضل به نقص وظلم، وأما العدل، فإن لم يعلم سبب العقاب، يظن أن هناك ظلمًا، فقال: هم فيها بسبب ترفهم، والذي يؤيد هذه اللطيفة أن الله تعالى قال في حق السابقين: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣)، ولم يقل في حق أصحاب اليمين ذلك؛ لأننا أشرنا أن أصحاب اليمين هم الناجون بالفضل العظيم. وإذا كان كذلك، فالفضل في حقهم متمحض، فقال: هذه النعم لكم، ولم يقل: جزاء؛ لأن قوله: ﴿جَزَاءُ﴾ في مثل هذا الموضع، وهو موضع العفو عنهم لا يثبت لهم سرورًا، بخلاف من كثرت حسناته، فيقال له:

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥).

(٣) الواقعة: الآية (٢٤).

نعم ما فعلت ، خذ هذا لك جزاء» .

وقال أيضًا : «جعل السبب كونهم مترفين ، وليس كل من هو من أصحاب الشمال يكون مترفًا ، فإن فيهم من يكون فقيرًا؟

نقول : قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٤٥) ليس بدم ؛ فإن المترف هو الذي جعل ذا ترف ، أي : نعمة ، فظاهر ذلك لا يوجب دمعًا ؛ لكن ذلك يبين قبح ما ذكر عنهم بعده ، وهو قوله تعالى : ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ﴾^(١) ؛ لأن صدور الكفران ممن عليه غاية الإنعام أقبح القبائح فقال : إنهم كانوا مترفين ولم يشكروا نعم الله ؛ بل أصرّوا على الذنب»^(٢) .

* * *

(١) الواقعة : الآية (٤٦) .

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩ / ١٧١) .

قوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لَيْثِنِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٤٦﴾

★ غريب الآية:

الحنث: الذنب العظيم، وهو هنا: الكفر؛ لأنه أعظم الآثام والذنوب.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: ﴿وَكَاثُرًا يُصِرُّونَ﴾ أي: يصممون ولا ينوون توبة، ﴿عَلَىٰ لَيْثِنِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله^(١).

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لَيْثِنِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٤٦﴾ فيه مبالغات من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا يُصِرُّونَ﴾، وهو أكد من قول القائل: إنهم قبل ذلك أصروا؛ لأن اجتماع لفظي الماضي والمستقبل يدل على الاستمرار؛ لأن قولنا: فلان كان يحسن إلى الناس، يفيد كون ذلك عادة له.

ثانيها: لفظ الإصرار؛ فإن الإصرار مداومة المعصية والغلول، ولا يقال في الخير: أصرّ.

ثالثها: الحنث؛ فإنه فوق الذنب؛ فإن الحنث لا يكاد في اللغة يقع على الصغيرة، والذنب يقع عليها، وأما الحنث في اليمين فاستعملوه؛ لأن نفس الكذب عند العقلاء قبيح؛ فإن مصلحة العالم منوطة بالصدق، وإلا لم يحصل لأحد بقول أحد ثقة، فلا يبنى على كلامه مصالح، ولا يجتنب عن مفسد، ثم إن الكذب لما وجد في كثير من الناس لأغراض فاسدة أرادوا تأكيد الأمر بضم شيء إليه يدفع توهمه، فضموا إليه الأيمان ولا شيء فوقها، فإذا حنث لم يبق أمر يفيد الثقة، فيلزم منه فساد فوق فساد الزنا والشرب، غير أن اليمين إذا كانت على أمر مستقبل، ورأى الحالف غيره جوز الشرع الحنث، ولم يجوزه في الكبيرة كالزنا والقتل لكثرة وقوع

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥).

الأيمان وقلة وقوع القتل، والذي يدل على أن الحنث هو الكبيرة قولهم للبالغ: بلغ الحنث، أي: بلغ مبلغًا بحيث يرتكب الكبيرة، وقبله ما كان ينفي عنه الصغيرة؛ لأن الولي مأمور بالمعاقبة على إساءة الأدب وترك الصلاة^(١).

* * *

(١) مفاتيح الغيب (١٧٢/٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا يَقُولُونَ أَيْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وكانوا يقولون كفراً منهم بالبعث، وإنكاراً لإحياء الله خلقه من بعد مماتهم: أنذا كنا تراباً في قبورنا من بعد مماتنا، وعظاماً نخرة، أننا لمبعوثون منها أحياء كما كنا قبل الممات، أو آباؤنا الأولون الذين كانوا قبلنا، وهم الأولون، يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قل -يا محمد- لهؤلاء: إن الأولين من آبائكم والآخرين منكم ومن غيركم، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم، وذلك يوم القيامة»^(١).

قال الشنقيطي: «لما ذكر -جل وعلا- ما أعد لأصحاب الشمال من العذاب، بين بعض أسبابه، فذكر منها أنهم كانوا قبل ذلك في دار الدنيا مترفين، أي: متنعمين، وقد قدمنا أن القرآن دلّ على أن الإتراف والتنعم والسرور في الدنيا من أسباب العذاب يوم القيامة؛ لأن صاحبه معرض عن الله لا يؤمن به ولا برسله، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿٥١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿٥٢﴾ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٥٣﴾﴾»^(٢).

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون إنكار البعث سبباً لدخول النار؛ لأن قوله تعالى لما ذكر أنهم في سموم وحميم وظل من يحموم، بين أن من أسباب ذلك أنهم قالوا: ﴿أَيْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا﴾ الآية، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ أَيْدَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ

(١) جامع البيان (٢٧/١٩٤).

(٢) الانشقاق: الآيات (١١-١٣).

الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَتَارَهُمْ فِيْهَا يَخْلَدُونَ ﴿١١﴾ ﴿٥﴾ ..

وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من إنكارهم بعث آبائهم الأولين في قوله: ﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾، وأنه تعالى بين لهم أنه يبعث الأولين والآخرين في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٢﴾﴾ جاء موضحاً في غير هذا الموضع، فبيننا فيه أن البعث الذي أنكروا سيتحقق في حال كونهم أذلاء صاغرين، وذلك في قوله تعالى في (الصفات): ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ أَوْ إِنَّا مِنكُمْ وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ إِنَّا لَنَبْعُوثُ ﴿١٤﴾ أَوْ إِنَّا لَنَبْعُوثُ ﴿١٥﴾ أَوْ إِنَّا لَنَبْعُوثُ ﴿١٦﴾ أَوْ إِنَّا لَنَبْعُوثُ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ ﴿٢﴾﴾ ﴿٣﴾.

وقال أيضاً: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من بعث الأولين والآخرين وجمعهم يوم القيامة، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكَ يَوْمَ الْمَجْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ ﴿٤﴾، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ كُنُفُوكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ﴾ ﴿٥﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَاوِذُ الْيَمِينِ لَا رِبَّ فِيهِ﴾ ﴿٦﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَكُمُ النَّاسُ﴾ ﴿٧﴾، وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٨﴾، وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ﴿٩﴾﴾ ﴿١٠﴾.

وقال ابن كثير: «كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ لَكُمُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ ﴿١١﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقْتُ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿١٣﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ ﴿١٤﴾ أي: هو موقف بوقت محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص» ﴿١٥﴾.

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ فإنه يدل على أن الله تعالى

(١) الرعد: الآية (٥).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٧٧-٧٧٨).

(٤) التغابن: الآية (٩).

(٥) النساء: الآية (٨٧).

(٦) آل عمران: الآية (٩).

(٧) هود: الآية (١٠٣).

(٨) المرسلات: الآية (٣٨).

(٩) الكهف: الآية (٤٧).

(١٠) أضواء البيان (٧/ ٧٨٣).

(١١) هود: الآيات (١٠٣-١٠٥).

(١٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦).

يجمعهم في يوم واحد معلوم، واجتماع عدد من الأموات لا يعلم عددهم إلا الله تعالى في وقت واحد أعجب من نفس البعث، وهذا كقوله تعالى في سورة (الصافات): ﴿فَأَنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(١) أي: أنتم تستبعدون نفس البعث، والأعجب من هذا أنه يبعثهم بزجرة واحدة، أي: صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾، أي: يبعثون مع زيادة أمر، وهو فتح أعينهم ونظرهم، بخلاف من نعى فإنه إذا انتبه يبقى ساعة ثم ينظر في الأشياء، فأمر الإحياء عند الله تعالى أهون من تنبيه نائم^(٢).

* * *

(١) الصافات: الآية (١٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/١٧٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١) لَّا كَلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾

★ غريب الآية:

زقوم: الزقوم: ثمر كريه. ومنه قيل: تَزَقَّم فلان، أي: بلع شيئاً كريهاً.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لأصحاب الشمال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَا الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الهدى، ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بوعيد الله ووعدته، لَّا كَلُونَ من شجر من زقوم. وقوله: ﴿فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ يقول: فمالثون من الشجر الزقوم بطونهم»^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ٥٤﴾ ﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ ٥٥﴾

★ غريب الآية:

الهميم: الإبل العطاش التي لا تروى لداء يُصِيبُهَا.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الرازي: «﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: عقيب الأكل تجر مرارته وحرارته إلى شرب الماء، فيشربون على ذلك المأكول وعلى ذلك الزقوم من الماء الحار، وقد تقدم بيان الحميم، وقوله: ﴿﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ ٥٥﴾﴾ بيان أيضاً لزيادة العذاب، أي: لا يكون أمركم أمر من شرب ماء حاراً منتناً فيمسك عنه، بل يلزمكم أن تشربوا منه مثل ما تشرب الهميم، وهي الجمال التي أصلها العطش فتشرب ولا تروى، وهذا البيان في الشرب لزيادة العذاب»^(١).

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/١٧٦).

قوله تعالى: ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٥٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «يعني: ليس هذا كل العذاب، بل هذا أول ما يلقونه، وهو بعض منه وأقطع لأمعائهم»^(١).

قال القاسمي: «فيه مبالغة بديعة؛ لأن النزول ما يعدّ للقدام عاجلاً إذا نزل، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة، فلما جعل هذا، مع أنه أمر مهول، كالنزل، دلّ على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه. وجعله نزلاً، مع أنه ما يكرم به النازل، متهمكماً، كما في قوله:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارَ بِالْجَيْشِ ضَافِنَا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمَرْهَفَاتِ لَهُ نُزْلاً»^(٢).

قال ابن كثير: «﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٥٦﴾ أي: هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلاً﴾ ﴿١٧﴾»^(٣) أي: ضيافة وكرامة»^(٤).

قال الشنقيطي: «وربما استعملت العرب النزول في ضد ذلك على سبيل التهكم والاحتقار، وجاء القرآن باستعمال النزول فيما يقدم لأهل النار من العذاب كقوله هنا في عذابهم المذكور في قولهم: ﴿لَا كُؤُنَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُؤْمٍ﴾ ﴿٥٢﴾ إلى قوله: ﴿شَرَبَ الْهَمِيمِ﴾ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ أي: هذا العذاب المذكور هو ضيافتهم ورزقهم المقدم لهم عند نزولهم في دارهم التي هي النار، كقوله تعالى للكافر الحقيير الذليل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿٥٠﴾»^(٥).

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إطلاق النزول على عذاب أهل النار، جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله في آخر هذه السورة الكريمة: ﴿فَنَزَّلُ مِنَ جَمِيرٍ

(٢) محاسن التأويل (١٦/١٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/١٦).

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/١٧٦).

(٣) الكهف: الآية (١٠٧).

(٥) الدخان: الآية (٤٩).

﴿١٣﴾ وَنَصْلِيَهُ جَحِيمٌ ﴿١٤﴾^(١)، وقوله تعالى في آخر (الكهف): ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾^(٢)، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي السعد الضبي:

وكنّا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نُزلا
وقوله: ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: يوم الجزاء كما تقدم مراراً^(٣).

* * *

(١) الواقعة: الآيتان (٩٣ و٩٤).

(٢) الكهف: الآية (١٠٢).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٨٣-٧٨٤).

قوله تعالى : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير : «يقول تعالى مقررًا للمعاد، وردًا على المكذبين به من أهل الزيف والإلحاد من الذين قالوا : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمَعُوثُونَ﴾»^(١)، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد. فقال تعالى : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ﴾ أي : نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، أفليس الذي قدر على البداء بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟ ولهذا قال : ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي : فهلّا تصدّقون بالبعث»^(٢).

قال الشنقيطي : «وهذا البرهان على البعث بدلالة الخلق الأول على الخلق الثاني، جاء موضحة في آيات كثيرة جدًا كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾»^(٣)، وقوله : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾»^(٤)، وقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نَّوَابٍ﴾»^(٥)، وقوله تعالى : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾»^(٦)، وقوله تعالى : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾»^(٧)، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة . . . وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، (لولا) حرف تحضيض، ومعناه : الطلب بحثً وشدة، فالآية تدل على شدة حثّ الله للكفار وحضه لهم على التصديق بالبعث ؛ لظهور برهانه القاطع الذي هو خلقه لهم أولًا»^(٨).

* * *

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٦/٨).

(٤) الأنبياء : الآية (١٠٤).

(٦) يس : الآية (٧٩).

(٨) أضواء البيان (٧/ ٧٨٤-٧٨٥).

(١) الواقعة : الآية (٤٧).

(٣) الروم : الآية (٢٧).

(٥) الحج : الآية (٥).

(٧) الإسراء : الآية (٥١).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لهؤلاء المكذبين بالبعث: أفرأيتم أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم من بعد مماتكم النطف التي تمنون في أرحام نساءكم، أنتم تخلقون تلك أم نحن الخالقون»^(١).

قال الرازي: «ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ من تقرير قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ﴾؛ وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ﴾ قال الطبيعيون: نحن موجودون من نطف الخلق بجواهر كامنة، وقبل كل واحد نطفة واحد، فقال تعالى ردًا عليهم: هل رأيتم هذا المني وأنه جسم ضعيف متشابه الصورة لا بد له من مكوّن، فأنتم خلقتُم النطفة أم غيركم خلقها؟ ولا بد من الاعتراف بخالق غير مخلوق قطعًا للتسلسل الباطل، وإلى ربنا المنتهى، ولا يرتاب فيه أحد من أول ما خلق الله النطفة وصورها وأحياها ونورها، فلم لا تصدقون أنه واحد أحد صمد قادر على الأشياء؟ فإنه يعيدكم كما أنشأكم في الابتداء، والاستفهام يفيد زيادة تقرير، وقد علمت ذلك مرارًا»^(٢).

قال الشنقيطي: «تنبيه: هذا البرهان الدال على البعث الذي هو خلق الإنسان من نطفة مني تمنى، يجب على كل إنسان النظر فيه؛ لأن الله - جل وعلا - وجه صفة الأمر بالنظر فيه إلى مني الإنسان، والأصل في صيغة الأمر على التحقيق الوجوب إلا لدليل صارف عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ الآية»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (١٩٦/٢٧).

(٢) مفاتيح الغيب (١٧٧/٢٩).

(٤) أضواء البيان (٧٨٦/٧).

(٣) الطارق: الآيات (٦٥).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿١٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ
أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السمرقندي: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ يعني: نحن قسمنا بينكم الآجال، فمنكم من يموت صغيراً، ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت شيخاً... ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿١٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ يعني: وما نحن بعاجزين إن أردنا أن نأتي بخلق مثلكم وأمثلة منكم وأطوع لله تعالى، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: ونخلقكم سوى خلقكم من الصور فيما لا تعلمون من الصور، مثل القردة والخنازير، ويقال: وما نحن بعاجزين على أن نرد أرواحكم إلى أجسامكم بعد الموت^(١).

قال الشنقيطي: «وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها وجهان أو أكثر من التفسير، ويكون كل ذلك صحيحاً، وكله يشهد له قرآن، فنذكر الجميع وأدلته من القرآن، ومن ذلك هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك أن لقوله: ﴿قَدَرْنَا﴾ وجهين من التفسير، وفيما تتعلق به ﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ﴾ وجهان أيضاً، فقال بعض العلماء، وهو اختيار ابن جرير، أن قوله: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ أي: قدرنا لموتكم آجالاً مختلفة وأعماراً متفاوتة، فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت شيخاً.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَيْكَ أَزْدِلَ الْعُمْرِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُبُهَاءَ وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّفُ مِنْ قَبْلُ وَلَتَبَلَّغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرٍ إِلَّا فِي

(١) بحر العلوم (٣/٣١٨).

(٢) الحج: الآية (٥).

(٣) غافر: الآية (٦٧).

كِتَابٌ^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: ما نحن بمغلوبين، والعرب تقول: سبقه على كذا، أي: غلبه عليه وأعجزه عن إدراكه، أي: وما نحن بمغلوبين على ما قدرنا من آجالكم وحددناه من أعماركم، فلا يقدر أحد أن يقدم أجلاً آخرناه ولا يؤخر أجلاً قدمناه.

وهذا المعنى دلّت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾^(٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾^(٥) إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول، فقوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ﴾ ليس متعلقاً بـ(مسبوقين)، بل بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾، والمعنى: نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبذل أمثالكم، أي: نبذل من الذين ماتوا أمثالا لهم نوجدهم.

وعلى هذا، فمعنى تبديل أمثالهم إيجاد آخرين من ذرية أولئك الذين ماتوا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾^(٦) إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير، وقراءة ﴿قَدَرْنَا﴾ بالتشديد مناسبة لهذا الوجه، وكذلك لفظة ﴿بَيْنَكُمْ﴾.

الوجه الثاني: أن ﴿قَدَرْنَا﴾ بمعنى: قضينا وكتبنا، أي: كتبنا الموت وقدرناه على جميع الخلق، وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(٨)، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْإِلَهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾^(٩)، وعلى هذا القول فقوله: ﴿وَعَلَى أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ﴾: متعلق بـ(مسبوقين)، أي: ما نحن مغلوبين، والمعنى: وما نحن

(١) فاطر: الآية (١١).

(٣) الأعراف: الآية (٣٤).

(٥) آل عمران: الآية (١٤٥).

(٧) القصص: الآية (٨٨).

(٩) الفرقان: الآية (٥٨).

(٢) المناقون: الآية (١١).

(٤) نوح: الآية (٤).

(٦) الأنعام: الآية (١٣٣).

(٨) آل عمران: الآية (١٨٥).

بمغلوبين على أن نبدل أمثالكم إن أهلكناكم لو شئنا فنحن قادرون على إهلاككم، ولا يوجد أحد يغلبنا ويمنعنا من خلق أمثالكم بدلاً منكم.

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدَلِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(٥)، وقد قدمنا هذا في سورة (النساء) في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الآية. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنُنَشِّئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيه للعلماء أقوال متقاربة، قال بعضهم: ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور والهيئات، كأن ننشئكم قردة وخنازير، كما فعلنا ببعض المجرمين قبلكم.

وقال بعضهم: ننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات، فنغير صفاتكم ونجمل المؤمنين ببياض الوجوه، ونقبح الكافرين بسواد الوجوه وزرقة العيون، إلى غير ذلك من الأقوال^(٥).

* * *

(١) النساء: الآية (١٣٣).

(٢) الأنعام: الآية (١٣٣).

(٣) إبراهيم: الآيتان (٢٠١٩).

(٤) محمد: الآية (٣٨).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٧٨٧-٧٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَاءَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى: ولقد علمتم أيها الناس الإحداثة الأولى التي أحدثناكموها، ولم تكونوا من قبل ذلك شيئاً.. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فهلاً تذكرون أيها الناس، فتعلموا أن الذي أنشأكم النشأة الأولى ولم تكونوا شيئاً، لا يتعذر عليه أن يعيدكم من بعد مماتكم وفنائكم أحياء»^(١).

وقال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَاءَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلاً تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة -وهي البداءة- قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأخرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾^(٢)، وقال: ﴿أَوَلَا يَذَكِّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئاً﴾ ﴿٦٧﴾^(٣)، ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتُهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَيْبٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿يُنْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿٣١﴾ أَلَمْ يَكْ نُفِئْهُ مِن مِّمِّي يَمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُّفْصُولَةً ﴿٧٨﴾ جَعَلَ مِنهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٦﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٥﴾^(٥)»^(٦).

قال ابن القيم: «تأمل قوله تعالى في (الواقعة): ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَتَّبِعُونَ خَلْقَهُنَّ ثُمَّ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ ﴿٧٧﴾ كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها

(١) جامع البيان (٢٧/١٩٧-١٩٨).

(٢) الروم: الآية (٢٧).

(٣) يس: الآيات (٧٧-٧٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/١٧).

(٥) الواقعة: الآيات (٥٨-٦٠).

(٦) مريم: الآية (٦٧).

(٧) القيامة: الآيات (٣٦-٤٠).

مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُورِينَ﴾ (١٥) عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْتَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ (١)، فإنكم إنما علمتكم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون، فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم، وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لذلك ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتكم بها، فأى استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلى العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟ (٢).

* * *

(١) الواقعة : الآيتان (٦٠ و٦١).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص : ١٢٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال البقاعي: «ولما كان علمهم بأمر النبات الذي هو الآية العظمى لإعادة الأموات أعظم من علمهم بجميع ما مضى، وكان أمره في الحرث وإلقاء البذر فيه أشبه شيء بالجماع وإلقاء النطفة، ولذلك سميت المرأة حرثاً، وصل بما مضى مسبباً عنه قوله منكراً عليهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني هل رأيتم بالبصر أو البصيرة ما نبهناكم عليه وفيما تقدم فتسبب عن تنبهكم لذلك أنكم رأيتم ﴿مَا تَحْرُثُونَ﴾ أي: تجددون حرثه على سبيل الاستمرار بتهيئة أرضه للبذر وإلقاء البذر فيه.

ولما كانوا لا يدعون القدرة على الإنبات بوجه، وكان القادر عليه قادراً على كل شيء، وهم يعتقدون في أمر البعث ما يؤدي إلى الطعن في قدرته، كرر الإنكار عليهم فقال: ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي: تنبتونه بعد طرحكم البذر فيه وتحفظونه إلى أن يصير ما لا ﴿أَمْ نَحْنُ﴾ خاصة، وأكد لما مضى بذكر الخبر المعلوم من السياق فقال: ﴿الزَّارِعُونَ﴾ أي المنبتون له والحافظون^(١).

قال الماوردي: «تتضمن هذه الآية أمرين:

أحدهما: الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم.

الثاني: البرهان الموجب للاعتبار بأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذوره وانتقاله إلى استواء حاله، من العفن إلى الترتيب حتى صار زرعاً أخضر، ثم جعله قوياً مشدداً أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من مات أحق وعليه أقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة^(٢).

(١) نظم الدرر (١٩/٢٢٣).

(٢) النكت والعيون (٥/٤٦٠).

وقال الشنقيطي: «تضمنت هذه الآية الكريمة برهاناً قاطعاً ثانياً على البعث، وامتناناً عظيماً على الخلق بخلق أرزاقهم لهم، فقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١)، يعني: أفرأيتم البذر الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها، أي: تحريكها وتسويتها، أنتم تزرعون، أي: تجعلونه زرعاً، ثم تمنونه إلى أن يصير مدرّكاً صالحاً للأكل أم نحن الزارعون له؟ ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال: أنت يا ربنا هو الزراع المنبت، ونحن لا قدرة لنا على ذلك، فيقال لهم: كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا السنبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر على أن يبعثكم بعد موتكم، وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث، جاء موضعاً في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَفْلَحَ سَحَابًا نَقَالًا سُقْنَاهُ لِسُلَيْمَانَ مِمَّا قَالُوا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ كُلَّ النَّارِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَ لَكُمْ تَذَكُّرًا﴾ (٣) .

تنبيه: اعلم أنه يجب على كل إنسان أن ينظر في هذا البرهان الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة؛ لأن الله - جل وعلا - وجه في كتابه صيغة أمر صريحة عامة في كل ما يصدق عليه مسمى الإنسان بالنظر في هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان لأعظم النعم على الخلق، وللدلالة على عظم الله وقدرته على البعث وغيره، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٤) أَنَا صَبَّأُ الْمَاءَ صَبًّا (٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٦) فَأَبْقَيْنَا فِيهَا جَبًّا (٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (٨) وَزَيَّنَّاهَا وَنَخَلًا (٩) وَحَدَائِقَ غُلَبًا (١٠) وَفُكْهَةً وَأَبَّأً (١١) مَنَعًا لَكُمْ وَلِأَتَمِّكُمْ (١٢) (٤).

والمعنى: انظر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذي تأكله ولا غنى لك عنه، من هو الذي خلق الماء الذي صار سبباً لإنباته هل يقدر أحد غير الله على

(١) فصلت: الآية (٣٩).

(٢) الروم: الآية (٥٠).

(٣) الأعراف: الآية (٥٧).

(٤) عبس: الآيات (٢٤-٣٢).

خلق الماء؟ أي: إبرازه من أصل العدم إلى الوجود. ثم هب أن الماء خلق، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذي يسقى به الأرض من غير هدم ولا غرق؟ ثم هب أن الماء نزل في الأرض، من هو الذي يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع؟ ثم هب أن الزرع طلع، فمن هو الذي يقدر على إخراج السنبل منه؟ ثم هب أن السنبل خرج منه، فمن هو الذي يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحاً للأكل؟

﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١)، والمعنى: انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفاً لا يصلح للأكل، وانظروا إلى ينعه، أي: انظروا إليه بعد أن صار يانعاً مدرّكاً صالحاً للأكل، تعلموا أن الذي رباه ونماه حتى صار كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شيء، منعم عليكم عظيم الإنعام، ولذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فاللازم أن يتأمل الإنسان وينظر في طعامه ويتدبر قوله تعالى: ﴿أَنَا صَبَّأُ الْمَلَكُ صَبَّأً﴾^(٢) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا^(٣)، أي: عن النبات شقاً إلى آخر ما بيّناه^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في فضل الزرع والغرس وعمارة الأرض لنفع المسلمين

والتأدب بآداب الرسول ﷺ في إطلاق الألفاظ

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: زرعت، ولكن ليقل: حرثت»، قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قول الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾^(١) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ^(٢)؟^(٣)

(١) الأنعام: الآية (٩٩).

(٢) عبس: الآيتان (٢٥ و ٢٦).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٨٩-٧٩١).

(٤) أخرجه: ابن جرير (٧٢/ ٨٩١)، والبخاري (٢/ ٩٦/ ١٢٨٩)، والبيهقي (٦/ ١٣٨)، وصححه ابن حبان (١٣/ ٣٠/ ٥٧٢٣) واللفظ له، والطبراني في الأوسط (٩/ ١٣/ ٨٠٢٠) وأورده الهيثمي في المجمع (٤/ ١٢٠) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط والبخاري، وفيه مسلم بن أبي مسلم، ولم أجد من ترجمه، وبقيّة رجاله ثقات»، وانظر السلسلة الصحيحة (رقم: ٢٨٠١).

* فوائد الحديث:

قال الألوسي: «يشير رضي الله تعالى عنه -يعني أبا هريرة- إلى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ النهي من هذه الآية؛ فإنه أسند الحرث إلى المخاطبين دون الزرع»^(١).
 قال العيني: «وذكر هذه الآية لاشتمالها على الحرث والزرع، وأيضاً تدل على إباحة الزرع من جهة الامتنان به، وفيها وفي الآيات التي قبلها ردّ وتبكيّت على المشركين الذين قالوا: نحن موجودون من نطفة حدثت بحرارة كائنة، وأنكروا البعث والنشور بأمور ذكرت فيها، من جملتها قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾^(٢) أي: تثيرون في الأرض وتعملون فيها وتطرحون البذار، ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾^(٣) أي: تنبتونه وتردونه نباتاً ينمي إلى أن يبلغ الغاية. قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا﴾^(٤) أي: هشيماً لا ينتفع به ولا تقدرّون على منعه، وقيل: نباتاً لا قمح فيه، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾^(٥) أي: تفجعون، وقيل: تحزنون، وهو من الأضداد، تقول العرب: تفكّمت، أي: تنعمت، وتفكّمت، أي: حزنت، وقيل: التفكّه: التكلم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للمزاح: فكاهة، وأخذوا من قوله: ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾^(٦)؟ أن لا يقول أحد: زرعت، ولكن يقول: حرثت»^(٧).

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه جواز نسبة الزرع للآدمي -يعني حديث أنس الآتي-، وقد ورد في المنع حديث غير قوي أخرجه ابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «لا يقل أحدكم: زرعت، ولكن ليقل: حرثت، ألم تسمع لقول الله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾^(٨) أم نحن الزارعون»^(٩) ورجاله ثقات إلا أن مسلم بن أبي مسلم الجرمي؛ قال فيه ابن حبان: ربما أخطأ»^(١٠).

قال الألباني: «قد عرفت أن الحديث قوي، فلا بد حينئذ من التوفيق بينه وبين حديث الصحيحين بوجه من وجوه التوفيق المعروفة، كأن يحمل حديث الترجمة على أن النهي فيه للكرهة، كما قالوا في التوفيق بين أحاديث النهي عن تسمية

(١) روح المعاني (٢٧/١٤٨).

(٢) الواقعة: الآية (٦٥).

(٣) عمدة القاري (٩/٣-٤).

(٤) فتح الباري (٥/٥).

العنب كرمًا^(١)، وبين أحاديث أخرى جاء فيها كقوله ﷺ: «الخمير من هاتين الشجرتين: الكرمة والنخلة» رواه مسلم^(٢)، وكحديث النهي عن بيع الكرم بالزبيب^(٣) (انظر فتح الباري^(٤)) .

أو يقدم حديث الترجمة لأنه حاضر، والحاضر مقدم على المبيح . والله سبحانه وتعالى أعلم^(٥) .

قال عبد الرحمن الجزيري: «ورد النهي عن أن يقول الإنسان: زرعت، بل يقول: حرثت، فقد روى البزار عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: زرعت، وليقل: حرثت»، ومعنى هذا أنه لا يصح أن يقول: زرعت، ويريد المعنى الحقيقي للزرع وهو الإنبات؛ لأن المنبت هو الله تعالى كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﷻ «أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَتَمْنَى الْزَّرْعُونَ﴾ ﷻ فقد نسب سبحانه لعباده الحرث وهو إلقاء البذرة، أما الإنبات فإنهم لا يستطيعون ادعاءه؛ إذ لو كان من عملهم لكان لازماً؛ والواقع غير ذلك؛ فقد يلقون البذر ولا ينبت أصلاً، أو ينبت ثم تجتاحه جائحة، كما قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا﴾ ﷻ^(٦) .

أما إذا قال: زرعت، وأراد منه المعنى المجازي، أي: ألقيت البذر، فإنه جائز، ولهذا روى مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «لا يغرس المسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة»^(٧)، فهذا صريح في جواز نسبة الزرع إلى الإنسان، إلا أن الواقع أن عمل الإنسان هو شق الأرض وإلقاء البذر وتعهدها بالوسائل العادية، أما الإنبات فليس له فيه عمل ما^(٨) .

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢٥٩)، والبخاري (١٠/٦٩١/٦١٨٢)، ومسلم (٤/١٧٦٣/٢٢٤٧)، وأبو داود (٥/٢٢٥-٢٥٦/٤٩٧٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠٦/١١٦٤٤) من طرق عن أبي هريرة ﷺ .

(٢) (٣/١٥٧٣/١٩٨٥) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٣) أخرجه: أحمد (٢/١٠٨)، والبخاري (٤/٤٧٤/٢١٧١)، ومسلم (٣/١١٧١/١٥٤٢)، والنسائي (٧/٣٠٧/٤٥٤٨) من حديث ابن عمر ﷺ .

(٤) (٤/٣٨٥-٣٨٦) .

(٥) السلسلة الصحيحة (٦/٧١٦-٧١٧) .

(٦) الواقعة: الآية (٦٥) .

(٧) أخرجه: أحمد (٣/٣٩١)، ومسلم (٣/١١٨٨/١٥٥٢) .

(٨) الفقه على المذاهب الأربعة (٣/١-٢) .

قال القرطبي: «فهو نهى إرشاد وأدب لا نهى حظر وإيجاب، ومنه قوله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: غلامي وجاريتي وفتاتي»^(١)»^(٢).

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قوله: «مسلم»:

قال الطيبي: «نكر «مسلمًا» وأوقعه في سياق النفي وزاد (من) الاستغرافية، وخص الغرس والزرع، وعم الحيوان؛ ليدل على سبيل الكناية الإيمانية على أن أي مسلم كان سواء حرًا أو عبدًا، مطيعًا أو عاصيًا يعمل أي عمل من المباح، ينتفع بما عمله أي حيوان كان يرجع نفعه إليه؛ يثاب عليه»^(٤).

قال القرطبي: «وإنما خص المسلم بالذكر؛ لأنه ينوي عند الغرس غالبًا أن يتقوى بثمرة ذلك الغرس المسلمون على عبادة الله تعالى، ولأن المسلم هو الذي يحصل له ثواب. وأما الكافر فلا يحصل له بما يفعله من الخيرات ثواب، وغايته أن يخفف العذاب عنه، وقد يطعم في الدنيا ويعطى بذلك»^(٥).

قال العيني: «وفيه أن المرأة تدخل في «ما من مسلم»؛ لأن هذا اللفظ من الجنس الذي إذا كان الخطاب به يدخل فيه المرأة؛ لأنه ﷺ لم يرد بهذا اللفظ أن المسلمة إذا فعلت هذا الفعل لم يكن لها هذا الثواب، بل المسلمة في هذا الفعل في استحقاق الثواب مثل المسلم سواء»^(٦).

وقال أيضًا: «فإن قلت: قوله ﷺ في بعض طرق الحديث: «ما من عبد»، وهو

(١) أخرجه: أحمد (٤٦٣/٢)، والبخاري (٢٢٢/٥)، ومسلم (٢٢٤٩/١٧٦٤/٤)، وأبو داود (٥/٥).

٢٥٦-٢٥٧/٢٥٧، والنسائي في الكبرى (١٠٧٢/٦٩/٦) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢١٨/١٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢٢٨-٢٢٩/٣)، والبخاري (٢٣٢٠/٣/٥)، ومسلم (١١٨٩/٣/٣)، والترمذي (٣/٣).

(٤) ١٣٨٢/٦٦٦ وقال: «حسن صحيح».

(٥) الكاشف (١٥٤٨-١٥٤٧/٥).

(٦) المفهم (٤٢١/٤).

(٦) عمدة القاري (٦/٩).

يتناول المسلم والكافر؛ قلت: يحمل المطلق على المقيد»^(١).

قال النووي: «في هذه الأحاديث فضيلة الغرس وفضيلة الزرع، وأن أجر فاعلي ذلك مستمر ما دام الغراس والزرع وما تولد منه إلى يوم القيامة، وقد اختلف العلماء في أطيب المكاسب وأفضلها، فقليل: التجارة، وقيل: الصنعة باليد، وقيل: الزراعة، وهو الصحيح»^(٢).

قال العيني: «وأكثر الأحاديث تدل على أفضلية الكسب باليد.. . وقد يقال: هذا أطيب من حيث الحِلّ، وذلك أفضل من حيث الانتفاع العام؛ فهو نفع متعدّد إلى غيره. وإذا كان كذلك، فينبغي أن يختلف الحال في ذلك باختلاف حاجة الناس؛ فحيث كان الناس محتاجين إلى الأقوات أكثر، كانت الزراعة أفضل للتوسعة على الناس، وحيث كانوا محتاجين إلى المتجر لانقطاع الطرق، كانت التجارة أفضل، وحيث كانوا محتاجين إلى الصنائع أشد، كانت الصنعة أفضل، وهذا حسن»^(٣).

قال القاضي عياض: «فيه الحض على الغرس واقتناء الضياع، كما فعله كثير من السلف، خلافاً لمن منع ذلك. واختصاص الثواب على الأعمال بالمسلمين دون الكفار. وفيه أن المسبب للخير أجر بما تنفع به، كان من أعمال البرّ أو مصالح الدين. وقيل: وفيه حجة أن من زرع في أرض غيره أن الزرع له، وعليه كراء الأرض لما عم الزرع وخصه بذلك. وفيما قال نظر، وليس فيه بيان»^(٤).

قال ابن بطال: «وفيه الحض على عمارة الأرض لتعيش نفسه أو من يأتي بعده ممن يؤجر فيه، وذلك يدل على جواز اتخاذ الضياع، وأن الله تعالى أباح ذلك لعباده المؤمنين لأقواتهم وأقوات أهلهم طلباً للغنى بها عن الناس، وفساد قول من أنكر ذلك، ولو كان كما زعموا، ما كان لمن زرع زرعاً وأكل منه إنسان أو بهيمة أجر؛ لأنه لا يؤجر أحد فيما لا يجوز فعله»^(٥).

(١) المصدر نفسه.

(٢) شرح صحيح مسلم (١٠/١٨١).

(٣) عمدة القاري (٥/٩).

(٤) الإكمال (٥/٢١٤).

(٥) شرح صحيح البخاري (٦/٤٥٦).

قال القرطبي: «وفيه دليل على أن الغراس واتخاذ الضياع مباح، وغير قاذح في الزهد. وقد فعله كثير من الصحابة. وقد ذهب قوم من المتزهدة إلى أن ذلك مكروه وقاذح. ولعلهم تمسكوا في ذلك بما قد خرّجه الترمذي من قوله ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة، فتركوا إلى الدنيا» من حديث ابن مسعود^(١). وقال فيه: حديث حسن.

والجواب: أن هذا النهي محمول على الاستكثار من الضياع والانصراف إليها بالقلب الذي يفضي بصاحبه إلى الركون للدنيا. فأما إذا اتخذها غير مستكثر، وقلّل منها، وكانت له كفافاً وعفافاً فهي مباحة، غير قاذحة في الزهد، وسبيلها كسبيل المال الذي استثناه النبي ﷺ بقوله: «إلا من أخذه بحقّه، ووضع في حقّه»^(٢)، فأما لو غرس، واتخذ الضيعة ناوياً بذلك معونة المسلمين، وثواب ما يؤكل ويتلف له منها، ويفعل بذلك معروفاً، فذلك من أفضل الأعمال، وأكرم الأحوال، ولا بُعد في أن يقال: إن أجر ذلك يعود عليه أبداً دائماً، وإن مات وانتقلت إلى غيره. ولولا الإكثار لذكرنا فيمن اتخذ الضياع من الفضلاء والصحابة جملة من صحيح الأخبار^(٣).

قال الحافظ: «وظاهر الحديث أن الأجر يحصل لمتعاطي الزرع أو الغرس ولو كان ملكه غيره؛ لأنه أضافه إلى أمّ مبشر^(٤) ثم سألها عن غرسه»^(٥).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣٧٧/١)، والترمذي (٤٨٨-٤٨٩/٤٨٩)، وصححه الحاكم (٤/٢٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢/٧٢٨/١٠٥٢ [١٢٢]) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) المفهم (٤/٤٢١-٤٢٢).

(٤) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (٣/١١٨٨ [٨] ١٠٥٢) عن جابر أن النبي ﷺ دخل على أم مبشر الأنصارية في نخل لها، فقال لها النبي ﷺ: «من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر؟»، فقالت: بل مسلم، فقال: «لا يفرس مسلم غرساً، ولا يزرع زرعاً، فياكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء، إلا كانت له صدقة».

(٥) فتح الباري (٤/٥).

قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

★ غريب الآية:

لمغرمون: أي: لخاسرون لم يحصل لنا من زرعنا ما أملنا. وأصل الغرام ما يصيب المرء من شدة ومصيبة. وبابه اللزوم. قال الأعشى:
إن يعاقب يكن غراماً وإن يعط جزيلاً فإنه لا يبالي

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: لو نشاء جعلنا ذلك الزرع الذي زرعناه حطامًا، يعني هشيماً لا ينتفع به في مطعم وغذاء.

وقوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: فظلمتم تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم من المصيبة باحتراقه وهلاكه.. وقال آخرون: معنى ذلك: فظلمتم تلاومون بينكم في تفريطكم في طاعة ربكم -جل ثناؤه-، حتى نالكم بما نالكم من إهلاك زرعكم..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلمتم تندمون على ما سلف منكم في معصية الله التي أوجب لكم عقوبته، حتى نالكم في زرعكم ما نالكم..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلمتم تعجبون..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ﴿فَظَلْتُمْ﴾: فأقمتم تعجبون مما نزل بزرعكم، وأصله من التفكه بالحديث: إذا حدث الرجل الرجل بالكلام يعجب منه، ويلهى به، فكذلك ذلك. وكأن معنى الكلام: فأقمتم تتعجبون يُعْجَب بعضكم بعضاً مما نزل بكم.

وقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ اختلف أهل التأويل في معناه، فقال بعضهم: إنا لمولع بنا.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنا لمعذبون.. وقال آخرون: بل معنى

ذلك : إنا لملقون للشر . .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : إنا لمعذبون ، وذلك أن الغرام عند العرب : العذاب ؛ ومنه قول الأعشى :

إن يعاقب يكن غراماً وإن يُعطى جزيلاً فإنه لا يبالي
يعني بقوله : يكن غراماً : يكن عذاباً . وفي الكلام متروك اكتفي بدلالة الكلام عليه ، وهو : فظلمتم تفكّهون (تقولون) إنا لمغرمون ، فترك (تقولون) من الكلام لما وصفنا .

وقوله : ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ (١٧) يعني بذلك - تعالى ذكره - أنهم يقولون : ما هلك زرعنا وأصبنا به من أجل ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ (١٨) ولكنا قوم محرومون ، يقول : إنهم غير مجدودين ، ليس لهم جد^(١) .

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/١٩٨-٢٠٠) .

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

★ غريب الآية:

المزن: السحاب، جمع مزنة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال البقاعي: «ولما وقفهم على قدرته في الزرع مع وجود أسبابه، وقدمهم بشدة إليه، وكان ربما ألبس نوع لبس؛ لأن لهم فيه سبباً في الجملة، أتبعه التوقيف على قدرته على التصرف في سببه الذي هو الماء الذي لا سبب لهم في شيء من أمره أصلاً، فقال مسيئاً عما أفادهم هذا التنبيه مذكراً بنعمة الشرب الذي يحوج إليه الغذاء»^(١).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفرايتم أيها الناس الماء الذي تشربون، أنتم أنزلتموه من السحاب فوقكم إلى قرار الأرض، أم نحن منزلوه لكم. . . وقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: لو نشاء جعلنا ذلك الماء الذي أنزلناه لكم من المزن ملحاً، وهو الأجاج، والأجاج من الماء: ما اشتدت ملوحته، يقول: لو نشاء فعلنا ذلك به فلم تنتفعوا به في شرب ولا غرس ولا زرع.

وقوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فهلاً تشكرون ربكم على إعطائه ما أعطاكم من الماء العذب لشربكم ومنافعكم، وصلاح معاشكم، وتركه أن يجعله أجاجاً لا تنتفعون به»^(٢).

قال الشنيطي: «تضمنت هذه الآية الكريمة امتناناً عظيماً على خلقه بالماء الذي

(١) نظم الدرر (١٩/٢٢٦).

(٢) جامع البيان (٢٧/٢٠٠-٢٠١).

يشربونه، وذلك أيضًا آية من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته وشدة حاجة خلقه إليه، والمعنى: أفرأيتم الماء الذي تشربون، الذي لا غنى لكم عنه لحظة، ولو أعدمناه لهلكتم جميعًا في أقرب وقت، ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (١٦).

والجواب الذي لا جواب غيره هو: أنت يا ربنا هو منزل من المزن، ونحن لا قدرة لنا على ذلك. فيقال لهم: إذا كنتم في هذا القدر من شدة الحاجة إليه تعالى، فلم تكفرون به وتشربون ماءه وتأكلون رزقه وتعبدون غيره؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الامتنان على الخلق بالماء، وأنهم يلزمهم الإيمان بالله وطاعته شكرًا للنعمة هذا الماء، كما أشار له هنا بقوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ جاء في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْفَقْنَاهُ نَوْمًا وَكَأ أَنَّهُ لَمْ يُخَذَّرِينَ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٣) لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُشْفِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَأْيًا كَثِيرًا (٤)، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ (٥) إلى غير ذلك من الآيات، وقوله هنا: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أي: لو نشاء جعلناه أجاجًا لفعلنا، ولكن جعلناه عذبًا فراتًا سائغًا شرابه، وقد قدمنا في سورة (الفرقان) أن الماء الأجاج هو الجامع بين الملوحة والمرارة الشديديتين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه تعالى: لو شاء لجعل الماء غير صالح للشراب، جاء معناه في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَنَنُفِثْكُمْ مِنْكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٦)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ وَلِنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَدَرُونَ﴾ (٧)؛ لأن الذهب بالماء وجعله غورًا لم يصل إليه وجعله أجاجًا، كل ذلك في المعنى سواء بجامع عدم تأتّي شرب الماء، وهذه الآيات المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلى خالقهم كما ترى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يدل على أن جميع الماء الساكن في الأرض النابع من العيون والآبار ونحو ذلك، أن أصله كله نازل من المزن، وأن

(١) الحجر: الآية (٢٢).

(٢) الفرقان: الآيتان (٤٨ و ٤٩).

(٣) الملك: الآية (٣٠).

(٤) النحل: الآية (١٠).

(٥) المرسلات: الآية (٢٧).

(٦) المؤمنون: الآية (١٨).

اللَّهُ أَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ وَخَزَنَهُ فِيهَا لِخَلْقِهِ .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضعاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) ، وقد قدمنا هذا في سورة (الحجر) في الكلام على قوله تعالى : ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾^(٢) ، وفي سورة (سبأ) في الكلام على قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾^(٣) الآية ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (فلولا) بمعنى (هلاً) ، وهي حرف تحضيض ، وهو الطلب بحث وحض ، والمعنى أنهم يطلب منهم شكر هذا المنعم العظيم بحث وحض .

واعلم أن الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده .

فشكر العبد لربه ، ينحصر معناه في استعماله جميع نعمه فيما يرضيه تعالى ، فشكر نعمة العين ألا ينظر بها إلا ما يرضي من خلقها ، وهكذا في جميع الجوارح ، وشكر نعمة المال أن يقيم فيه أوامره ، ويكون مع ذلك شاكر القلب واللسان ، وشكر العبد لربه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى هنا : ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(٤) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما شكر الرب لعبده فهو أن يشبه الثواب الجزيل من عمله القليل ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^(٥) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(٦) إلى غير ذلك من الآيات^(٧) .

* * *

(١) الزمر : الآية (٢١) .

(٢) الحجر : الآية (٢٢) .

(٣) سبأ : الآية (٢) .

(٤) البقرة : الآية (١٥٢) .

(٥) البقرة : الآية (١٥٨) .

(٦) فاطر : الآية (٣٤) .

(٧) أضواء البيان (٧/ ٧٩٢-٧٩٤) .

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾

★ غريب الآية:

تورون: توقدون. والإيراء: إظهار النار بالقدح.
للمقوين: أي: للمسافرين. يقال: أقوى الرجل: إذا دخل القواء، وهو الففر ليس به أحد. وأقوت الدار: خلت من أهلها، قال عنترة:
حيبت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أفأريتم أيها الناس النار التي تستخرجون من زندكم ﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ يقول: أنتم أحدثتم شجرتها واخترعتم أصلها، ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾؟ يقول: أم نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه؟
وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ يقول: نحن جعلنا النار تذكرة لكم تذكرون بها نار جهنم، فتعتبرون وتتعظون بها..

وقوله: ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى (المقوين) فقال بعضهم: هم المسافرون..

وقال آخرون: عني (المقوين): المستمتعون بها..

وقال آخرون: بل عني بذلك: الجائعون..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عني بذلك: للمسافر الذي لا زاد معه، ولا شيء له، وأصله من قولهم: أقوت الدار: إذا خلت من أهلها وسكانها^(١).

(١) جامع البيان (٢٧/ ٢٠١-٢٠٢).

وقال ابن كثير: «وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: قوله: ﴿لِّلْمُقَوِّينَ﴾: المستمتعين من الناس أجمعين، وكذا ذكره عن عكرمة. وهذا التفسير أعم من غيره؛ فإن الحاضر والبادي من غني وفقير؛ الكل محتاجون إلى الطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده، وأورى وأوقد ناره، فاطبخ بها واصطلى بها واشتوى، واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عامًا في حق الناس كلهم»^(١).

قال ابن القيم: «﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقَوِّينَ﴾» تذكرة تذكّر بها الآخرة، ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون، يقال: أقوى الرجل: إذا نزل بالقي والقوى، وهي الأرض الخالية، وخصّ المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهًا لعباده - والله أعلم بمراده من كلامه - على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر»^(٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَلَيْ تَتُورُونَ﴾ أي: توقدونها؛ من قولهم: أورى النار: إذا قدحها وأوقدها، والمعنى: أفرأيت النار التي توقدونها من الشجر، أنتم أنشأتم شجرتها التي توقد منها، أي: أوجدتموها من العدم؟

والجواب الذي لا جواب غيره: أنت يا ربنا هو الذي أنشأت شجرتها، ونحن لا قدرة لنا بذلك، فيقال: كيف تنكرون البعث وأنتم تعلمون أن من أنشأ شجرة النار وأخرجها منها قادر على كل شيء؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون خلق النار من أدلة البعث، جاء موضحًا في (يس) في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٣) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ^(٤)، فقوله في آخر (يس): ﴿تُوقِدُونَ﴾ هو معنى قوله في (الواقعة): ﴿تُورُونَ﴾، وقوله في آية (يس): ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بعد

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/١٩-٢٠).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ١٤١-١٤٢).

(٣) يس: الأيتان (٧٩ و٨٠).

قوله: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دليل واضح على أن خلق النار من أدلة البعث، وقوله هنا: ﴿وَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾، أي الشجرة التي توقد منها كالمرخ والعفار، ومن أمثال العرب: في كل شجر نار، واستنجد المرخ والعفار؛ لأن المرخ والعفار هما أكثر الشجر نصيباً في استخراج النار منهما، يأخذون قضيباً من المرخ ويحكون به عوداً من العفار فتخرج من بينهما النار، ويقال: كل شجر فيه نار إلا العناب^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة نار جهنم

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قيل: يا رسول الله! إن كانت لكافية، قال: فَضَّلْتُ عليهن بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرّها»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال الشنقيطي مبيناً وجه تطابق الآية مع الحديث: «قوله: ﴿وَنَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: نذكر الناس بها في دار الدنيا - إذا أحسوا شدة حرارتها - نار الآخرة التي هي أشد منها حرّاً لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار، وقد صح عنه ﷺ: أن حرارة نار الآخرة مضاعفة على حرارة نار الدنيا سبعين مرة، فهي تفوقها بتسع وستين ضعفاً، كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا»^(٣).

وقال الرازي: «تذكرة لنار القيامة، فيجب على العاقل أن يخشى الله تعالى وعذابه إذا رأى النار الموقدة»^(٤).

قال القسطلاني: «ناركم» هذه التي توقدونها في جميع الدنيا «جزء» واحد «من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قيل: يا رسول الله! لم أعرف القائل، «إن كانت» هذه النار «لكافية» في إحراق الكفار وتعذيب الفجار فهلا اكتفي بها؟ «قال» عليه الصلاة

(١) أضواء البيان (٧/ ٧٩٥-٧٩٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٣١٣/ ٢-٢٤٤-٤٦٧)، والبخاري (٦/ ٤٠٧-٣٢٦٥) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٨٤).

(٣) ٢٨٤٣، والترمذي (٤/ ٦١١-٢٥٨٩) وقال: «حسن صحيح».

(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٩٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٨٤).

والسلام مجيبًا له : إنها «فُضِّلَتْ عليهن» بضم الفاء وتشديد الضاد المعجمة ، أي : على نيران الدنيا «بتسعة وستين جزءًا» ، كلهن مثل حرّها» أعاد ﷺ حكاية تفضيل نار جهنم ؛ ليطمئن عذاب الله من عذاب الخلق .

وقال حجة الإسلام : نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرّف عذاب نار جهنم بها ؛ وهيئات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها هربًا مما هم فيه ، وفي رواية أحمد^(١) : «جزء من مائة جزء» والحكم للزائد^(٢) .

قوله : «جزء من سبعين جزءًا» قال الحافظ : «والجمع بأن المراد المبالغة في الكثرة ، لا العدد الخاص ، أو الحكم للزائد»^(٣) .

قال العيني : «ومعنى قوله : «جزء من سبعين جزءًا» أنه لو جمع كل ما في الوجود من النار التي يوقدها الآدميون لكانت جزءًا من أجزاء نار جهنم المذكورة ، بيانه : لو جمع حطب الدنيا وأوقد كله حتى صارت نارا لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءًا أشد منه . .

«فضلت عليها» أي : على نار الدنيا ، ويروى : «عليهن» كما فضلت عليها في المقدار والعدد بتسعة وستين جزءًا ، فضلت عليها في الحر بتسعة وستين جزءًا»^(٤) .

وقال أبو عمر : «ليس في هذا الحديث ما يحتاج إلى القول ، وفيه إباحة الخبر عن القيامة والآخرة وحال النار ، أجازنا الله منها وزحزحنا عنها ، وفيما نطق به القرآن من الخبر عن الآخرة والجنة والنار ما فيه معتبر لأولي الأبصار»^(٥) .

* عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاث لا يمنعن : الماء والكلاء والنار»^(٦) .

(٢) إرشاد الساري (٧/ ٢٠٥) .

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٨) .

(٣) فتح الباري (٦/ ٤١١) .

(٤) عمدة القاري (١٠/ ٦١٩) .

(٥) فتح البر (٢/ ١٢٨) .

(٦) أخرجه : ابن ماجه (٢/ ٨٢٦/ ٢٤٧٣) ، قال البوصيري في الزوائد : «هذا إسناد صحيح ، رجاله موثقون ؛ لأن محمد بن عبد الله بن يزيد ، أبا يحيى المكي ، وثقه النسائي وابن أبي حاتم وغيرهما . وباقى رجال الإسناد على شرط الشيخين» . وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص (٣/ ٦٥) : «إسناده صحيح» .

* عن أبي خدّاش عن رجل من المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ، قال: غزوت مع النبي ﷺ ثلاثاً أسمعته يقول: «المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلا، والماء، والنار»^(١).

* فوائد الحديثين:

قال الخطابي: «الكلا ينبت في موات الأرض يرعاه الناس، ليس لأحد أن يختص به دون أحد ويحجزه عن غيره، وكان أهل الجاهلية إذا غزا الرجل منهم حمى بقعة من الأرض لماشيته ترعاها يذود الناس عنها، فأبطل النبي ﷺ ذلك وجعل الناس فيها شرعاً يتعاورونه بينهم، فأما الكلا إذا نبت في أرض مملوكة لمالك بعينه فهو مال له ليس لأحد أن يشركه فيه إلا بإذنه.

وأما قوله: «والنار»، فقد فسره بعض العلماء، وذهب إلى أنه أراد به الحجارة التي توري النار، يقول: لا يمنع أحد أن يأخذ منها حجراً يقتدح به النار، فأما التي يوقدها الإنسان فله أن يمنع غيره من أخذها. وقال بعضهم: ليس له أن يمنع من يريد أن يأخذ منها جذوة من الحطب التي قد احترق فصار جمرًا، وليس له أن يمنع من أراد أن يستصبح منها مصباحًا أو أدنى منها ضغثًا يشتعل بها؛ لأن ذلك لا ينقص من عينها شيئًا، والله أعلم»^(٢).

قال البنا: «وأما «النار» فالمراد بها الحطب الذي يحتطبه الناس من الشجر المباح فيوقدونه، والحجارة التي توري النار ويقدح بها إذا كانت مواتًا أو هو على ظاهره، قال البيضاوي: المراد بالاشتراك في النار أن لا يمنع الاستصباح منها والاستضاءة بضوئها، لكن للموقد أن يمنع أخذ جذوة منها؛ لأنه ينقصها ويؤدي إلى إطفائها»^(٣).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣٦٤/٥)، وأبو داود (٧٥٠/٣) واللفظ له، والبيهقي (١٥٠/٦)، وصححه

الألباني في صحيح أبي داود وفي الإرواء (٧/٦).

(٢) معالم السنن (١١٠-١١١/٣).

(٣) الفتح الرباني (١٥/١٣٢).

قوله تعالى: ﴿فَسَيِّحُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال البقاعي: «ولما دل سبحانه في هذه الآيات على عجائب القدرة، وغرائب الصنع، فبدأ بالزرع، وختم بالنار والشجر، وأوجب ما نبّه عليه من التذكر لأمرها والتبصر في شأنها أنها من أسباب ما قبلها. . . وكان ذلك من جميع وجوه أمرًا باهرًا، أشار إلى زيادة عظمتها بالأمر بالتنزيه مسببًا عما أفاد ذلك، فقال معرضًا عمّن قد يلمّ به الإنكار، مقبلاً على أشرف خلقه، إشارة إلى أنه لا يفهم هذا المقام حق فهمه سواه، ولا يعمل به حق عمله غيره: ﴿فَسَيِّحُ﴾»^(١).

قال أبو السعود: «و(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَسَيِّحُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) لترتيب ما بعدها على ما عدد من بدائع صنعه تعالى، وروائع نعمه الموجهة لتسبيحه تعالى، إما تنزيهاً له تعالى عما يقوله الجاحدون بوحدانيته، الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها، أو تعجباً من أمرهم في غمط تلك النعم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور أمرها، أو شكراً على تلك النعم السابقة، أي: فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى أو بذكره؛ فإن إطلاق الاسم للشيء ذكر له، و(العظيم) صفة للاسم أو الربّ»^(٢).

* * *

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٣١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٩).

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَفَسُّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ ففيها قولان:

أحدهما: أنها النجوم المعروفة، وعلى هذا ففي مواقعها أقوال: أحدها: أنها انكدارها وانتشارها يوم القيامة، وهذا قول الحسن، والمنجمون يكذبون بها ولا يقرّون به.

الثاني: مواقعها: منازلها، قاله عطاء وقتادة.

والثالث: أنه مغاربها.

الرابع: أنه مواقعها عند طلوعها وغروبها، حكاه ابن عطية عن مجاهد وأبي عبيدة.

الخامس: أن مواقعها مواضعها من السماء، وهذا الذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة حكاه ابن عطية عنه، فيحتمل أن يكونا واحداً وأن يكونا قولين.

السادس: أن مواقعها انقضاؤها أثر العفريت وقت الرجوم، حكاه ابن عطية أيضاً ولم يذكر أبو الفرج ابن الجوزي سوى الثلاثة الأولى.

والقول الثاني: أن مواقع النجوم هي منازل القرآن ونجومه، التي نزلت على النبي ﷺ في مدة ثلاث وعشرين سنة، قال ابن عطية: ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾^(١)، وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل.

(١) الواقعة: الآيتان (٧٧ و٧٨).

ومن لا يتأول هذا التأويل يقول: إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم ذكره لشهرة الأمر ووضوح المعنى، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾^(١)، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٢)، وغير ذلك.

قلت: ويؤيد القول الأول أنه أعاد الضمير بلفظ الإفراد والتذكير، و(مواقع النجوم) جمع، فلو كان الضمير عائداً عليها لقال: إنها لقرآن كريم، إلا أن يُقال: (مواقع النجوم) دل على القرآن، فأعاد الضمير عليه؛ لأن مفسر الضمير يُكتفى فيه بذلك، وهو من أنواع البلاغة والإيجاز.

فإن كان المراد من القَسَمِ نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية، وإن كان المراد الكواكب، وهو قول الأكثرين، فلما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والإبداع؛ فإنه لا ينبغي أن تكون الإلهية إلا له وحده، كما أنه وحده المتفرد بخلقها وإبداعها، وما تضمنته من الآيات والعجائب، فالإقسام بها أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجمين والدهرية ونوعي المعطلة^(٣).

وقال أيضاً: «وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء؛ فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها.

وأيضاً؛ فإنه لم تجر عاداته سبحانه باستعمال النجوم في آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تُحمَل عليه هذه الآية، وجرت عاداته سبحانه باستعمال النجوم في الكواكب في جميع القرآن.

وأيضاً؛ فإن نظير الإقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم في قوله: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾^(٤).

وأيضاً؛ فإن هذا قول جمهور أهل التفسير.

وأيضاً؛ فإنه سبحانه يُقسم بالقرآن نفسه، لا بوصوله إلى عباده، هذه طريقة القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾^(٥)، ﴿يَسَّ﴾^(٦) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ^(٦)،

(٢) الرحمن: الآية (٢٦).

(١) ص: الآية (٣٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٨٠-١٨٢).

(٥) ص: الآية (١).

(٤) النجم: الآية (١).

(٦) يس: الآيتان (٢٠١).

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَانِ الْمَجِيدُ﴾^(١)، ﴿حَمْدٌ ۝ وَلَكِنَّ الْكُفْرَ الْكَبِيرَ﴾^(٢)، ونظائره.

والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته^(٣).

وقال أيضًا: «وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه: أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي. فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين، مع ما في النجوم من الرجوع للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوع شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة المعانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول»^(٤).

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَقَسَرُّ﴾ تأكيد للأمر، وتنبيه من المقسم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التهم به، وإنما الاعتراض قوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾، وقد قال قوم: إن قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَقَسَرُّ﴾ اعتراض، وإن ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراض في اعتراض، والتحرير هو الذي ذكرناه»^(٥).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَقَسَرُّ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وإن هذا القسم الذي أقسمت ﴿لَقَسَرُّ لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ ما هو، وما قدره، قسم ﴿عَظِيمٌ﴾؛ من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما هو: وإنه لقسم عظيم لو تعلمون عظمه»^(٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستسقاء بالأنواء

* عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «أصبح

(١) ق: الآية (١).

(٢) الزخرف: الآيتان (٢٥١).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥).

(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٢٥١).

(٤) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٢).

(٦) جامع البيان (٢٧/ ٢٠٤).

من الناس شاكرو ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا أَفْسَسُ يَمَوِّعَ النَّجْمِ﴾ ﴿٧٥﴾ حتى بلغ: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٧٦﴾^(١).

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تروا إلى ما قال ربكم؟ قال: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين يقولون: الكواكب وبالكواكب»^(٢).

* عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر: فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»^(٣).

★ غريب الحديث:

نوء: «النوء في كلام العرب: واحد أنواء النجوم، يقال: ناء النجم ينوء، أي: نهض ينهض للطلوع، وقد يكون أن يميل للمغيب، ومما قيل: ناوأ فلاناً بالعداوة، أي: ناهضته، ومنه قولهم: الحِمل ينوء بالدابة، أي: يميل بها، وكل ناهض بثقل وإبطاء فقد ناء.

والأنواء على الحقيقة: النجوم التي هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة يبدو لعين الناظر منها أربعة عشر منزلاً ويخفى أربعة عشر، فكلما غاب بالمغرب طلع رقبه من المشرق، فليس يعدم منها أبداً أربعة عشر للناظرين في السماء، وإذا لم ينزل مع النوء ماء قيل: خوى النجم وأخوى، وخوى النوء وأخلف»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٧٣/٨٤/١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٦٢/٢ و٣٦٨ و٤٢١)، ومسلم (٧٢/٨٤/١)، والنسائي (١٥٢٣/١٨٣/٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١١٧/٤)، والبخاري (٨٤٦/٤٢٤/٢)، ومسلم (٧١/٨٣/١)، وأبو داود (٢٢٧/٤).

(٤) ٣٩٠٦، والنسائي (١٥٢٤/١٨٤-١٨٣/٣).

(٤) فتح البر (٣٥٣/١).

إثر سماء كانت من الليل : إثر الشيء بعده وعقبه ، ويقال فيه : أثر . والسماء هنا : المطر ؛ سمي بذلك لأنه من السماء ينزل . وحقيقة السماء : كل ما علاك فأظلك .

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي : « وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح فمنهم من ينسبه إلى الطالع ، ومنهم من ينسبه إلى الغارب الساقط ، نسبة إيجاد واختراع ، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث ؛ فنهى الشرع عن إطلاق ذلك ؛ لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ، ولا يتشبه بهم في نطقهم »^(١) .

قال ابن عبد البر : « وأما العرب فكانت تضيف المطر إلى النوء ، وهذا عندهم معروف مشهور في أخبارهم وأشعارهم ، فلما جاء الإسلام نهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك ، وأدبهم ، وعرفهم ما يقولون عند نزول الماء ، وذلك أن يقولوا : « مُطَرْنَا بفضل الله ورحمته » ، ونحو هذا من الإيمان والتسليم لما نطق به القرآن »^(٢) .

قال القرطبي : « قوله : « أصبح من الناس شاكراً ومنهم كافر » أصل الشكر : الظهور ، ومنه قولهم : دابة شكور ، إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكله من العلف ، والشاكر : هو الذي يشني بالنعمة ويظهرها ، ويعترف بها للمنعم . وجحدتها : كفرانها ، فمن نسب المطر إلى الله تعالى ، وعرف منته فيه ، فقد شكر الله تعالى ، ومن نسب إلى غيره فقد جحد نعمة الله تعالى في ذلك ، وظلم بنسبتها لغير المنعم بها ، فإن كان ذلك عن اعتقاد كان كافراً ظالماً حقيقة ، وإن كان عن غير معتقد فقد تشبه بأهل الكفر والظلم الحقيقي ، كما قلناه آنفاً ، وقد قابل في هذا الحديث بين الشكر والكفر ، فدلّ ظاهره على أن المراد بالكفر ههنا كفران النعم ، لا الكفر بالله تعالى ، ويحتمل أن يكون المراد به الكفر الحقيقي ، ويؤيد ذلك استدلال النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾^(٣) ، أي : تجعلون شكر رزقكم التكذيب ، على حذف المضاف ، قاله المفسرون »^(٤) .

(٢) فتح البر (١/ ٣٥٣) .

(٤) المفهم (١/ ٢٦٠) .

(١) المفهم (١/ ٢٦٠) .

(٣) الواقعة : الآية (٨٢) .

قال أبو عمر: «وأما قوله حاكياً عن الله ﷻ: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» فمعناه عندي على وجهين: أما أحدهما: فإن المعتقد أن النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون الله ﷻ، فذلك كافر كفراً صريحاً يجب استتابته عليه وقتله لنبذه الإسلام وردّه القرآن. والوجه الآخر: أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء، وأنه سبب الماء على ما قدره الله وسبق في علمه، فهذا وإن كان وجهاً مباحاً، فإن فيه أيضاً كفراً بنعمة الله ﷻ، وجهلاً بلطف حكيمته؛ لأنه ينزل الماء متى شاء مرة بنوء كذا ومرة دون النوء، وكثيراً ما يخوى النوء فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من الله لا من النوء، وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مطر: «مطرنا بنوء الفتح» ثم يتلو: ﴿وَمَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾^(١). وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: «مطرنا بفضل الله وبرحمته»^(٢).

وقال أيضاً: «قال الشافعي: لا أحب لأحد أن يقول: مطرنا بنوء كذا، وإن كان النوء عندنا الوقت، والوقت مخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر، والذي أحب أن يقول: مطرنا وقت كذا، كما يقول: مطرنا شهر كذا؛ ومن قال: مطرنا بنوء كذا، وهو يريد أن النوء أنزل الماء، كما كان بعض أهل الشرك من أهل الجاهلية يقول، فهو كافر حلالٌ دمه إن لم يتب هذا من قوله»^(٣).

وجملة القول فيمن يجعل الأنواء سبباً مع اعتقاده أن الله هو المنزل للمطر أنه مشرك شركاً أصغر؛ لأنه جعل سبباً للمطر لم يجعله الله سبباً لا شرعاً ولا كوناً. أفاده الشيخ ابن عثيمين^(٤).

قال الشيخ العثيمين: «وقوله: «وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا»، الباء للسببية؛ «فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»، وصار كافراً بالله؛ لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سبباً، وتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة الله، وهذا الكفر لا يخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب،

(١) فاطر: الآية (٢).

(٢) فتح البر (١/٣٥٢).

(٣) المصدر السابق (١/٣٥١).

(٤) مجموع رسائل وفتاوى العثيمين (١٠/٥٩٨).

وليس إلى النوء على أنه فاعل .

لأنه قال : «مطرنا بنوء كذا» ولم يقل : أنزل علينا المطر نوء كذا ؛ لأنه لو قال ذلك ؛ لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد ، وبه نعرف خطأ من قال : إن المراد بقوله : «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد ؛ لأنه لو كان هذا هو المراد ؛ لقال : أنزل علينا المطر نوء كذا ، ولم يقل : مطرنا به .

فعلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله هو الله ، لكن النوء هو السبب ؛ فهو كافر ، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة .

والمراد بالكوكب النجم ، وكانوا ينسبون المطر إليه ، ويقولون : إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر ، وإذا طلع النجم الفلاني جاء المطر ، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت ، وإنما نسبة سبب ؛ فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١- نسبة إيجاد ، وهذه شرك أكبر .

٢- نسبة سبب ، وهذه شرك أصغر .

٣- نسبة وقت ، وهذه جائزة بأن يريد بقوله : مطرنا بنوء كذا ؛ أي : جاءنا المطر في هذا النوء ، أي : في وقته .

ولهذا قال العلماء : يحرم أن يقول : مطرنا بنوء كذا ، ويجوز : مطرنا في نوء كذا ، وفرقوا بينهما أن (الباء) للسببية ، و(في) للظرفية ، ومن ثم قال أهل العلم : إنه إذا قال : مطرنا بنوء كذا ، وجعل (الباء) للظرفية ، فهذا جائز ، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى ، لكن لا وجه له من حيث اللفظ ؛ لأن لفظ الحديث : «من قال : مطرنا بنوء كذا» ، والباء للسببية أظهر منها للظرفية ، وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْفُرْ لِلَّذِينَ عَلَيْهِمُ مَضِيحِينَ ﴿٢٧﴾ وَبِالْأَيْلِ﴾^(١) ، لكن كونها للسببية أظهر ، والعكس بالعكس ، ف(في) للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية ؛ كما في قوله ﷺ : «دخلت امرأة النار في هرة»^(٢) .

والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية ، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف

(١) الصافات : الآيتان (١٣٧ و ١٣٨) .

(٢) الحديث أخرجه : أحمد (١١٦/٢) ، والبخاري (٣٣١٨/٤٣٨/٦) ، ومسلم (٢٢٤٢/١٧٦٠/٤) من حديث

ابن عمر ؓ .

من الباء إلا الظرفية مطلقاً، ولا يظن أنها تأتي سببية؛ فهذا جائز، ومع ذلك؛ فالأولى أن يقال لهم: قولوا: في نوء كذا»^(١).

* عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»^(٢).

* غريب الحديث:

الفخر بالأحساب: التعالي والتعاضم، والباء للسببية، أي: يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه. والحسب: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة فيفتخر بذلك.

الطعن في الأنساب: الطعن: العيب؛ لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد، ولهذا سمي العيب طعنًا. والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن في نسبه^(٣).

* فوائد الحديث:

قال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: «قوله: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن»، أي: من أفعال أهلها، بمعنى أنها معاصي ستفعلها هذه الأمة؛ إما مع العلم بتحريمها، وإما مع الجهل بذلك كما كان أهل الجاهلية يفعلونها. والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث؛ سموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يخالف ما جاءت به الأنبياء والمرسلون فهو جاهلية منسوبة إلى الجاهل؛ فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل. قال شيخ الإسلام: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام،

(١) مجموع رسائل وفتاوى العثيمين (١٠/٦٠٩-٦١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/٣٤٢)، مسلم (٢/٦٤٤/٩٣٤) واللفظ له، وابن ماجه (١/٥٠٣-٥٠٤/١٥٨١).

(٣) انظر الغريب في مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (١٠/٦٠٢-٦٠٣).

والأولى»^(١)؛ فإن في ذلك ذمًا للتبرج وذمًا لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة..

قوله: «والاستسقاء بالنجوم»، أي: نسبة السقيا ومجيء المطر إلى النجوم والأنواء..

فالاستسقاء بالنجوم نوعان:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم؛ فهذا كفر ظاهر؛ إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذُوا بِهِ الْاَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا يُقُولُونَ اللَّهُ﴾^(٢)، وليس هذا معنى الحديث؛ فالنبي ﷺ أخبر أن هذا لا يزال في أمته، ومن اعتقد أن النجم ينزل المطر فهو كافر.

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، لكن معنى أن الله تعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، فحكى ابن مفلح خلافاً في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشافعي بجوازه، والصحيح أنه محرم؛ لأنه من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي ﷺ، وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله، وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجوداً في هذه الأمة إلى اليوم، وأيضاً، فإن هذا من النبي ﷺ حماية لجناح التوحيد، وسدّ لذرائع الشرك ولو بالعبادات الموهمة التي لا يقصدها الإنسان؛ كما قال لرجل قال له: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلني لله ندّاً؟ بل ما شاء الله وحده»^(٣).

وفيه التنبيه على ما هو أولى بالمنع من نسبة السقيا إلى الأنواء؛ كدعاء

(١) الأحزاب: الآية (٣٣).

(٢) المنكيات: الآية (٦٣).

(٣) الحديث أخرجه: أحمد (١/٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم: ٧٨٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم: ٩٨٨)، وابن ماجه (١/٦٨٤/٢١١٧) من حديث ابن عباس ؓ.

الأموات، وسؤالهم الرزق والنصر والعافية، ونحو ذلك من المطالب؛ فإن هذا من الشرك الأكبر، سواء قالوا: إنهم شفعاؤنا إلى الله، كما قال المشركون: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١)، أو اعتقدوا أنهم يخلقون، ويرزقون، وينصرون، استقلالاً على سبيل الكرامة، كما ذكره بعض عباد القبور في رسالة صنفها في ذلك؛ لأنه إذا منع من إطلاق نسبة السقيا إلى الأنواء مع عدم القصد والاعتقاد، فلأن يمنع من دعاء الأموات والتوجه إليهم في الملمات مع اعتقاد أن لهم أنواع التصرفات أولى وأحرى^(٢).

* * *

(١) يونس: الآية (١٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٩٧-٤٠٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٧﴾، أي: كرمه الله وأعزه، ورفع قدره على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحرًا وكهانة أو كذبًا»^(١).

قال ابن القيم: «فوصفه بما يقتضي حسنه، وكثرة خيره، ومنافعه وجلالته؛ فإن الكريم هو البهي الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره، وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف (الكريم) بالحسن. قال الكلبي: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٧﴾ أي: حسن كريم على الله، وقال مقاتل: كرمه الله وأعزه؛ لأنه كلامه. وقال الأزهري: الكريم: اسم جامع لما يحمد. والله كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يُحمد؛ لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة. وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر. وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة. وكذلك الكريم في الناس واللئيم»^(٢).

* * *

(١) فتح البيان (١٣/٣٨٢).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٥).

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن القيم: «﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾» اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ. والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مَّكْرُومَةٍ ﴿٧٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿٧٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿٧٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿٧٦﴾﴾^(١)، ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾، فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه. وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسّه إلا طاهر.

والأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الآية سبقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخايب خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١٦﴾ وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٧﴾﴾^(٢)، فنفي الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم، ولا يقدرون عليه. فإن الفعل قد ينتفي عن يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفي عنهم الأمور الثلاثة، وكذلك قوله في سورة (عبس): ﴿فِي صُحُفٍ مَّكْرُومَةٍ ﴿٧٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿٧٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿٧٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿٧٦﴾﴾^(٣)، فوصف محله بهذه الصفات بياناً أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به. وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسّه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة. وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة

(١) عبس: الآيات (١٣-١٦).

(٢) الشعراء: الآيتان (٢١٠ و٢١١).

(٣) عبس: الآيات (١٣-١٦).

السور المدنية.

الثالث : إن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا في حياة رسول الله ﷺ . وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر . وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي ، فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار ، يوضحه :

الوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ (٧٨) والمكنون المصون المستور عن الأعين ، الذي لا تناله أيدي البشر ، كما قال تعالى : ﴿ كَانَتْهُمْ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (١) وهكذا قال السلف . قال الكلبي : مكنون من الشياطين ، وقال مقاتل : مستور ، وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار ، وقال أبو إسحق : مصون في السماء ، يوضحه :

الوجه الخامس : أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً ؛ فقوله : (قرآن كريم في كتاب مكنون) كقوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ نَجِيدٌ ﴾ (٢) ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (٣) .
الوجه السادس : أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين ، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث .

الوجه السابع : قوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٧٩) بالرفع ، فهذا خبر لفظاً ومعنى . ولو كان نهياً لكان مفتوحاً . ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره ، إلى معنى النهي . والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته . وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي .

الوجه الثامن : أنه قال : ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، ولم يقل : (إلا المتطهرون) . ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال : إلا المتطهرون . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٣) وفي الحديث : «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» (٤) فالمتطهر فاعل التطهير ، والمطهر الذي طهره غيره ، فالمتوضئ

(١) الصافات : الآية (٤٩) .

(٢) البروج : الآيتان (٢١ و ٢٢) .

(٣) البقرة : الآية (٢٢٢) .

(٤) أخرجه الترمذي (١/ ٧٨-٧٩/ ٥٥) من حديث عمر بن الخطاب ، والحديث صححه الشيخ الألباني في الإرواء (٩٦) ، وفي صحيح سنن أبي داود (١٦٢) .

متطهر، والملائكة مطهرون.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا، لم يكن في الإخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة؛ إذ مجرد كون الكلام مكنوناً في كتاب، لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً في كتاب، وهذا أمر مشترك؟ والآية إنما سبقت لبيان مدحه وتشريفه، وما اختص به من الخصائص، التي تدل على أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مصون، لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا أبو الأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) قال: المطهرون: الملائكة. وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع. وقال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن. ويجب الرجوع إلى تفسيرهم. وقال حرب في مسائله: سمعت إسحق في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) قال: النسخة التي في السماء لا يمسه إلا المطهرون. قال: الملائكة.

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر، فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسه إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسه إلا طاهر. والحديث مشتق من هذه الآية^(١).

وقال أيضاً: «دلّت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي، قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به. وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به، وبقرائه، وفهمه، وتدبره، إلا من شهد أنه كلام الله، تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه.

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٥-١٣٧).

فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ، ففي قلبه منه حرج . ومن قال : إن له باطنًا يخالف ظاهره ، وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ، ففي قلبه منه حرج . ومن قال : إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه ، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ، ففي قلبه منه حرج . ومن سلط عليه آل الأرائيين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المسفسطين ، وخيالات المتصوفين ، ففي قلبه منه حرج . ومن جعله تابِعاً لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ، ينزل على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففي قلبه منه حرج . ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه ، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يَأتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه ، ففي قلبه منه حرج . وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم .

وأنت إذا تأملت قوله : ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٦) وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه ، وقياس الشيء على نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن ، فهمت هذه المعاني كلها من الآية . وبالله التوفيق^(١) .

وقال أيضاً : «وأنت إذا تأملت قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي ﷺ ، وأن هذا القرآن جاء من عند الله ، وأن الذي جاء به روح مطهر ، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل ، ووجدت الآية أخت قوله : ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٨٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٨١)^(٢) ، ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر ، ووجدتها دالة أيضاً بالطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به ، كما فهمه البخاري من الآية فقال في صحيحه في باب : ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا﴾ (٨٢) : ﴿لَا يَمْسُهُ﴾ لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ،

(١) المصدر السابق (ص : ١٣٩) .

(٢) الشعراء : الآيتان (٢١٠ و ٢١١) .

(٣) آل عمران : الآية (٩٣) .

ولا يحمله بحقه إلا المؤمن، لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾^(١)، وتجد تحته أيضًا أنه لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه، فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه، فهذا من الفهم الذي أشار إليه علي عليه السلام ^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مس المصحف

* عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابًا، فكان فيه: «لا يمَس القرآن إلا طاهرًا»^(٣).

* فوائد الحديث:

قال الشوكاني: «الحديث يدل على أنه لا يجوز مس المصحف إلا لمن كان طاهرًا، ولكن الطاهر يطلق بالاشتراك على المؤمن، والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر، ومن ليس على بدنه نجاسة. ويدل لإطلاقه على الأول قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الشُّرُكُونَ نَجَسٌ﴾»^(٤) وقوله ﷺ لأبي هريرة: «المؤمن لا ينجس»^(٥)، وعلى الثاني: «وإن كنتم جنبًا فاطهروا»^(٦)، وعلى الثالث قوله ﷺ في المسح على الخفين: «دعهما فإنني أدخلتهما طاهرتين»^(٧)، وعلى الرابع الإجماع على أن الشيء

(١) الجمعة: الآية (٥).

(٢) إعلام الموقعين (١/٢٢٥-٢٢٦).

(٣) أخرجه: الطبراني (٣/٢٢٩-٢٣٠)، والدارقطني (١/١٢٢)، والحاكم (٣/٤٧٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وابن حبان (١٤/٥٠١)، وقال الهيثمي في المجمع (١/٢٨١-٢٨٢): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه سويد أبو حاتم، ضعفه النسائي وابن معين في رواية، ووثقه في رواية».

(٤) التوبة: الآية (٢٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/٢٣٥)، والبخاري (١/٥١٥/٢٨٥)، ومسلم (١/٢٨٢/٣٧١)، وأبو داود (١/١٥٦/٢٣١)، والنسائي (١/١٥٩/٢٦٩)، وابن ماجه (١/١٧٨/٥٣٤).

(٦) المائدة: الآية (٦).

(٧) أخرجه: أحمد (٤/٢٥١)، والبخاري (١/٤٠٩/٢٠٦)، ومسلم (١/٢٢٨-٢٢٩/٢٤٧) من حديث المغيرة ابن شعبه رضي الله عنه.

الذي ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمية يسمى طاهرًا، وقد ورد إطلاق ذلك في كثير، فمن أجاز حمل المشترك على جميع معانيه حمّله عليها هنا. والمسألة مدونة في الأصول وفيها مذاهب. والذي يترجح أن المشترك مجمل فيها، فلا يعمل به حتى يبين، وقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز للمحدث حدثًا أكبر أن يمس المصحف، وخالف في ذلك داود.

استدل المانعون للجنب بقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩)، وهو لا يتم إلا بعد جعل الضمير راجعًا إلى القرآن، والظاهر رجوعه إلى الكتاب، وهو اللوح المحفوظ؛ لأنه الأقرب، والمطهرون: الملائكة، ولو سلم عدم الظهور فلا أقل من الاحتمال، فيمتنع العمل بأحد الأمرين، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية، ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعيين لكانت دلالة على المطلوب وهو منع الجنب من مسه - غير مسلمة؛ لأن المطهر من ليس بنجس، والمؤمن ليس بنجس دائمًا لحديث: «المؤمن لا ينجس» وهو متفق عليه، فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أو متنجس بنجاسة عينية، بل يتعين حمّله على من ليس بمشرك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ لهذا الحديث، ولحديث النهي عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو، ولو سلم صدق اسم الطاهر على من ليس بمحدث حدثًا أكبر أو أصغر، فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملًا في معانيه، فلا يعين حتى يبين. وقد دل الدليل ههنا أن المراد به غيره لحديث: «المؤمن لا ينجس»، ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته، لكان تعيينه لمحل النزاع ترجيحًا بلا مرجح، وتعيينه لجميعها استعمالًا للمشارك في جميع معانيه وفيه الخلاف، ولو سلم رجحان القول بجواز الاستعمال للمشارك في جميع معانيه لما صح لوجود المانع وهو حديث: «المؤمن لا ينجس». قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير: إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذي ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر لا يصح لا حقيقة ولا مجازًا ولا لغة، صرح بذلك في جواب سؤال ورد عليه، فإن ثبت هذا فالمؤمن طاهر دائمًا فلا يتناوله الحديث، سواء كان جنبًا أو حائضًا أو محدثًا أو على بدنه نجاسة.

فإن قلت: إذا تم ما تريد من حمل الطاهر على من ليس بمشرك، فما جوابك فيما ثبت في المتفق عليه من حديث ابن عباس: «أنه ﷺ كتب إلى هرقل عظيم الروم:

أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَاتِبُ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْلِمُونَ﴾^(١)،^(٢) مع كونهم جامعين بين نجاستي الشرك والاجتناب، ووقوع اللمس منهم له معلوم؟

قلت: اجعله خاصًا بمثل الآية والآيتين، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار لمصلحة، كدعائه إلى الإسلام. ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلاطه بغيره لا يحرم لمسه ككتب التفسير، فلا تخصص به الآية والحديث. إذا تقرر لك هذا، عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرك، وقد عرفت الخلاف في الجنب. وأما المحدث حديثاً أصغر فذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن علي والمؤيد بالله والهادوية وقاضي القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف. وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيى: لا يجوز، واستدلوا بما سلف، وقد سلف ما فيه^(٣).

* * *

(١) آل عمران: الآية (٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (٨/٢٧٠-٢٧٢/٢٧٣)، ومسلم (٣/٣٩٣/١٧٧٣)، وأبو داود (٥/٣٤٨/٥١٣٦)، والترمذي (٥/٦٥/٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٩/١١٠٦٤).

(٣) نيل الأوطار (١/٢٤٨).

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾ أي : هذا القرآن منزل من رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع»^(١).

قال ابن القيم : «أفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين :

أحدهما : أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ ، وهو الذي تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ ، ونظيره : ﴿ وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾^(٣).

والثاني : علو الله سبحانه فوق خلقه ، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول ، وتعرفه الفطر ، هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل . والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم . وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ، ويدعهم هملاً ، ويخلقهم عبثاً ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم . فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله ، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله ، وصحة ما جاء به . وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢).

(٢) السجدة : الآية (١٣).

(٣) النحل : الآية (١٠٢).

وقد أشار سبحانه إلى الطريقين في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿سَرُّهُمَ
ءَاتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١) فهذا استدلال بالآيات
المعانية المخلوقة، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَاهِدُونَ﴾ فهذا
استدلال بكمال ربوبيته، وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به. وهذه
الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى. والأول أعم وأشمل. وقد تقدم بيانها عند
قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَفَعْنَا عَلَيْكَ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾^(٢) وأين الاستدلال بأوصاف الرب
تعالى وكماله المقدس على ثبوت النبي وبعثه، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته؟
وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة عليها السلام بصفات الرب تعالى
وصفات محمد عليه السلام، واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته، وأنه رسول الله
حقاً. وأن من كانت هذه صفات ربه وخالفه تأبى أن يخزيه، وأنه يؤيده، ويعليه،
ويتم نعمته عليه.

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة
المتكلمين من الفرق ما لا يخفى. وإذا حصل للعبد الفقه في الأسماء والصفات
انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الأقوال، والطرائق، والمذاهب،
والعقائد، أعظم انتفاع وأتمه، وقد بينا في كتابنا 'المعالم' بطلان التحيل وغيره من
التحيل الربوية من أسماء الرب وصفاته، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء
ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع
التحيلات، فأين ذلك الوعد الشديد، وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد؛ إذ ليست
حكمة الرب تعالى وكمال علمه وأسمائه وصفاته، تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه
عليه. فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب
الأمر والنهي. وهذا باب حرام على الجهمي المعطل أن يلجئه إلى الجنة، حرام
عليه ريحها، وإن ريحها ليوحد من مسيرة خمسين ألف سنة. والله العزيز الوهاب،
لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وبه التوفيق»^(٣).

* * *

(١) فصلت: الآية (٥٣).

(٢) الحاقة: الآية (٤٤).

(٣) البيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٩-١٤١).

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ ﴿٨١﴾

★ غريب الآية:

مدهنون: المدهن: المنافق الذي باطنه يخالف ظاهره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أفبهذا القرآن الذي أنبأتكم خبره، وقصصت عليكم أمره أيها الناس أنتم تلينون القول للمكذبين به، مما لآء منكم لهم على التكذيب به والكفر.

واختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم في ذلك نحو قولنا فيه . . وقال آخرون: بل معناه: أفبهذا الحديث أنتم مكذبون»^(١).

قال ابن القيم: «وبّخهم سبحانه على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه لا يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اعتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداينة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداينة؟ وإنما أنزل بالحق وللحق. والمداينة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداين إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل. فأما الحق الذي قام به كل حق، فكيف يدهن به؟!»^(٢).

(١) جامع البيان (٢٧/٢٠٧).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤١).

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ أي: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها، فهلاً شكرتم الله تعالى على إحسانه؛ إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داعٍ لرفع النعم وحلول النقم»^(١).

قال ابن القيم: «قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق، فرزق البدن الطعام والشراب، ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره، ومحبته، والشوق إليه، والأنس بقربه والابتهاج بذكره، وكان لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب، أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما. ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته، فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما. ومنهم من قتر عليه في الرزقين. ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب، وبالعكس. وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر. والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد؛ فإن الله تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه، ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان، جعلوا رزقهم نفسه تكذيباً، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق، وهما رزق القلب حقيقة، فهو لاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر، فجعلوا رزقهم التكذيب، وهذا المعنى هو الذي حام

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٦).

حوله من قال : التقدير : وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون . وقال آخرون :
التقدير : وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون ، فحذف مضافين معاً . وهؤلاء
أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى . ومن بعض معنى الآية قوله : مُطَرْنَا بِنَاء كَذَا وَكَذَا ،
فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها ، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى ،
والله أعلم^(١) .

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص : ١٤١-١٤٢) .

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

★ غريب الآية:

مدِينين: مجزيين ومحاسبين، من الذين، بمعنى الجزاء.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «أي: فهلاً إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون. ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: فهلاً إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلموا حالكم وسوء مالكم»^(١).

قال ابن القيم: «ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة. وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقرهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره، فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: وصلت الروح إلى هذا الموضع، بحيث فارقت ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرون بهم، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٦).

أنكم غير مجزين ولا مدينين ، ولا مستوعبين ليوم الحساب .

فإن قيل : أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلزم بينهما؟

قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه ، فإنهم إما أن يقرؤا بأنهم مربوبون مملوكون ، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم ، قاهر آمر ناهٍ ، أو لا يقرؤا بذلك : فإن أقرؤا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله ، وأن لا يجعلوا له ندًا ، ولا شريكًا ، وهذا هو الذي جاءهم به رسوله ، ونزل عليه به كتابه . وإن أنكروا ذلك وقالوا : إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ، ولا مربوبين ، وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم . فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك ، بخلاف المحكوم عليه المنصرف فيه غير المدبر له ، سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات ، وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له . ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية ، ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها ، وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة . والاختصار التام ، وندائها إلى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد والبعث ، وفصل النزاع في معرفة الروح ، وأنها تصعد وتنزل وتنقل من مكان إلى مكان ، وما أحسن إعادة (لولا) ثانيًا قبل ذلك الفعل الذي يقتضيه الأول ، وجعل الحرفين يقتضيان اقتضاء واحدًا . وذكر الشرطين بين (لولا) الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين (لولا) الأولى والثانية ، والشرط الأول والثاني ، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه . فتضمنت الآيتان تقريرًا وتوبيخًا ، واستدلالًا على أصول الإيمان : من وجود الخالق سبحانه ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه في أرواح عباده ، حيث لا يقدرّون على التصرف فيها بشيء ، وأن أرواحهم بيده ، يذهب بها إذا شاء ، ويردها إليهم إذا شاء ، ويخلي أبدانهم منها تارة ، ويجمع بينها وبينها تارة ، وإثبات المعاد ، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه ، وإثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق ، وأتى بهذا في صورة تحضيضين ، وتوبيخين ، وتقريرين ، وجوابين ، وشرطين ، وجزاءين ، منتظمة أحسن انتظام ، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقًا بعضها ببعض .

وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه، قال الفراء: وأجيب ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغْتَ﴾ و﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿بجواب واحد وهو: ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ قال: ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) أجيبا بجواب واحد وهما شرطان. قال الجرجاني: قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ جواب قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ المتقدمة والمتأخرة، على تأويل: فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين، كما تزعمون؟ يقول تعالى: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث، ولا حساب ولا جزاء، ولا إله، ولا رب يقوم بذلك، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه، فهل ذلكم ذلك على أن الأمر إلى ملك قادر قاهر، متصرف فيكم، وهو الله الذي لا إله إلا هو؟ وقال أبو إسحاق: معناه: فهلا ترجعون الروح، إن كنتم غير مملوكين مدبرين؟ فهلا إن كان الأمر كما تزعمون في كما يقول قائلكم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾^(٢)، و﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾^(٣) أي: إن كنتم تقدر أن تؤخروا أجلا فهلا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم؟ وهلا تردون عن أنفسكم الموت.

قلت: وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿٥٥﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾^(٤) أي: إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا، فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك. ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقرّوا بأن لكم ربّا متصرفا فيكم، ومالكاً لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميّتكم إذا شاء، ويحييكم إذا شاء، فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقا جديدا بعدما أماتكم. وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك، نافذ المشيئة فيكم والقدرة فيكم، فكونوا خلقا لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك؛ فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقا يموت ويحيا، أن يحييكم بعدما أماتكم؟ فهذا استدلال يعجزهم عن

(١) البقرة: الآية (٣٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٦٨).

(٣) آل عمران: الآية (١٥٦).

(٤) الإسراء: الآيتان (٥١ و٥٠).

كونهم خلقًا لا يموت . والذي في (الواقعة) استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قارب الموت . وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد^(١) .

وقال أيضًا : «وهذه الآية تحتاج إلى تفسير؛ فإنها سيقَّت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب ، ولا بد أن يكون الدليل مستلزمًا لمدلوله ، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول ، لما بينهما من التلازم ، فكل ملزوم دليل على لازمه ، ولا يجب العكس .

ووجه الاستدلال : أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم ، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته ، فلما أن يقرّوا بأن لهم ربًّا قاهرًا لهم متصرفًا فيهم كما سميّتهم إذا يشاء ، ويحييهم إذا شاء ، ويأمرهم وينهاهم ، ويشبّ محسنهم ويعاقب مسيئهم ، وإما أن لا يقرّوا بربِّ هذا شأنه ، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور ، والدين الأمري والجزائي ، وإن أنكروه وكفروا به ، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد ، فهلاًّ يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم ، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم؟!

وهذا خطاب للحاضرين عند المحتضر ، وهم يعاينون موته ؛ أي : فهلاًّ تردّون روحها إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف ، ولستم مربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر ، تمضي عليكم أحكامه ، وتنفذ فيكم أوامره ، وهذا غاية التعجيز لهم ؛ إذ تبين عجزهم عن رد نفس واحدة من مكان إلى مكان ، ولو اجتمع على ذلك الثقلان .

فيا لها من آية دالة على ربوبيته سبحانه ، ووحدانيته ، وتصرفه في عباده ، ونفوذ أحكامه فيهم ، وجريانها عليهم!^(٢) .

* * *

(١) البيان في أقسام القرآن (ص : ١٤٢-١٤٤) .

(٢) الداء والدواء (ص : ٣١٥-٣١٦) .

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ (٨٩) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩٠) ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩١) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ (٩٢) ﴿فَنَزْلُ مِنْ حِمِيرٍ﴾ (٩٣) ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ﴾ (٩٤) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٩٥)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن القيم: «فلما قام الدليل، ووضح السبيل، وتم البرهان على أنهم مملوكون مريبون، مجزيون محاسبون، ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول، والقيامة الصغرى، وهي ثلاث طبقات: طبقة المقربين، وطبقة أصحاب اليمين، وطبقة المكذبين، فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة. وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة. فالروح الفرح والسرور، والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها، والريحان الرزق، وهو الأكل والشرب، والجنة المسكن الجامع لذلك كله. فيعطون هذه الثلاث في البرزخ، وفي المعاد الثاني.

ثم ذكر الطبقة الثانية، وهي طبقة أصحاب اليمين. ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشور التي تحصل للمكذبين الضالين، فقال: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩٠) ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩١)». (١)

وقال أيضاً: «فليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه، كما قال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (٩٢)»، ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٩٣)؛ ولكن الآية

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٤-١٤٥).

(٢) الصفات: الآية (١٠٩).

(٣) الصفات: الآية (٧٩).

تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام:

مقرب، له الروح والريحان وجنة النعيم.

ومقتصد من أصحاب اليمين، له السلامة، فوعده بالسلامة، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز وإن كان كل منهما سالمًا غانمًا.

وظالم بتكذيبه وضلاله، فأوعده بنزل من حميم، وتصلية جحيم.

فلما لم يكن المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله، ذكر ما يحصل له من السلامة.

فإن قيل: فهذا فرق صحيح، لكن ما معنى (اللام) في قوله: ﴿لَكَ﴾؟ ومن هو المخاطب بهذا الخطاب؟ وما معنى حرف (من) في قوله: ﴿مِنْ أَحْصَى الْيَمِينِ﴾؟ فهذه ثلاثة أسئلة في الآية.

قيل: قد وفينا بحمد الله بذكر الفرق بين هذا السلام في الآية وبين سلام التحية، وهو الذي كان المقصود، وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية فهي خارجة عن مقصودنا، ولكن نجيب عنها إكمالاً للفائدة بحول الله وقوته وإن كنا لم نر أحداً من المفسرين شفى في هذا الموضع الغليل، ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ؛ بل منهم من يقول: المعنى: فمسلم لك إنك من أصحاب اليمين، ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حوم على معناها من غير ورود، فاعلم أن المدعوبه من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بـ (لام) الإضافة الدالة على حصوله له. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ اللَّعْنَةُ﴾^(١)، ولم يقل: عليهم اللعنة؛ إيداناً بحصول معناها وثبوتها لهم، وكذلك قوله: ﴿وَلَكُمْ أَلْوِيلٌ مِمَّا نَصِفُونَ﴾^(٢) ويقول في ضد هذا: لك الرحمة، ولك التحية، ولك السلام، ومنه هذه الآية: ﴿سَلَامٌ لَّكَ﴾ أي: ثبت لك السلام وحصل لك. وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب فهو خطاب للجنس، أي: فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين كما تقول: هنيئاً لك يا من هو منهم، ولهذا والله أعلم أتى بحرف (من) في قوله: ﴿مِنْ أَحْصَى الْيَمِينِ﴾، والجار والمجرور في موضع

(١) الرعد: الآية (٢٥).

(٢) الأنبياء: الآية (١٨).

حال، أي: سلام لك كائنًا من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا لك من أتباع رسول الله وحزبه، أي: كائنًا منهم، والجار والمجرور بعد المعرفة ينتصب على الحال كما تقول: أحببتك من أهل الدين والعلم، أي: كائنًا منهم، فهذا معنى هذه الآية، وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير فقد حام عليه منهم من حام وما ورد، ولا كشف المعنى، ولا أوضحه، فراجع ما قالوه، والله الموفق المانّ بفضلّه»^(١).

وقال: «ثم ذكر الطبقة الثالثة، وهي طبقة الضال في نفسه، المكذب لأهل الحق، وإن له عند الموافاة نزل الحميم، وسكنى الجحيم. ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾^(٢)، فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين، وعن درجة اليقين إلى حقه»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الميت إما مستريح أو مستراح منه وما يعاينه عند حضور أجله

* عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مرّ عليه بجنّازة فقال: «مستريح ومستراح منه». قالوا: يا رسول الله! ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله ﷻ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»^(٤).

*** فوائد الحديث:**

قال الباجي: «قوله ﷺ لما رأى الجنّازة: «مستريح ومستراح منه» يريد أن من توفي من الناس على ضربين: ضرب يستريح؛ وضرب يستراح منه، فسألوه: عن تفسير مراده بذلك، فأخبر أن المستريح هو العبد المؤمن يصير إلى رحمة الله وما أعدّ له من الجنة والنعمة، ويستريح من نصب الدنيا وتعبها وأذاها، والمستراح منه

(١) بدائع الفوائد (١٤٦/٢-١٤٧).

(٢) الواقعة: الآية (٩٥).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٣٠٤/٥ و٢٩٦/٥)، والبخاري (١١/٤٤٠ و٦٥١٢)، واللفظ له، ومسلم (٢/٦٥٦/٩٥٠)،

والنسائي (٤/٣٥٠-٣٥١/١٩٢٩).

هو العبد الفاجر؛ فإنه يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب، ويحتمل أن يكون أذاه للعباد بظلمهم، وأذاه للأرض والشجر بغصبها من حقها، وصرفها إلى غير وجهها، وإتعاب الدواب بما لا يجوز له من ذلك؛ فهذا مستراح منه. وقال الداودي: معنى يستريح منه العباد: أنهم يستريحون مما يأتي به من المنكر؛ فإن أنكروا عليه نالهم أذاه، وإن تركوه أئتموا، واستراحة البلاد منه أنه بما يأتي من المعاصي تخرب الأرض؛ فيهلك لذلك الحرث والنسل. وهذا الذي ذكره فيه نظر؛ لأن من ناله الأذى من أهل المنكر لا يأثم بترك الإنكار عليهم، ويكفيه أن ينكره بقلبه أو بوجه لا يناله به أذاه^(١).

قال الحافظ ابن حجر: «مناسبة دخول هذا الحديث في الترجمة: أن الميت لا يعدو أحد القسمين: إما مستريح وإما مستراح منه، وكل منهما يجوز أن يشدد عليه عند الموت وأن يخفف، والأول هو الذي يحصل له سكرات الموت، ولا يتعلق ذلك بتقواه ولا بفجوره، بل إن كان من أهل التقوى ازداد ثواباً، وإلا فيكفر عنه بقدر ذلك، ثم يستريح من أذى الدنيا الذي هذا خاتمته»^(٢).

قال الطيبي: «لا يخلو ابن آدم من هذين المعنيين، فلا يختص بصاحب الجنائز». قال في «شرح السنة»: وأما استراحة البلاد والأشجار، فإن الله تعالى بقدره يرسل السماء عليكم مدراراً، ويحيي به الأرض والشجر والدواب، بعد ما حبس بشؤم ذنوبه الأمطار»^(٣).

قال ابن التين: «يحتمل أن يراد بالمؤمن المتقي خاصة، ويحتمل كل مؤمن، والفاجر يحتمل أن يراد به الكافر، ويحتمل أن يدخل فيه العاصي»^(٤).

* عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت. قال: «ليس ذلك؛ ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس

(١) المتقى (٣٤/٢).

(٢) فتح الباري (٤٤٤/١١).

(٣) الكاشف (١٣٦٤/٤).

(٤) عمدة القاري (٥٨٦/١٥).

شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «هذا الحديث معناه عند أهل العلم فيما يعاينه المرء عند حضور أجله، فإذا رأى ما يكره لم يحب الخروج من الدنيا ولا لقاء الله لسوء ما عاين مما يصير إليه، وإذا رأى ما يحب أحب لقاء الله والإسراع إلى رحمته لحسن ما عاين وبُشِّرَ به. وليس حب الموت ولا كراهيته - والمرء في صحته - من هذا المعنى في شيء، والله أعلم.

وقال أبو عبيد في معنى قوله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب لقاءه»، قال: ليس وجهه عندي أن يكون يكره علز الموت وشدته؛ لأن هذا لا يكاد يخلو منه أحد؛ نبي ولا غيره، ولكن المكروه من ذلك إيثار الدنيا والركون إليها، والكراهة أن يصير إلى الله والدار الآخرة ويؤثر المقام في الدنيا. قال: ومما يبين ذلك أن الله قد عاب قومًا في كتابه بحب الحياة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْأَنَّا بِهَا﴾^(٢)، وقال: ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَلَا يَسْتَوُونَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾^(٤)، قال: فهذا يدل على أن الكراهية للقاء الله ليست بكراهية الموت، وإنما هو الكراهية للنقلة من الدنيا إلى الآخرة»^(٥).

قال شيخ الإسلام: «فساد قول الذين يجعلون المراد لقاء الجزاء دون لقاء الله معلوم بالاضطرار بعد تدبر الكتاب والسنة، يظهر فساده من وجوه:

(١) أخرجه: أحمد (٣٢١/٥)، والبخاري (٦٥٠٧/٤٣٤/١١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٨٣/٢٠٦٥/٤)، والترمذي (٣٧٩/٣)، والنسائي (١٨٣٥/٣٠٨/٤).

(٢) يونس: الآية (٧).

(٣) البقرة: الآية (٩٦).

(٤) الجمعة: الآية (٧).

(٥) فتح البر (٣٦٠/٦).

أحدها : أنه خلاف التفاسير المأثورة عن الصحابة والتابعين .

الثاني : أن حذف المضاف إليه يقارنه قرائن ، فلا بد أن يكون مع الكلام قرينة تبين ذلك ، كما قيل في قوله : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ ^(١) ، ولو قال قائل : رأيت زيذاً أو لقيته مطلقاً ، وأراد بذلك لقاء أبيه أو غلامه ، لم يجز ذلك في لغة العرب بلا نزاع ، ولقاء الله قد ذكر في كتاب الله وسنة رسوله في مواضع كثيرة مطلقاً غير مقترن بما يدل على أنه أريد بلقاء الله لقاء بعض مخلوقاته من جزاء أو غيره .

الثالث : أن اللفظ إذا تكرر ذكره في الكتاب ودار مرة بعد مرة على وجه واحد ، وكان المراد به غير مفهومه ومقتضاه عند الإطلاق ، ولم يبين ذلك ، كان تدليساً وتلبيساً يجب أن يصابن كلام الله عنه الذي أخبر أنه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، وأنه بيان للناس ، وأخبر أن الرسول قد بلغه البلاغ المبين ، وأنه بين للناس ما نزل إليهم ، وأخبر أن عليه بيانه ، ولا يجوز أن يقال ما في العقل دلالة على امتناع إرادة هذا المعنى هو القرينة التي دل المخاطبين على الفهم بها ؛ لوجهين : أحدهما : أن يقال : ليس في العقل ما ينافي ذلك ، بل الضرورة العقلية والبراهين العقلية توافق ما دل عليه القرآن ، كما قال : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ ^(٢) ، وما يذكر من الحجج العقلية المخالفة لمدلول القرآن فهو شبهات فاسدة عند من له خبرة جيدة بالمعقولات دون من يقلد فيها بغير نظر تام . الثاني : أنه لو فرض أن هناك دليلاً عقلياً ينافي مدلول القرآن ، لكان خفياً دقيقاً ذا مقدمات طويلة مشككة متنازع فيها ، ليس فيها مقدمة متفق عليها بين العقلاء ؛ إذ ما يذكر من الأدلة العقلية المخالفة لمدلول القرآن هي شبهات فاسدة كلها ليست من هذا الباب ، ومعلوم أن المخاطب الذي أخبر أنه بين للناس ، وأن كلامه بلاغ مبين ، وهدى للناس ، إذا أراد بكلامه ما لا يدل عليه ولا يفهم منه إلا بمثل هذه القرينة ، لم يكن قد بين وهدى ، بل قد كان لبس وأضل ، وهذا مما اتفق المسلمون على وجوب تنزيه الله ورسوله ، بل وعامة الصحابة والأئمة من ذلك .

(١) يوسف : الآية (٨٢) .

(٢) سبأ : الآية (٦) .

الرابع: أن قول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت قَيُّومُ السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ، أنت الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبّيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وإليك حاكمت، وبك خاصمت، اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي، لا إله إلا أنت»^(١)، وفي لفظ: «أعوذ بك أن تضلني، أنت الحي الذي لا تموت، والجن والإنس يموتون»^(٢)، ففي الحديث فرق بين لقائه، وبين الجنة والنار. والجنة والنار تتضمن جزاء المطيعين والعصاة، فعُلم أن لقاءه ليس هو لقاء الجنة والنار.

الخامس: أن النبي ﷺ ذكر في غير حديث ما يبين لقاء العبد ربه؛ كما في الصحيحين عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله؛ ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدّمه، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئاً قدّمه، فتستقبله النار، فمن استطاع أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعَل، فإن لم يستطع فبِكلمة طيبة»^(٣)، إلى أمثال ذلك من الأحاديث.

السادس: أنه لو أريد بلقاء الله بعض المخلوقات إما جزاء وإما غير جزاء، لكان ذلك واقعاً في الدنيا والآخرة، فكان العبد لا يزال ملائقاً لربه. ولما علم المسلمون بالاضطرار من دين الإسلام أن لقاء الله لا يكون إلا بعد الموت، عُلِمَ بطلان أن اللقاء لقاء بعض المخلوقات، ومعلوم أن الله قد جازى خلقاً على أعمالهم في الدنيا بخير وشر كما جازى قوم نوح وعاد وثمود وفرعون، وكما جازى الأنبياء

(١) أخرجه: أحمد (٣٠٨/١)، والبخاري (١١٢٠/٣/٣)، ومسلم (٥٣٢-٥٣٣/٧٦٩)، والنسائي (٣/٢٣١-٢٣٢/٢٣٢)، وابن ماجه (٤٣٠-٤٣١/١٣٥٥) من حديث ابن عباس ؓ.

(٢) أخرجه: أحمد (٣٠٢/١)، والبخاري (٧٣٨٣/٤٥٦/١٣)، ومسلم (٢٧١٧/٢٠٨٦/٤)، والنسائي في الكبرى (٧٦٨٤/٣٩٩/٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢٥٦/٤)، والبخاري (٦٥٣٩/٤٨٨/١١)، ومسلم (٧٠٣-٧٠٤/١٠١٦/٦٧)، والترمذي (٢٤١٥/٥٢٨/٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١٨٥/٦٦/١).

وأتباعهم، ولم يقل مسلم: إن لقاء هذه الأمور في الدنيا لقاء الله، ولو قال قائل: إن لقاء الله جزاء مخصوص وهو الجنة مثلاً أو النار، لقليل له: ليس في لفظ هذا لقاء مخصوص، ولا دليل عليه، وليس هو بأولى من أن يقال: لقاء الله تعالى لقاء بعض ملائكته أو بعض الشياطين، وأمثال ذلك من التحكمات الموجودة في الدنيا والآخرة؛ إذ ليس دلالة اللفظ على تعيين هذا بأولى من دلالة على تعيين هذا، فبطل ذلك.

الوجه السابع: أن لقاء الله لم يستعمل في لقاء غيره، لا حقيقة ولا مجازاً، ولا استعمل لقاء زيد في لقاء غيره أصلاً، بل حيث ذكر هذا اللفظ فإنما يراد به لقاء المذكور؛ إذا سواه لا يشعر اللفظ به، فلا يدل عليه.

الوجه الثامن: أن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ يحسبهم يوم يلقونه سلماً وأعد لهم أجراً كريماً ﴿٤٣﴾^(١)، فلو كان اللقاء هو لقاء جزائه لكان هو لقاء الأجر الكريم الذي أعد لهم، وإذا أخبر بأنهم يلقون ذلك لم يحسن بعد ذلك الإخبار بإعداده؛ إذ الإعداد مقصوده الوصول، فكيف يخبر بالوسيلة بعد حصول المقصود، هذا نزاع بين العي الذي يسان عنه كلام أوسط الناس، فضلاً عن كلام رب العالمين، لا سيما وقد قرن اللقاء بالتحية، وذلك لا يكون إلا في اللقاء المعروف، لا في حصول شيء من النعيم المخلوق.

الوجه التاسع: أن قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من أحب لقاء الله أحب لقاء الله، ومن كره لقاء الله كره لقاء الله» أخبر فيه أن الله يحب لقاء عبد ويكره لقاء عبد، وهذا يمتنع حملة على الجزاء؛ لأن الله لا يكره جزاء أحد، ولأن الجزاء لا يلقاه الله، ولأنه إن جاز أن يلقى بعض المخلوق كالجزاء أو غيره جاز أن يلقى العبد، فالمحذور الذي يذكر في لقاء العبد موجود في لقائه سائر المخلوقات، فهذا تعطيل النص، وإما أن يقال: بل هو لا يلقى لبعضها، فيتناقض قول الجهمي ويبطل، ودلائل بطلان هذا القول لا تكاد تحصى يضيق هذا الاستفتاء عن ذكر كثير منها فضلاً عن أكثرها^(٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٧١-٤٧٥).

(١) الأحزاب: الآيتان (٤٣ و٤٤).

قال الحافظ : « وفيه أن المجازاة من جنس العمل ؛ فإنه قابل المحبة بالمحبة والكراهة بالكراهة »^(١).

قال شيخ الإسلام : « أما قول السائل قد يعترض على هذا السؤال وهو : إذا كان حب اللقاء لما رآه من النعيم ، فالمحبة حينئذ للنعيم العائد عليه لا لمجرد لقاء الله . فيقال له : ليس كذلك ، ولكن لقاء الله على نوعين : لقاء محبوب ولقاء مكروه ، كما قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم سلمة بن دينار الأعرج : كيف القدوم على الله تعالى ؟ فقال : (المحسن كالعائب يقدم على مولاه ، وأما المسيء كالأبق يُقدم به على مولاه) . فلما كان اللقاء نوعين ، وإنما يميز أحدهما عن الآخر في الإخبار بما يوصف به هذا اللقاء وهذا اللقاء ، وصف النبي ﷺ اللقاء المحبوب بما تتقدمه البشري بالخير ، وما يقترن به من الإكرام ، واللقاء المكروه بما يتقدمه من البشري بالسوء ، وما يقترن به من الإهانة ، فصار المؤمن مخبراً بأن لقاءه لله لقاء محبوب ، والكافر مخبراً بأن لقاءه لله مكروه ، فصار المؤمن يحب لقاء الله ، وصار الكافر يكره لقاء الله ، فأحب الله لقاء هذا ، وكره لقاء هذا ، جزاءً وفاقاً ؛ فإن الجزاء بذلك من جنس العمل »^(٢).

* * *

(١) فتح الباري (١١/٤٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٤٨٢).

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٩٦)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن القيم: «أمره أن ينزه اسمه - تبارك وتعالى - عما لا يليق به . وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل التسبيح

* عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال المباركفوري: «قوله: «سبحان الله العظيم وبحمده» قيل: الواو زائدة، أي: تسبيحاً مقروناً بحمده، «غرست له» بصيغة المجهول؛ يقال: غرست الشجرة غرساً وغراساً: إذا نصبتها في الأرض، «نخلة» أي غرست له بكل مرة نخلة في الجنة، أي المعدة لقائلها، خُصَّت لكثرة منفعتها وطيب ثمرتها، ولذلك ضرب الله تعالى مثل المؤمن وإيمانه بها وثمرتها في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾^(٣) وهي كلمة التوحيد، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة»^(٤).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن،

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٥).

(٢) أخرجه: ابن أبي شيبة (٢٩٤١٦/٥٤/٦)، والترمذي (٣٤٦٤/٤٧٧/٥)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر»، والنسائي في الكبرى (١٠٦٦٢/٢٠٧/٦)، وأبو يعلى (٤/١٦٥/٢٢٣٣)، والحاكم (٥٠٢-٥٠١/١) وقال: «صحيح على شرط مسلم» وقال الذهبي: «على شرط البخاري»، وابن حبان (الإحسان ٨٢٦/١٠٩/٣). وللحديث شواهد أوردها الشيخ الألباني في 'السلسلة الصحيحة'.

(٣) إبراهيم: الآية (٢٤).

(٤) تحفة الأحوذى (٣٠٤/٩).

خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم^(١).

★ فوائد الحديث:

قوله: «حبيبتان إلى الرحمن»:

قال الغنيمان: «فيه أن الله تعالى يحب بعض الكلام وبعض العمل أكثر من غيره، ومحبة الله من صفاته التي يجب أن تثبت له على ما يليق بعظمته، ولا يجوز تأويل محبته، وتحريف الكلم فيها عن مواضعه كفعل أهل البدع^(٢)».

قوله: «خفيفتان على اللسان»:

«فيه إشارة إلى قلة كلامهما وأحرفهما ورشاقتهما^(٣)».

قال القسطلاني: «للين حروفهما وسهولة خروجهما، فالنطق بهما سريع؛ وذلك لأنه ليس فيهما من حروف الشدة المعروفة عند أهل العربية، وهي الهمزة، والباء الموحدة، والتاء المثناة الفوقية، والجيم، والذال والطاء المهملتان، والقاف، والكاف، ولا من حروف الاستعلاء أيضًا وهي: الخاء المعجمة، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والغين المعجمة، والقاف، سوى حرفين: الباء الموحدة والطاء المعجمة، ومما يستثقل أيضًا من الحروف: التاء المثناة، والشين المعجمة، وليستا فيهما، ثم إن الأفعال أثقل من الأسماء، وليس فيهما فعل، وفي الأسماء أيضًا ما يستثقل كالذي لا ينصرف، وليس فيهما شيء من ذلك، وقد اجتمعت فيهما حروف اللين الثلاثة الألف والواو والياء. وبالجمله فالحروف السهلة الخفيفة فيهما أكثر من العكس^(٤)».

قال الطيبي: «الخفة مستعارة للسهولة، شبه سهولة جريان الكلمتين على اللسان

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢٣٢)، والبخاري (١٣/٦٥٧/٧٥٦٣) واللفظ له، ومسلم (٤/٢٠٧٢/٢٦٩٤)،
والترمذي (٥/٤٧٨/٣٤٦٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٠٧-٢٠٨/١٠٦٦)، وابن ماجه (٢/١٢٥١/٣٨٠٦).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/٥٩٣).

(٣) فتح الباري (١٣/٦٦١).

(٤) إرشاد الساري (١٥/٦٣٢).

بما يخفّ على الحامل من بعض الأمتعة، فلا يتعبه كالشيء الثقيل، فذكر المشبّه به وأراد المشبّه^(١).

قال الغنيان: «عند النطق بهما لا تثقلان اللسان ولا تكلفه لسهولة حروفهما؛ وخفتها على اللسان»^(٢).

«ثقيلتان في الميزان»:

قال القسطلاني: «حقيقة لكثرة الأجور المدخرة لقائلهما، والحسنات المضاعفة للذاكر بهما»^(٣).

قال ابن بطال: «أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان، وتمثل الأعمال بما يوزن، وخالف ذلك المعتزلة وأنكروا الميزان، وقالوا: الميزان عبارة عن العدل، وهو خلاف لنصّ كتاب الله، وقول رسول الله ﷺ.

قال المهلب: فأخبر الله تعالى أنه يضع الموازين لتوزن أعمال العباد بها، فيريهم أعمالهم ممثلة في الميزان لأعين العاملين؛ ليكونوا على أنفسهم شاهدين قطعاً لحججهم، وإبلاغاً في إنصافهم عن أعمالهم الحسنة، وتبكيئاً لمن قال: إن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، وتقضيّاً عليهم لأعمالهم المخالفة لما شرع لهم، وبرهاناً على عدله على جميعهم، وأنه لا يظلم مثقال حبة من خردل حتى يعرف كل بما قد نسيه من عمله، ويميز ما عساه قد احتقره من فعله. ويقال له عند اعترافه: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٤).

وقوله: «ثقيلتان في الميزان» يدل أن تسبيح الله وتقديسه من أفضل النوافل، وأعظم الذخائر عنده تعالى، ألا ترى قوله ﷺ: «حبيبتان إلى الرحمن»^(٥).

قال المباركفوري: «وخص (الرحمن) من الأسماء الحسنى للتنبيه على سعة رحمة الله حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الجزيل»^(٦).

(١) الكاشف (٦/١٨٢٠-١٨٢١).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٥٩٣/٢).

(٣) إرشاد الساري (١٥/٦٣٢).

(٤) الإسراء: الآية (١٤).

(٦) تحفة الأحوذى (٩/٣٠٦).

(٥) شرح صحيح البخاري (١٠/٥٥٩).

قال الطيبي: «وفيه حث على المواظبة عليها، وتحريض على ملازمتها، وتعريض بأن سائر التكاليف صعبة شاقة على النفس ثقيلة، وهذه خفيفة سهلة عليها، مع أنها تثقل في الميزان ثقل غيرها من التكاليف، فلا يتركها إذا»^(١).

قوله: «سبحان الله وبحمده»:

قال ابن بطال: «معنى قولهم في لغة العرب: (سبحان الله): تنزيه الله من الأولاد والصاحبة والشركاء»^(٢).

«قال الأزهري: قال الليث: سبحان الله، تنزيه لله، عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به ونصب على المصدر. تقول: سبحت الله تسبيحًا، أي: نزهته تنزيهًا، وكذلك روي عن النبي ﷺ».

قال الزجاج: (سبحان) في اللغة: تنزيه الله ﷻ عن السوء.

قلت: وهذا قول سيويه. يقال: سبحت الله تسبيحًا وسبحانًا، بمعنى واحد، فالمصدر: تسبيح، والاسم: سبحان؛ يقوم مقام المصدر.

قلت: ومعنى تنزيه الله من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه: تبعيده، من قولك: سبحت في الأرض: إذا أبعدت فيها. ومنه قوله جل وعز: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٣)، وكذلك قوله: ﴿وَالسَّيِّدَاتِ سَبَّحًا﴾^(٤) هي النجوم تسبح في الفلك، أي: تذهب فيه بسطًا، كما يسبح السابح في الماء.

وكذلك السابح من الخيل، يمد يديه في الجري سبحًا، كما يسبح السابح في الماء. وجماع معناه: بعده -تبارك وتعالى- عن أن يكون له مثل أو شريك أو ضد، أو ندء^(٥).

قال الحافظ: «قوله: «وبحمده»، قيل: (الواو) للحال، والتقدير: أسبَّح الله متلبسًا بحمدي له من أجل توفيقه. وقيل: عاطفة، والتقدير: أسبَّح الله وأتلبس بحمده».

ويحتمل أن يكون الحمد مضافًا للفاعل، والمراد من الحمد لازمه، أو ما

(١) الكاشف (١٨٢١/٦).

(٢) شرح صحيح البخاري (١٣٣/١٠).

(٣) الأنبياء: الآية (٣٣).

(٤) النازعات: الآية (٣).

(٥) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٥٩٤-٥٩٥).

يوجب الحمد من التوفيق ونحوه . ويحتمل أن تكون (الباء) متعلقة بمحذوف متقدم، والتقدير: وأثني عليه بحمده، فيكون (سبحان الله) جملة مستقلة، و(بحمده) جملة أخرى^(١).

قال الكرمانى: «فإن قلت: ما الحمد؟ قلت: له تعريفان، والمختار أنه هو الثناء على الجميل الاختياري على وجه التعظيم»^(٢).

قوله: «سبحان الله العظيم»:

قال القسطلاني: «وختم بقوله: «سبحان الله العظيم» ليجمع بين مقامي الرجاء والخوف؛ إذ معنى (الرحمن) يرجع إلى الإنعام والإحسان، ومعنى (العظيم) يرجع إلى الخوف من هيئته تعالى، وقوله: (سبحان) إلى آخره، مبتدأ وما بينه وبين الخبر صفة له بعد صفة»^(٣).

قال الكرمانى: «وفيه نكتة أخرى، وهي أنه ذكر أولاً لفظ (الله) الذي هو اسم للذات الجامعة لجميع الصفات العليا والأسماء الحسنى، ثم وصفه بـ(العظيم) الذي هو شامل لسلب ما لا يليق به وإثبات ما يليق؛ إذ العظمة المطلقة الكاملة مستلزمة لعدم الشريك والتجسيم ونحوه، وللعلم بكل المعلومات، والقدرة بكل المقدورات، إلى غير ذلك، وإلا لم يكن عظيمًا مطلقًا، وأما تكرار التسبيح فلا إشعار بتنزيهه على الإطلاق، وبأن التسبيح ليس إلا ملتبسًا بالحمد؛ ليعلم أن الكمال له نفيًا وإثباتًا معًا جميعًا، أو لأن الاعتناء بشأن التنزيه أكثر من الاعتناء بالتحميد؛ لكثرة المخالفين فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٤)، ولهذا ورد في القرآن بعبارات مختلفة جاء بلفظ المصدر: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾^(٥)، وبالماضي: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾^(٦)، وبالمضارع: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾^(٧)، وبالأمر: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٨)،^(٩).

(٢) شرح الكرمانى (٢٥٠/٢٥).

(٤) يوسف: الآية (١٠٦).

(٦) الحديد: الآية (١).

(١) فتح الباري (١٣/٦٦١-٦٦٢).

(٣) إرشاد الساري (١٥/٦٣٤).

(٥) الإسراء: الآية (١).

(٧) الجمعة: الآية (١).

(٨) الأعلى: الآية (١).

(٩) شرح الكرمانى (٢٥٠/٢٥١-٢٥٠).

قال الحافظ: «وقال شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني في كلامه على مناسبة أبواب صحيح البخاري الذي نقلته عنه في أواخر المقدمة . . وفي الحديث الذي ذكره ترغيب وتخفيف، وحث على الذكر المذكور لمحبة الرحمن له، والخفة بالنسبة لما يتعلق بالعمل، والثقل بالنسبة لإظهار الثواب، وجاء ترتيب هذا الحديث على أسلوب عظيم، وهو أن حب الرب سابق، وذكر العبد وخفة الذكر على لسانه تال، ثم بين ما فيهما من الثواب العظيم النافع يوم القيامة، انتهى ملخصاً»^(١).

قال ابن بطال: «قال بعض الناس: هذه الفضائل التي جاءت عن النبي ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده، مائة مرة، غفر له . .»^(٢) وما شاكلها، إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال والطهارة من الجرائم العظام. ولا يظن أن من فعل هذا وأصر على ما شاء من شهواته، وانتهك دين الله وحرماته، أنه يلحق بالسابقين المطهرين، وينال منزلتهم في ذلك بحكاية أحرف ليس معها تقى ولا إخلاص ولا عمل، ما أظلمه لنفسه من يتأول دين الله على هواه»^(٣).

* * *

(١) فتح الباري (١٣/٦٦٢-٦٦٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣٠٢)، والبخاري (١١/٢٤٦/٦٤٠٥)، ومسلم (٤/٢٠٧١/٢٦٩١)، والترمذي (٥/٤٧٨/٣٤٦٦)، وابن ماجه (٢/١٢٥٣/٣٨١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٠٧/١٠٦٦٢) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/١٣٤).

فهرس الموضوعات

سورة الطور

- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة النبي ﷺ بالطور في المغرب ٥
- قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴿ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ٣ ﴾ وَالْبَيْتَ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴾ ٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة المبينة لمعنى كون القرآن كلام الله مكتوبًا في المصحف ومسطورًا فيه ١٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان موضع البيت المعمور وأنه بيت للعبادة في السماء السابعة ١٨
- قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ ﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٥ فَوَيْلٌ لِلْيَوْمِ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦ ﴾ ٢١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١
- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ ٧ ﴾ فَكَيْهِنَ بِمَاءٍ انْتَبَهَتْ رُءُوسُهُمْ ٨ وَوَقْنَهُمْ رُبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٨ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٩ مُشْكِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ١٠ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ١١ ﴾ ٢٥

- ٢٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَابْتَغَوْا ذُنُوبَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ يَأْتِيَنِ الْحَقَّ بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ
 ٢٩ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾
 ٢٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضل الله على الآباء ببركة
 ٣٤ دعاء الأبناء
 قوله تعالى : ﴿ وَأَمَدَدْتُهُمْ بِنُفُوحِهِمْ وَلَحَرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴾ يَشْرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا
 وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿ ٣٣ ﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زِلْفَانٌ لَهُمَا كَأَنَّهُمْ لَوُزٌّ مَكْنُونٌ ﴿ ٣٤ ﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى
 بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿ ٣٥ ﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿ ٣٦ ﴾ فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِ
 ٣٦ وَوَقَفْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿ ٣٧ ﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿ ٣٨ ﴾
 ٣٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ ﴿ ٣٩ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
 ٤١ نَزَّيْتُ بِهِ رَبِّ السَّمُونِ ﴿ ٤٠ ﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَصِينَ ﴿ ٤١ ﴾
 ٤١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ هَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴾ ﴿ ٤٢ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا
 ٤٤ يُؤْمِنُونَ ﴿ ٤٣ ﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿ ٤٤ ﴾
 ٤٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿ ٤٥ ﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 ٤٧ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ ٤٦ ﴾
 ٤٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في منقبة جبير بن مطعم رضي الله عنه
 ٤٨ قوله تعالى : ﴿ أَمْ عَنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضَيِّطُونَ ﴾ ﴿ ٤٧ ﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ
 ٥١ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِيمُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿ ٤٨ ﴾
 ٥١

- ٥١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٣ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٦٦﴾
- ٥٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٥ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّ تَسْلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مَُّتَقَلُونَ﴾ ﴿٦٥﴾
- ٥٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٨ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَمَنْ يَكْتُمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾
- ٥٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٩ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ﴿٦٦﴾
- ٥٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٦٠ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّ لَهُمُ اللَّهُ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٦﴾
- ٦٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٦٣ قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿٦٦﴾
- ٦٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٦٥ قوله تعالى: ﴿وَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾
- ٦٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٦٦ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾
- ٦٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٦٧ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٧﴾
- ٦٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٦٨ قوله تعالى: ﴿وَأَسْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٦٨﴾
- ٦٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٦٩ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على التسبيح
- ٧٥ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ ﴿٦٨﴾

- ٧٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي احتج بها من ذهب من
 ٧٥ المفسرين إلى أن المراد بالتسبيح في الآية الركعتان اللتان قبل صلاة الصبح

سورة النجم

- ٧٧ أغراض السورة
 قوله تعالى: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الزَّكْنَ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) مَا ضَلَّ
 ٧٨ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَبْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)
 ٧٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عصمة الله لرسوله ﷺ عن
 الزلل في القول والعمل
 ٨٥ قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ
 ٨٩ دَنَا فَبَدَّلَ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠)
 ٨٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٩٥ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة جبريل عليه السلام
 ٩٨ قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١١)
 ٩٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 فصل في بيان اختلاف الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم من أهل التأويل في
 ٩٩ المراد بالذي لم يكذب فؤاد النبي ﷺ رؤيته
 ١٠٢ قوله تعالى: ﴿أَفْتَضَرُّونَهُ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ﴾ (١٢)
 ١٠٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥)
 ١٠٤
 ١٠٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية

- ١٠٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا .
- ١١٥ قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَفْشَى السِّدْرَةُ مَا يَفْشَى ﴾
- ١١٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما أعطيه الرسول ﷺ عند سدره المنتهى
- ١١٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الوعيد الشديد والتهديد الأكيد
- ١٢٢ لقاطع السدر
- ١٢٤ قوله تعالى : ﴿ مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَعَى ﴾
- ١٢٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٢٧ قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾
- ١٢٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٢٨ قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلْتُمْ الْفَلَاحَةَ الْآخِرَى ﴾
- ١٢٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٣٣ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير اللات
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الزجر عن الحلف بالأوثان والتحذير من تعظيمها
- ١٣٤ قوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾
- ١٤١ قوله تعالى : ﴿ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾
- ١٤١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾
- ١٤٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٤٤ قوله تعالى : ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾
- ١٤٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية

- قوله تعالى : ﴿ وَكَرَّمْنَا مَلَكًا فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ١٤٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الشفاعة المنفية وصفة الشفاعة المثبتة ١٤٨
- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُورُونَ الْمُلابِكَةَ سَيِّئَةَ الْأَنْثَى ﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتْلِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ١٥٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من اتباع الظن ١٥٣
- قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ ١٥٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التعوذ من التعلق بالدنيا ١٥٩
- قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ ١٦٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٢
- قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ ١٦٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير ﴿ اللَّمَمَ ﴾ ١٦٨
- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ ١٧٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٢
- قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ١٧٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٣

- ١٧٥ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (٣٦) .
- ١٧٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن تزكية الإنسان نفسه
- ١٧٦ إلا لموجب وآداب تزكية غيره
- ١٧٦ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ (٣٦) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى﴾ (٣٧) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ
- يَرَى﴾ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ (٣٦) وَإِنْبَرِهِمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٣٧) أَلَا نَزَرُ وَزَرًا وَزَرَ
- أُخْرَى﴾ (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ (٤٠) ثُمَّ يُعْجَزُهُ الْجَزَاءُ
- الْأَوَّلُ﴾ (٤١) .
- ١٨١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٨١ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما ينتفع به ابن آدم من
- الأعمال بعد موته
- ١٨٧ فصل مهم في بيان حكم إهداء ثواب الأعمال إلى الأموات
- ١٨٧ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لَكَ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (٤٢) .
- ٢١٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢١٠ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي احتج بها من ذهب إلى أن
- المراد بالآية أن الله ﷻ هو منتهى الأفكار
- ٢١١ قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣) .
- ٢١٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢١٤ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن أفعال العباد خلق لله
- وكسب من العباد
- ٢١٥ قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ (٤٤) .
- ٢١٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢١٧ قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّجْوَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تَتَنَّى﴾ (٤٦) .

- ٢١٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٢٠ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ﴾ ﴿٤٧﴾
- ٢٢٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٢٢ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ ﴿٤٨﴾
- ٢٢٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٢٣ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ هُوَ رَبُّ السَّعَرَىٰ﴾ ﴿٤٩﴾
- ٢٢٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٢٤ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ ﴿٥٠﴾
- ٢٢٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٢٥ قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا فَقَا أَتَقَىٰ﴾ ﴿٥١﴾
- ٢٢٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٢٦ قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ﴾ ﴿٥١﴾
- ٢٢٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٢٨ قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَىٰ﴾ ﴿٥٢﴾
- ٢٢٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٣٠ قوله تعالى: ﴿فَفَشَّلَهَا مَا عَشَىٰ﴾ ﴿٥٣﴾
- ٢٣٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٣١ قوله تعالى: ﴿فَبَآئِيَ ءَالًا رَّيَكَ نَتَمَارَىٰ﴾ ﴿٥٤﴾
- ٢٣١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٣٢ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٥٥﴾
- ٢٣٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٣٣ قوله تعالى: ﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ﴾ ﴿٥٦﴾
- ٢٣٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية

- ٢٣٣ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قرب الساعة ودنو القيامة ..
- ٢٣٥ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾
- ٢٣٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْتَ هَذَا الْوَعْدَ نَعْبُودُ ﴿٥٩﴾ وَنَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَائِدُونَ ﴿٦١﴾ فَأَنْجِدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ۖ﴾
- ٢٣٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٣٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن سجود القرآن ليس
- ٢٣٧ منه شيء واجباً وأن القارئ بالخيار إن شاء سجد وإن شاء لم يسجد

سورة القمر

- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة رسول الله ﷺ بسورة
- (القمر) في الأضحى والفطر وغيرهما من المحافل الكبار ٢٤١
- قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ ٢٤٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٤٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على اقتراب الساعة وفراغ
- الدنيا وانقضائها ٢٤٤
- قوله تعالى: ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعَرِفٌ ﴿٢﴾﴾ ٢٥٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٥٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في انشقاق القمر ٢٥٣
- قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿١﴾﴾ ٢٥٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٥٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿١﴾﴾ ٢٦٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٦٠

- ٢٦٢ قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْتُّدُرُ ۝٥﴾
- ٢٦٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۝٦ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾
- ٢٦٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٦٣ قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ۝١٠﴾
- ٢٦٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٦٥ قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾
- ٢٦٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٦٨ قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ ۝١٣﴾
- ٢٦٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٦٩ قوله تعالى: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾
- ٢٧٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٧٠ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العين لله تعالى والرد على الجهمية وأفراحهم
- ٢٧١ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝١٥﴾
- ٢٧٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٧٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ بدال مهملة
- ٢٧٧ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١٦﴾
- ٢٧٨

- ٢٧٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٧٩ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿٧﴾
- ٢٧٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن العبد فاعل على الحقيقة واللّه خالق فعله
- ٢٨٠ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تسهيل حفظ القرآن وتيسيره على الأمة
- ٢٨٢ قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرٍ﴾ ﴿٨﴾
- ٢٨٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٨٧ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ ﴿٩﴾
- ٢٨٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٨٨ قوله تعالى: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَانْتَهُمْ أَعْجَازًا تَحْلِي مُنْقَعِرٍ﴾ ﴿١٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرٍ ﴿١١﴾
- ٢٩٠ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٢﴾
- ٢٩٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ ﴿١٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا ضَلَّلِ وَسُعِرِ ﴿١٤﴾
- ٢٩٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٩٢ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ ﴿١٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْآثِرُ ﴿١٦﴾
- ٢٩٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٩٣ قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا السَّاعَةِ فَمَنْ لَّهُمْ فَارَقَتَهُمْ وَأَصْطَبِرِ﴾ ﴿١٧﴾
- ٢٩٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٩٥ قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلَّ شَرِبٍ يُخَفِّرُ﴾ ﴿١٨﴾

- ٢٩٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٩٨ قوله تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَ﴾ (٢٩) ﴿
- ٢٩٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٣٠٠ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (٣٠) ﴿.....
- ٣٠٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٣٠١ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِ﴾ (٣١) ﴿.....
- ٣٠١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٣٠٢ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٣٢) ﴿
- ٣٠٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي﴾ (٣٣) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ
- ٣٠٣ ﴿سَحَرِ﴾ (٣٤) ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (٣٥) ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
- ٣٠٣ بِالَّذِي﴾ (٣٦) ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسَتْ أَعْْيُنُهُمْ فُذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (٣٧) ﴿
- ٣٠٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٣٠٦ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ (٣٨) ﴿
- ٣٠٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٣٠٧ قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (٣٩) ﴿
- ٣٠٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٣٠٨ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٤٠) ﴿.....
- ٣٠٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾ (٤١) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ
- ٣٠٩ مُقْتَدِرٍ﴾ (٤٢) ﴿
- ٣٠٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٣١٣ قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣) ﴿

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٣
- قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ٤٤ سُبْحَٰنَكَ لَعَنَ الْكَاذِبُ ٤٥﴾ ٣١٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحقيق ما وعد الله به رسوله في هذه الآية ٣١٥
- قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ ٤٦﴾ ٣٢١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢١
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة المبينة لتاريخ نزول الآية ٣٢١
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٤٧﴾ ٣٢٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٣
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ ٣٢٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن ممن يسحب في النار أيضًا من أهل التوحيد من لم يرد بعمله وجه الله تعالى ٣٢٤
- قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٤٩﴾ ٣٢٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القدر ٣٢٩
- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ٥٠﴾ ٣٤٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤٤
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ ٥١﴾ ٣٤٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤٥
- قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ٥٣﴾ ٣٤٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤٦

- ٣٤٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من محقرات الذنوب
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۖ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ۝٥٥﴾
 ٣٤٩ ﴿٥٥﴾
 ٣٤٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٣٥١ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ثواب أهل الجنة عند الله ﷻ

سورة الرحمن

- ٣٥٣ أغراض السورة
 ٣٥٤ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة سورة (الرحمن)
 قوله تعالى: ﴿الْقُرْآنُ ۖ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝١﴾
 ٣٥٧ ﴿١﴾
 ٣٥٧ أقوال المفسرين في تأويل الآيات
 ٣٦٣ قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾
 ٣٦٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٣٦٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الشمس والقمر
 ٣٧٥ قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝١١﴾
 ٣٧٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۖ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٧﴾
 ٣٧٧ ﴿٧﴾
 ٣٧٧ ﴿١١﴾
 أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْسَامِ ۝١٥﴾ فِيهَا فَتَكُمُهُ ۖ وَالتَّخَلُّ ذَاتُ الْأَكَْامِ
 ٣٧٩ ﴿١٥﴾
 ٣٧٩ ﴿١٧﴾
 ٣٧٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٣٨٤ قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رِيكًا مَّا تَكْذِبَانِ ۝١٣﴾

- ٣٨٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝۷﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ
 مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝۱۵ ﴿ ٣٨٦
 ٣٨٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أصل الإنس والجن ... ٣٨٨
 قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝۱۷﴾ ٣٩٠
 ٣٩٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿رَبُّ الشَّرْقَيْنِ وَرَبُّ الْغَرْبَيْنِ ۝۷﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝۱۷ ﴿ ٣٩١
 ٣٩١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝۱۸﴾ يَنْتَهَا بَرَزَخٌ لَا يَتَّعِيَانِ ۝۱۹ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ۝۲۰ ﴿ ٣٩٢
 ٣٩٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا الطُّلُوءُ وَالْمَرْجَاتُ ۝۲۱﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝۲۲ ﴿ ٣٩٧
 ٣٩٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْبُحَارُ الْأَشْجَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝۲۳﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 ۝۲۴ ﴿ ٣٩٩
 ٣٩٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝۲۵﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝۲۶ فَإِنِّي ءَالَاءُ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝۲۸ ﴿ ٤٠١
 ٤٠١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝۲۹﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ۝۳۰ ﴿ ٤٠٣
 ٤٠٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾

٤٠٤

قوله تعالى : ﴿ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴾ ﴿ فَأَيُّ الْآلَاءِ رَيْبُكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾ ..

٤٠٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية

٤٠٦

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المراد بالثقلين

٤٠٧

قوله تعالى : ﴿ يَمَعُشَرِ الْجَيْنِ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَآنْذِرُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ ﴿ فَأَيُّ الْآلَاءِ رَيْبُكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾

٤٠٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية

٤٠٨

قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴾ ﴿ فَأَيُّ الْآلَاءِ رَيْبُكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾

٤١١

أقوال المفسرين في تأويل الآية

٤١١

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ﴿ فَأَيُّ الْآلَاءِ رَيْبُكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾

٤١٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية

٤١٣

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْتَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ ﴿ فَأَيُّ الْآلَاءِ رَيْبُكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾

٤١٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية

٤١٥

قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالتَّوَصَّى وَالْأَفْئِدَامِ ﴾ ﴿ فَأَيُّ الْآلَاءِ رَيْبُكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾

٤١٧

أقوال المفسرين في تأويل الآية

٤١٧

قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكْذِبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴾ ﴿ فَأَيُّ الْآلَاءِ رَيْبُكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾

٤١٩

أقوال المفسرين في تأويل الآية

٤١٩

- ٤٢٠ قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٤٧﴾﴾
- ٤٢٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عاقبة منزلة الخوف من الله
- ٤٢٣ تعالى
قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٤٩﴾﴾
- ٤٢٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥١﴾﴾
- ٤٢٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۖ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥٣﴾﴾
- ٤٢٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥٥﴾﴾
- ٤٢٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ۖ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥٧﴾﴾
- ٤٢٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥٩﴾﴾
- ٤٢٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦١﴾﴾
- ٤٣٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦٣﴾﴾
- ٤٣٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦٥﴾﴾
- ٤٣٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦٧﴾﴾
- ٤٣٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦٩﴾﴾
- ٤٣٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٧١﴾﴾
- ٤٣٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٧٣﴾﴾
- ٤٣٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَرٌ ۖ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِي ۖ أَلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٧٥﴾﴾
- ٤٣٧ ﴿٧٦﴾
٤٣٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية

- ٤٣٨ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۖ ﴿٧٧﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبَّيْكُمْ ٱتَّكَذَّبَانِ ۖ ﴿٧٨﴾
 ٤٣٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٤٣٩ قوله تعالى: ﴿مُدَّهَامَتَانِ ۖ ﴿٧٩﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبَّيْكُمْ ٱتَّكَذَّبَانِ ۖ ﴿٨٠﴾
 ٤٣٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٤٤٠ قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ فَضَّاخَتَانِ ۖ ﴿٨١﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبَّيْكُمْ ٱتَّكَذَّبَانِ ۖ ﴿٨٢﴾
 ٤٤٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٤٤١ قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَنَكُهُنَّ وَنُحُلٌ وَّرِمَآءٌ ۖ ﴿٨٣﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبَّيْكُمْ ٱتَّكَذَّبَانِ ۖ ﴿٨٤﴾ ..
 ٤٤١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٤٤٣ قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ۖ ﴿٨٥﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبَّيْكُمْ ٱتَّكَذَّبَانِ ۖ ﴿٨٦﴾
 ٤٤٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿خُورٌ مَّقْصُورَةٌ فِي ٱلْخِيَآءِ ۖ ﴿٨٧﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبَّيْكُمْ ٱتَّكَذَّبَانِ ۖ ﴿٨٨﴾ لَمْ
 ٤٤٤ يَطْمِئِنَّ ٱلْأَنفُسُ بِقَبْلَتُهُمْ وَلَا جَانٌّ ۖ ﴿٨٩﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبَّيْكُمْ ٱتَّكَذَّبَانِ ۖ ﴿٩٠﴾
 ٤٤٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٤٤٤ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية
 قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حَسَنٍ ۖ ﴿٩١﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبَّيْكُمْ
 ٤٤٥ تَّكَذَّبَانِ ۖ ﴿٩٢﴾
 ٤٤٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٤٤٧ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير لفظ (العبري)
 ٤٤٨ قوله تعالى: ﴿بَنَزَلْنَا ٱلْأَنفُسَ ذِي ٱلْجَلَلِ ٱلْأَكْرَمِ ۖ ﴿٩٣﴾
 ٤٤٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ٤٤٨ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اسم الله الأعظم

سورة الواقعة

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة الرسول ﷺ بسورة

- (الواقعة) ٤٥٣
- قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۖ﴾ ٤٥٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٤
- قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ﴾ ٤٥٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٥
- قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ﴾ ٤٥٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٧
- قوله تعالى: ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ۖ﴾ ٤٥٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٨
- قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ فَأَصْحَبُ الِأَيْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الِأَيْمَنَةِ ۚ وَأَصْحَبُ الشِّمَالَةِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَالَةِ ۚ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الِأَعْرَافُونَ ۚ﴾ ٤٦١
- في جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٧﴾ ٤٦١
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٦١
- قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۚ﴾ ٤٦٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٦٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل السلف ٤٦٤
- قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۖ مَّتَّكِحِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ۚ﴾ ٤٦٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٦٩
- قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ ۚ﴾ ٤٧٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٧٠
- قوله تعالى: ﴿يَا كُوفٍ وَابْرِقُ ۖ وَأَيُّوبُ ۖ وَكَاسٍ مِّن مَّعِينٍ ۚ لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ ۚ﴾ ٤٧١

- ٤٧١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٧٣ قوله تعالى: ﴿وَفَكَهْمٌ مِّمَّا يَخِزُّونَ﴾ ﴿٧٥﴾
- ٤٧٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز أكل الطعام على صفة
- ٤٧٣ التخير
- ٤٧٥ قوله تعالى: ﴿وَلَحِيرٌ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَبُونَ﴾ ﴿٧٦﴾
- ٤٧٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٧٥ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة طير الجنة
- قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿٧٧﴾ كَأَمْثَلِ الذُّلُوفِ الْمَكْنُونِ ﴿٧٨﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾
- ٤٧٧
- ٤٧٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٧٨ قوله تعالى: ﴿لَا يَسْعَوْنَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ ﴿٨٠﴾ إِلَّا قِيَالًا سَلَامًا ﴿٨١﴾
- ٤٧٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٧٩ قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿٨٢﴾
- ٤٧٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٨٠ قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ ﴿٨٣﴾
- ٤٨٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٨١ قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ ﴿٨٤﴾
- ٤٨١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٨٢ قوله تعالى: ﴿وَزَيْلٍ مَّذُودٍ﴾ ﴿٨٥﴾
- ٤٨٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٨٢ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة
- ٤٨٣ قوله تعالى: ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ ﴿٨٦﴾

- ٤٨٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٨٤ قوله تعالى: ﴿وَفَنَكِهِنَّ كَثِيرًا ۖ لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ ۖ﴾ ﴿٣٧﴾
- ٤٨٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٨٤ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة فاكهة الجنة
- ٤٨٧ قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْوُوعَةٍ ۖ﴾ ﴿٣٨﴾
- ٤٨٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ۖ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿جَعَلْنَهُمْ أَجْنَارًا ۖ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿عُرْبًا أَتْرَابًا ۖ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿لَا ضَحَبَ
- ٤٨٨ أَلِيمِينَ ۖ﴾ ﴿٤٢﴾
- ٤٨٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٩٠ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أهل الجنة
- ٤٩١ قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۖ﴾ ﴿٤٤﴾
- ٤٩١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٩١ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أول زمرة تدخل الجنة
- ٤٩٤ قوله تعالى: ﴿وَأَحَبُّ الشَّمَالِ مَا أَحَبُّ الشَّمَالِ ۖ﴾ ﴿٤٥﴾
- ٤٩٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٩٥ قوله تعالى: ﴿فِي سَكُونٍ وَتَجْمِيرٍ ۖ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿وَوَيْلٌ مِّنَ يَحْمُورٍ ۖ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ۖ﴾ ﴿٤٨﴾
- ٤٩٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٩٧ قوله تعالى: ﴿إِنْتَهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۖ﴾ ﴿٤٩﴾
- ٤٩٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٩٩ قوله تعالى: ﴿وَكَاوُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَيْلِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ ﴿٥٠﴾
- ٤٩٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَكَاوُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۖ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿أَوْ مَا بَاؤُنَا
- ٥٠١ الْأَوَّلُونَ ۖ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۖ﴾ ﴿٥٤﴾

- ٥٠١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّآلُونَ الْمُكَذِبُونَ﴾ ٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُمٍ ٥٢ ﴿فَالْأَوَّلُ
 ٥٠٤ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ٥٣ ﴿
 ٥٠٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِّنَ الْحَمِيمِ﴾ ٥٤ فَشَرِبُوا شَرَبَ الْحَمِيمِ ٥٥ ﴿.....
 ٥٠٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿هَآذَآ نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الْاِذِينَ﴾ ٥٦ ﴿
 ٥٠٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ ٥٧ ﴿
 ٥٠٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ٥٨ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ٥٩ ﴿
 ٥٠٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَهُآ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ٦٠ عَلَى أَن يُبَدِّلَ أَمْرَكُمْ
 ٥١٠ وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٦١ ﴿
 ٥١٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْآةَ الْاُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٦٢ ﴿
 ٥١٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ٦٣ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الزَّآرِعُونَ﴾ ٦٤ ﴿
 ٥١٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الزرع والغرس وعمارة
 الأرض لنفع المسلمين والتأديب بآداب الرسول ﷺ في إطلاق الألفاظ .
 ٥١٧ قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ٦٥ إِنَّا لَمَعْرِضُونَ﴾ ٦٦ ﴿بَلْ نَحْنُ
 ٥٢٣ حَرُورُونَ﴾ ٦٧ ﴿

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٢٣
- قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ٥٢٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٢٥
- قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ٥٢٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٢٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة نار جهنم ٥٣٠
- قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ ٥٣٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣٣
- قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِدُ بَمَوْقِعِ الْجُبُورِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَقَسِرُّوا لَوْ يَعْلَمُونَ عَظِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ ٥٣٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستسقاء بالأنواء ٥٣٦
- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ ٥٤٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٤٤
- قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ٥٤٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٤٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مس المصحف ٥٤٩
- قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَالِكِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ٥٥٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٥٢
- قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْتِحُونَ ﴿٨١﴾ أَنْتُمْ تُدْهِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ٥٥٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٥٤

- ٥٥٥ قوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ ﴿٨٧﴾
- ٥٥٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾
- ٥٥٧ ﴿٨٧﴾
- ٥٥٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرِيقِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ ﴿٩٢﴾ فَزُلْ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾
- ٥٦١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الميت إما مستريح أو مستراح منه وما يعاينه عند حضور أجله
- ٥٦٣ قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٩٦﴾
- ٥٧٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٧٠ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل التسبيح